رف 404
الكتاب غير موجود...

بارنابي ردج

تشارلز ديكنز

الجزء الثاني

- المؤلف: تشارلز ديكنز
- العنوان: بارنابي ردج - حكاية أحداث شغب عام ثمانين - الجزء الثاني
- ترجمة: محمد سالم عبادة
- الطبعة: الأولى 2023
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠٢٢ / ١٧٢٥٧
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 354 - 1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

رف 404
الكتاب غير موجود...

تشارلز ديكنز

بارنابي ردج

حكاية أحداث شغب عام ثمانين

ترجمة

محمد سالم عبادة

الجزء الثاني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

ديكنز، تشارلز
بارنابي ردج - تشارلز ديكنز
ترجمة: محمد سالم عبادة
ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2023
512 ص، 21 سم.
رقم الإيداع 17257 / 2022
الترقيم الدولي 1 - 354 - 765 - 977 - 978
1 - روايات
2 - العنوان

هذه ترجمة كتاب:

Barnaby Rudge
By: Charles Dickens
All rights reserved.

جميع الحقوق محفوظة
© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved
© **Afaq** *Publishing House* 2023

الفصل الحادي والأربعون

من ورشة المفتاح الذهبي صدر صوتٌ رنَّان مفعم بالبهجة طيّب المزاج حتى لقد كان يشي بوجود شخص يعمل في فرح، وكانت موسيقاه تامة السرور. لم يكن في وسع إنسانٍ يواصل الطَّرق مؤدِّيًا واجبًا مملًّا رتيبًا أن ينطق الحديد والصلب بمثل هذه الأنغام المبهجة للحظة واحدة، إلا أن يكون رجلًا طيب القلب صافيًا ممراحًا، اعتاد أن يأخذ أفضل ما يمكن أن يجود به كلُّ شيء، وأن يكنَّ مشاعر طيبة لكلِّ إنسان. ولو أنه قد كان نحَّاسًا لكان موسيقيًّا كما هو موسيقيٌّ في الحدادة. ولو قدِّر له أن يجلس في عربة دائمة الترجرج ملأى بقضبان الحديد لبدا أنه قادرٌ على استخراج قدرٍ من التوافق النغمي منها كذلك.

تنك تنك تنك. واضحٌ كجرسٍ فضي، ومسموع مع كلِّ سكون يعرو ضوضاء الشوارع الأعلى منه، كما لو كان يقول: «لا أبالي، لا شيء يكئبني، أنا مصمِّمٌ على أن أكون سعيدًا» فلتوبِّخ النساء صغارهنَّ وليصرخ الصغار ولتمض العربات هادرة ولتخرج الصيحات الرهيبة من رئات البائعين الجوَّالين، فالصوت سينبعث مجددًا، لا أعلى من أول مرة ولا أخفض، لا أحدَّ ولا أغلظ، ولن يدفع نفسه على آذان الناس مقدار ذرَّة أكثر مما فعل أول مرة لمجرد أنَّ أصواتًا أخرى كانت أعلى منه فأخفته، تنك تنك تنك تنك تنك».

كان ذلك تجسيدًا تامًّا للصوت الهادئ الصغير، المبرَّأ من كلِّ بردٍ وخشونة وبحَّة وعلَّة من أي نوعٍ، وكان المارة يبطئون سيرهم، إذ كان يطيب لهم أن يبقوا قريبين منه، وكان الجيران الذين استيقظوا نكدين هذا الصباح يشعرون باعتدال المزاج يزحف إليهم وهم يسمعونه، فكانوا يخفُّون تدريجيًّا، وكانت الأمهات يرقِّصن رضَّعهنَّ لطنينه، وبعد، فما زال الطنين الساحر نفسه -تنك تنك- ينبعث في مرحٍ من ورشة المفتاح الذهبي.

من كان يستطيع أن يصنع هذه الموسيقى غير صانع الأقفال؟! كان شعاع الشمس يسطع عبر النافذة المفتوحة المصراع، لينقش الورشة المظلمة ببقعة ضوء عريضة، فوقع عليه بتمامه، كما لو كان مجذوبًا إلى قلبه المشمس. كان واقفًا يعمل على سندانه، ووجهه مشرقٌ بالجهد والسرور، وكمَّاه مشمَّران، وشعره المستعار مدفوع بعيدًا عن جبهته الساطعة، وهو أسعد رجال العالم كلِّه وأسهلهم طبعًا وأوفرهم حرية. إلى جواره جلست قطٌّ ناعمة الملمس تهرهر وتغمز في الضوء، وتسقط بين الفينة والفينة في إغفاءة كسول كما لو كان فرط الراحة ينيمها. أما (توبي) فكان ينظر من فوق رفٍّ عالٍ قريبٍ، بابتسامة مضيئة ممتدة من وجهه العريض البني إلى أبازيم حذائه المصنوعة على عجلٍ. حتى الأقفال المعلَّقة من حوله كان ثَمَّ شيءٌ مرحٌ في صدئها، فكانت تبدو كرجالٍ مصابين بالنقرس دافئي الطباع، يميلون إلى التنكيت على إعاقاتهم. لم يكن من شيء قاسٍ أو متجهِّم في المشهد كلِّه. وكان يبدو مستحيلًا أن أيًّا من المفاتيح التي لا حصر لها يمكن أن يناسب خزانة بخيلة أو بابَ سجنٍ. أقبية الجعة والنبيذ، غرف تزدان بالمدافئ والكتب والثرثرة والقهقهة المبهجة، هذه هي الدائرة

المناسبة لعمل تلك المفاتيح. أما أماكن الريبة والقسوة والقهر فكان حقًّا عليها أن تتركها مغلقة في إحكام إلى الأبد.

تنك تنك تنك، أخيرًا توقَّف صانع الأقفال ليمسح جبهته. أيقظ السكون القطَّ التي ما لبثت أن قفزت إلى الأرض وزحفت إلى الباب وأخذت تراقب بعيني نمرٍ قفصَ طيور في نافذة مقابلة. رفع غابرييل (توبي) إلى فمه آخذًا جرعة جريئة.

وبينما هو واقف منتصبًا ورأسه ملقىً إلى الخلف وصدره الضخم بارز إلى الأمام، لم يكن ليخفى على الناظر أن نصفه السفلي يتزيّا بزيٍّ عسكريٍّ. فإذا ما نظرنا إلى الجدار خلفه فلربما نرى قبعة مريشة وسيفًا عريض النصل ووشاحًا ومعطفًا قرمزيًّا، معلَّقة كلها على شماعات كثيرة، أشياء يشي صنعها ومظهرها لكل ضليع في هذه الأمور بأنها الزي الرسمي لرقيبٍ في فرقة متطوِّعي شرق لندن الملكيّة.

لمَّا وضع صانع الأقفال كوبه فارغًا على الرف الذي كان يبتسم له من فوقه آنفًا، رمق تلك الأشياء المعلَّقة بعين ضاحكة، وشرع ينظر إليها برأسٍ ممال جانبًا قليلًا كما لو كان يبغي أن يشملها بنظرة تكون جميعًا في بؤرتها، ثم قال مستندًا إلى مطرقته:

«أذكر الآن ذلك الوقت الذي كنتُ فيه أسعى مجنونًا تتملَّكني رغبة في أن أرتدي معطفًا بهذا اللون. ولو سمَّاني أحدهم -باستثناء أبي- آنذاك أحمق لما أتجشَّمه من مشاق، كنت أرغي وأزبد غضبًا! لكن يا لحماقتي وقتذاك بالتأكيد!».

تنهَّدت السيدة ڤاردن التي دخلت ولم ينتبه لها: «آه! حقًّا أحمق. رجل في مثل عمرك يا ڤاردن ينبغي له أن يميِّز أكثر الآن».

قال صانع الأقفال وهو يستدير إليها مبتسمًا: «لماذا؟ يا لك من امرأة مضحكة يا مارثا».

ردَّت السيدة بكثيرٍ من الاحتشام: «قطعًا، أنا كذلك بالطبع، أعرف ذلك يا ڤاردن، شكرًا».

شرع صانع الأقفال يقول: «أعني.».

قالت امرأته: «أجل، أعرف ما تعنيه، أنت تتكلَّم في وضوحٍ بما يكفي لأن تفهم يا ڤاردن. أنا واثقة أنه من طيبتك أنك تكيِّف نفسك على قدراتي المتواضعة».

قال صانع الأقفال: «لالا يا مارثا، لا تستائي من لا شيء. أعني أنه من الغريب أنك تنتقدين التطوُّع وهو يفعل ليدافع عنك وعن كلِّ النساء، وعن حمانا وحمى الجميع إذا ما دعت الحاجة».

صاحت السيدة ڤاردن هازَّة رأسها: «إنه شيء غير مسيحي».

قال صانع الأقفال: «غير مسيحي! لماذا؟ بحقّ الشيطان..».

نظرت السيدة ڤاردن إلى السقف كما لو كانت تتوقَّع أن تكون نتيجة هذا الفحش في القول أن يسقط على الفور الفراش ذو الأعمدة الأربعة بالطابق الثاني ومعه أفضل غرف الجلوس بالطابق الأول، لكن لمَّا لم تبد أي عقوبة للعيان تنفَّست الصعداء، وتوسَّلت إلى زوجها بلهجة ملؤها الاستسلام أن يواصل حديثه مجدِّدًا قدر ما يستطيع إذ إنه يعرف كم تحب ذلك.

بدا صانع الأقفال لوهلة نزَّاعًا إلى أن يرضي توسُّلها، لكنه ازدرد لعابه بقوة، وردَّ بلطفٍ:

«كنت سأقول، لأي شيء تسمِّينه غير مسيحي؟ أيُّهما سيكون غير مسيحيٍّ يا مارثا؟ أن نجلس في هدوء تاركين منازلنا يخرِّبها جيشٌ أجنبيٌّ أم أن نتصرَّف كالرجال ونطردهم؟ هل أكون مسيحيًّا جيدًا إذا ما زحفت إلى ركن مدفأتي واكتفيتُ بالفرجة بينما تختطف مجموعة من المتوحشين ذوي الشوارب (دلّي) أو تختطفك؟».

حين قال «أو تختطفك» ابتسمت السيدة ڤاردن رغم إرادتها، كان ثَمَّ شيء مطر في تلك الفكرة، قالت في تصنُّع:

«في حالة كتلك، فحقًّا.».

كرَّر صانع الأقفال: «كتلك! حسنًا، تلك ستكون الحالة مباشرة، وحتى (مـگز) ستختطف. سيحملها ويمضي عازف طنبور أسود يرتدي عمامة كبيرة، وما لم يكن عازف الطنبور هذا محصَّنًا ضد الركل والخمش فأعتقد أنه سينال أسوأ ما في الأمر. هاهاها! سأسامح عازف الطنبور. لن أسمح بأن تعترض طريقه بحال، ذلك المسكين».

وهنا قهقه صانع الأقفال ثانية من قلبه، حتى دمعت عيناه، ما أثار استياء السيدة ڤاردن تمامًا، حيث فكرت أن اختطاف زنجي وثني لشخصية پروتستانتية سليمة محترمة مثل مـگز سيكون شيئًا صادمًا رهيبًا إذا ما تأمَّله المرء.

كانت الصورة التي رسمها غابرييل تهدِّد حقًّا بعواقب وخيمة وكانت على وشك أن تقود إلى تلك العواقب لا محالة، لكن لحسن الحظِّ عبرت العتبة في تلك اللحظة خطوة رقيقة وهرعت (دلّي) إلى أبيها مطوقة عنق العجوز بذراعيها واحتضنته بقوة.

صاح غابرييل: «ها هي أخيرًا! تبدين رائعة يا (دلّ)، لقد تأخَّرتِ كثيرًا يا عزيزتي!».

تبدو رائعة؟ حسنًا؟! إنه لو كان قد استنفد كل وصف إطرائيٍّ في القاموس لما كان ذلك كافيًا. متى وأين وجدت في هذا العالم من قبل قطّ صغيرة لها ما لدلّي من قوام ملفوف وخبث عابث وحلاوة وعينين برَّاقتين وإغراء وسحر وجاذبية تدفع إلى الجنون؟! وما دلّي التي كانت منذ خمسة أعوام إلى دلّي اليوم؟! كم من صانع عربات وصانع سرج وصانع خزائن وأساتذة لغير هذه من الفنون النافعة تركوا جميعًا آباءهم وأمهاتهم وأخواتهم وإخوانهم وفوق كل ذلك بنات عمومتهم لأجل حبِّها؟! كم من سيد مجهول يفترض أن يكون ذا ثراء عظيم إن لم يكن ذا حسب رفيع انتظر في ركن الشارع تحت جنح الليل وحاول إغراء مـگز المستقيمة بجنيهات الذهب لتوصل عرض زواج مطويًّا في رسالة حبٍّ! كم أبًا مهمومًا وكم رجل تجارة مرموقًا خدم صانع الأقفال بعينيه للغرض نفسه، وحكى حكايات كئيبة عن ابنه الذي فقد شهيَّته وبدأ يعتاد أن يحبس نفسه في غرفة نوم مظلمة ويهيم على وجهه في أماكن مهجورة بوجه شاحبٍ، وكل ذلك بسبب حلاوة وقسوة (دلّي ڤاردن)! كم شابًّا كان معروفًا في ماضيه بالثبات غير المسبوق تحوَّل فجأة إلى إنسانٍ جامحٍ حرون للسبب نفسه، وفي غمرة الشعور بالحب من طرفٍ واحدٍ بدأ يعتاد خلع طرَّاقات الأبواب وقلب صناديق حراس الليل المرثوِّين[1]! كيف شغلت قوات الملك في البر والبحر بأن دفعت رعاياه المحبِّين الذين تتراوح أعمارهم

(١) المرثوّ هو المصاب بالرّثية أي الروماتزم. والرثية لغويًّا تعني وجع المفاصل أو الأطراف.

بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين إلى اليأس! كم شابة أعلنت على الملأ بعينين مغرورقتين بالدموع أن دلّي بالنسبة إلى ذائقتها شديدة القصر أو بالغة الطول أو مفرطة الجرأة أو باردة جدًّا أو بدينة تمامًا أو نحيلة حقًّا أو فاتحة البشرة إلى درجة غير مقبولة أو داكنتها إلى الدرجة نفسها، وباختصارٍ مفرطة في كل شيء إلَّا الجمال! كم من العجائز تحدَّثن فيما بينهنَّ عن امتنانهنَّ للسماء لأنَّ بناتهنَّ لم يكنَّ مثلها، وتمنَّيهنَّ ألا تصاب بمكروه، واعتقادهن ألا خير ينتظرها، وعجبهنَّ ممَّا قد يجذب الناس فيها، وعن وصولهن إلى استنتاج أنَّ مظهرها في طريقه إلى الذبول، أو أنه لم يكن أبدًا على أي قدرٍ من النضرة، وأنها لا تزيد في النهاية عن خدعة تامة وخطأ شائع!

ورغم ذلك فها هي دلّي ڤاردن نفسها، متقلِّبة وصعبة الإرضاء حتى إنها ما زالت دلّي التي نعرفها، مبتسمة ذات غمَّازتين ورواء، غير ملقية بالًا إلى الشبان الخمسين أو الستين الذين كانت قلوبهم في هذه اللحظة تنكسر ليظفروا بالزواج منها، كما لو كانوا مجرد محار أذلَّه الحب ثم انفتح!

عانقت دلّي أباها كما أسلفنا القول، وأمها كذلك، ثم رافقتها إلى القاعة الصغيرة حيث كان المفرش قد مُدَّ ليوضع طعام العشاء، وحيث استقبلتها الآنسة مـگز التي ازداد نحولها وبروز عظامها بعض الشيء عن ذي قبل، بشهقة محمومة كانت تنوي أن تخرجها ابتسامة. وضعت دلّي قبعتها وفستان مشيها في يدي تلك العذراء الشابة، وقد كان القبعة والفستان كلاهما من طراز فني مبتكر مهيب، ثم قالت بضحكة تعادل موسيقى صانع الأقفال:

«ما أسعدني دائمًا بالعودة إلى البيت مجدّدًا!».

قال أبوها وهو يزيح خصلة شعرها الفاحم بعيدًا عن عينيها البرَّاقتين: «وما أسعدنا نحن دائمًا بأن تكوني في البيت، أعطيني قبلة».

ولو كان قد تصادف وجود أحد من جنس الذكور ليراها تفعل ذلك الآن لكان جديرًا بالإشفاق، لكن لم يكن من أحدٍ. قال صانع الأقفال:

«لا أحب وجودك في منزل (وارن)؛ أنا لا أطيق أن تبتعدي عن ناظريَّ، وما الأخبار هناك يا دلّ؟».

ردَّت ابنته: «ما هناك من أخبارٍ أظنَّك تعرفه بالفعل، أعتقد أنك تعرفه حقًّا».

صاح صانع الأقفال: «حقًّا؟ وما ذلك؟».

قالت دلّي: «يا أبي، أنت تعرفه جيّدًا. أريدك أن تخبرني لماذا يغيب مستر هاردال –أوه، لقد أصبح فظًّا من جديد حقًّا!– عن بيته منذ أيام، ولماذا يسافر في الجوار –نحن نعلم أنه يسافر من خطاباته– من دون أن يخبر ابنة أخيه بسبب أسفاره أو وجهتها».

ردَّ صانع الأقفال: «أقسم أنَّ الآنسة (إمَّا) لا ترغب في معرفة ذلك».

قالت دلّي: «لا أعرف، لكنني أرغب على أي حال. أخبرني، لماذا هو غامض هكذا؟ وما حكاية قصة الأشباح تلك التي لن يخبر أحد الآنسة (إمّا) بها، والتي يبدو أنها ذات علاقة بغيابه المتكرر عن البيت؟ الآن أرى أنك تعرف من احمرار وجهك هكذا».

ردَّ صانع الأقفال: «ما تعنيه القصة أو ما هي أو ما علاقتها بذلك، هي أشياء لستُ بأعلم بها منك يا عزيزتي، إلَّا أنَّها خوف أحمق من جانب

سولومون الضئيل، ليس له معنى في ذاته كما أفترض. أمَّا بالنسبة إلى رحلة مستر هاردال، فأعتقد أنه يسافر.».

قالت دلّي: «نعم».

واصل صانع الأقفال وهو يقرص خدَّها: «كما أعتقد، لأجل العمل يا دلّ. أمَّا ما يمكن أن يكونه هذا فتلك مسألة أخرى. اقرئي (اللحية الزرقاء)[1] ولا تكوني فضولية هكذا يا دلّي، فهو شأنٌ لا يخصُّك ولا يخصُّني، ثقي بذلك. وها هو العشاء، وهو الشأن الذي يخصُّنا حقًّا».

كان لدلّي أن تحتجَّ على هذه الإشاحة الوجيزة عن الموضوع رغم ظهور العشاء، لكن السيدة ڤاردن تدخَّلت فور أن سمعت ذكر (اللحية الزرقاء)، محتجَّة بأنَّ ضميرها لا يسمح لها بأن تجلس هادئة وهي تسمع هذا الاقتراح على ابنتها أن تتصفَّح مغامرات تركي مسلم، فضلًا عن أن يكون مسلمًا خرافيًّا، فهكذا كانت تعتبر ذلك الطاغية. كانت تعتقد أن الأجدى نفعًا بكثيرٍ في مثل تلك الآونة المضطربة الشديدة التي يعيشونها أن تصبح دلّي مشتركة بانتظامٍ في جريدة (الراعدة) حيث سيتسنَّى لها أن تقرأ خطب لورد چورچ غوردن كلمة كلمة، ما سيكون سلوى وراحةً أكبر ممَّا يمكن أن تجده في مائة وخمسين (لحية زرقاء). وما لبثت أن أهابت بالآنسة مـگز لتدعم هذا الاقتراح، وقد كانت تلك الأخيرة تنتظر ذلك، فأنشأت تقول إنَّ السلام الروحي الذي وجدته في تصفُّح تلك الجريدة بعامة، ومن مقالٍ بعينه نشر الأسبوع الماضي بعنوان (بريطانيا العظمى

(١) Bluebeard حكاية شعبية فرنسية Barbe bleue، كتب شارل پيرو Charles Perrault أشهر نسخها الباقية لتنشر في پاريس سنة ١٦٩٧، وهي تحكي عن ثريّ اسمه ذو اللحية الزرقاء، اعتاد أن يقتل أزواجه تباعًا، ومحاولات إحداهن أن تفلت من مصير سابقاتها.

يغرقها الدم)، كان سلامًا لا يكاد يصدَّق، ثم أضافت أنَّ المقال نفسه قد أحدث أثرًا مريحًا للغاية في روح أخت لها متزوجة، تقيم في فناء الأسد الذهبي، البناية رقم سبعة وعشرين، الجرس الثاني على اليمين، حتى إن تلك الأخت المعتلَّة الصحة التي تنتظر إضافة وشيكة إلى أسرتها قد أصيبت بنوبات تشنُّج فور تصفُّح الجريدة، وأخذت تهذي بكلام عن محاكم التفتيش مذ ذاك، ما ثقَّف زوجها وأصدقاءها كثيرًا. ومضت الآنسة مـگز تقول إنها يطيب لها أن توصي كل من قست قلوبهم بأن يستمعوا إلى لورد چورچ بأنفسهم، ذلك الرجل الذي تثني عليه أولًا لـپروتستانتيَّته الثابتة ثم لخطابته ثم لعينيه ثم لأنفه ثم لساقيه وأخيرًا لهيئته إجمالًا، تلك الهيئة التي تنظر إليها بصفتها مناسبة لأيِّ تمثال أو أمير أو ملك، وأمَّنت السيدة ڤاردن على ذلك.

وإذ قاطعت السيدة ڤاردن الحديث فقد نظرت إلى صندوقٍ على رفِّ المدفأة منقوش بحيث يماثل منزلًا من الطوب الأحمر، له سقفٌ أصفر ومدخنة حقيقية في قمَّته، يضع فيها المتطوعون فضَّتهم أو ذهبهم أو بنساتهم لتسقط في ردهة المنزل، وعلى الباب صورة مزيفة للوحة نحاسية منقوش عليها بخطٍّ مقروءٍ (الرابطة الـپروتستانتية)، ثم قالت وهي تنظر إليه إنه لممَّا يسبِّب لها تعاسة مريرة أن ڤاردن لم يضع من ماله أبدًا أي شيء في هذا المعبد إلا مرة في السر كما اكتشفت لاحقًا، إذ وضع قطعتين من غليونه تمنَّت ألَّا تنطفئا إلى حسابه الأخير. وكان يؤسفها كذلك أن دلّي لم تكن بأقل إحجامًا عن الإسهام من أبيها، فقد كان يبدو أنها تفضِّل شراء أشرطة الزينة وما إليها من زخارف على دعم القضية العظيمة الواقعة في تلك الآونة في محن ثقيلة، وأنها قد توسَّلت إليها –فقد كانت تعتقد

لشدة أسفها أن والد دلّي لا أمل في تحريكه- ألا تزدري مثال الآنسة مـگز المشرِّف بل أن تقلِّده، إذ كانت تلك الأخيرة تقذف بمدخراتها كيفما اتفق في وجه البابا شخصيًّا، حتى لقد أصابت ملامحه برضوضٍ بفعل عملاتها.

قالت مـگز: «أوه سيدتي، لا تشيري إلى ذلك. لم يكن في نيَّتي أن يعلم أحدٌ به. تلك التضحيات التي في مقدوري أن أقدم عليها ليست بأكثر من فلوس أرملة». ثم صاحت والدموع تتحدَّر من عينيها، حيث لم تكن الدموع تأتي متدرجة معها أبدًا: «إنها كل ما أملك، لكني أعوَّض عنها بطرقٍ أخرى، أعوَّض عنها جيدًا».

كان هذا صادقًا تمامًا، لكن ربما ليس بما قصدته مـگز من معنى. فلما كانت لا تألو جهدًا في إطلاع السيدة ڤاردن على إنكارها لذاتها، فإن ذلك كان يجلب عليها هدايا كثيرة من أغطية الرأس والفساتين وغيرها من الملابس، حتى إن منزل الطوب الأحمر ربما كان على الجملة أفضل استثمار يمكنها أن تعثر عليه لرأس مالها الصغير، إذ كان يعود عليها بفائدة تصل إلى سبعة أو ثمانية بالمائة نقدًا، وخمسين بالمئة على الأقل صيتًا شخصيًّا وإطراء.

قالت السيدة ڤاردن وقد تسللت الدموع إلى عينيها هي الأخرى: «لستُ بحاجة إلى البكاء يا مـگز، لست بحاجة إلى أن تخجلي من ذلك، رغم أنَّ سيدتك المسكينة في صفِّك نفسه».

شرعت مـگز تعول على إثر هذه الملاحظة بطريقة غريبة في كآبتها، وقالت إنها تعرف أن سيدها يكرهها، وإنه شيء فظيع أن تعيش الواحدة في عائلة من دون أن تكون محبوبة، وألَّا تكون مرضية. وإنها لا تتحمَّل

أن تفكر في أن تقسِّم الأمور، ولا تسمح لها مشاعرها بأن تقدم على ذلك. وإنه لو كانت رغبة سيدها أن تفارقهم فالأفضل أن تفارقهم، وإنها تتمنى أن يسعده ذلك، فلطالما تمنَّت له الخير، وإذ ذاك فهي تتمنى أن يعثر على أخرى توافق ميوله. قالت إنها ستكون مشقَّة ما بعدها مشقَّة أن تفارق سيدة كهذه، لكنها كانت مستعدة لتقبُّل أي معاناة ما دام ضميرها أخبرها بأنها في جانب الصواب، ولذا فقد كان يطيب لها أن تمضي إلى مثل ذلك. أضافت أنها لا تعتقد أنه في مقدورها أن تتحمَّل انفصالها عنهم طويلًا، لكن ما دام أنها مكروهة وينظر إليها بصفتها لا تسر، فربما كلما اقترب موتها كان ذلك أفضل نهاية ممكنة لجميع الأطراف، وبهذا الختام المؤثِّر ذرفت المزيد من الدموع، وأخذت تنتحب من كلِّ قلبها.

قالت السيدة ڤاردن بصوتٍ رصينٍ واضعةً سكِّينها وشوكتها جانبًا: «أتقدر أن تتحمَّل هذا يا ڤاردن؟».

ردَّ صانع الأقفال: «ليس جيدًا تمامًا يا عزيزتي، لكني أحاول أن أكظم غيظي».

قالت مـگز منتحبة: «لا يكن هناك ما يقال بسببي يا سيدتي. الأفضل جدًّا أن نفترق. لن أبقى لأثير خلافات بينكما. أوه! يا لطف الرب! ولا مقابل منجم ذهب في العام».

ولئلَّا يحار القارئ في اكتشاف سبب انفعال الآنسة مـگز العميق، فإننا نهمس له بعيدًا عن مجرى الحوار السابق، بأنَّ الآنسة مـگز بينما تتنصَّت على حديث غابرييل وامرأته كما كانت تجري بذلك عادتها أحيانًا، سمعت نكتة صانع الأقفال عن الأجنبي الأسود لاعب الطنبور،

ولما كان صدرها ينفجر بمشاعر الغيظ التي أيقظتها فيه النّكتة، انفجرت هي الأخرى على النحو الذي شهدناه. أما وقد وصلت الأمور الآن إلى التأزُّم، فقد استسلم صانع الأقفال كالعادة لأجل السلام والهدوء، فقال:

«لماذا تبكين أيتها الفتاة؟ ما مشكلتك؟ لماذا تتحدثين عن الكراهية؟ أنا لا أكرهك ولا أكره أيَّ إنسان. بحق السماء جفِّفي دموعك وكوني لطيفة، ودعينا نكون جميعًا سعداء ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا».

هنا اعتبرت القوى المتحالفة أنه من حسن السياسة اعتبار ما قيل اعتذارًا كافيًا من جانب العدو واعترافًا بالخطأ، فما لبثت المرأتان أن جفَّفتا دموعهما وتقبَّلتاه بقبولٍ حسن. وقالت الآنسة مـگز إنها لا تكنُّ أي ضغينة، ولا حتى لأكبر أعدائها، بل كانت تحبه زيادة كلما تعاظمت معاناتها بسببه. وأثنت السيدة ڤاردن على هذه الروح المتسامحة الوديعة، ثم صرَّحت عرضًا، خاتمة هذا الاتفاق، بأنه يجب على دلّي أن ترافقها الليلة إلى فرع الرابطة في كلركنول. كان هذا مثالًا باذخًا على عظم ما تتحلَّى به من حكمة وسياسة، إذ كانت ترتقب هذا الهدف من البداية، وتؤرِّق سرَّها خشية أن يعترض صانع الأقفال على ذلك، وهو الذي كان يتجرَّأ متى تعلَّق الأمر بدلّي، فقد ساندت الآنسة مـگز إلى أن وصلت إلى هذه النقطة لتكون في موقف قوة أمامه في النهاية. وقد نجحت المناورة نجاحًا بالغًا حتى إن غابرييل لم يزد على أن عبس، ولم يجرؤ على أن يتفوَّه بكلمة والإنذار الذي تلقَّاه لتوِّه ماثل في ذهنه.

وهكذا انتهى الخلاف بأن أهدت السيدة ڤاردن الآنسة مـگز فستانًا، وأهدتها دلّي قطعةً بشلنين وستة بنسات كما لو كانت قد أظهرت جدارتها

في ميدان الأخلاق والطيبة. ثم أعربت السيدة ڤاردن عن أملها كما جرت العادة، في أن يأخذ زوجها درسًا مما حدث ويتعلَّم سلوكًا أكرم لما يستقبل من الزمان، وحيث كان العشاء قد برد ولم يفتح ما حدث شهية أحد، فقد أكملوه كما قالت السيدة ڤاردن «كمسيحيين».

وحيث كان مقرَّرًا أن يكون هناك استعراضٌ كبيرٌ لمتطوِّعي شرق لندن الملكيِّين ظهيرة اليوم، فإن صانع الأقفال اكتفى من العمل بما كان قد أنجزه، ثم جلس مستريحًا وغليونه في فمه، وذراعه تطوِّق خصر ابنته الجميلة، ينظر في محبة إلى السيدة ڤاردن بين الفينة والفينة، وهو يشعُّ من قمة رأسه حتى أخمص قدمه بابتسامة تنمُّ عن اعتدال مزاجه. والحق أنه حين حان الوقت ليرتدي بزَّته العسكرية وساعدته دلّي التي طفقت تطفر حوله بكلِّ ما في العالم من لطفٍ آسر في تزرير لباسه وربط أبازيمه وصقل هيئته وإدخاله في أحد أضيق المعاطف التي جاد بها يومًا خيَّاط من بني البشر، كان حينئذ أشد آباء إنگلترا فخرًا.

قال صانع الأقفال للسيدة ڤاردن التي وقفت تتفرَّج بيدين معقودتين وهي فخور بزوجها كذلك بينما أمسكت مـگز بقبَّعته وسيفه على مدِّ ذراعها كما لو كانت لا تأمن أن ينغمس ذلك الأخير في جسد أحدهم من تلقاء نفسه:

«يا لك من فتاة مساعدة! لكن لا تتزوجي أبدًا عسكريًّا يا عزيزتي دلّ».

لم تسأل دلّي لماذا ولم تفه بكلمة، وإنما خفضت رأسها تمامًا لتربط حزامه، فقال غابرييل الصادق:

«أنا لا أرتدي أبدًا هذا الزي، لكني أفكر في المسكين چو ولت، لقد

أحببت چو، ولطالما كنتُ أفضِّله. يا لـچو المسكين! عزيزتي لا تضيِّقي الربط عليَّ هكذا».

ضحكت دلّي ضحكة غريبة عليها، أغرب ضحكة صغيرة يمكن تصوُّرها، وخفضت رأسها زيادة. واصل صانع الأقفال مغمغمًا لنفسه:

«يا لـچو المسكين، أتمنى دائمًا لو كان قد أتاني، ربما كنت سأنجح في الصلح بينهما لو كان قد فعل. آه! لقد ارتكب چون العجوز خطأً عظيمًا بالطريقة التي دأب التصرُّف بها مع ذلك الفتى، خطأ عظيمًا. هل انتهيت من ربط ذلك الحزام يا عزيزتي؟».

يا له من حزامٍ رديء الصُّنع! ها هو ذا مفكوك ثانية وطرفه مجرور على الأرض. اضطرَّت دلّي إلى أن تجثو على ركبتيها وتبدأ من البداية.

قالت امرأته في عبوسٍ: «لا تلقِ بالًا إلى ولت الشاب يا ڤاردن، أظنُّك ستجد شخصًا آخر أجدر بالحديث عنه».

هنا وافقت الآنسة مـگز بشهقة عظيمة. صاح صانع الأقفال:

«لا يا مارثا، لا نكن قساة عليه إلى هذا الحدِّ. لو أنَّ الفتى مات بالفعل، فلنكن طيِّبين مع ذكراه».

قالت السيدة ڤاردن: «آبق ومتشرِّد!».

وافقت الآنسة مـگز كما فعلت آنفًا، وردَّ صانع الأقفال بلهجة طيبة:

«آبق يا عزيزتي لكنه ليس متشرِّدًا. لقد تصرَّف جيِّدًا. لقد كان چو دائمًا رجلًا حقًّا ووسيمًا، لا تقولي إنه متشرِّدٌ يا مارثا».

سعلت السيدة ڤاردن وكذلك الآنسة مـگز. قال صانع الأقفال مبتسمًا وهو يداعب ذقنه:

«أستطيع أن أخبرك يا مارثا بأنه قد حاول جادًّا أن يظفر بحسن ظنِّك. آه! لقد حاول ذلك! كأنَّ ذلك كان أمس، حين تبعني إلى باب (مايپول) ذات ليلة ورجاني ألَّا أخبر أحدًا كيف كانوا يعاملونه كصبيٍّ، وكان يعني ألَّا أخبر بذلك هنا في بيتنا، رغم أني أذكر أنني في وقتها لم أفهمه». ثم واصل صانع الأقفال وهو يتأمَّل في حزنٍ:

«قال لي ليلتها «وكيف حال الآنسة دلّي يا سيدي؟» آه! يا للمسكين!».

صاحت مـگز: «حسنًا، أنا أقول.. أوه! يا ألطاف الرب!».

قال غابرييل مستديرًا إليها في حدَّة: «ما الأمر الآن؟».

قالت الخادمة وهي تنحني لتنظر إلى وجه دلّي: «لماذا، لو لم تكن هنا الآنسة دلّي تذرف سيولًا من الدموع. أوه يا سيدتي، أوه يا سيدي!» ثم صاحت الفتاة الحسَّاسة وهي تضغط جنبها بيدها لتهدِّئ تسارع نبض قلبها:

«إنَّ هذا يخيفني حقًّا، حتى إنك تستطيع أن تصرعني الآن بريشة».

وبعد أن حدج صانع الأقفال الآنسة مـگز بنظرة ملؤها أمنية أن يناوله أحدهم ريشة على الفور، نظر أمامه محدِّقًا إلى الفراغ بينما تسرع دلّي خارجة وفي إثرها تلك الشابة المتعاطفة معها، ثم ما لبث أن استدار إلى زوجه قائلًا في تلعثمٍ:

«هل دلّي مريضة؟ هل فعلت أيَّ شيء؟ هل هو خطئي؟».

صاحت السيدة في لومٍ: «خطؤك! هيَّا، من الأفضل أن تهمَّ بالخروج».

قال غابرييل المسكين: «ماذا فعلتُ؟ لقد اتفقنا على ألَّا يُذكر أبدًا اسم مستر إدوارد، وأنا لم أتحدث عنه، هل تحدثت؟».

لم تزِد السيدة ڤاردن على أن ردَّت بأنَّ صبرها معه قد نفد، وأسرعت خارجة خلف الأخريين. لفَّ صانع الأقفال التعس حزامه حول خصره، ووضع سيفه في غمده واعتمر قبَّعته وخرج.

قال هامسًا لنفسه: «أنا لستُ بارعًا في ذلك الأمر، لكني سأتورَّط في مشكلات أقل في هذا العمل أقل من ذلك. لم يأتِ رجلٌ إلى هذا العالم بلا هدفٍ، ويبدو أن الهدف مني أن أجعل النساء كلهنَّ يبكين من دون أن أقصد، ما أقسى ذلك!».

لكنه كان قد نسي ذلك قبل أن يصل إلى نهاية الشارع، فمضى بوجه مشرقٍ، يومئ محيِّيًا جيرانه، وتهطل من حوله تحاياه الودودة كمطر الربيع اللطيف.

* * *

الفصل الثاني والأربعون

كان لمتطوعي شرق لندن الملكيِّين منظرٌ باهرٌ ذلك اليوم: انتظموا خطوطًا ومربعات ودوائر ومثلثات وغير ذلك على إيقاع الطبول وخفق الرايات، وأدُّوا عددًا كبيرًا من الحركات المعقَّدة التي كانت للرقيب ڤاردن مشاركة واضحة فيها جميعًا. وبعد أن أظهروا مهارتهم العسكرية كما يجب في هذه العروض الحربية، ساروا مسيرة عسكرية في ترتيبٍ متلألئ إلى بيت تشلسي للكعك[1] وأخذوا يستمتعون في الحانات المجاورة إلى أن حلَّ الظلام. ثم اجتمعوا في الشوارع مجددًا على قرع الطبول، وعادوا من حيث أتوا تحفُّهم صيحات رعايا جلالة الملك.

ولمَّا كانت مسيرة العودة بطيئة بدرجة ما -بسبب التصرفات غير العسكرية من بعض العرفاء الذين كانوا سادة يعيشون حياة خاصة كسولًا متبطِّلة كما كانوا يهتاجون خارج الجدران، فكسروا بعض النوافذ بحرابهم ولم يتركوا خيارًا أمام الضابط القائد إلَّا أن يسلِّمهم إلى حارسٍ قويٍّ تشاجروا معه على فترات متقطِّعة في طريقهم- فقد وصل صانع الأقفال

(١) بيت تشلسي للكعك Chelsea Bun House حانوت قديم في تشلسي بغرب لندن، اشتهر ببيع الكعك في القرن الثامن عشر، وكان يتمتع برعاية ملكيّة، لا سيَّما من الملكين چورج الثاني والثالث وعائلتهما.

إلى بيته في التاسعة. كانت عربة أجرة تنتظر قريبًا من بابه، فلما مرَّ بها إذا بمستر هاردال ينظر من نافذتها ويناديه باسمه.

قال صانع الأقفال وهو يقترب منه: «رؤيتك تشفي الأعين الرمداء يا سيدي، غير أني كنت أتمنى لو دخلت بدلًا من الانتظار هنا».

أجاب مستر هاردال: «لقد وجدتُ أنه لا أحد بالداخل، وإضافة إلى ذلك فقد أردتُ أن آتي خفية بقدر الإمكان».

غمغم صانع الأقفال وهو ينظر إلى منزله: «همم! لا شكَّ أنهم قد ذهبوا مع سايمن تاپرتت إلى ذلك (الفرع) الثمين».

دعاه مستر هاردال أن يدخل إلى العربة، وإن لم يكن متعبًا أو في عجلة من أمر عودته إلى المنزل أن يركب معه مسافة صغيرة ليستطيعا أن يتحادثا. وافق غابرييل في مرحٍ، واستقرَّ سائق العربة في مقصورته وسار بهما.

قال مستر هاردال بعد دقيقة صمتٍ: «ڤاردن، ستعجب لمعرفة المهمة التي أنا منشغلٌ بها، ستبدو لك غريبة جدًّا».

ردَّ صانع الأقفال: «لا أرتاب في أنها معقولة يا سيدي وذات مغزى، وإلَّا فهي ليست لك مطلقًا، هل عدت لتوِّك إلى المدينة يا سيدي؟».

«منذ نصف ساعة فحسب».

قال صانع الأقفال في ارتيابٍ: «لم تنم إليك أي أخبار عن بارنابي أو أمّه؟ آه! ليس عليك أن تهزَّ رأسك يا سيدي، لقد كان الأمر أشبه بمطاردة إوزَّة مسعورة، من البداية وأنا أخشى ذلك. لقد استنفدت كلَّ الوسائل المعقولة لاكتشاف مكانهما حين فرَّا، ولا أمل في البدء مجدَّدًا بعد مرور كل هذا الوقت يا سيدي، لا أمل البتَّة».

ردَّ في نفاد صبرٍ: «لماذا؟ أين هما؟ أين يمكن أن يكونا؟ فوق الأرض؟».

أجاب صانع الأقفال: «يعلم الرب. كثير ممن كنت أعرفهم فوق الأرض منذ خمسة أعوامٍ فرشهم الآن تحت العشب، والدنيا واسعة. إنها محاولة بلا جدوى يا سيدي، صدِّقني. يجب أن نترك كشف هذا اللغز كغيره من الألغاز للزمن والمصادفة ومشيئة السماء».

قال مستر هاردال: «ڤاردن، صديقي الطيب، إنَّ في قلقي الحالي بشأن العثور عليهما لمعنىً أبعد غورًا مما تستطيع أن تسبره. ليس الأمر مجرد نزوة وليس إحياءً عارضًا لأماني ورغباتي القديمة، بل هو غرض جادٌّ رصينٌ، تدور حوله أفكاري وأحلامي كلها، وتثبّته في عقلي. إنني لا أستريح في ليل أو نهار، لا أظفر بلحظة سلام، أنا مسكون بذلك».

كانت نبرة صوته مختلفة عمَّا اعتادت أن تكون، وكان أسلوبه ينطق بما يعتلج في صدره من عواطف، حتى إنَّ غابرييل في دهشته لم يملك إلَّا أن يجلس ناظرًا إليه في الظلام متخيِّلًا تعبير وجهه.

تابع مستر هاردال: «لا تطلب مني شرحًا، فإني لو أقدمت على ذلك لتصوَّرتني ضحية خيالٍ مريضٍ. يكفي الآن أن هذه هي الحال، وأنني لا أستطيع -حقًّا لا أستطيع- أن أرقد في فراشي هادئًا، دون أن أفعل ما سيبدو لي مستعصيًا على الإدراك».

قال صانع الأقفال بعد برهة صمتٍ: «منذ متى يا سيدي وأنت تعاني تحت وطأة هذا الشعور؟».

تردَّد مستر هاردال لحظاتٍ قبل أن يردَّ: «منذ ليلة العاصفة، باختصار منذ التاسع عشر من آذار الأخير».

وكما لو كان قد خشي أن يعبِّر ڤاردن عن دهشته أو يجادله، تابع في عجلة: «أعرف أنَّك ستظنُّ أنني أعاني تحت ثقل ضلالة ما. ربما، لكنها ليست فكرة مريضة، وإنما هي فعلٌ ذهنيٌّ صحيٌّ، مبنيٌّ على أحداث حقيقية. أنت تعرف بقايا الأثاث في منزل السيدة ردچ، وأنَّ المنزل قد أُغلق بأمري منذ رحلت، عدا مرة في الأسبوع حين يزوره جارٌ قديمٌ ليطرد الفئران، إنني في طريقي إلى هناك الآن».

سأله صانع الأقفال: «لم؟».

ردّ: «لأمضي الليلة هناك، ليست هذه الليلة فحسب وإنما ليالي عدَّة. هذا سرٌّ أأتمنك عليه حال حدوث أي طارئ غير متوقع. لن تأتي إليَّ إلَّا للضرورة القصوى، وسأكون هناك من الغسق إلى العصر. تعتقد (إمّا) وابنتك والباقون أنني خارج لندن، كما كنت بالفعل حتى هذه الساعة، لا تخبرهم بالحقيقة. هذه هي المهمَّة التي عليَّ إنجازها، أعرف أني أستطيع أن أسرَّ بها إليك، وأعتمد على ألَّا توجِّه إليَّ المزيدَ من الأسئلة الآن».

وما إن فرغ مما قاله حتى فعل كما لو كان يودُّ أن يغيِّر الموضوع، فعاد بصانع الأقفال الذاهل إلى ليلة قاطع الطريق الذي رآه الناس في مايپول، وإلى حادث سرقة إدوارد تشستر، وإلى عودة ذلك الرجل للظهور في منزل السيدة ردچ، وإلى كل الأحداث الغريبة التي وقعت بعد ذلك. بل إنه سأله في لا مبالاة عن قامة ذلك الرجل وعن وجهه وهيئته وعمَّا إذا كان يشبه أيَّ إنسان رآه من قبل، كـ(هيو) مثلًا، أو أي رجل عرفه في أيِّ وقتٍ، وطرح أسئلة كثيرة من هذا النوع، اعتبرها صانع الأقفال حيلًا يشغل بها انتباهه ليمنعه من إبداء دهشته، فما كان منه إلَّا أن أجاب عنها كيفما اتفق.

أخيرًا وصلا إلى ركن الشارع الذي يضم المنزل، حيث ترجَّل مستر هاردال وصرف العربة ثم قال وهو يستدير إلى صانع الأقفال بابتسامة كئيبة:

«إن أردت أن تصحبني إلى أن تطمئنَّ إلى وصولي إلى المنزل سالمًا، فلكَ ذلك».

فما كان من غابرييل الذي تضاءلت في عينيه الغرائب السابقة كلها أمام هذه إلَّا أن تبعه في صمتٍ على الرصيف الضيق. وحين وصلا إلى الباب فتحه مستر هاردال بلطفٍ بمفتاحٍ كان معه، وبعد أن دخل ڤاردن أغلقه خلفهما ليبقيا في ظلامٍ دامسٍ.

تلمَّسا طريقهما إلى غرفة الطابق الأرضي. وهنا أشعل مستر هاردال ثقابًا أضاء به شمعة كان قد أحضرها في جيبه لهذا الغرض. والآن وقد أضاءت الشمعة وجهه رأى صانع الأقفال لأول مرة كيف بدا شاحبًا متغيِّرًا متعبًا، نحيلًا ممصوصًا، وكيف توافقت هيئته كلها مع كل ما قال من غرائب وهما راكبان. وكان طبيعيًّا جدًّا من غابرييل بعد كل ما سمعه أن يلاحظ تعبير عينيه في فضولٍ. غير أنه كان تعبيرًا ينمُّ عن احتفاظه بعقله وتماسكه حتى إن غابرييل خجل من ريبته المؤقتة في أمره، فنظر إلى الأرض حين نظر مستر هاردال نحوه، كما لو كان يخشى أن تفضح عيناه أفكاره.

قال مستر هاردال وهو يلقي نظرة صوب النافذة التي كانت مصاريعها المجنونة مغلقة بإحكامٍ: «هلّا مشيت في المنزل؟ تكلَّم بصوتٍ خفيضٍ».

كان ثَمَّ رعبٌ يستوطن البيت، من شأنه أن يعسِّر الكلام بأي طريقة أخرى. غمغم له غابرييل «نعم» وتبعه إلى أعلى. كان كل شيء كما رأياه

آخر مرة. كان ثَمَّ إحساسٌ بالضيق من غيبة الهواء الطلق، وكآبة وثقل مخيمان، كما لو كان طول الحبس قد أحزن السكون ذاته. ستائر الفرش والنوافذ البسيطة بدأت ترتخي، وتكاثف التراب على ثنيَّاتها المضمحلَّة، وتسلَّلت الرطوبة إلى السقف والجدران والأرضية. ألواح الأرضية كانت تصرخ تحت خطاهم، كما لو كانت تعلن عن استيائها من هذا الاقتحام غير المعتاد، والعناكب النشيطة شلَّ حركتها ضوء الشمعة فأوقفت حركة أرجلها المائة على الحوائط، أو تساقطت كجمادات على الأرض، وخنافس الموت الدقَّاقة تابعت دقَّها، وأرجل الفئران المسرعة صلصلت وراء خشب الجدر.

وإذ نظرا إلى ما حولهما من أثاثٍ نخره السوس كان من العجيب أن يجداه يقدِّم صورةً أمينةً حيةً لمن كان ينتمي إليهم، ومن كان يألفهم ذات يومٍ. بدا كما لو كان (غرپ) يحطُّ مجدَّدًا على مقعده المرتفع الظهر، وبارنابي يربض في ركنه الأثير القديم إلى جوار المدفأة، والأم تعود إلى مقعدها المعتاد وترقبه كدأبها. حتى حين استطاعا أن يفصلا هذه الأشياء عن الأطياف التي أثارتها في عقليهما، انزلقت تلك الأطياف مختفية عن نظريهما لكنها ظلَّت تتلكَّأ قريبًا منهما، فقد بدا حينئذ أنها تحوم داخل الصناديق وخلف الأبواب، على أهبة الاستعداد للخروج إليهما بغتة وتحيَّتهما بنبراتٍ يذكرانها جيّدًا.

نزلا الدرج ودخلا الغرفة التي تركاها لتوِّهما. أخرج مستر هاردال سيفه من غمده ووضعه على المنضدة، ومعه زوجان من مسدسات الجيب، ثم أخبر صانع الأقفال بأنه سينير له الطريق إلى الباب.

قال غابرييل متلكِّئًا: «لكنه مكانٌ كئيبٌ يا سيدي، أليس لأحدٍ أن يشاركك سهرك؟».

هزَّ رأسه وأعرب في صراحة عن رغبته في أن يبقى بمفرده، فلم يبق لغابرييل ما يقوله. بعد لحظة كان غابرييل واقفًا في الشارع، ومن مكانه استطاع أن يرى أن ضوء الشمعة قد صعد الدرج ثانية، ثم عاد بعد قليل إلى الغرفة بالأسفل، وسطع خلال فرجات المصاريع.

ولو كان ثَمَّ إنسان قد عضَّته الحيرة والغموض فهو صانع الأقفال تلك الليلة. حتى حين جلس مرتاحًا قرب مدفأته، وأمامه السيدة ڤاردن في قلنسوة النوم ودثاره، وإلى جواره دلّي في ثوب نومٍ شفَّاف آسر، تجدل شعرها مبتسمة كما لو كانت لم تبك مرة في حياتها ولا ينبغي لها البكاء، حتى في تلك اللحظات، بينا (توبي) عند مرفقه وغليونه في فمه، ومـگز تسقط في النوم في الخلفية -وإن لم تكن هذه الملاحظة الأخيرة ذات بالٍ- لم يستطع أن يتخلَّص تمامًا من دهشته وارتباكه. هكذا ظل معه مستر هاردال في أحلامه، متعبًا مهمومًا، يستمع في البيت المهجور إلى كل صوت يراوده، بينما الشمعة تلقي بضوئها خلال فرجات المصاريع إلى أن يبديه شاحبًا انبلاج الصبح، لينهي نوبة حراسته المنفردة.

* * *

الفصل الثالث والأربعون

لم يأتِ الصباح التالي بما يريح بال صانع الأقفال، ولا اليوم الذي يليه، ولا ما بعده، ولا أيام كثيرة تالية. كان كثيرًا ما يدخل الشارع بعد حلول الليل ويدير بصره إلى المنزل المعروف جيدًا، وفي كل مرة يفعل ذلك يجد الضوء المنفرد ما زال يسطع من خلال فرج مصاريع النافذة، بينما السكون مطبقٌ بالداخل، بلا صوتٍ ولا حركة ولا فرحة، كما في القبر. وحيث كان يسوؤه أن يغامر بفقدان ثقة مستر هاردال فيه بعصيان أوامره الصارمة، فإنه لم يجرؤ أبدًا على طرق الباب أو إعلان وجوده بأي طريقة. لكنه متى ناداه اهتمامه الشديد وفضوله إلى هذه البقعة –وهو ما لم يكن يحدث نادرًا– كان يجد الضوء هناك دائمًا.

ولو قُدِّر له أن يعرف ما يدور بالداخل لما أفادته المعرفة فتيلًا في فهم سبب هذه الحراسة الغامضة. كان مستر هاردال يغلق المنزل على نفسه في الغسق، ويخرج مع انبلاج الصبح. لم يحدث أن فاتته ليلة، وكان دائمًا يأتي ويذهب منفردًا، ولم يغيِّر شيئًا من هذه التفاصيل أبدًا.

وهكذا كان أسلوب حراسته. كان يدخل المنزل في الغسق بنفس الطريقة التي دخل بها حين رافقه صانع الأقفال، فيشعل ضوءًا ويجوس خلال الغرف ليتفحَّصها في حرصٍ. وإذ ينتهي من ذلك يعود إلى القاعة في الطابق السفلي، ويضع سيفه ومسدسيه على المنضدة ليجلس إليها حتى الصباح.

كان عادة يحمل معه كتابًا وغالبًا يحاول أن يقرأ، لكنه لم يفلح أبدًا في أن يثبِّت عينيه وأفكاره على ما يطالع لخمس دقائق متصلة. كانت أقل جلبة خارج الأبواب تستحوذ على انتباهه، وخطوة عابرة على الرصيف كافية لجعل قلبه يقفز من مكانه.

ولم يكن بلا قوتٍ خلال الساعات الطويلة الوحيدة، فكان عامة يحمل في جيبه شطيرة خبز ولحم، وقنينة نبيذ صغيرة. كانت هذه الأخيرة مخفَّفةً بكميات كبيرة من الماء، فكان يجرعها بطريقة محمومة كما لو كان حلقه جافًّا، لكنه كان نادرًا ما يكسر صومه بما يزيد على كسرة خبز.

ولو كانت هذه التضحية الإرادية بالنوم والراحة نابعةً من أي توقُّع خرافي لتحقَّق حلم أو رؤيا متصلة بالحدث الذي طالما عكف على تأمُّله سنوات طويلة كما كان صانع الأقفال يميل إلى ذلك الظن كلما فكر في الأمر، ولو كان ينتظر زائرًا شبحيًّا يجوب الطرقات بينما الناس نيام في فرشهم، فإنه لم يظهر أثارة من خوفٍ أو تردُّدٍ. كانت ملامحه الصارمة تشفُّ عزمًا لا يلين، وحاجباه مقطَّبين معقودين، وشفتاه مضغوطتين في تصميمٍ عميقٍ لا يتزعزع، وحين كان يجفل لسماع جلبة وينصت، لم يكن هذا إجفال خوفٍ بل أملٍ، وما يلبث أن يمسك بسيفه كما لو كانت الساعة قد حانت أخيرًا، ويظل قابضًا عليه بقوة، متسمِّعًا بعينين تبرقان ونظرات مشتاقة إلى أن يخفت الصوت تمامًا.

وما أكثر ما أُحبِط على هذا النحو، فقد كان إحباطًا يتلو سماعه كل صوت، غير أن ثباته لم يهتز. هكذا ظل يعود إلى نوبة حراسته كل ليلة بالعبوس نفسه واليقظة نفسها، وظلَّت الليالي تمضي والنهارات تنبلج وهو مصمم على أن يرتقب من جديدٍ.

استمر أسابيع على هذا المنوال، وأخذ سكنًا في ڤكسهال[١] يمضي فيه النهار ويرتاح، ومن هذا المكان كان يأتي من وستمنستر إلى جسر لندن عبر الماء حين تكون حركة الموج مواتيةً، علَّه يتجنَّب الشوارع المزدحمة.

وذات ليلة قبل الغسق بقليلٍ سلك طريقه المعتادة على ضفة النهر، منتويًا أن يمرَّ بوستمنستر هال إلى پالاس يارد[٢]، ومنها يأخذ قاربًا إلى جسر لندن كما اعتاد. كان ثَمَّ تجمُّعٌ كبيرٌ من الناس حول بيتي البرلمان، ينظرون إلى الأعضاء في دخولهم وخروجهم، وينفثون أمارات الرضا أو السخط في جلبة، حسب آراء هؤلاء الأعضاء المشهورة. وبينا يشقّ طريقه وسط هذا الزحام، سمع مرة أو اثنتين صيحة «لا للبابوية» التي كانت آنذاك بسبيلها إلى أن تكون مألوفةً لآذان معظم الرجال، غير أنه لمَّا لم يقم لها وزنًا يذكر ولاحظ أن المتسكعين كانوا ينتمون إلى أدنى الطبقات لم يفكر في تلك الصيحة ولم يلق إليها بالًا، وإنما واصل طريقه في لا مبالاة تامة.

كان في وستمنستر هال الكثير من الدوائر والمجموعات الصغيرة من الناس، قلَّة منهم تنظر إلى أعلى حيث السقف النبيل وأشعة ضوء المساء المصطبغة بلون الشمس الغاربة التي كانت تتسلَّل مائلةً من خلال النوافذ الصغيرة، تلك التي كانت تشحب رويدًا رويدًا ليخمدها تمامًا الظلام المتكاثف بالأسفل. وكان بعضهم عابرين صاخبين، حرفيِّين عائدين من

---

(١) Vauxhall حيٌّ في جنوب لندن، مسمًّى باسم بيتٍ ريفي قروسطي باسم Fox hall، وقد ظلَّ منذ العصر الڤكتوري إلى منتصف القرن العشرين مزيجًا من المناطق الصناعية والسكنية.

(٢) Westminster Hall أقدم جزء من قصر وستمنستر، شيَّده الملك وليم الثاني (وليم روفوس) سنة ١٠٩٧م. أما Old Palace Yard فهو فضاءٌ مفتوحٌ مرصوفٌ في مدينة وستمنستر بلندن، يقع بين قصر وستمنستر إلى الشمال والشرق وكنيسة وستمنستر آبي إلى الغرب.

أعمالهم إلى منازلهم وغير ذلك ممن كانوا يحثُّون الخطى عبر الساحة موقظين الأصداء بأصواتهم، ليسوِّدوا بظلالهم بعد قليلٍ الباب الصغير البعيد حين يخرجون إلى الشارع. وبعضهم منشغلون بالحديث فيما بينهم في شؤون السياسة أو شؤونهم الخاصة، وهم يذرعون المكان جيئةً وذهابًا وأعينهم تبحث عن الأرض، وكان هؤلاء يبدون كما لو كانوا كلهم آذانًا متنصّتةً من قمة رأس كلٍّ منهم حتى أخمص قدمه. هنا كانت ثلَّة من الأطفال الشعث الغبر يتشاجرون فيما بينهم مالئين الجو بصخبهم، وهناك رجلٌ وحيدٌ نصف نسَّاخ ونصف متسوِّل يخطو ذهابًا وجيئةً وعلى سيماه وفي مشيته بؤس الجوع، وقريبًا من مرفقه مرَّ صبيٌّ رسول يطوِّح سلَّته بحركة دائرية ويمزِّق خشب السقف بصفيره الحادّ، بينما تلميذ مدرسة أكثر اكتراثًا قد عبر نصف مسافة الساحة ووضع كرته في الجيب المخصَّص لها وهو يراقب الشمَّاس القادم من بعيدٍ. كان هذا هو الوقت من المساء الذي إذا أغلقت عينيك ثم فتحتهما يبدو لك ظلام ساعة قد تجمَّع في ثانية. كان الرصيف الذي برته الخُطى وأغدقت عليه التّراب ما زال يهيب بالجدران العالية أن تردِّد وقع الخطى وضجيجها الذي لا ينتهي، إلا حين يتردَّد عبر البناء صدى إغلاق أحد الأبواب الثقيلة كهزيم الرعد، مغرقًا كلَّ ضجيج عداه في صوته الدوَّار.

كان مستر هاردال قد أوشك أن يقطع الساحة وهو لا ينظر من بين هذه المجموعات إلَّا إلى أقربها إليه، وعلى سيماه ما يشي بأنَّ أفكاره تحوم في مكانٍ آخر، وإذا بشخصين أمامه يثيران انتباهه. كان أحدهما سيدًا ذا لباسٍ مهندمٍ يحمل عصا في يده، يلفُّها في تبختر وهو يتسكَّع، بينما الآخر

خانعٌ منحنٍ متزلِّف يستمع إلى ما يقوله الأول وربما يلقي بين الفينة والفينة بكلمة ذليلة، كتفاه مرفوعتان إلى مستوى أذنيه، يفرك يديه في خضوعٍ أو يجيب على فتراتٍ بإيماءة من رأسه، هي مزيج من علامة الموافقة وانحناءة الاحترام المبالغ فيه.

لم يكن في مجرد وجود هذين الرفيقين ما يسترعي الانتباه، فإن خضوع الأذلَّاء لطقم ملابس أنيقة وعصا -إذا ما نحَّينا جانبًا عصيّ الذّهب والفضة وصولجانات السلطة- ليس إلا أمرًا شائعًا. غير أنَّ شيئًا في الرجل المهندم ورفيقه صدم مستر هاردال بشعورٍ غير مريحٍ. تردَّد وتوقَّف وكان على وشك أن يتنحَّى جانبًا ويخرج عن مساره، لكن في هذه اللحظة غيَّر الآخران اتجاههما سريعًا، وعثرا فيه قبل أن ينجح في تجنُّبهما.

رفع السيد ذو العصا قبَّعته وشرع يعتذر، فشرع مستر هاردال يومئ بنفس السرعة متقبِّلًا الاعتذار ليمضي بعيدًا، لولا توقَّف الآخر وصاح:

«هاردال! فليباركني الرب! ما أغرب هذا حقًّا!».

ردَّ بنفاد صبرٍ: «إنه. أجل.. آ..».

صاح الآخر مستبقيًا إيّاه: «صديقي العزيز، لم هذه العجلة؟ دقيقةً واحدةً يا هاردال لأجل خاطر المعرفة القديمة».

قال: «أنا في عجلة من أمري. لم يسعَ أحدنا إلى هذا اللقاء، فليكن قصيرًا، طابت ليلتك».

ردَّ سير چون (فقد كان هو): «تبًّا تبًّا! ما أجفاك! لقد كنَّا نتحدَّث بشأنك. كان اسمك على شفتيَّ، ربما سمعتني أذكره؟ لم تسمعني؟ أنا آسفٌ لذلك، أنا آسف حقًّا. أنت تعرف صديقنا هذا يا هاردال؟ يا له من لقاء لافت!».

كان هذا الصديق مرتبكًا تمامًا، فتجرَّأ وضغط ذراع سير چون وكان بسبيله إلى إعطائه إشاراتٍ أخرى إلى أنه يودُّ لو يجنِّبه تقديمه إلى هاردال. وإذ لم يوافق هذا غرض سير چون، فقد بدا غير واعٍ تمامًا بتلك الاعتراضات الصامتة، وأشار إليه بيده وهو يتحدَّث ليلفت الانتباه إليه. هكذا لم يبقَ للصديق إلا أن يستدعي ألطف ابتسامة في مقدوره أن يفتعلها وينحني في استرضاء حين أدار مستر هاردال عينيه إليه. فلمَّا رأى أن عرفه هاردال مدَّ إليه يده في ارتباكٍ أخرق، لم يخفِّف من خرقه أن رفض مصافحته هاردال في ازدراءٍ.

قال هاردال في برودٍ: «مستر غاشفورد، الأمر إذن كما سمعت، لقد نبذت الظلام لأجل النور يا سيدي، وكرهت من كنت تشاطرهم الرأي سالفًا، بكلِّ ما في وسع المرتدِّ من كراهية. إنك تشرِّف أيّ قضية تنتمي إليها يا سيدي، أتمنى للقضية التي تعتنقها حاليًّا الكثير من الفرح بالمكسب الذي حقَّقته بانضمامك إليها».

فرك صاحب السرِّ يديه وانحنى، كما لو كان يجرِّد غريمه من سلاحه بإذلال نفسه له. صاح سير چون تشستر ثانيةً بلهجة ملؤها المرح:

«والآن يا لها من مصادفة لافتة حقًّا!» وأخذ قليلًا من السّعوط برزانته المعهودة.

قال غاشفورد مسترقًا النظر قبل أن يخفض عينيه ثانيةً إذ قابلتا نظرة الآخر الثابتة: «أنا واثق أنَّ ضمير مستر هاردال اليقظ، وشرفه ورجولته تمنعه جميعًا من أن يلصق بتغيير شريف في الرأي أي دوافع رخيصة، حتى

لو كان هذا التغيير موحيًا بشكٍّ فيما يعتنقه هو نفسه من آراء. عدالة مستر هاردال البالغة وكرمه وصفاء رؤيته الأخلاقية تمنعه من..».

ردَّ هاردال بابتسامة ساخرة حين وجد صاحب السر قد توقَّف: «نعم يا سيدي؟ كنت تقول..».

هزَّ غاشفورد كتفيه في وداعة واستسلم للصمت وهو ينظر إلى الأرض مجدّدًا. وهنا تدخَّل سير چون:

«لا، لكن دعونا حقًّا.. دعونا نتدبَّر غرابة هذه المصادفة حقًّا. هاردال، سامحني يا صديقي العزيز إذا قلت إنك لم تتأثَّر بغرابتها بما يكفي. ها نحن واقفون في (وستمنستر هال)، من دون ميعادٍ أو ترتيبٍ سابقٍ، ثلاثة زملاء مدرسة قدامى، ثلاثة تلاميذ مقيمين في مدرسة بالغة الكآبة والغموض في (سات اومير)[1]، حيث رُبي كلاكما هناك لكونكما كاثوليكيين تتلقَّيان تعليمكما خارج إنگلترا بالضرورة، وحيث أُرسلت أنا لكوني شابًّا پروتستانتيًّا واعدًا آنذاك لتعلُّم اللسان الفرنسي من واحدٍ من أهل پاريس!».

قال مستر هاردال: «أضف إلى تلك الغرابة يا سير چون أنَّ بعضكم أيها البروتستانتيون الواعدون مجتمعون في ذلك المبنى في هذه اللحظة لتحولوا دون حصولنا على ذلك الامتياز العظيم الذي لم يُسمع بمثله من قبل، أن نعلِّم أطفالنا القراءة والكتابة هنا في هذه الأرض، حيث يدخل الآلاف منَّا خدمتكم كلَّ عام، هذه الأرض التي نموت بأعدادٍ وفيرة في معارك دموية خارج البلاد لنحافظ على حريتها، وأنَّ آخرين منكم بالآلاف

(١) Saint Omer بلدية وجزء من إقليم في مديرية پا د كالا Pas de Calais في شماليّ فرنسا. وهي مسمَّاة باسم القدّيس أودومار saint Audomar الذي أدخل المسيحية إلى هذه المنطقة، وتوفّي قريبًا من عام ٦٧٠ م.

كما قيل لي يضلِّلهم هذا الرجل (غاشفورد) ليروا كلَّ من ينتمون إلى طائفتي ذئابًا وحيوانات مفترسة. وأضف إلى ذلك أيضًا أن هذا الرجل يعيش بيننا ويجوب الشوارع في وضح النهار -وكنت على وشك أن أقول إنه يرفع رأسه كذلك، لكنه لا يفعل- وستكون المصادفة غريبةً، بالغة الغرابة، أتفق معك».

ردَّ سير چون بابتسامة فاتنة: «أوه! أنت تقسو على صديقنا، أنت تقسو عليه حقًّا!».

قال غاشفورد وهو يعبث بقفَّازيه: «دعه يمضي يا سير چون، دعه يمضي. أستطيع أن أتغاضى عمَّا قيل يا سير چون. يشرفني رأيك الطيِّب فيَّ وبمقدوري أن أستغني عن رأي السيد هاردال. مستر هاردال ممَّن يعانون من قوانين العقوبات، ولا يمكنني أن أتوقَّع أن ينظر إليَّ بعين الرضا».

ردَّ مستر هاردال وهو يحدج الطرف الثالث في حوارهم بنظرة حادة: «إنك تستحوذ على رضاي بالكوم يا سيدي، حتى إنه ليسعدني أن أراك في هذه الرفقة الصالحة. إنكما في نفسيكما تمثِّلان جوهر رابطتكم العظيمة».

قال سير چون بألطف ما في جعبته من أساليب: «الآن أنت تخطئ. هنا تقع في الغلط، وهو أمرٌ بالغ الغرابة بالنسبة إلى شخص في دقَّتك وانضباطك يا هاردال، أنا لا أنتمي إلى الرابطة، أحترم أعضاءها احترامًا بالغًا، لكني لا أنتمي إليها. هذا رغم كوني بالتأكيد ضد رفع العبء عن كواهلكم، أعتبره واجبي أن أكون كذلك، فهي ضرورة تعيسة للغاية، وتكلِّفني صراعًا مريرًا، هلَّا جرَّبت هذا الصندوق؟ إذا لم تكن تمانع في القليل من عطره الزكي فستجد له نكهةً ممتازة».

قال مستر هاردال رافضًا العرض بإشارة من يده: «أستميحك العذر سير چون لأني أدرجتك فيمن هم أداة متواضعة واضحة أمام أعين الجميع. كان عليَّ أن أحترم عبقريَّتك أكثر من هذا. من لهم قدراتك يدبِّرون ويخطِّطون في السرِّ، ويتركون الأماكن المكشوفة للعقول البليدة».

ردَّ سير چون بلطفٍ: «رجاءً لا تعتذر، بين الأصدقاء القدامى لا مجال لذلك، وإلَّا فالشيطان حاضر بينهم».

هنا استدار غاشفورد إلى سير چون بعد أن ظلَّ مضطربًا طيلة الوقت وإن لم يرفع عينيه مرة واحدة، وتجرَّأ فغمغم بشيء مفاده أن عليه أن يمضي لشأنه لئلَّا يتأخَّر على سيده اللورد الذي ربما يكون في انتظاره.

قال مستر هاردال: «لا تقلق نفسك أيها السيد الطيب، سأغادركما وأتركك على راحتك». وهو ما كان موشكًا على فعله دون رسميات، لولا لغط وطنين في نهاية الساحة أوقفاه، فلما نظر صوب اللغط رأى لورد چورچ غوردن آتيًا، وحوله زحامٌ.

كان ثَمَّ شبح نظرة انتصار على وجهي رفيقيه، وإن كان كلٌّ منهما قد رسمها بطريقة مختلفة عن صاحبه، ما جعل من الطبيعي ألَّا يتراجع مستر هاردال أمام هذا القائد وإنما يظلَّ واقفًا خلال مروره. شدَّ قامته وعقد كفَّيه خلف ظهره وأخذ يراقب تقدُّم لورد چورچ في بطء تحت ضغط الزحام العظيم من حوله صوب البقعة التي يقفون فيها، بملامح ملؤها الاعتداد بالنفس والازدراء.

كان لتوِّه قد غادر مجلس النواب، ونزل مباشرةً إلى الساحة، محضرًا معه كما اعتاد أخبار ما قيل تلك الليلة بشأن البابويين، والالتماسات التي

قُدِّمت لمصلحتهم، ومن وقف في صفِّهم، ومتى يفترض أن يعرض مشروع القانون، وما الوقت المناسب لتقديم العريضة الخاصة برابطتهم البـروتستانتية الكبرى. أخبر من حوله بكلِّ هذا في صوتٍ عالٍ ووفرة عظيمة من الإيماءات والإشارات الخرقاء. أخذ من كانوا الأقرب إليه يعلِّقون فيما بينهم على ما يقوله، وينفثون تهديداتهم وغمغماتهم، بينما صاح أولئك الخارجون عن الزحام: «صمتًا» أو «قفوا بعيدًا» أو تكأكؤوا بدورهم على من أمامهم، محاولين أن يتبادلوا الأماكن بالقوة مع من سبقوهم إلى غوردن، وهكذا تقدموا في طريقهم على غير نظام البتة، كما جرت بذلك عادة الجماهير.

وحين اقتربوا جدًّا من مكان صاحب السر وسير چون ومستر هاردال، استدار لورد چورچ وأبدى قليلًا من الملاحظات العنيفة غير المترابطة، مختومة بالعاطفة المعتادة، ثم طلب أن يؤمِّنوا على ما قال بثلاثة هتافات. وبينما يهتف الجمهور هذه الهتافات بحماسٍ بالغٍ خلَّص نفسه من الزحام وخطا إلى جوار غاشفورد. وإذ كان هو وسير چون معروفين تمامًا للجمهور، تراجع الناس إلى الوراء قليلًا، تاركين الأربعة يقفون معًا.

قال سير چون تشستر حين رأى أن السيد النبيل يرمقه بنظرة متسائلة: «مستر هاردال يا لورد چورچ، وهو للأسف سيد كاثوليكي، لسوء الحظ هو كاثوليكي، لكنَّه من معارفي المحترمين، وكان كذا من معارف مستر غاشفورد. عزيزي هاردال، هذا هو لورد چورچ غوردن».

قال مستر هاردال: «كان سهلًا أن أعرف ذلك مما أرى، حتى لو كنت جاهلًا بشخص جناب اللورد. أرجو ألَّا يكون في إنگلترا أكثر من سيدٍ

واحدٍ يخاطب جمهورًا من الجهَّال المتحمِّسين فيتكلَّم عن قطاعٍ كبيرٍ من مواطنيه بمثل تلك اللغة المؤذية التي سمعتها لتوِّي. يا للعار يا سيدي اللورد، يا للعار!».

ردَّ لورد چورچ بصوتٍ عالٍ وهو يلوِّح بيده بأسلوبٍ مضطربٍ مهتاجٍ: «لا أستطيع أن أتحدَّث إليك أيُّها السيد؛ ليس بيننا مشتركٌ».

قال مستر هاردال: «بيننا الكثير من المشتركات، الكثير، كل ما وهبنا الرب. وكان يجب أن يعلِّمك الخير المشترك، بغض النظر عن الحسِّ المشترك والتهذيب المشترك، أن تمتنع عن ذلك الذي تفعله. لو كان في يد كل من هؤلاء الرجال سلاح الآن، كما هو في رأسه، لما تركت هذا المكان قبل أن أخبرك بأنك تجلب العار على هيئتك الاجتماعية»

ردَّ بالأسلوب السابق نفسه: «أنا لا أسمعك أيها السيد، لا أستطيع سماعك، لا يهمُّني ما تقول. لا ترد يا غاشفورد» إذ كان صاحب السر قد أظهر رغبةً في أن يردَّ. تابع: «لا يمكنني أن أتناقش مع عبدة الأوثان».

وبينما يقول ذلك نظر إلى سير چون الذي رفع يديه وحاجبيه كما لو كان يستنكر سلوك مستر هاردال المتطرِّف، وابتسم معجبًا بالجمهور وقائده.

صاح هاردال: «هذا يرد! انظر سيدي اللورد، أتعرف هذا الرجل؟».

ردَّ لورد چورچ بأن وضع يده على كتف صاحب سرِّه المتذلِّل ونظر إليه بابتسامة ملؤها الثقة، فقال مستر هاردال وهو يمسحه بنظره من قمة رأسه إلى أخمص قدمه:

«هذا الرجل الذي كان لصًّا في صباه، وظل مذ ذاك إلى الآن وغدًا ذليلًا مزيفًا متصاغرًا، هذا الرجل الذي ظلَّ يتسلل ويزحف طيلة حياته، عاضًّا اليد التي تُمَد إليه، وجارحًا تلك التي يلعقها، هذا التابع الذي لم يعرف أبدًا معنى الشرف ولا الشجاعة ولا الصدق، الذي سرق عفَّة ابنة ولي نعمته، ثمَّ تزوَّجها ليكسر قلبها، بكل قسوة وعنف، هذا المخلوق الذي طالما تذلَّل أمام نوافذ المطابخ متسوِّلًا بقايا الطعام وأمام أبواب كنيستنا متسوِّلًا نصف بنس، رسول الإيمان هذا، الذي لا يستطيع ضميره المتساهل حمل مذابح الكنيسة حيث أدينت حياته الشريرة على الملأ، هل تعرف هذا الرجل؟».

صاح سير چون: «أوه! إنك حقًّا قاسٍ جدًّا جدًّا على صديقنا!».

قال غاشفورد الذي ندي وجهه الكريه في أثناء هذه الخطبة ببقعٍ من العرق: «ليمضِ مستر هاردال، أنا لا أعبأ به يا سير چون، لا أبالي بما يقول تمامًا كسيدي اللورد. إذا كان يسيء إلى سمعة سيدي اللورد كما سمعت، فكيف لي أن آمل أن أنجو منه؟».

واصل مستر هاردال: «ألا يكفي يا سيدي اللورد أنني رغم كوني سيدًا لا أقل عنك مضطرٌّ إلى أن أمتلك ما أمتلكه بتحايل تتغاضى عنه الدولة بحكم هذه القوانين الجائرة، وأننا لا يسمح لنا بأن نعلِّم شبابنا في المدارس مبادئ الصواب والخطأ المشتركة؟ هل يجب أن ينبذنا رجالٌ كهؤلاء ويتسلَّقوا ظهورنا؟! هاك رجلك ليقود صيحة لا للبابوية! يا للعار، يا للعار!».

كان السيد النبيل المفتون قد نظر إلى سير چون تشستر أكثر من مرة كما لو كان يسأله عمَّا إذا كان هناك شيء من الصدق فيما يقال عن

غاشفورد، وفي كل مرة كان سير چون يجيب نظرته بهزِّ كتفيه أو بنظرة، ثم ما لبث غوردن أن قال بصوته المرتفع نفسه وأسلوبه الغريب ذاته:

«أوه! لا لا! ليس لديَّ ما أردُّ به يا سيدي، وليست بي رغبة في سماع المزيد. أرجو ألَّا تمدَّ حديثك أو هجومك الشخصي هذا إليَّ. أؤكِّد لك أنني لن تمنعني هذه المحاولات من أن أقوم بواجبي تجاه وطني وبني وطني، سواء صدرت عن ممثِّلي البابا أو غيرهم، هيَّا يا غاشفورد!».

كانوا قد ساروا خطوات قليلةً وهم يتحدثون، وصاروا الآن على باب الساحة، فعبروه معًا. استدار مستر هاردال من دون استئذان إلى سلَّم النهر القريب، محيِّيًا النوتي الوحيد الباقي بالمكان.

غير أنَّ الجمهور الذي كانت طليعته قد سمعت كلَّ كلمة قالها لورد چورچ غوردن، والذي كانت الإشاعة قد انتشرت في صفوفه سريعًا أنَّ الغريب ما هو إلَّا بابوي يتحدَّاه لتبنِّيه قضية الشعب، أقبل هذا الجمهور من كلِّ صوبٍ في فوضى، دافعين أمامهم السيد النبيل وصاحب سرِّه وسير چون تشستر حتى بدا هؤلاء كما لو كانوا يقودون الجمهور، وازدحموا على قمَّة السلَّم حيث كان مستر هاردال ينتظر إلى أن يجهِّز القارب، وهناك وقفوا تاركين لذلك الأخير أضيق مساحة لوقوفه.

غير أنهم لم يكونوا صامتين وإن لم يكونوا نشطين. تصاعدت بينهم أولًا همهمات ملتبسة، تبعتها هسهسة أو اثنتان، انتفختا تدريجيًّا إلى أن صارتا عاصفة تامة. ثمَّ علا أحد الأصوات: «يسقط البابويون!» فتبعه هتافٌ عامٌّ، ولا شيء بعد ذلك. وبعد انقضاء بضع لحظات صاح أحدهم: «ارجموه»، وقال آخر: «أغرقوه في الماء» وصاح ثالثٌ بصوتٍ جهيرٍ:

«لا للبابوية!» فردَّد الباقون هذه الصيحة المفضَّلة، وما لبث الجمع الذي كان يصل إلى قرابة المائتين أن اشترك في صياحٍ جماعيٍّ.

ظلَّ مستر هاردال واقفًا في هدوءٍ على حافة السلَّم، حتى تظاهروا على هذا النحو، وإذ ذاك نظر حوله في ازدراءٍ ونزل الدرج ببطءٍ. كان قريبًا جدًّا من القارب حين استدار غاشفورد بغتة كما لو كان عن غير قصدٍ، وتبع ذلك على الفور أن ألقت يدٌ من الجمهور حجرًا عظيمًا أصاب رأس هاردال وجعله يترنَّح كالثَّمل.

تفجَّر الدم من الجرح وسال على معطفه، استدار على الفور وأسرع صاعدًا درجات السلَّم في جرأة وانفعالٍ جعلا الجميع يتراجع أمامه ثم سألهم: «من فعل ذلك؟ أروني الرجل الذي أصابني».

لم يتحرك منهم أحدٌ إلَّا بعض من كانوا في الخلفية فتسلَّلوا هاربين إلى الضفة الأخرى من الطريق وأخذوا يتفرَّجون كما لو كان الأمر لا يعنيهم.

كرَّر هاردال: «من فعلها؟ أروني الرجل الذي فعلها، أكان أنت أيُّها الكلب؟ لقد كانت فعلتك إن لم تكن يدك، أنا أعرفك».

وألقى بنفسه على غاشفورد وهو يقول هذه الكلمات، صارعًا إيَّاه. تصاعدت حركة مباغتة بين الجموع ووضع بعضهم أيديهم عليه، لكنه ما لبث أن امتشق سيفه فتراجعوا ثانية.

صاح قائلًا: «سيدي اللورد، سير چون، فليتقدَّم إليَّ أحدكما، أنتما مسؤولان عن هذا الهياج، وها أنذا أنظر إليكما، تقدَّما إن كنتما سيدين».

قالها وهو يضرب صدر سير چون بصفيحة سيفه، ووقف متحفِّزًا

بوجه متوقِّدٍ وعينين يتطاير منهما الشَّرر، وحيدًا أمامهم جميعًا.

ولوهلة، بل لأقلِّ وحدة زمنٍ يمكن للعقل أن يتصوَّرها، كان ثَمَّ تغيُّر في وجه سير چون الهادئ، لم يره إنسانٌ من قبل. وفي اللحظة التالية تقدَّم ووضع يده على ذراع مستر هاردال، بينما يحاول بالأخرى أن يسكت الجموع.

«صديقي العزيز، هاردال الطيب، لا تدع الانفعال يعميك، إنه أمرٌ طبيعيٌّ تمامًا، لكنَّك لا تعرف أصدقاءك من أعدائك».

ردَّ وهو يستشيط غضبًا: «أعرفهم جميعًا يا سيدي. أستطيع أن أميِّز جيدًا. سير چون، لورد چورچ، هل سمعتماني؟ تجبنان عن لقائي؟».

قال رجل اعترض بين الجانبين ودفعه ناحية السلَّم بعنفٍ وديٍّ: «لا تلقِ بالًا يا سيدي، لا تلقِ بالًا إلى ذلك. امضِ بعيدًا بحق الرب. ماذا تستطيع أن تفعل أمام كلِّ هؤلاء؟ ومثلهم بل أكثر منهم في الشارع المجاور، مستعدون للانضمام على الفور». والحق أنهم كانوا ينصبّون إلى الساحة بالفعل وهو يقول كلامه. تابع:

«ستصاب بالدوار من هذا الجرح مع احتدام الشجار. والآن انسحب يا سيدي أو ثق بما أقول، سيصيبك من الأذى فوق ما يمكن أن يصيبك لو كان كلُّ من في هذا الجمع نساءً وكلهنَّ ماري الدموية، هيا يا سيدي، أسرع قدر ما تستطيع».

كان مستر هاردال قد بدأ يشعر بالإنهاك والتعب، فشعر بعقلانية هذه النصيحة، ونزل السلَّم بمساعدة صديقه الذي لا يعرفه. أعانه چون غروبي (فقد كان هو) على ركوب القارب، ثم دفع القارب دفعة حركتها ثلاثين

قدمًا مع الموجة، وأمر النوتيَّ بأن يعمل مجدافيه كبريطانيٍّ، ثم صعد السلم ثانية في رصانة من نزل البرَّ لتوِّه.

كان الجمع يميل أوّلًا بعض الشيء إلى الامتعاض من هذا التدخُّل، غير أنَّ أفكار الجمهور بدأت تهدأ حين بدا لهم چون قويًّا هادئًا، يرتدي إضافة إلى ذلك زيَّ حَشَم لورد چورچ، فقنعوا بأن يمطروا القارب بوابل من القذائف الصغيرة التي دوَّمت في الماء من دون أن تلحق به أيَّ أذىً، فقد كان القارب حينذاك قد جاوز الجسر وأخذ يعوم بسرعة في منتصف صفحة الماء.

وما لبثوا أن خرجوا من هذه التسلية إلى طرق أبواب المنازل الخاصة طرقًا پروتستانتيًّا، وكسروا بعض المصابيح، وهاجموا بعض رجال الشرطة الجوَّالين، لكن حين تهامس الناس بأنَّ فرقةً من حراس الحياة قد استدعيت داروا على أعقابهم مسرعين، تاركين الشارع خاليًا تمامًا.

* * *

الفصل الرابع والأربعون

حين تفرَّق الجمع إلى مجموعات صغيرة كيفما اتفق ومضى كلٌّ منها في اتجاه، بقي في مسرح ذلك الاضطراب رجلٌ واحدٌ. كان هذا غاشفورد الذي أصيب برضوضٍ جرَّاء سقوطه، كما أصابه من الأذى ما يفوق ذلك جرَّاء بعثرة كرامته وفضحه كما سلف الذكر، فأخذ يعرج هنا وهناك وهو يكيل اللعنات ويتوعَّد بالانتقام.

لم يكن في طبع صاحب السر أن يستنفد حقده في الكلام، فبينما هو ينفث زبد شرِّه في الكلمات كان يرقب في ثباتٍ رجلين كانا قد اختفيا مع الجمع حين انتشر القلق ثم عادا، وهما الآن ظاهران في ضوء القمر على مقربة منه، يقطعان الساحة ذهابًا وجيئة ويتحدثان فيما بينهما.

لم يتحرك خطوة صوبهما، وإنما انتظر في صبرٍ في الجانب المظلم من الشارع إلى أن تعِبا من التجوال هنا وهناك وسارا مبتعدين معًا، إذ ذاك تبعهما ولكن على مسافة منهما، حريصًا على أن يظلَّا تحت عينه من دون أن يرياه أو يبدو عليه أنه يراقبهما.

سارا في شارع البرلمان ومرَّا بكنيسة سانت مارتن، ثم ابتعدا مرورًا بسانت غايلز إلى طريق فناء توتنهام، حيث كان مكان يُسمَّى (الدروب الخضراء) في خلفية الطريق على الجانب الغربي. كانت هذه بقعة منعزلة

غير مرغوبٍ فيها، تؤدي إلى الحقول. كانت أهم معالم المكان أكوامًا عظيمة من الرماد ومستنقعات راكدة ينمو فوقها العشب كثيفًا والطحالب، وأبوابًا دوَّارة مكسورة، فضلًا عن أعمدة تسييج مستقيمة أُخِذ ما بينها من أسوارٍ خشبية منذ وقتٍ طويلٍ ليكون حطبًا للمدافئ، وظلَّت في مكانها تهدِّد المشاة غير المنتبهين بمساميرها الصدئة الخشنة. وهنا وهناك كان ثَمَّ حمارٌ أو حصانٌ مهزولٌ مربوطٌ إلى وتدٍ، يقضم من وجبة تعسة من الحشائش القصيرة الغليظة، بما يوافق المشهد تمامًا، ويشي بمدى فقر من يعيشون في الأكواخ المجنونة المتاخمة للمكان (لو لم تكن هذه الأكواخ تنطق من نفسها بهذا الفقر)، كما يشي بمدى رعونة أن يسير المرء وحيدًا في هذه الطريق إن كان يحمل مالًا أو يرتدي ملابس مهندمة، إلَّا في ضوء النهار.

وللفقر نزواته وذائقته كما للغنى. كان من هذه الأكواخ ما له أبراج، وكان منها ما له نوافذ كاذبة منقوشة على جدرانه العطنة، وكان لأحدها ساعة تحاكي الحقيقية فوق برجٍ مجنونٍ يصل ارتفاعه إلى أربعة أقدام ويقف أمام المدخنة، وكان لكلٍّ منها في قطعة الأرض المنتمية إليه مقعدٌ بدائيٌّ أو سقيفة. كان سكان المكان يبيعون العظام والخرق والزجاج المكسور والعجلات القديمة والطيور والكلاب، وكانت هذه جميعًا تملأ البساتين بطرق تخزينها المتنوعة، وترسل في الجو رائحة ليست من أزكى الروائح، كما تملؤه بالصياح والنباح والصراخ.

تبع صاحب السرِّ الرجلين اللذين ظلَّ يراقبهما إلى هذا الوكر، وهنا رآهما يأويان في أمانٍ إلى أحد أحقر البيوت الذي لم يزِد على غرفة صغيرة الأبعاد. انتظر في الخارج إلى أن طمأنه اشتباك صوتيهما في أغنية ناشز إلى

انخراطهما في المرح، ثم اقترب من الباب عبر لوحٍ متأرجحٍ يعبر الأخدود الواقع أمام الكوخ، ودقَّ الباب بيده.

قال من فتح الباب وهو يتناول غليونه من فمه بادي الدهشة: «مستر غاشفورد! من كان يخطر بباله أن يكون لنا هذا الشرف هنا؟! ادخل يا سيد غاشفورد، ادخل يا سيدي!».

لم يحتج غاشفورد إلى دعوة ثانية فقد دخل بلطفٍ. كان في المدفأة الصدئة نارٌ، فرغم إبعاد الربيع في موسمه إلَّا أنَّ الليالي كانت باردة. وكان (هيو) جالسًا على مقعدٍ مرتفعٍ قرب المدفأة يدخِّن. وضع دنس كرسيَّه الوثير الوحيد لصاحب السر أمام الموقد وعاد ثانية إلى المقعد المرتفع الآخر الذي تركه حين نهض ليأذن للزائر بالدخول، ثم قال وهو يعيد غليونه إلى فمه وينظر إلى غاشفورد بطرف عينه:

«ماذا تحمل الريح الآن يا سيد غاشفورد؟ هل من أوامر من مقرِّ الرياسة؟ هل سنبدأ؟ ما الأمر يا سيد غاشفورد؟».

ردَّ صاحب السرِّ بإيماءة ودودٍ إلى هيو: «أوه، لا شيء لا شيء، غير أنَّا قد قطعنا حبل الصمت، كانت لنا اليوم دفقة صغيرة، إيه يا دنس؟».

تذمَّر الشَّانق: «صغيرة جدًّا، أقل بكثيرٍ ممَّا يليق بي!».

صاح هيو: «وأنا كذلك! أعطنا شيئًا نفعله تكون فيه حياة، تكون فيه حياة يا سيِّدي. هاها!».

قال صاحب السرِّ بأسوأ تعبيرٍ في وسع وجهه ارتداؤه وبألطف لهجة في مقدرته: «لم؟ ألن تقدموا على أيِّ شيء يكون فيه.. يكون فيه موت؟».

ردَّ هيو: «لا أعرف، أنا منفتحٌ على الأوامر. لا أبالي، لا أبالي أبدًا».

زعق دنس: «ولا أنا!».

قال صاحب السر بصوتٍ قريبٍ من صوت الكهنة، كما لو كان يحثُّهما على فعلٍ غير عاديٍّ من أفعال الشجاعة والكرم: «شجعان! بالمناسبة.» وهنا توقَّف ليدفئ يديه ثم نظر إلى أعلى بغتة: «من ألقى ذلك الحجر اليوم؟».

سعل مستر دنس وهزَّ رأسه كما لو كان يقول «يا له من لغزٍ!» بينما جلس هيو يدخِّن في صمتٍ، فقال صاحب السر وقد عاد يدفئ يديه مجدَّدًا: «حسنًا فعل! يسعدني أن أعرف ذلك الرجل».

قال دنس بعد أن نظر إلى وجهه ليستوثق من جديَّته: «أحقًّا؟ أتحب أن تعرف ذلك الرجل يا سيد غاشفورد؟».

ردَّ صاحب السرِّ: «أحب حقًّا».

قال الشَّانق بأكثر ضحكاته صحلًا وهو يشير بغليونه إلى هيو: «إذن أحبَّك الرب، ها هو جالس. هذا هو الرجل»، ثم أضاف هامسًا وهو يقرِّب مقعده منه ويلكزه بمرفقه: «إليَّ بأزمة الخيل يا مستر غاشفورد! يا له من شابٍّ طائش مثير للاهتمام. إنه يحتاج إلى من يمسك بخطامه ككلب ثورٍ أصيلٍ. لولا وجودي اليوم لصرع ذلك الروماني الكاثوليكي وانطلق محدثًا شغبًا في دقيقة».

صاح هيو بصوتٍ خشن حيث سمع هذه الملاحظة الأخيرة: ولِمَ لا؟ ما فائدة تأخير الأشياء؟ اطرق الحديد وهو ساخن، هذا ما أراه».

ردَّ دنس هازًّا رأسه بنوعٍ من الشفقة على شباب صديقه الغرِّ: «آه! لكن افترض أنَّ الحديد ليس ساخنًا يا أخي! عليك أن تثير الدم في عروق الناس

قبل أن تضرب يهيِّئ مزاجهم. دعني أقول لك إنَّه لم يحدث اليوم ما يكفي لاستفزازهم. إذا تبعت طريقتك فستفسد ما ننتظره من المرح وتجر علينا الخراب».

قال غاشفورد بنعومة: «دنس محقٌّ تمامًا، مصيبٌ فيما قال، إنه على دراية عظيمة بالدنيا».

ابتسم الشانق وهو يهمس بكلماته من خلف يده: «ينبغي لي أن أكون كذلك يا مستر غاشفورد، فكم من إنسان ساعدته على الخروج منها، أليس كذلك؟».

ضحك صاحب السر لهذه المداعبة كثيرًا كما يحلو لدنس، وحين فرغ التفت إلى هيو قائلًا:

«لقد كانت سياسة دنس هي سياستي، وربما تكون قد لاحظت ذلك. لقد رأيت مثلًا كيف سقطت حين هوجمت، لم أبدِ مقاومة، لم أفعل ما قد يثير اهتياجًا، أوه، لم أفعل!».

صاح دنس بضحكة صاخبة: «لا وحق اللورد هاري! لقد سقطت بهدوءٍ تامٍّ يا مستر غاشفورد، سقطت مسطَّحًا تمامًا كذلك! لقد خطر لي آنذاك «لقد انتهى مستر غاشفورد!» لم أرَ أبدًا إنسانًا يسقط مسطَّحًا أكثر من ذلك ولا أهدأ من ذلك وهو ما زال على قيد الحياة، إنه شخصٌ من الصعب العبث معه ذلك البابوي، تلك هي الحقيقة».

وإذ انفجر دنس مقهقهًا وأدار عينيه المتغضِّنتين إلى هيو الذي شاركه الضحك، كان وجه صاحب السر مناسبًا تمامًا كنموذجٍ لرسم صورة للشيطان. جلس صامتًا تمامًا حتى استعادا جديَّتهما، ثم قال وهو ينظر إلى ما حوله:

«نحن في سعادة هنا يا دنس، في سعادة تامة، حتى إنه لولا رغبة سيدي اللورد في أن أتناول العشاء معه اليوم ولولا أنَّ وقتَ ذلك قد اقترب جدًّا لطاب لي أن أبقى هنا إلى أن يصبح من غير المأمون أن يسير المرء إلى بيته. لقد أتيت لمهمة صغيرة، نعم، كما افترضت. وهو أمرٌ مرضٍ لك تمامًا. لو اضطررنا -ولا نستطيع أن نتنبَّأ، كما تعرف- فإنَّه عالم أبعد ما يكون عن الثقة..».

قاطعه الشانق بإيماءة رصينة: «أنا أصدِّقك يا سيد غاشفورد، تلك الشبهات التي رأيتها فيما يتعلَّق بحالتنا هذه، والظروف غير المتوقَّعة التي طرأت! أوه، يا عيني!» فلمَّا وجد الموضوع أكبر بكثيرٍ من أن يعبَّر عنه، اكتفى بأن ينفث دخان غليونه وأن يبدو على وجهه ما لم يستطع التعبير عنه.

ردَّ صاحب السر في بطءٍ مؤثِّر، وهو يتوقَّف بين الفينة والفينة ويضغط كفَّيه معًا بلطفٍ: «أقول إننا لا يمكن أن نتنبَّأ بما يمكن أن يحدث. ولو اضطررنا رغم إرادتنا إلى اللجوء إلى العنف، فإنَّ سيدي اللورد -الذي قد عانى اليوم للغاية، فوق طاقة الكلمات عن التعبير- يكلِّف كليكما -مع الأخذ بعين الاعتبار تزكيتي لكما بصفتكما رجلي صدقٍ ثابتين لا تتطرَّق الريبة إليهما- بالمهمة السارة المتمثِّلة في عقاب ذلك الـ(هاردال). لكما أن تفعلا به أو بما يملك ما يحلو لكما، شريطة ألَّا تأخذكما به رأفة ولا رحمة ولا تتركا عمودين من عمد منزله واقفين في المكان الذي وضعهما فيه البنَّاء. لكما أن تخرِّباه أو تحرقاه أو تفعلا به ما يتراءى لكما، لكن المهم أن ينهار ويسوَّى بالأرض، ويبقى هو ومن يخصُّه بلا مأوى، كرضَّع تركتهم أمهاتهم في العراء، أتفهمانني؟».

صاح هيو: «نفهمك يا سيدي! لِمَ السؤال؟ أنت تتكلَّم كلامًا واضحًا، إنه شيء يبعث الحماس!».

قال غاشفورد مصافحًا إيَّاه: «كنتُ أعرف أن هذا سيعجبك، ظننتُ ذلك، طابت ليلتكما! لا تقم يا دنس، أفضِّل أن أتلمَّس طريقي بنفسي، ربما أحتاج إلى القيام بزياراتٍ أخرى هنا، وممَّا يسرُّني أن أروح وأجيء من دون أن أزعجك. أستطيع أن أجد طريقي جيدًا تمامًا، طابت ليلتكما!».

هكذا مضى وأغلق الباب خلفه. نظر كلاهما إلى صاحبه وأومآ في استحسان، ثم أخذ دنس يذكي نار المِدفأة، ويقول:

«يبدو هذا كمهمة أكثر قليلًا ممَّا سبقه!».

صاح هيو: «نعم حقًّا، هذا يناسبني!».

قال الشانق: «لقد سمعتُ عن مستر غاشفورد أنَّه يتمتع بذاكرة مدهشة وثباتٍ رائعٍ، حتى إنه لا ينسى أبدًا ولا يسامح. هيَّا نشرب نخبه!».

انصاع هيو على الفور، ولم يسكب على الأرض شيئًا من الشراب حين شرب هذا النخب، وما لبثا أن أعلنا في نخبٍ آخر أنَّ صاحب السر رجلٌ من شيعتهما.

* * *

الفصل الخامس والأربعون

بينما تعمل هكذا في الظلام أسوأ أهواء أسوأ الرجال، وغطاء الدين يُتَّخذ ليستر أقبح النقائص، ويهدِّد بأن يكون الكفن لكلِّ ما هو خيِّر وودي في المجتمع، جدَّ ظرفٌ غيَّر وضع شخصين طال فراق هذا التأريخ لهما، وآن أوان العودة إليهما.

في مدينة صغيرة في الريف الإنـگـليزي يعيش أهلها من عمل أيديهم في تضفير وإعداد القشِّ لمن يصنعون منه القبَّعات وغيرها من قطع اللباس والزينة، كان بارنابي وأمُّه يسكنان، متخفيين تحت اسمين مستعارين. كانا يعيشان في فاقة مطمئنَّة لا ينتابها تغيُّر، ولا تعرف لذَّة العيش، ولا يشغلها إلَّا الجهاد المستمر والتعب المضني من أجل لقمة العيش. لم تطأ كوخهما المتواضع قدمٌ غريبٌ منذ احتميا بسقفه قبل خمسة أعوام، ولم يتواصلا بأي وسيلة طيلة هذه المدة مع عالمها القديم الذي خلَّفاه وراءهما هاربين. لم يشغل الأرملة إلَّا أن تعمل في سلامٍ وتنذر عملها وحياتها لابنها المسكين. ولو كان لنا أن نقول في أي وقتٍ إنَّ السعادة من نصيب إنسان يفترسه حزنٌ سريٌّ، فلنا أن نقول إنها سعيدة الآن. كانت السكينة والإصرار وحبُّها الجارف لذلك الذي يحتاج إلى ذلك الحبِّ أيَّما احتياج هي دائرة سعاداتها الهادئة الصغيرة، وما دامت لها هذه الدائرة فقد كانت راضية.

أمَّا بالنسبة إلى بارنابي نفسه فإنَّ الوقت الذي مرَّ به قد مرَّ كالريح، لم ترسل شموس الأيام المتعاقبة لأعوامٍ على ذهنه شعاعًا أذكى من أشعَّة العقل، ولم يشق فجر ليله الطويل المظلم. كان أحيانًا يجلس لأيامٍ متَّصلة على مقعدٍ منخفضٍ قرب المِدفأة أو باب الكوخ، منشغلًا بعمله (إذ كان قد تعلَّم الفنَّ الذي تعمل به أمه)، ومنصتًا -ليكن الله في عونه- إلى الحكايات التي كانت تكرِّرها لتغريه بالبقاء تحت عينها. لم يكن يتذكَّر تلك الحكايات الصغيرة، فكانت حكاية أمس جديدة بالنسبة إليه اليوم، لكنَّه كان يحبها لحظة سماعها، وحين كان مزاجه يواتيه كان يطيب له أن يبقى في الكوخ صابرًا، يستمع إلى قصصها كطفلٍ صغيرٍ، ويعمل في مرحٍ من مطلع الشمس إلى غبش الليل.

وفي أحيانٍ أخرى كان رزقهما الشحيح يكفي فيها بالكاد قوت يومهما، ويكون قوتًا من أغلظ ما يكون، كان يجول خارج البيت من الفجر إلى أن يخيِّم الظلام. لم يكن في هذا المكان إلَّا قلَّة ممَّن يستطيعون التواني عن العمل، حتى من الأطفال، ولم يكن له رفاقٌ من طرازه. والحق أنه حتى لو كانت هناك كتيبة من طراز بارنابي فإنَّ أقلَّ القليل منها يمكنه أن يجاريه في تجواله. غير أنَّ عددًا من الكلاب المشرَّدة المنتمية إلى الجيران كان يحلُّ بكفاءة محلَّ الآدميِّين في رفقته خلال جولاته. مع اثنين أو ثلاثة من هذه الكلاب، وأحيانًا مع نصف دستة تنبح في عقبه كان يرتحل في حملة طويلة تلتهم نهاره، ورغم أنَّ الكلاب كان تعود ليلًا إلى بيوتها وهي تعرج بأقدامٍ ملتهبة منهكةً تمامًا، كان بارنابي ينطلق مجدَّدًا مع مطلع الشمس مع رفاقٍ جددٍ من نفس الطائفة، يعود معهم ليلًا على نفس النَّهج. وفي كلِّ هذه الجولات كان (غرب) في سلَّته الصغيرة على ظهر سيده عضوًا دائمًا

في هذه الرفقة، وحين كانوا ينطلقون في طقسٍ لطيفٍ والحماس يحدوهم لم يكن ثَمَّ نباحٌ يعلو على نباح الغراب.

كانت المتع التي يتبلَّغون بها في هذه الحملات في غاية البساطة. كانت تكفيهم كسرة خبزٍ وقطعة لحمٍ، وبعض الماء من النَّبع أو الجدول. وكان يبهج بارنابي أن يمشي ويركض ويقفز إلى أن يتعب فيرقد في العشب الكثيف أو في حقول الغلَّة النامية، أو في ظلِّ شجرة باسقة، وهو ينظر إلى السحب الخفيفة الطافية على سطح السماء الأزرق، ويستمع إلى القبَّرة وهي تشدو بأغانيها العذاب. كانت هناك أزهارٌ بريَّة تنتظر القطاف، فهناك زهرة الخشخاش الحمراء المتألِّقة، والجريسة اللطيفة، وأذريون الماء والورد. كما كانت هناك طيورٌ تدعو من يراقبها، وأسماكٌ ونملٌ وديدان وأرانب أهليَّة وبريَّة تنطلق مسرعة عبر الممرِّ البعيد في الغابة إلى أن تغيب عن الأنظار. ملايين من الأحياء التي قد تشغل اهتمامه، وتدعوه إلى أن يربض في انتظارها، ثم يصفِّق ويصيح في تذكّرها حين تختفي عن ناظريه. وحين كانت هذه الكائنات تغيب أو تضجره كان هناك شعاع الشمس الممراح يدعوه إلى مطاردته وهو يتسلَّل مائلًا خلال أوراق الشجر وغصونه، ثمَّ يختبئ بالأسفل عميقًا عميقًا في الأماكن الجوفاء كبركة فضَّة، حيث تبدو الأغصان المائلة كما لو كانت تسبح فيه وتتريَّض، كما كانت هناك العطور الحلوة التي يعبق بها هواء الصيف إذ يتنفَّس فوق حقول الفول أو القرنفل، ورائحة الأوراق الرطبة أو الطحالب، وحياة الأشجار الملوحة بظلالها التي لا تكف عن التحوُّل. وحين كانت هذه أيضًا أو كان أيٌّ منها يملّه أو يدعوه لأن يغلق عينيه من فرط المتعة، كان هناك النوم وسط كلِّ هذه المتع اللطيفة، حيث

الريح المعتدلة تغمغم كالموسيقى في أذنيه، وكل ما يحيط به يذوب في حلمٍ واحدٍ لذيذٍ.

كان كوخهما -إذ لم يكن يزيد على كوخٍ- يقف على أطراف المدينة، تفصله مسافة قصيرة عن الطريق الرئيسة وإن كان في بقعة منعزلة لا يشرد إليها بالصدفة إلَّا قليلٌ من المسافرين في أي موسم. كانت ثَمَّ حديقة ملحقة به يهذِّبها بارنابي ويرعاها حين تنتابه نوبات العمل. أمَّا أمُّه فكانت تكافح لخيرهما المشترك، سواء داخل البيت أو خارجه، لا يغيِّر من عزمها بردٌ ولا مطرٌ ولا ثلجٌ ولا دفء.

ورغم ابتعاد مكانها كثيرًا عن ملاعب ماضيها ومشاهده، وقلَّة تفكيرها وضآلة أملها في أن تعود لزيارتها، فقد كانت تعتمل في صدرها رغبة غريبة في معرفة ما يحدث في العالم الموار، فكانت تتعلَّق في حرصٍ بكلِّ ما يصل إلى يدها من جرائد قديمة أو معلومات عن لندن. ولم تكن الإثارة التي تحدثها لديها هذه الأشياء من النوع الممتع، فقد كان أسلوبها في مثل هذه الأوقات ينطق بأوضح آيات القلق والخوف، لكنَّها إثارة لم تخب أبدًا، ولا بأقلِّ درجة.

كان تعبير وجهها القديم يعاودها في ليالي الشتاء العاصفة حين كانت الريح تهبُّ قوية عالية، وتتملَّكها رعدة كرعدة الحمَّى. ولم يكن يصل إلى بارنابي من ذلك إلا أقل القليل، إذ كانت تكبح مشاعرها بقوة وتستعيد أسلوبها المعتاد قبل أن ينتبه هو لِمَا قد اعتراها من تغيُّر.

ولم يكن (غرپ) بحال عضوًا متبطِّلًا أو عديم النَّفع من أعضاء هذه الأسرة المتواضعة. فبفضل تعليم بارنابي إيَّاه من جهة، وإيغاله في شكلٍ

من أشكال تعليم الذَّات تمتاز به قبيلته من جهة أخرى -إذ كان يمارس قوة الملاحظة إلى أقصى مداها- استطاع أن يحصِّل درجةً من الحصافة أذاعت شهرته لأميالٍ. كان موضوع هذه الشهرة دائمًا هو قدرته على الحديث والعروض المدهشة التي يؤدِّيها، وحيث كان كثيرون يجيئون لمشاهدة الغراب العجيب، ولم يكن منهم من لا يكافئ مجهوداته -حين كان يتنازل ويعرض أعاجيبه، وهو أمر لم يكن يحدث دائمًا، فالعبقرية متقلِّبة المزاج- فقد مثَّلت أرباحه ركنًا مهمًّا من دخل الأسرة. والحق أنَّ الطائر كان يبدو أنه يعرف قيمة نفسه جيِّدًا، فرغم أنه كان مطلق الحرية في حضور بارنابي وأمه، فإنَّه كان حريصًا على رصانة مظهره أمام الجمهور، ولم يكن يذعن إن طُلِبت منه أي عروضٍ مجَّانية بخلاف عضِّ أعقاب الأولاد المتشرِّدين (وهي ممارسة كانت تبهجه كثيرًا)، وقتل دجاجة أو اثنتين كلَّ حين، والتهام عشاء عددٍ من كلاب الجيران التي كان أجرؤها يهابه أيَّما مهابة.

مضى الزمن على هذا النحو، ولم يحدث ما يكدِّر أو يغيِّر طريقة حياتهم. وفي ليلة صيفية من حزيران كانوا في حديقتهم الصغيرة يرتاحون من عناء العمل طيلة النهار. كان عمل الأرملة ما زال موضوعًا على ركبتها، ومفروشًا على الأرض من حولها، وكان بارنابي واقفًا مستندًا إلى معزقته، محدِّقًا إلى ألق الغروب، يغنِّي لنفسه في خفوتٍ.

«ليلة رائعة يا أمَّاه! لو كانت ترنُّ في جيوبنا ولو قطع قليلة من ذلك الذهب المكوَّم هناك في السماء لبقينا أغنياء مدى الحياة».

ردَّت الأرملة بابتسامة هادئة: «نحن أفضل كما نحن، دعنا نرضى، ولا

نريد ولا نحتاج إلى أن نهتمَّ بامتلاكه، ولو كان ملقىً عند أقدامنا يبرق».

قال بارنابي وهو يتّكئ بذراعين معقودتين على معزقته وينظر إلى الغروب في حزنٍ: «هيه! ذلك جيِّد يا أمَّاه، لكنَّ امتلاك الذهب شيءٌ جيدٌ، أتمنى لو أعرف أين أجده، ثقي أنَّ (غرپ) وأنا يمكننا أن نفعل الكثير بالذهب».

سألته: «ماذا ستفعلان؟».

«ماذا! عالم من الأشياء، سنلبس جيّدًا، أعني أنت وأنا، لا (غرپ)، ونحتفظ بأحصنة وكلاب، ونرتدي ألوانًا برّاقةً وريشًا، ولا نعمل، ونعيش في رفاهية كما يحلو لنا. أوه، سنجد ما ننفقه فيه يا أمي، نفقات تعود علينا بالخير. أتمنى لو أعرف أين دفن الذهب، مستعدٌّ أن أكدَّ لاستخراجه!».

قالت أمه وهي تنهض من مقعدها وتضع يدها على كتفه: «أنت لا تعرف ما فعل الناس ليظفروا به، وكيف اكتشفوا بعد فوات الأوان أنه يكون أشدَّ ما يكون تألُّقًا على مبعدة، وحين يكون بين أيدينا يخبو بريقه ويخمد!».

أجاب وهو ما زال ينظر بشغفٍ إلى نفس الجهة: «آي آي، هكذا تقولين وهكذا تفكرين. ورغم كل ذلك فإنه يطيب لي أن أجرِّب».

قالت: «ألا ترى حمرته؟ لا شيء ملوَّث بالدم كالذهب، اجتنبه. ليس لأحدٍ سبب أقوى ممَّا لدينا لنكره اسمه. لا تدعه حتى يخطر ببالك يا حبيبي. ما أشد ما جلب على رأسك ورأسي من بؤس ومعاناة، فوق ما عرفه أيُّ إنسان، وليحمِ الرب الناس من أن يضطرُّوا إلى خوض مثل تلك المعاناة، إنني أفضِّل أن نموت ونُدفَن على أن تحبه يومًا ما».

نظر إليها بارنابي للحظة في دهشة. ثمَّ أخذ يقلِّب بصره بين حمرة الشَّفق والعلامة التي على رسغه كما لو كان يقارنهما، وبدا على وشك أن يسائلها في جديَّة، لولا استحوذ على انتباهه الطيَّار موضوعٌ جديدٌ أنساه تمامًا ما كان بصدده. كان هذا الموضوع رجلًا مغبَّر القدمين والثياب واقفًا حاسر الرأس خلف السياج الذي يفصل حديقتهما الصغيرة عن الممشى، مائلًا في وداعة إلى الأمام كما لو كان يسعى إلى الدخول في حوارهما، وينتظر دوره ليتكلَّم. كان وجهه مولًّى شطر الألق هو الآخر، غير أنَّ الضوء الساقط على وجهه أظهر أنه مكفوفٌ لا يرى ذلك الألق.

قال ابن السبيل: «بورك هذان الصوتان! حين أسمعهما أشعر أكثر بجمال الليل. إنهما لي كعينين. هلّا تحدَّثا مجدَّدًا ليسعدا قلب مسافر مسكين؟».

سألته الأرملة بعد صمتٍ برهة: «أما لك من دليلٍ؟».

أجاب مشيرًا بعصاه إلى الشمس: «لا شيء إلا هذه، وأحيانًا دليل ألطف منها في الليل، لكنَّها الآن عاطلة».

«أقطعت مسافة طويلة؟».

ردَّ المسافر وهو يهزُّ رأسه: «طريقًا طويلةً متعبة، طريقًا متعبةً متعبة، لقد اصطدمت عصاي لتوِّي بدلو بئرك. تفضَّلي عليَّ وأعطيني جرعة ماء يا سيدتي».

ردَّت: «لماذا تسمِّيني سيدة؟ أنا فقيرة مثلك».

ردَّ الرجل: «حديثك ليِّن لطيف، وأنا أحكم بناءً عليه. سيَّان بالنسبة إليَّ أغلظ الأقمشة وأنعم الحرير، بعيدًا عن ملمسهما، لا أستطيع أن أحكم بما ترتدينه».

قال بارنابي بعد أن عبر بوابة الحديقة ووقف قريبًا منه: «تعال من هذه الطريق، ضع يدك في يدي. أنت أعمى ودائمًا في الظلام، أليس كذلك؟ هل تخاف في الظلام؟ هل ترى الآن زحامًا عظيمًا من الوجوه؟ هل يضحكون ويثرثرون؟».

ردَّ الآخر: «وا أسفاه! لا أرى شيئًا، صاحيًا أو نائمًا، لا شيء».

نظر بارنابي في فضولٍ إلى عينيه، وبعد أن لمسهما بأصابعه كما يفعل طفلٌ متسائلٌ قاده صوب البيت.

قالت الأرملة وهي تقابله لدى الباب: «لقد قطعت مسافةً طويلة، كيف كنتَ تجد طريقك إلى الآن؟».

قال المكفوف وهو يجلس على المقعد الذي قاده إليه بارنابي ويضع قبَّعته وعصاه على الأرضية المبلَّطة بالأحمر:

«الحاجة والضرورة معلِّمان جيِّدان كما سمعت، أفضل معلِّمين. لا قدَّر لك ولا لولدك أبدًا أن تضطرَّا إلى التعلُّم عليهما، إنهما سيِّدان قاسيان».

قالت الأرملة بلهجة مشفقة: «لقد شردت عن الطريق كذلك».

ردَّ المكفوف متنهِّدًا وعلى وجهه رغم ذلك شبح ابتسامة: «ربَّما، ربَّما، هذا واردٌ. علامات الطريق خرساء بالنسبة إليَّ. شكرًا جزيلًا لك على هذه الراحة والشربة المنعشة!».

وبينما يتكلَّم رفع قدح الماء إلى فمه، كان صافيًا باردًا متلألئًا، لكنه لم يسغه رغم ذلك، أو أنَّ غلَّته لم تكن شديدةً، إذ إنه لم يزِد على أن بلَّل شفتيه ثمَّ وضعه جانبًا.

كان يرتدي شيئًا كالحقيبة الصغيرة أو الحافظة، متدلِّيًا من رقبته بحزامٍ، يحمل فيه قوته. وضعت الأرملة بعض الخبز والجبن أمامه لكنَّه شكرها وقال إنه قد أكل مرة منذ الصباح ممَّا تفضَّل عليه به بعض الأخيار، وإنه غير جائعٍ الآن. وحين أجابها بذلك فتح حافظته وأخرج منها قليلًا من البنسات، كان واضحًا أنه كلُّ ما فيها.

قال وهو يستدير صوب بارنابي الواقف ينظر إليه: «هل لي أن أتجرَّأ وأطلب من هذا الممتَّع بنعمة البصر أن يعطيني خبزًا بهذا المبلغ لأستطيع مواصلة طريقي؟ فلتبارك السماء قدمين شابَّتين تحرَّكتا لتعينا عاجزًا فاقد البصر!».

نظر بارنابي إلى أمِّه التي أومأت بالموافقة، فما عتّم أن مضى في مهمَّته الخيِّرة. جلس المكفوف يستمع بوجه منتبه، حتى مضى وقتٌ ووقع خطى بارنابي غير مسموع لأمِّه، ثم قال بغتةً بلهجة مختلفة تمامًا:

«هناك درجاتٌ عدة وأنواعٌ من العمى أيتها الأرملة، هناك العمى الزواجي يا سيدتي، ذلك الذي ربَّما تكونين قد لاحظته من واقع خبرتك الشخصية، وهو نوعٌ عنيدٌ من العمى يعصب المرء فيه عينيه بنفسه. وهناك العمى الحزبي وعمى رجال الدولة يا سيدتي، وهو عمى ثور هائج وسط كتيبة من الجنود المتزيّين بالأحمر. وهناك ثقة الشباب العمياء، وهو عمى صغار القطط التي لم تتفتَّح أعينها بعد على العالم، وهناك ذلك العمى المادي يا سيدتي، ذلك الذي أعدُّ مثالًا واضحًا له رغم أنفي. أضيفي إلى هذه الأنواع يا سيدتي عمى الإدراك، ولدينا منه عيِّنة في ابنك المثير للاهتمام، وحيث إنه عمىً تتلألأ فيه كلَّ حين بروق الضوء وانفجاراته،

فإنه لا يستقيم لنا أن نعتبره ظلامًا مطبقًا، لذا يا سيدتي سمحتُ لنفسي بأن أبعده مدة وجيزة ريثما نتناقش، وأعرف أنك ستسامحينني يا سيدتي لأن مردَّ هذا الاحتياط إلى رقة مشاعري تجاهك».

وبعد أن أفرغ هذا الحديث من صدره بكثيرٍ من الإشارات والإيماءات، أخرج من تحت معطفه قنِّينة حجرية مسطَّحة، ثمَّ أمسك بسدادتها بين أسنانه وغيَّر مذاق قدح الماء بصبَّة وافرة ممَّا في القنِّينة من شرابٍ. جرع القدح نخب صحتها والسيدات في تأدُّبٍ، ثم وضعه فارغًا وهو يمصمص شفتيه في التذاذ وافرٍ.

قال المكفوف وهو يعيد السدادة إلى قنِّينته: «إنني رجلٌ يفهم الدنيا يا سيدتي، وإذا بدوتُ لك متحرِّرًا فإنَّ هذا هو السبب. تتساءلين من أكون يا سيدتي وماذا أتى بي إلى هنا، ما خبرته من الطبيعة البشرية يقودني إلى هذا الاستنتاج من دون عون عينين أقرأ بهما حركات روحك كما تصفها ملامحك الأنثوية. وسأرضي فضولك على الفور يا سيدتي، على الفور».

وما كاد ينتهي من قوله حتى خبط قنِّينته على ظهرها العريض ووضعها تحت ردائه كما كانت، ثمَّ جلس متربِّعًا وعقد يديه متمكِّنًا من جلسته قبل أن يمضي أبعد في كلامه.

كان تغيُّر أسلوبه غير متوقع إطلاقًا، وحالته تزيد ما لمكر ولؤم طريقته من وقع -فقد اعتدنا أن نرى فيمن فقدوا حاسة بشرية شيئًا يكاد يكون ربَّانيًّا مكانها- وكان من شأن هذا التغيُّر أن يثير في صدر من يخاطبها مخاوف كثيرةً، حتى إنها لم تستطع أن تفوه بكلمة واحدة. وبعد أن انتظر

كما كان يبدو أي إجابة أو ملاحظة من جانبها، وقد انتظر من دون جدوى، واصل قوله:

«سيدتي، اسمي (ستاگ). أوكل إليَّ مهمَّة زيارتك صديقٌ لي كان يرغب في شرف لقائك في أي وقتٍ طيلة الأعوام الخمسة الماضية، وإنه يطيب لي أن أهمس باسم هذا السيد في أذنك. ويحك سيِّدتي، أأنتِ صمَّاء؟! هل سمعتني أقول إنه يطيب لي أن أهمس باسم صديقي في أذنك؟».

قالت الأرملة بصيحة مكتومة: «لستَ مضطرًّا إلى التكرار، إنني أرى بوضوحٍ مَن أرسلك».

قال المكفوف وهو يضرب صدره: «لكنني كرجلٍ ذي شرفٍ يا سيدتي، لا يجب أن يُشك في كفاءته، فإنني أستأذنك في أنني سأذكر اسم هذا السيِّد»، ثم أضاف وقد بدا أنَّ أذنه المرهفة قد التقطت محض حركة يدها: «هيه هيه! لكن بصوتٍ خفيضٍ. بعد إذنك سيدتي، أرجو أن تسمحي لي بهمسة».

تحرَّكت نحوه وانحنت إلى جواره. غمغم بكلمة في أذنها، فطفقت تذرع الغرفة ذهابًا وجيئةً وهي تعتصر يديها كالذاهلة. أخرج المكفوف قنِّينته ثانيةً برباطة جأش تامَّة، ومزج كأسًا أخرى، ثمَّ جرعها كما فعل آنفًا، وأخذ يتابعها بوجهه في صمتٍ وهو يشرب بين الفينة والفينة، ثمَّ قال بعد وقتٍ، قاطعًا جرعته:

«إنَّك بطيئة الحديث أيتها الأرملة، سنضطرُّ إلى الحديث أمام ابنك».

أجابت: «ماذا تريدني أن أفعل؟ ماذا تريد؟».

ردَّ مادًّا يمناه وهو يحكُّ إبهامه في راحته: «إننا فقراء أيتها الأرملة، فقراء».

صاحت: «فقراء! وماذا عني؟».

قال المكفوف: «المقارنات شيء مؤذٍ، لا أعرف. لست مهتمًّا. أنا أقول إننا فقراء، ظروف صديقي محايدة وكذلك ظروفي، علينا أن نحصل على حقوقنا أيتها الأرملة أو ندع ذممنا تُشترى، لكنك تعرفين ذلك كما أعرفه، فما الداعي إلى الكلام؟».

ما زالت تذرع الغرفة جيئةً وذهابًا في إثارة، وأخيرًا توقَّفت بغتةً أمامه وقالت: «هل هو قريبٌ من هنا؟».

«هو كذلك، على مرمى حجر».

«إذن فقد ضعت!».

قال المكفوف في هدوءٍ: «لم تضيعي أيتها الأرملة وإنما عثر عليك، هل أناديه؟».

ردَّت في رجفة: «لا، بحقِّ كلِّ شيء».

ردَّ وهو يضع ساقًا فوق أخرى ثانية، إذ كان قد بدا كما لو كان سينهض ويتَّجه إلى الباب: «حسنًا، كما تشائين أيتها الأرملة، حضوره ليس ضروريًّا على حدِّ علمي. لكنَّ كلينا -هو وأنا- يجب أن نعيش، ولنعيش فعلينا أن نأكل ونشرب، ولنأكل ونشرب لا بدَّ من المال، لا أقول بعد ذلك شيئًا».

ردَّت: «أتعرِف إلى أيِّ مدًى أنا بائسة ومعدمة؟ لا أظنُّك تعرف أو تستطيع. لو كانت لك عينان وتستطيع أن تنظر حولك في هذا المكان الفقير، لأشفقتَ عليَّ. أوه، دع بؤس حالك يرقِّق قلبك أيها الصديق، وتعاطف معي قليلًا».

طرقع المكفوف بأصابعه وهو يجيبها: «ليس هذا موضوعنا يا سيدتي، ليس هذا موضوعنا. إنَّ لديَّ أرقَّ قلب في العالم لكني لا أستطيع أن أعيش عليه. كثيرٌ من السادة يعيشون جيِّدًا على أرؤسهم الرقيقة، أمَّا أن تكون لديهم قلوبٌ لها نفس الصفة فسيجدون في ذلك عيبًا عظيمًا. أنصتي إليَّ. هذه مسألة عملية، لا علاقة لها بالعواطف والشفقة. كصديقٍ مشتركٍ لكما أتمنى أن أرتِّبها بطريقة مرضية إن أمكن، وهكذا الأمر. إن كنت في فقرٍ مدقعٍ الآن فما هذا إلَّا اختيارك. إنَّ لك أصدقاء مستعدين دائمًا لمساعدتك إن اقتضت الحاجة. صديقي في حالٍ أشد بؤسًا وفقرًا من معظم الناس، ولأنَّكما مرتبطان بقضيَّة مشتركة، فمن الطبيعي أن يتَّجه إليك لتمدِّي إليه يد العون. لقد شاركني المأكل والمسكن زمانًا طويلًا (فكما قلت لتوِّي، أنا رقيق القلب للغاية)، وإنني أستحسن رأيه هذا تمامًا. لقد طالما نعمت بسقفٍ يظلُّك، بينما عاش هو دائمًا منبوذًا. أنت لديك ابنك يعزِّيك ويعينك، وهو ليس لديه أحدٌ. لا يجب أن تكون كلُّ المزايا في جانبٍ واحدٍ؛ إنكما في القارب نفسه، ويجب أن تقسَّم الأحمال بينكما بشيء من العدل».

كانت على وشك أن تقول شيئًا لكنَّه أسكتها ومضى مواصلًا: «والوسيلة الوحيدة لتنفيذ ذلك هي دفع القليل من المال لصديقي بين الحين والآخر، وهذا ما أنصح به. لا أعلم عنه أنه يكنُّ لك أيَّ غلٍّ يا سيِّدتي، قليلًا جدًّا، حتى إنه رغم قسوتك في معاملته أكثر من مرَّة، وطردك إيَّاه من منزلك إذا جاز لي التعبير، فإنه حريصٌ عليك لدرجة أنَّك وإن أحبطت مساعيه الآن فسيرضى أن يتولَّى أمر ابنك ويجعل منه رجلًا».

قال هذه الكلمات الأخيرة بكثيرٍ من التأكيد ثمَّ توقَّف كما لو كان يودُّ

أن يكتشف ما ستحدثه من أثرٍ، لكنها لم تجب إلَّا بدموعها.

قال المكفوف مفكِّرًا: «إنه فتىً صالحٌ لكثيرٍ من الأشياء، ولديه استعدادٌ لتجريب حظِّه في بعض المغامرات، لو كان لي أن أحكم بما سمعت من حديثه معك الليلة. هيَّا. باختصارٍ، صديقي بحاجة ماسَّة إلى عشرين جنيهًا. وأنت التي تستطيعين أن تستغني عن معاشٍ سنويٍّ بإمكانك أن تحصلي على هذا المبلغ له. من المثير للشفقة أنك تشعرين بالاضطراب لذلك. إنَّك تبدين مرتاحة هنا تمامًا، وإنَّ الأمر ليستحقَّ مثل هذا المبلغ لتبقي مرتاحة. عشرون جنيهًا طلبٌ معتدلٌ أيتها الأرملة. تعلمين من أين تطلبينها، ورسالة منك كفيلة بإحضارها إليك، عشرون جنيها!».

كانت على وشك أن تجيبه ثانيةً لكنَّه أسكتها مجدّدًا.

«لا تتعجَّلي في الرد لئلَّا تأسفي على ما تقولين. فكَّري في الأمر قليلًا. عشرون جنيهًا من مال آخرين، ما أيسر ذلك! قلِّبي الأمرَ في عقلك. إنني لستُ في عجلة من أمري. الليل مقبلٌ، وإن لم أنم هنا فلن أبتعد كثيرًا. عشرون جنيها! تدبَّري الأمر يا سيدتي لعشرين دقيقة. أعطي دقيقةً لكلِّ جنيه، توزيعًا عادلًا. خلال ذلك سأستمتع بالجوِّ المبهج اللطيف في هذه الأنحاء».

قال هذه الكلمات وتلمَّس طريقه إلى الباب وهو يحمل معه مقعده، وما لبث أن جلس تحت شجيرة صريمة الجدي[1] ومدَّ رجليه عبر العتبة حتى لا يدخل ولا يخرج أحدٌ من دون علمه، ثمَّ أخرج من جيبه غليونًا

(١) صريمة الجدي Honeysuckle جنس معمّر دائم الخضرة من نباتات الزينة نادرًا ما تتساقط أوراقه، وهو سريع النمو، يزهر في الصيف والربيع بخاصّة، وزهوره بيضاء سمنيَّة تتحوَّل إلى الأصفر ولها رائحة ذكيَّة شديدة. ينصح بزراعته في المناطق المشمسة قرب الأسوار والأسيجة.

وقدَّاحةً وصندوق ثقابٍ وشرع يدخِّن[1]. كانت الليلة جميلةً في ذلك الوقت من العام حيث الشَّفق أجمل ما يكون. كان يتوقَّف بين الفينة والفينة عن التدخين ليدع دخانه يتلوَّى بعيدًا وليتشمَّم عبير الأزهار الرائع، جالسًا على راحته، كما لو كان الكوخ مسكنه بالفعل، ملكًا له غير منازع طيلة حياته، منتظرًا إجابة الأرملة وعودة بارنابي.

* * *

(١) أدوات إيقاد النار المذكورة هنا هي flint, steel and tinderbox وهي قطعة من الصلب المكربن يتطاير عنها الشَّرر بأن تقدح بواسطة الحافة الحادّة لقطعة صوان، وقد ظلّت هذه هي الطريقة الشائعة لإيقاد النار منذ العصر الحديديّ إلى اختراع الثّقاب الاحتكاكي قرابة عام ١٨٣٠م، وكانت قطعتا الصلب والصوّان تحفظان في صندوق الثّقاب tinderbox مع مادة سريعة الاشتعال tinder.

الفصل السادس والأربعون

حين عاد بارنابي بالخبز لم ينجُ هو الآخر من الدهشة لمرأى الحاج التقيّ العجوز يدخِّن غليونه ويتصرَّف على راحته كأنه في بيته تمامًا، وما زاد دهشته أنَّ ذلك الشخص الثمين طوَّح الرغيف بلا مبالاة على المنضدة بدلًا من أن يضعه في حافظته كشيء ثمينٍ نادرٍ، ثمَّ أخرج قنِّينته ودعاه إلى الجلوس والشراب.

قال الرجل: «لأنَّ معي بعض السلوى كما ترى، تذوَّق هذا، هل يروقك؟».

طفرت الدموع من عيني بارنابي وهو يسعل من قوَّة الجرعة، وأجاب بالموافقة.

قال المكفوف: «خُذ المزيد، لا تخفه. أعتقد أنك لا تتذوَّق مثل هذا الشراب كثيرًا، أليس كذلك؟».

صاح بارنابي: «كثيرًا؟ لا أتذوَّقه أبدًا!».

ردَّ المكفوف متنهِّدًا: «من شدة الفقر؟ آه، ما أسوأ هذا. أمُّك المسكينة هذه ستكون أسعد لو أصبحت أغنى يا بارنابي».

قال بارنابي وهو يقرِّب مقعده منه وينظر إلى وجهه بشغفٍ: «هذا ما أقول لها، هذا ما كنت أقوله قبل مجيئك الليلة مباشرةً، حين كان الذهب

كلُّه في السماء. أخبرني، هل هناك طريقة يمكنني اكتشافها لأن يصبح الواحد غنيًّا؟».

«أي طريقة! توجد مئاتٌ من الطرق».

ردَّ: «حقًّا؟ حقًّا؟ هل أنت جادٌّ؟ ما هذه الطرق؟ لا يا أمي، إنني أسأل لأجلك لا لأجل نفسي، لأجلك حقًّا، ما هذه الطرق؟».

أدار المكفوف وجهه الذي ترتسم عليه ابتسامة نصرٍ إلى حيث تقف الأرملة في كربٍ عظيمٍ، ثمَّ أجاب:

«إنها طرقٌ لا يكتشفها القاعدون في بيوتهم يا صديقي الطيِّب».

صاح بارنابي متعلِّقًا بكمِّه: «القاعدون في بيوتهم! لكنني لستُ من هؤلاء، إنك مخطئ في ذلك. إنني غالبًا أخرج قبل مطلع الشمس، ولا أعود إلى البيت إلَّا وقد ذهبت الشمس لتستريح. أكون في الغابات قبل أن يصل النهار إلى الأماكن الظَّليلة، وأكون غالبًا هناك حين يتلصَّص القمر الساطع من بين الأغصان على القمر الآخر الذي يعيش في الماء. وحيثما مشيت أحاول أن أعثر في العشب وبين الطحالب على بعض من ذلك القليل من المال الذي تعمل لأجله بأقصى ما في وسعها من طاقة، ذلك القليل الذي دأبت أن تبكي لأجله بدموعٍ غزيرة. وحين أرقد في الظلِّ أحلم به، أحلم بأنني أستخرجه من باطن الأرض أكوامًا أكوامًا، وأكتشف وجوده مخبوءًا تحت الشجيرات، وأراه يبرق كقطرات الندى بين أوراق الشجر، لكنني لا أجده أبدًا. أخبرني أين هو، سأذهب إلى هناك ولو كانت الرحلة تستغرق عامًا كاملًا، لأنني أعرف أنها ستكون

أسعد إن عدت إلى البيت ومعي بعض ذلك المال. تكلَّم ثانيةً، سأنصت لك وإن ظللت تتحدَّث الليل كله».

أمرَّ المكفوف يده خفيفًا على وجه المسكين، وحين وجد مرفقيه معتمدين على المنضدة، وذقنه مستريحًا على كفَّيه، وأنه مائلٌ بجذعه إلى الأمام في شغفٍ، وأنَّ كلَّ ما فيه ينطق بالاهتمام البالغ والقلق، توقَّف دقيقةً كما لو كان يبغي أن تلاحظ الأرملة ذلك كما يجب، ثمَّ أجاب:

«إنه في الدنيا أيُّها الجريء بارنابي، في الدنيا المليئة بالنشاط، لا في أماكن منعزلة كتلك التي تقضي وقتك فيها، وإنما حيث يكون الزحام، وحيث تكون الجلبة والصخب».

صاح بارنابي وهو يفرك يديه: «حسنًا حسنًا! نعم! أحبُّ ذلك. و(غرپ) يحبُّه كذلك. هذا مناسب لكلينا. هذا من الشجاعة!».

قال المكفوف: «إنه نوع الأماكن التي يحبُّها شابٌّ، والتي يستطيع ابنٌ بارٌّ أن يفعل فيها لأمِّه ولنفسه أكثر ممَّا يستطيع أن يفعل هنا طيلة حياته، وهذا كما تعرف إن كان له صديق ينصحه».

صاح بارنابي مستديرًا إلى أمِّه في ابتهاجٍ: «أتسمعين ذلك يا أمَّاه؟ لا تقولي لي أبدًا إننا يجب ألَّا نلتفت إليه ولو كان ملقىً عند أقدامنا يبرق. لماذا إذن نلتفت إليه كثيرًا الآن؟ لماذا تنهكين نفسك في العمل من مطلع الصبح إلى الليل؟».

قال المكفوف: «مؤكَّد، مؤكَّد. أليست عندك إجابة أيتُّها الأرملة؟» ثمَّ أضاف في بطء: «ألم تغيِّري رأيكِ بعد؟».

أجابت: «دعني أتحدَّث معك على انفرادٍ».

قال ستاگ وهو ينهض من أمام المنضدة: «ضعي يدك على كمِّي وقوديني إلى حيث شئت. تحلَّ بالشجاعة أيها الجريء بارنابي. سنتكلَّم أكثر عن هذا الأمر، فأنا معجبٌ بك، انتظر هنا إلى أن أعود. هيَّا أيتها الأرملة».

قادته إلى الخارج عبر الباب ثمَّ إلى الحديقة الصغيرة حيث توقَّفا، ثم قالت بأسلوبٍ شبه لاهثٍ:

«إنّك وكيلٌ مناسبٌ، وتمثِّل الرجل الذي أرسلك إلى هنا خير تمثيلٍ».

ردَّ ستاگ: «سأخبره بقولك هذا، إنه يقيم لك اعتبارًا كبيرًا، وسيزداد احترامه لي -إن كانت إلى ذلك سبيل- لإطرائك إيَّاي، ينبغي لنا أن نحصل على حقوقنا أيتها الأرملة».

قالت: «حقوقكم! أتعرف أنَّ كلمة منّي.».

ردَّ المكفوف بهدوءٍ بعد صمتٍ طويلٍ: «لماذا توقَّفت؟ هل أعرف أنَّ كلمة منك يمكنها أن تضع صديقي في آخر منزلة من رقصة الحياة؟ أجل أعرف. ماذا يهمُّ من ذلك؟ إنها كلمة لن تقال أبدًا أيتها الأرملة».

«أأنت واثقٌ بذلك؟».

«تمامًا، متأكِّد لدرجة أنني لم آت إلى هنا لمناقشة هذا السؤال. إنني أقول إننا يجب أن نحصل على حقوقنا، وإلَّا تركنا أنفسنا نُشترى. لا تحيدي عن هذه المسألة وإلَّا فاتركيني أعود إلى صديقي الشاب، فإنني مهتمٌّ بذلك الفتى، وأبغي أن أضعه في الطريق التي تمكِّنه من الإثراء». ثم أضاف في عجلة: «باه! ما الحاجة إلى الكلام؟ أنا أعرف ما تحبين أن تقولي، فقد أشرت إليه مرة بالفعل. ألا أحسّ بك لأني أعمى؟ لا، لا أحسُّ

بك. لماذا تنتظرين مني أنا حبيس الظلام أن أكون أفضل ممن لم يُحرموا أبصارهم؟ لماذا؟ هل تتجلَّى يد السماء في حرماني من البصر بأكثر مما تتجلَّى في تمتُّعك بعينيك؟ إنه لمن نفاقكم أيُّها الناس أن تظهروا الهلع حين يُقدِم أعمى على السرقة أو الكذب أو السطو، أوه، نعم، إنَّ هذه الأفعال يزداد سوؤها إن صدرت عنه هو الذي يعيش بالكاد على القليل من أنصاف البنسات التي تُلقى إليه في الشوارع، عنها إن صدرت عنكم وأنتم مبصرون وقادرون على العمل ولا تحتاجون إلى عطف الناس. اللعنة عليكم! حقٌّ لكم أيُّها الممتَّعون بحواسِّكم الخمس أن تفعلوا الشر على راحتكم، أما نحن أصحاب الأربع فقط وتنقصنا الحاسة الأهم فعلينا أن نعيش ونتحلَّى بالأخلاق رغم مصيبتنا، هذا هو الإحسان والعدالة الحقَّة من الأغنياء تجاه الفقراء في كلِّ بقعة من العالم!».

وما لبث أن توقَّف لحظةً حين فرغ من قوله، والتقطت أذناه صوت نقود ترنُّ في يدها، فصاح مستعيدًا بسرعة أسلوبه السابق:

«حسنًا؟ يبدو هذا واعدًا بشيء ما، النقطة التي نناقشها أيتها الأرملة؟».

ردَّت: «أجبني أوّلًا عن سؤالٍ واحدٍ، لقد قلتَ إنه قريبٌ جدًّا من هنا، هل غادر لندن؟».

ردَّ المكفوف: «حيث إنه قريب جدًّا من هنا، فمن الواضح أنه قد غادرها أيتها الأرملة»

«أعني، هل غادرها إلى الأبد؟ أنت تعرف ذلك».

«أجل إلى الأبد، الحقيقة أيتها الأرملة أنَّ إقامته هناك لو كانت قد طالت عمَّا كانت عليه لجاز أن تترتَّب عليها نتائج غير مرغوبٍ فيها، لقد هرب منها لهذا السبب».

قالت الأرملة وهي تضع بعضَ النقود على الرفِّ المجاور له: «استمع، وعدّ».

قال المكفوف وهو يستمع في انتباه: «ستة، هل هناك المزيد؟».

أجابت: «إنها مدَّخرات خمسة أعوام، ستَّة جنيهات».

مدَّ يده إلى إحدى قطع النقود وأخذ يتحسَّسها في حرصٍ ثم وضعها بين أسنانه وتركها ترنُّ على الرف ثم أومأ إلى محدِّثته أن تكمل.

«هذه الجنيهات جُمِعت بجهدٍ وادخرت، مخافة أن يفرِّق بيني وبين ابني المرض أو الموت. لقد اشتريتُها بكثيرٍ من الجوع والعمل الشاق وافتقاد الراحة. إن استطعت أخذها خذها، بشرط أن تغادر هذا المكان في التوِّ واللحظة ولا تخط ثانية إلى تلك الغرفة التي يجلس فيها وينتظر عودتك».

قال المكفوف هازًّا رأسه: «ما أبعد هذه الجنيهات الستة –وإن كانت من أثقل ما سكَّ من النقود– عن مبلغ الجنيهات العشرين أيتها الأرملة».

«لأحصل على مبلغٍ كهذا، فعليَّ كما تعرف أن أكتب إلى بقعة بعيدة من البلاد، ولأفعل ذلك وأتلقَّى ردًّا أحتاج إلى وقتٍ».

قال ستاگ: «يومين؟».

«أكثر».

«أربعة أيام؟».

«أسبوع، عُد في مثل هذا اليوم بعد أسبوعٍ في نفس الساعة، لكن ليس إلى البيت، انتظر في ركن الدرب».

قال المكفوف بنظرة ماكرة: «بالطبع سأجدك هناك؟».

«وهل لي ملاذٌ آخر؟ ألا يكفيك أن قد جعلت مني متسولة، وأني قد ضحَّيت بكلِّ ما ادَّخرته وما كسبته بشقِّ الأنفس لأحافظ على هذا البيت؟».

قال المكفوف بعد تدبُّر: «هممم! وجِّهي وجهي شطر البقعة التي تتحدَّثين عنها وفي منتصف الطريق، هل هذه هي البقعة؟».

«إنها هي».

«بعد أسبوع وقت الغروب، وفكري في ذلك الذي تركناه في البيت. والآن طابت ليلتك».

لم ترد ولم يتوقَّف منتظرًا ردًّا، مضى بعيدًا في بطء، مديرًا رأسه بين الفينة والفينة، ومتوقِّفًا لينصت، كما لو كان الفضول يأكله ليعرف إن كان هناك من يتعقَّبه. كانت ظلال الليل تخيِّم في ذلك المحيط بسرعة، فما لبث أن ضاع شبحه في الظلام. لكنها لم تدخل الكوخ ثانية إلَّا بعد أن عبرت الدرب من طرفه إلى طرفه وتأكَّدت أن قد مضى إلى سبيله، وإذ ذاك أسرعت ترتج الباب والنافذة.

ابتدرها بارنابي: «أمَّاه! ما الأمر؟ أين الرجل الضرير؟».

«لقد ذهب».

صاح فزعًا: «ذهب؟! إنني يجب أن أتحدَّث معه، أي طريق سلك؟».

أجابت وهي تحيطه بذراعيها: «لا أدري، عليك ألَّا تخرج الليلة؛ هناك أشباحٌ وأحلامٌ في الخارج».

قال بارنابي هامسًا في خوفٍ: «أحقًّا؟».

«الحركة غير مأمونة، علينا أن نغادر هذا المكان غدًا».

«هذا المكان؟ هذا الكوخ؟! والحديقة الصغيرة يا أمي!».

«أجل، غدًا صباحًا مع مطلع الشمس. ينبغي لنا أن نسافر إلى لندن ونذوب في ذلك المكان الواسع. في أيِّ مدينة أخرى سيكون لنا أثرٌ، سنضطرُّ إلى مواصلة السفر والعثور على مأوىً جديد».

لم يكن بارنابي يحتاج إلى كثير إقناع لمصالحته على أي فكرة تعد بالتغيير. بعد دقيقة واحدة كان ممتلئًا إثارةً وجذلًا، وبعد دقيقة أخرى كان الحزن يملؤه لفراق أصدقائه الكلاب، وبعد ثالثة ملأته الإثارة مجدَّدًا، ثم ملأه الخوف مما قالت لتمنعه من التجوال بالخارج تلك الليلة، وانتاشته الرهبة والأسئلة الغريبة، غير أنَّ الغلبة في النهاية كانت لقلبه الطروب، فرقد في ملابسه ليكون على أهبة الاستعداد في الصباح، وغاب في نومٍ عميقٍ أمام نار المدفأة الفقيرة الخابية.

لم يغمض لأمِّه جفنٌ، وإنما جلست إلى جواره مرتقبة. بدا لأذنيها كلُّ نفس تتنفَّسه الريح كما لو كان وقع تلك الخطى المخوفة على الباب، أو كأنه تلك اليد على المزلاج، فتحوَّلت الليلة الصيفية الهادئة إلى ليلة رعبٍ بالنسبة إليها. أخيرًا انبلج الصبح المنتظر، وحين انتهت من التحضيرات الصغيرة اللازمة لرحلتهما وصلَّت جاثية وعيناها مغرورقتان بالدموع، أيقظت بارنابي الذي قفز ناهضًا في مرحٍ لندائها.

كانت ملابسه قليلة، ولم يكن حمل (غرب) يمثِّل له إلَّا عملًا يحبُّه. ومع أول أشعة الشمس أغلقا باب بيتهما المهجور واستدارا مبتعدين. كانت السماء زرقاء صافية والجو منعشًا يعبق بألف رائحة عطرة. نظر بارنابي إلى أعلى وضحك ملء قلبه.

لكن اليوم كان يومًا ينذره عادة للتجوال الطويل، وقد جاء أحد

الكلاب -أقبحها طرًّا- يتقافز من حوله في عزِّ فرحه. اضطرَّ إلى أن يأمره بالعودة في لهجة غليظة، وآلمه قلبه وهو يفعل. تقهقر الكلب ثم استدار إليه بنظرة يمتزج فيها التوسُّل بعدم التصديق، ثم اقترب منه بضع خطوات وتوقف.

كان بذلك ينبذ آخر رجاء من رفيق قديم وصديق وفيٍّ، لم يستطع بارنابي أن يتحمَّل أكثر من ذلك، وبعد أن هزَّ رأسه وأشار إلى رفيق لعبه بالعودة إلى بيته انفجر باكيًا.

«أوه، أمي، أمي، ما أشد ما سيكون حزنه حين يخمش الباب ليجده مغلقًا دائمًا!».

كانت هذه الفكرة مفعمةً بإحساس البيت، حتى إنها رغم انهمار دموعها لم يكن يطيب لها أن تحول دون تذكُّرها -سواء من جانبه أو من جانبها- ولو بكنوز الدنيا الواسعة كلها.

* * *

الفصل السابع والأربعون

في تلك القائمة التي لا تنفد من رحمات السماء بالإنسانية، يجب أن تحتلَّ المكانة العليا دائمًا تلك القدرة التي حبتنا بها السماء على أن نجد بذور السلوى في أقسى المحن، لا لأنها تدعمنا وتقيم أودنا حين نكون أحوج ما نكون إلى ذلك فحسب، وإنما لأن هناك شيئًا في نبع السلوى هذا، لنا أسبابنا التي تدعونا إلى الاعتقاد أنه من روح الله، شيئًا من ذلك الخير الذي يكشف عن سجيَّة ما بين ما نقترفه من شرور، كفيلة بالتكفير عن تلك الشرور، شيئًا نشارك فيه الملائكة حتى ونحن حبيسو طبيعتنا الساقطة، وهو شيء كان له وجوده في غابر الزمن حين كانت الملائكة تطأ الأرض، وما زال بيننا على الأرض إلى الآن، يأسف لحالنا.

كم مرة خلال رحلتها مع ابنها تذكَّرت الأرملة بقلبٍ شاكرٍ أن مرح بارنابي وحماسته نبعا من حرمانه! كم مرة تذكَّرت أنه لولا ذلك لكان الآن عابسًا كئيبًا قاسيًا نائيًا عنها بمشاعره، وربما شريرًا مجردًا من الرحمة! كم مرة كانت تجد السلوى في قوته وأمله وبساطة طبيعته! كانت قوى الذهن المضمحلَّة لديه –تلك التي كانت تجعله ينسى الماضي سريعًا، إلَّا حين تتراءى له منه لمحاتٌ خاطفة– حتى هذه القوى المضمحلَّة كانت سلوى بالنسبة إليها الآن. كان العالم بالنسبة إليه مفعمًا بالسعادة. كان يجد السرور في كل شجرة ونبات وزهرة، وفي كل طائر وحيوان، وفي كل حشرة ضئيلة

تجعلها أنفاس ريح الصيف تلتصق بالأرض. وكان سروره سرورًا لها، وبينما كان يمكن لكثيرٍ من الأبناء المكتملي العقل أن يحزنوها، كان هذا الأبله المسكين ذو القلب الطروب يملأ صدرها شكرًا وحبًّا.

كان مخزونهما من المال ضئيلًا، لكنَّ الأرملة احتفظت بجنيه من المدخرات التي وضعتها في يد الضرير. وكان هذا مجموعًا إلى القليل من البنسات الذي كان في حوزتها مبلغًا لا بأس به مدَّخرًا في مصرف، بالنسبة إلى شخصين لهما عاداتهما الزاهدة في النفقة. وفوق ذلك كان في رفقتهما (غرپ)، وحين كانت الضرورة تقتضي أن يفكَّا الجنيه، لم يكن الأمر يتطلَّب أكثر من أن يجعلاه يستعرض مهاراته أمام باب حانة أو في شارع في قرية، أو داخل منزلٍ من منازل علية القوم أو في حديقته، لتظهر أعدادٌ غفيرة من الناس استعدادها للمقايضة لتستمتع بالمزيد من تسلية الطائر المتكلِّم، وهم الناس أنفسهم الذين لم يكن يطيب لهم أن يخرجوا من أموالهم شيئًا بسبيل الصدقة.

كانا يتحركان ببطء، ورغم ركوبهما كثيرًا من العربات والمركبات إلَّا أنهما قد ظلَّا أسبوعًا في الطريق. وذات يوم، بينا (غرپ) على كتفه وأمه على إثره، توسَّل بارنابي الإذن بالدخول من بيت البستاني ليصعد إلى المنزل الكبير في آخر المدخل المحاط بالأشجار ليستعرض غرابه. كان الرجل يميل إلى الإذن لهما بالدخول، وكان بالفعل على وشك أن يفعل، وإذا سيدٌ متين البنيان في يده سوط طويل ووجهه محتقن بما يشي بأنه قد اصطبح خمره، يركب إلى البوابة، وينادي بصوتٍ جهوريٍّ مملوء سبابًا بأكثر مما يقتضيه المقام، أن تفتح البوابة على الفور.

قال السيد مغضبًا بينما يفتح الرجل البوابة على مصراعيها ويخلع قبعته تحية: «من لديك هنا؟ من هذان؟ هاه؟ أأنت متسولة يا امرأة؟».

ردَّت الأرملة بانحناءة محيِّية أنهما مسافران فقيران، فقال السيد:

«متشردان، متشردان حقيران. تريدان أن تتعرَّفا إلى الحبس، أليس كذلك؟ الحبس وعمود التشهير ومنصَّة الجلد؟ من أين أتيتما؟».

أجابته في خوفٍ، فقد كان مجلجل الصوت أجشَّه محتقن الوجه، وتوسَّلت إليه ألَّا يغضب، إذ إنهما لم يقصدا أيَّ سوء، وسيواصلان طريقهما في التوِّ.

رد السيد: «لا تثقي بذلك كثيرًا، إننا لا نسمح للمتشرِّدين بأن يحوموا حول هذا المكان. أنا أعرف ما تريدان، سرقة أي ملابس متناثرة موضوعة على السياج لتجف وأيّ دواجن؟ أليس كذلك؟ ماذا لديك في هذه السلة أيها الكلب الكسول؟».

صاح الغراب الذي كان بارنابي قد حبسه مع اقتراب ذلك الشخص الصارم: «غرپ غرپ غرپ، غرپ الذكي، غرپ الشرير، غرپ الماكر، غرپ غرپ غرپ. أنا عفريت. أنا عفريت. أنا عفريت. لا تستسلموا لليأس. هورّاه، باو واو واو».

قال السيد: «أخرِج هذه الدّويبة أيها الوغد ودعني أراها».

وإذ خوطب بارنابي بهذا التنازل فقد أخرج طائره، وإن كان قد فعل ذلك بكثيرٍ من الخوف والرعدة، ووضعه على الأرض، وما إن لمس الغراب الأرض حتى زعق نازعًا ما لا يقل عن خمسين سدادة، وطفق يرقص بينما يرمق السيد بأسلوبٍ قليل الحياء بدرجة مدهشة، ويلوي رأسه جانبًا ليًّا

عظيمًا، حتى لقد بدا كما لو كان يريد أن ينزعها عن جسده في مقامه هذا.

بدا أنَّ نزع السدادات قد أثَّر في عقل السيد تأثيرًا أكبر من قدرة الغراب على الكلام، وكان ذلك بالفعل مناسبًا لعاداته وقدراته. رغب أن يرى ذلك مرة أخرى، لكن رغم لهجته الآمرة جدًّا، ورغم محاولات بارنابي بكلِّ ما في طوقه من حيل إقناع الطائر بذلك، لم يلتفت غرب إلى طلبه، واحتفظ بصمته القاتل.

قال السيد مشيرًا إلى المنزل: «أحضره».

لكنَّ غرب الذي رأى ذلك سبق سيده بأن أخذ يقفز أمامهم وهو يخفق بجناحيه بلا انقطاعٍ ويصيح «طاهي!» خلال ذلك، ربما في إشارة إلى أنَّ هناك رفقة آتية، وأنه لا بأس من وجبة خفيفة.

سار بارنابي وأمه على جانبي السيد الممتطي حصانه، بينا هذا الأخير يمسحهما بنظراته بين الفينة والفينة بطريقة متكبِّرة غليظة، ويرعد كل حين بسؤالٍ تقلق نبرته بارنابي أيَّما إقلاق، حتى إنه لم يكن يجد ما يردُّ به، وبالطبع لم يكن يحير جوابًا. وفي مرة من هذه المرات حين بدا السيد يميل إلى استخدام سوط ركوبه، تجرَّأت الأرملة وأخبرته بصوتٍ خفيضٍ وعينين تبلِّلهما الدموع أنَّ ابنها ضعيف العقل.

قال السيد وهو ينظر إلى بارنابي: «أبله إذن، هاه؟ ومنذ متى وأنت أبله؟».

كانت إجابة بارنابي الخائفة وهو يشير إلى أمه: «هي تعرف، أنا... دائمًا، أظن ذلك».

قالت الأرملة: «منذ ميلاده».

صاح السيد: «لا أصدِّق ذلك، ولا حرفًا منه. إنها حجَّة لئلَّا يعمل، لا يشفي هذا الاضطراب مثل الجلد. سأجعل منه شخصًا آخر في عشر دقائق، وأنا بذلك زعيمٍ».

قالت الأرملة في لطفٍ: «إنَّ السماء لم تجعل منه شخصًا آخر في أكثر من عشرين عامًا يا سيدي».

«إذن لم لا تحبسينه؟ إننا ندفع ما يكفي لمؤسسات المقاطعة، عليها اللعنة. لكنك تفضِّلين أن تسحبيه معك في كلِّ مكان لتثيري الشفقة بالطبع، نعم، أنا أفهمك».

كان لهذا السيد ألقاب كثيرة حميمة بين أصدقائه المقرَّبين، كان بعضهم يسمِّيه (سيدًا ريفيًّا من المدرسة الحقَّة)، وبعضهم (سيدًا ريفيًّا عجوزًا لطيفًا)، والبعض (سيدًا ممراحًا)، ومنهم من كان يدعوه (رجلًا إنـگـليزيًّا أصيلًا)، أو (چون بل لا تشوبه شائبة)[1]، لكنَّهم جميعًا اتفقوا على شيء واحد، هو أنه من المثير للشفقة ألَّا يوجد مثله كثيرون، وأنه لافتقاد أمثاله كان البلد يزحف يومًا وراء يوم إلى الخراب والدمار. كان ينتمي إلى لجنة السلام، وكان يستطيع كتابة اسمه بطريقة تكاد تكون

(١) چون بل John Bull هو تجسيدٌ قوميٌّ للمملكة المتحدة بعامة وإنگلترا بخاصة، لا سيَّما في الرسوم السياسية الساخرة وغيرها من الأعمال المصوَّرة. وهو يصوِّر عادة رجلًا متين البنيان في منتصف العمر ريفيًّا ممراحًا عمليًّا، وقد نشأ هذا التجسيد كشخصية هزلية اختلقها (چون أربثنت ١٦٦٧–١٧٣٥م) صديق الشاعر ألكساندر پوب والروائي چوناثان سوفت. وظهر لأول مرة عام ١٧١٢ في منشورٍ لأربثنت اسمه (القانون في هاوية بلا قرارٍ Law in a Bottomless Pit)، ثم أصدر المؤلِّف في العام نفسه سردية سياسية بعنوان (تاريخ چون بل). ثم ما لبث الفنان وليم هوجارث ١٦٩٧ – ١٧٦٤م William Hogarth وغير من الكتَّاب أن جعلوا من هذه الشخصية نموذجًا بطوليًّا للإنـگليزي الحر.

مقروءة، غير أن أعظم امتيازاته أنه كان أشدَّ صرامة مع المعتدين، وأصوب رميًا، وأحكم ركوبًا، وعنده خيل أفضل، وكلاب أفضل، ويستطيع ان يأكل طعامًا أكثر، ويشرب نبيذًا أحمى، ويأوي إلى فراشه كلَّ ليلة أكثر ثملًا، ثم يستيقظ كلَّ صباح أوفر يقظة من أي رجل آخر في البلاد. كان علمه بالخيل يكاد يعدل علم بيطار، ومعرفته بالحظائر تجاوز معرفة رئيس كلّافيه، ولم يكن ثَمَّ خنزير في ضيعته يقف أمامه في شراهة الأكل. لم يكن لديه مقعدٌ لنفسه في البرلمان، لكنَّه كان متطرِّفًا في وطنيَّته، فكان يسوق ناخبي ضيعته إلى التصويت بيديه. كانت علاقته دافئة بكلٍّ من الكنيسة والدولة، ولم يكن يعيّن لهديَّته أقلَّ من شخص برميل خمر وصائد ثعالب من الدرجة الأولى. لم يكن يثق بأمانة كل الفقراء الذين يستطيعون القراءة والكتابة، كما كان يحقد سرًّا على امرأته –وهي سيدة شابة تزوجها لأجل ما يسمِّيه أصدقاؤه (العقل الإنـگـليزي القديم الصالح) حتى تنضم ممتلكات أبيها إلى ممتلكاته– لأنَّ نصيبها من الإلمام بالقراءة والكتابة كان أكبر من نصيبه. باختصارٍ، في ظل كون بارنابي أبله، و(غرب) لا يعدو أن مخلوقًا ذا غريزة حيوانية، كان من الصعوبة بمكان أن يقطع المرء برأي فيما يكونه هذا السيد.

واصل ركوبه إلى باب منزلٍ أنيق يدخل إليه عبر درجٍ كبيرٍ، حيث كان رجلٌ ينتظر أن يأخذ حصانه، ثم قاد مَن وراءه إلى قاعة فسيحة، ملوثة رغم اتساعها بأبخرة فجور الليلة الماضية الآسنة. كان المكان مفروشًا في كل جانبٍ بمعاطف الركوب والسياط واللّجم والمهاميز وأحذية الركوب وما إلى ذلك، وقد مثَّلت هذه الأشياء بالإضافة إلى قرون ظباء ضخمة وقليل من الصور للكلاب والخيل زينات القاعة الأساسية.

وبعد أن ألقى بنفسه على مقعدٍ كبيرٍ –كان بالمناسبة قد اعتاد أن يشخر الليل فيه حين يكون سيدًا ريفيًّا أفضل مما اعتاد أن يكون، حسب ما يرى المعجبون به– أمر الرجل بأن يخبر امرأته بأن تنزل، وعلى الفور ظهرت سيدة أصغر منه بكثيرٍ، مرتبكة بعض الشيء فيما يبدو بفعل هذا الاستدعاء غير المألوف، كان يبدو عليها اعتلال الصحة وافتقاد السعادة.

قال السيد: «هيَّا! لا يبهجك تتبُّع كلاب الصيد كما يفترض أن يبهج نساء الإنـگـليز. انظري إلى ما لدينا هنا، ربما أسعدك هذا».

ابتسمت السيدة وجلست على مبعدة قليلة منه وهي ترمق بارنابي بنظرة مشفقة.

أدلى السيد بملاحظته وهو يهزُّ رأسه: «تقول المرأة إنه أبله، لا أصدِّق ذلك».

سألت السيدة: «أأنتِ أمّه؟».

أجابت بالإيجاب.

قال السيد وهو يدفع يديه في جيوب بنطاله: «ما الجدوى من سؤالها؟ بالطبع ستجيبك بالإيجاب، والأقرب أنه مؤجَّر باليومية. هيَّا، اشتغل، اجعله يفعل شيئًا».

أما وقد كان غرپ قد استعاد الآن لباقته، فقد تنازل على إقناع بارنابي ووافق على تكرار عباراته، وأدَّى عروضه كلها بأتمِّ نجاحٍ. وسُرَّ السيد أيما سرور بالسدادات و«لا تستسلم للموت»، حتى إنه طلب تكرار هذا الجزء من التسلية، حتى دخل غرپ سلَّته، ورفض رفضًا باتًّا أن يلفظ كلمة أخرى، لا بالطيب ولا بالرديء! وأعجبت السيدة هي الأخرى به كثيرًا،

وأبهج زوجها كثيرًا ختامه العنيد، حتى لقد انفجر في زمجرة مقهقهة وسأل عن ثمنه.

بدا بارنابي كما لو كان لم يفهم ما يعنيه، وربما لم يفهمه. قال السيد وهو يخشخش بالنقود في جيوبه:

«ثمنه، كم تريد ثمنًا له؟ كم؟».

ردَّ بارنابي وهو يغلق السلة في عجلة ويلقي بحزامها على كتفه: «إنه ليس للبيع، أمَّاه، هيا نخرج».

قال السيد ناظرًا إلى امرأته في ازدراء: «ها أنت ترين إلى أي مدى هو أبله يا قارئة الكتب، إنه يستطيع أن يساوم، بكم تبيعينه أيتها العجوز؟».

قالت الأرملة: «إنه رفيق ولدي الذي لا يفارقه؛ إنه ليس للبيع حقًّا يا سيدي».

صاح السيد محتقن الوجه غضبًا وصوته يزداد خشونةً وارتفاعًا: «ليس للبيع! ليس للبيع!».

أجابت: «بالفعل لا، لم يخطر ببالنا أبدًا أن نفارقه يا سيدي، أؤكد لك».

كان من الواضح أنه موشك على أن يردَّ ردًّا بالغ الانفعال لولا كلمات قليلة غمغمت بها امرأته وتصادف أن التقطتها أذنه، فاستدار بحدَّة قائلًا: «إيه؟ ماذا؟».

قالت متلعثمة: «لا يجب أن نتوقَّع منهما أن يبيعا الطائر وهما لا يبغيان ذلك، إذا كانا يفضِّلان الاحتفاظ به..».

كرَّر خلفها: «يفضِّلان الاحتفاظ به؟! هؤلاء الناس الذين يجوبون البلاد في تشرُّدٍ لينشلوا ويتسوَّلوا يفضِّلون أن يحتفظوا بطائرٍ، بينما يسألهم

مالك صاحب أراضٍ وقاضٍ عن ثمنه!» ثم أضاف مزمجرًا للأرملة: «لقد ذهبت هذه العجوز إلى المدرسة. أنا أعرف أنها قد ذهبت، لا يخبرنِّي أحدٌ بأنها لم تفعل! أنا أقول ذهبت، نعم!».

اعترفت أم بارنابي بأنَّ ما اتّهمت به صحيح، وأعربت عن رجائها ألَّا يكون في ذلك ما يضرُّ.

قال السيد: «ليس في ذلك ما يضرُّ؟! لا، ليس فيه ما يضرُّ! ليس فيه أيتها الثائرة العجوز، ولا ذرَّة ضرر. لو كان وكيلي هنا لوضعتك على عمود التشهير، نعم، أو لأودعتك السجن جزاء تطوافك في كل مكان في ارتقاب السرقات الصغيرة، أنت يا بنت النور. هيَّا يا سايمن، أخرج هذين المتشرِّدين من هنا، اطردهما إلى الشارع. فليخرجا! لا تريدان أن تبيعا الطائر، أنتما يا من أتيتما إلى هنا لتتسوَّلا، أليس كذلك؟ إن لم يخرجا بأقصى سرعة فاترك عليهما الكلاب!».

لم ينتظرا تنفيذ الطرد، وإنما هربا بكلِّ ما أوتيا من سرعة، تاركين السيد يرعد ويعصف وحده -إذ كانت السيدة المسكينة قد انسحبت بالفعل- ومحاولين دون جدوى أن يسكتا غرپ الذي أثارته الجلبة فأخذ ينزع من السدادات ما يكفي حفلًا وهما يسرعان عبر المدخل المشجر، وبدا كما لو كان يهنِّئ نفسه فوق العادة أن كان هو سبب الاضطراب. وحين أصبحا على مقربة من بيت البستاني ظهر لهما من بين الشجيرات خادمٌ آخر ما لبث أن تظاهر بالنشاط الشديد في طردهما، لكنه وضع في يد الأرملة قطعة عملة معدنية صغيرة مغمغمًا بأن السيدة أرسلتها إليهما، ثم دفعهما عبر البوابة إلى الخارج بلطفٍ.

لم تفعل هذه الحادثة إلَّا أن جعلت الأرملة تفكر -حين توقَّفا عند حانة على مبعدة عدة أميالٍ وسمعا من أصدقاء القاضي عن شخصيته- أنه ربما كان هناك شيء بخلاف سعة المعدة والذائقة الجيدة للحظيرة ومربى الكلاب مطلوبًا لتكوين سيد ريفي كامل أو رجل إنـگـليزيّ أصيل أو (چون بل) لا تشوبه شائبة، وأنه ربما أسيء توزيع الألقاب أحيانًا، بله أن نقول لحقها العار. ولم يخطر ببالها آنذاك أنَّ هذه الحادثة العرضيَّة للغاية ستؤثِّر في حظوظهما مستقبلًا، بيد أنَّ الزمن والتجربة كانا كفيلين بتبصيرها بذلك.

قال بارنابي وهما جالسان في اليوم التالي في عربة يفترض أن تأخذهما إلى مسافة عشرة أميال من العاصمة:

«أمَّاه، لقد قلت إننا سنذهب إلى لندن أولًا، هل سنرى ذلك الأعمى هناك؟».

كادت تجيبه «لا قدَّر الرب!» لكنها تمالكت لسانها وقالت لا، ولم تفكر لم سأل هذا السؤال. قال بارنابي وعلى سيماه آي التفكير:

«إنه رجل حكيم. أتمنى أن نقابله ثانية. ماذا كان يقول بشأن الزحام؟ إن الذهب يطلب حيث يزدحم الناس، لا بين الأشجار وفي مثل تلك الأماكن الهادئة؟ كان يتكلم كما لو كان يحبه. لندن مكان مزدحم وأظن أننا سنقابله هناك».

سألت: «لكن لماذا ترغب أن تراه يا حبيبي؟».

أجابها وهو ينظر إليها في حزنٍ: «لأنه تكلم معي عن الذهب، وهو شيء نادر. وبغض النظر عمَّا تقولين فأنا أعرف أنه شيء تحبين أن تملكيه.

ولأنه أتى وذهب بطريقة غريبة، تمامًا كما يأتي أحيانًا إلى طرف سريري في الليل رجالٌ مسنُّون بيض الرؤوس، ويقولون ما لا أستطيع تذكُّره حين يعود النهار الساطع. أخبرني بأنه عائدٌ، وإني دهشٌ من إخلافه وعده!».

«لكنك لم تفكر أبدًا من قبل في أن تكون غنيًّا مبهرجًا يا عزيزي بارنابي، لقد كنت دائمًا قانعًا».

ضحك وطلب منها أن تعيد ما قالته، ثمّ صاح «آي آي، أوه، نعم» ثم ضحك ثانية. ثم مرَّ شيء سرعان ما لفت انتباهه فشرد الموضوع من ذهنه، وتبعه موضوع آخر مثله في سرعة الزوال. لكن كان واضحًا مما قاله، ومن عودته إلى هذه النقطة مرارًا ذلك اليوم وفيما تلاه أنَّ زيارة الضرير ولا سيَّما كلماته قد استحوذت تمامًا على ذهنه. كان من المستحيل أن نحدِّد ما إذا كانت فكرة الثروة قد خطرت له لأول مرة في تلك الليلة حين نظر إلى السحب الذهبية –وكثيرًا ما كانت الصور تقدِّم نفسها لأفكاره عبر أشياء خارجية على هذا القدر من الابتعاد، أو أن طريقة حياتهما الفقيرة المتواضعة قد اقترحت عليه هذه الفكرة من قديم، أو أن مصادفة متابعة الضرير لتيارٍ ما أبداه هو من ملاحظات (فقد اعتبرها مصادفة) قد اقترحت عليه الفكرة في لحظتها، أو أنه قد تأثَّر بمحض حقيقة أن الرجل كان ضريرًا، ولذا فهو مختلفٌ عن أي إنسان تجاذب معه أطراف الحديث من قبل. حاولت بكلِّ الطرق أن تكتشف الأمر من دون جدوى، وأغلب الظن أن بارنابي نفسه لم يكن يعرف.

وقد أربكها كثيرًا عزف بارنابي على هذا الوتر، غير أنها لم تملك إلَّا أن تقوده سريعًا إلى موضوعٍ آخر، طاردةً ذلك الوسواس من رأسه. أمَّا

أن تحذِّره من زائرهما، أو أن تبدي أيَّ خوفٍ أو ريبة بشأنه، فقد كانت تخشى ألَّا يسفر ذلك إلَّا عن زيادة في اهتمامه به وتقوية لرغبته في لقائه ثانية. كانت تأمل أن تخلِّص نفسها من ذلك الرهيب الذي يلاحقها بأن تغوص في الزحام، ثم أن تعيش مجهولة من جديد في سرية وسلامٍ بأن ترحل مسافةً كبيرةً وتأخذ المزيد من الحيطة.

بمضي الوقت وصلا إلى محطة وقوفهما على مسافة عشرة أميال من لندن، وباتا ليلتهما هناك، بعد أن اتَّفقا على أن تحملهما من الغد عربة خفيفة كانت عائدةً في طريقها فارغةً، مقابل أجرٍ زهيدٍ، على أن تتحرك العربة في الخامسة صباحًا. جاء السائق في ميعاده وكانت الطريق مواتيةً –ما خلا الغبار، إذ كان الجو شديد السخونة والجفاف– وفي السابعة من ضحى الجمعة الموافق الثاني من حزيران عام ألف وسبعمائة وثمانين ترجَّلا أسفل جسر وستمنستر، وودَّعا سائقهما، ووقفا وحدهما معًا على الرصيف اللافح. فقد كانت الطزاجة التي ينثرها الليل على مثل هذه الطرق المزدحمة قد ولَّت، بينا الشمس ساطعة ببريقٍ غير معتادٍ.

* * *

الفصل الثامن والأربعون

في حيرتهما إلى أين يذهبان بعد ذلك، وارتباكهما بفعل الزحام الهائج، جلسا في أحد الأماكن المنعزلة بالجسر ليرتاحا. بعد قليلٍ اكتشفا أنَّ تيار الحياة كان يتدفق بكامله في جهة واحدة، وأنَّ خلقًا كثيرًا كانوا يعبرون النهر في عجلة غير معتادة وإثارة واضحة من ضفة (مدلسكس) إلى ضفة (سري). كانوا في الأعم الأغلب يعبرون مثنى وثلاث، وأحيانًا ستة ستة، ولم يكونوا يتكلمون كثيرًا فيما بينهم، بل كان كثير منهم صامتين تمامًا، مسرعي الخطى كما لو كان هدفٌ وحيدٌ يحرِّكهم جميعًا ويمتصُّ اهتمامهم كله.

أدهشهما أن يلاحظا أن كل رجل في هذا الجمع الغفير الذي ما زال منصبًّا في تيَّاره مارًّا بهما من دون أن يبطئ ولو قليلًا، كان يزيِّن قبَّعته بشارة زرقاء، وأنَّ العابرين بالصدفة من غير المتحلِّين على هذا النحو كانوا يبدون حريصين على تفادي ملاحظة الآخرين وهجومهم، وأنهم كانوا يحترمون مرور أصحاب الشارات الزرقاء كما لو كانوا يسترضونهم. غير أن هذا كان طبيعيًّا بما يكفي، بالنظر إلى قلة عددهم إذا قيس إلى عدد الآخرين، فإن نسبة أصحاب الشارات الزرقاء إلى من يلبسون ملابس عادية كانت على الأقل أربعين أو خمسين إلى واحدٍ. بيد أنه لم تكن هناك مشاجراتٌ،

فقد مضت أسراب الشارات الزرقاء في طريقها، يمرُّ كلٌّ واحد فيها برفاقه متى استطاع ذلك، ويسرع ما أسعفته السرعة في هذا الزحام العظيم، ولم يتبادلوا مع المارِّين من غير جماعتهم إلا النظرات، وكثيرًا ما كانوا لا يبادلونهم حتى النظرات.

في البداية كان تيَّار الناس محصورًا في الممرين، ولم يقتحم عرض الطريق الرئيس إلا قلة من المتحمسين. لكن بعد نحو نصف ساعة كان الزحام العظيم يسدُّ الطريق كلها، وقد تجمهر الناس في كتلة متضاغطة وعاقت حركتهم العربات التي قابلتهم فأصبحوا يتحركون ببطء، وكانوا أحيانًا يتوقفون خمس أو عشر دقائق دفعةً واحدة.

وبعد مرور ما يقرب من ساعتين بدأت الأعداد تتناقص بوضوحٍ وتتضاءل قليلًا قليلًا إلى أن انجلت عن الجسر، إلا بين الفينة والفينة حين يمر لاهثًا رجلٌ متحمِّسٌ مغبر تحمل قبعته الشارة الزرقاء ومعطفه ملقىً على عاتقه، وعليه أمارات الخشية من أن يكون متأخرًا تمامًا، أو يتوقف ليسأل أي طريق أخذه رفاقه، وحين يظفر بالإجابة يواصل المسير في عجلة كمن أنعشته الإجابة. وفي هذه العزلة النسبية التي بدت غريبةً جديدةً خاصة بعد ذلك الزحام الأخير ظفرت الأرملة لأول مرة بفرصة أن تسأل رجلًا عجوزًا أتى ليجلس جوارهما عن معنى ذلك التجمهر. فكان رده:

«لماذا؟ من أين أتيتما حتى إنكما لم تسمعا برابطة اللورد چورچ غوردن العظيمة؟ إنه اليوم يقدم الالتماس ضد الكاثوليك، فليباركه الرب!».

قالت: «ما شأن كل هؤلاء بهذا الأمر؟».

ردَّ العجوز: «ما شأنهم به؟! لماذا؟ ما هذا الكلام؟! ألا تعلمين أنَّ سعادة اللورد قد صرَّح بأنه لن يقدِّم الالتماس إلى البرلمان مطلقًا إن لم يرافقه إلى الباب أربعون ألف رجل صدقٍ صالحٍ على الأقل؟ إنه جمهور لك أن تشاهديه!».

قال بارنابي: «يا له من زحام! هل سمعتِ ما قاله يا أمّاه؟».

واصل العجوز: «وقد سمعت أنهم يحشدون هناك فوق مائة ألف إنسان. آه! دعي لورد چورچ وشأنه، هو يعرف مدى قوته»، ثم أشار إلى حيث يطلُّ مجلس العموم على النهر قائلًا: «ستشحب وجوه كثيرة في تلك النوافذ الثلاث حين يصعد لورد چورچ ظهر اليوم، ولديهم أسبابهم! نعم نعم! دعوا سعادة اللورد وشأنه، دعوه وشأنه، هو يعرف!».

ثم نهض معتمدًا على عصاه بكثيرٍ من الغمغمة والضحك المكتوم وهو يهزُّ سبَّابته، وأخذ يترنَّح في مشيته مبتعدًا.

قال بارنابي: «أمَّاه، إنه زحامٌ شجاعٌ ذلك الذي كان يتكلَّم عنه هيَّا!».

صاحت أمُّه: «لا لننضم إليه!».

أجاب وهو يتعلَّق بكمِّها: «نعم نعم، لم لا؟ هيَّا!».

قالت: «أنت لا تدري أي ضرر يمكن أن يسبِّبوه حيثما سيقودونك، ولا تدري ما يقصدونه. عزيزي بارنابي، لأجل خاطري.».

صاح مربِّتًا يدها: «لأجل خاطرك؟ حسنًا! إنه لأجل خاطرك يا أمي. تذكرين ما قاله الضرير عن الذهب، ها هو زحام شجاع! هيَّا! أو انتظري إلى أن أعود، نعم نعم، انتظري هنا».

حاولت بكلِّ ما خلقته مخاوفها من جدية أن تثنيه عن غرضه ولكن

من دون جدوى. كان منحنيًا يربط إبزيم حذائه وإذا عربة أجرة تمرُّ بهما مسرعة بعض الشيء، وصوت من داخلها يصيح بالسائق أن يتوقَّف.

قال الصوت من الداخل: «أيها الشاب».

قال بارنابي وهو ينظر من أسفل: «من ذاك؟».

ردَّ الغريب مادًّا يده بشارة زرقاء: «هل تلبس هذه الحلية؟».

صاحت الأرملة: «بحق السماء، لا، أرجوك لا تعطه إيَّاها!».

قال الرجل من داخل العربة ببرودٍ: «تكلمي عن نفسك يا امرأة، اتركي الشاب يختار لنفسه، فهو ناضج بما يكفي لأن يفعل، ولأن يترك ذيل مريلتك. هو يعرف دون أن تخبريه ما إذا كان ينبغي له أن يرتدي شارة الإنـگـليزي الوفيِّ أم لا».

صاح بارنابي وهو يرتعد بنفاد الصبر: «نعم نعم نعم، أفعل!» إذ صاح بالفعل نحو اثنتي عشرة مرة!

ألقى الرجل إليه بشارة وهو يصيح: «أسرع إلى حقول سان چورچ»، ثم أمر سائق العربة بأن يواصل السير سريعًا، وتركهما وراءه.

كان بارنابي يحاول أن يسوِّي الحلية كأفضل ما يستطيع، ويداه ترتعشان من اللهفة على تثبيتها في قبَّعته، بينما يردُّ في عجالة على دموع وتوسُّلات أمه، وإذا سيدان يمرَّان على الجانب الآخر من الطريق. فلما لاحظ هذان السيدان بارنابي وأمَّه ورأيا ما يشغل بارنابي توقَّفا وتهامسا فيما بينهما برهة، ثم استدارا وعبرا الطريق إليهما.

كان أحدهما يلبس بذلة سوداء بسيطة، ويرسل شعره طويلًا سبطًا ويحمل عصا عظيمةً، فقال ذلك الرجل:

«لماذا تجلسان هنا؟ لماذا لم تذهبا مع الباقين؟».

ردَّ بارنابي منهيًا مهمَّته ومرتديًا قبَّعته بشيء من الفخر: «أنا ذاهب يا سيدي، أنا متجه إلى هناك مباشرة».

قال السيد الثاني بلطفٍ: «قل «سيدي اللورد» أيها الشاب حين يشرِّفك جناب اللورد بالحديث إليك. إذا كنت لا تعرف لورد چورچ غوردن حين تراه، فقد حان الوقت لأن تعرفه».

قال لورد چورچ بينما يخلع بارنابي قبَّعته مجدَّدًا وينحني له بشدة: «لا يا غاشفورد، إنه ليس أمرًا مهمًّا في يوم كهذا، سيذكره كلُّ إنـگـليزي بسرورٍ وفخرٍ. ارتدِ قبَّعتك أيها الصديق واتبعنا، إذ إنك هكذا متأخر، لقد جاورت الساعة العاشرة، ألم تعلم أن ساعة التجمُّع في العاشرة؟».

هزَّ بارنابي رأسه وقلَّب بصره في خواء بينهما، فقال غاشفورد:

«كان يجب أن تعلم بذلك، لقد كان أمرًا مفهومًا تمامًا. كيف تصادف أنك جاهل بما حولك إلى هذا الحد؟».

تدخَّلت الأرملة: «لا يستطيع أن يجيبك يا سيدي، لا جدوى من سؤاله، إننا لم نصل إلى هنا إلا صبيحة اليوم آتيين من مسافة بعيدة في الريف، ولا نعلم شيئًا عن هذه الأمور».

قال لورد چورچ لصاحب سرِّه: «لقد أصبحت للقضية جذور عميقة ومدَّت أغصانها بعيدًا. ما أسعدني إذ أسمع ذلك، إنني أشكر السماء لذلك!».

صاح غاشفورد بوجه صارمٍ: «آمين!».

قالت الأرملة: «أنت لا تفهمني يا سيدي اللورد. سامحني، ولكنَّك

تخطئ بقسوة في فهم ما أعنيه، نحن لا نعلم شيئًا عن هذه الأمور، ليست لدينا رغبة ولا لنا حقٌّ في الانضمام إلى ما أنتم موشكون على فعله. هذا ابني، ابني المسكين المصاب، أعز عليَّ من حياتي، باسم الرحمة يا سيدي اللورد، امضِ في طريقك وحدك، ولا تغره لينزلق إلى الخطر!».

قال غاشفورد: «سيدتي الطيبة، كيف تستطيعين قول ذلك؟! يا ويلي! ماذا تقصدين بالإغراء وبالخطر؟ هل تظنين جناب اللورد أسدًا مزمجرًا يجول ويصول باحثًا عمَّن يلتهمه؟ فليباركني الرب!».

قالت الأرملة متوسِّلةً واضعة كلتا يديها على صدره وهي لا تكاد تعلم ما فعلته أو قالته لفرط جدية ضراعتها:

«لا، لا يا سيدي اللورد، سامحني. غير أنَّ هناك أسبابًا تدعوك إلى أن تسمع دعائي الأمومي المخلص، وتترك ابني معي، أوه، افعل ذلك! إنه ليس في كامل عقله، ليس كذلك حقًّا!».

قال لورد چورچ متملِّصًا من لمستها وقد احمرَّ خجلًا: «إنها لإشارة سيئة من شرور هذا الزمان، أنَّ من يتعلَّقون بالصدق ويدعمون الدعوى الصحيحة يُنعَتون بالجنون! هل طاوعك قلبك على أن تقولي ذلك عن ابنك أيتها الأم الشاذة؟!».

قال غاشفورد بنوعٍ من القسوة الوادعة: «إنني لأعجب لك! يا لها من صورة بالغة الحزن للخسَّة الأنثوية!».

قال لورد چورچ ناظرًا إلى بارنابي وهو يهمس في أذن صاحب سرِّه: «مؤكد لا تبدو عليه سيماء الجنون؟ وحتى لو بدا عليه، يجب ألَّا نتأوَّل كلَّ

غرابة طفيفة باعتبارها جنونًا» وهنا احمرَّ خجلًا ثانية وهو يتابع: «من منَّا سيكون بمنجاة إن كان هذا هو القانون؟!».

ردَّ صاحب السر: «لا أحد. في هذه الحالة، كلَّما اشتدَّ الحماس والصدق والموهبة، وكلما كان النداء أكثر مباشرة من أعلى، كان الجنون أوضح».

ثم أضاف وشفته تتجعَّد قليلًا بينما ينظر إلى بارنابي الذي وقف يلفُّ قبَّعته ويشير إليهم من طرفٍ خفيٍّ أن يخرجوا: «وبالنسبة إلى هذا الشاب يا سيدي اللورد، فهو عاقلٌ متمالك زمام نفسه كأفضل إنسان رأيته».

قال لورد چورچ مخاطبًا إيَّاه: «وأنت تريد أن تكون واحدًا من هذا الجمع الغفير؟ ونويت أن تكون واحدًا منه، أليس كذلك؟».

قال بارنابي بعينين تلمعان: «نعم نعم، نويت ذلك حقًّا! لقد أخبرتها بذلك بنفسي».

ردَّ لورد چورچ وهو يرمق الأم التعيسة بنظرة مؤنِّبة: «مدرك ما تقوله، ولقد ظننت ذلك. اتبعني أنا وهذا السيد وستظفر بما تمنَّيته».

قبَّل بارنابي خدَّ أمِّه في حنان ثم تمنَّى لها أن تبتهج لأنَّ ثروتهما الآن قد كُوِّنت، وما لبث أن انصاع لما طلب منه. أما المسكينة فقد تبعتهما هي الأخرى، وفي صدرها من الخوف والحزن ما يستعصي على الإحاطة.

عبروا سريعًا خلال طريق الجسر حيث كانت الحوانيت كلها مغلقة، إذ أقلق التجار على بضائعهم ونوافذهم مرور الجمع الغفير وتوقُّع عودته، وحيث تجمَّع السكان جميعًا في الطوابق العليا ينظرون إلى الشارع بالأسفل، ووجوههم تنطق بمشاعر متباينة، بين القلق والاهتمام والترقُّب

والاستياء. كان بعضهم يصفِّق وبعضهم يتهامس، لكنَّ لورد چورچ غوردن أخذ يحثُّ الخطى غير عابئ بهذه المقاطعات -إذ كانت ضوضاء هذا الجمع الغفير من الناس على مسافة قليلة منه تبدو لأذنيه أقرب إلى هدير البحر- وها هو قد وصل أمام حقول سان چورچ.

في ذلك العهد كانت حقولًا بالفعل، ممتدة أيما امتداد. هنا اجتمع حشدٌ هائلٌ من الخلق، يحملون رايات من أنواع وأحجام مختلفة، لكنَّها جميعًا من نفس اللون، زرقاء كالشارات. كان بعض الفرق يمشي مصطفًّا بخطوة عسكرية ذهابًا وجيئةً، وبعضها منتظمًا في دوائر ومربعات وخطوط. وكان جزءٌ كبيرٌ من الحشود المستعرضة في الفناء ومن تلك التي ظلَّت ساكنةً مشغولًا بإنشاد الترانيم أو المزامير. وأيًّا كان من يبدأ الإنشاد فقد كان يجري جيدًا، فإن صوت عدة آلاف يغنون معًا كان كفيلًا بأن يطرب قلب أي إنسان، ولم يكن ليقصِّر عن إحداث أثر عجيب في المتحمسين، وإن كان أثرًا خاطئًا.

كان الأدلَّاء قد أرسلوا قبل الحشد ليعلنوا عن مقدم قائدهم. وما إن تقهقر هؤلاء حتى انتشرت الكلمة سريعًا بين الجموع، وتلا ذلك صمتٌ عميقٌ كصمت الموت لفترة وجيزة، كانت الجموع خلالها ساكنةً هادئةً تمامًا، لدرجة أن خفق راية كان من شأنه أن يجذب الانتباه ويتحوَّل إلى ظرفٍ لافتٍ. ثم ما لبثوا أن انفجروا في صيحة جبارة وثانية وثالثة، حتى بدا كأن الهواء قد اهتز وانشقَّ بفعل صياحهم كما لو كان قذيفة أطلقت.

صاح لورد چورچ وهو يضغط ذراع صاحب سرِّه بقوة في ذراعه، بينا صوته ووجهه الذي قد تحوَّل ينطقان بعاطفة جيَّاشة:

«غاشفورد، لقد نوديت الآن حقًّا، أشعر بذلك وأعرفه. إنني قائد جمع، إن استدعوني في هذه اللحظة بصوتٍ واحدٍ لأقودهم إلى الموت فسأفعل، أجل، وسأكون أولهم سقوطًا!».

قال صاحب السر: «يا له من منظرٍ يدعو إلى الفخر. إنه يومٌ نبيلٌ لإنگلترا، وللقضية العظيمة في كل بقعة من العالم. إنَّ مبايعة كهذه التي أستطيع أنا -الإنسان المتواضع المخلص- أن أقدِّمها يا سيدي اللورد..».

صاح سيده وهو يمسكه بكلتا يديه، إذ كان قد شرع يستعرض راكعًا عند قدميه: «ماذا تفعل؟ لا تخرجني يا غاشفورد عن لياقتي للواجب الصارم لهذا اليوم المجيد». اغرورقت عينا السيد المسكين بالدموع وهو ينطق بهذه الكلمات، وتابع: «دعنا ننضم إليهم، علينا أن نجد مكانًا في إحدى الفرق لهذا المجند الجديد، أعطني يدك».

ترك غاشفورد راحته الباردة الخبيثة تنزلق إلى قبضة سيده، وهكذا اختلطا بالجموع يدًا بيدٍ، متبوعين ما زالا ببارنابي وأمِّه كذلك.

كانوا إذ ذاك قد عادوا إلى إنشادهم، وحين مرَّ قائدهم بين الصفوف رفعوا أصواتهم إلى أعلى مداها. كان كثيرٌ من هؤلاء الذين تحزَّبوا معًا لدعم دين بلدهم ولو قادهم هذا إلى حتوفهم لم يسمع في حياته ترنيمةً ولا مزمورًا. غير أنَّهم برئاتهم القوية غالبًا وميلهم إلى الغناء بطبيعتهم شرعوا يصدحون بأي سفاهة أو هزل يخطر ببالهم، وهم على ثقة بأنَّ هزلهم لن يكتشف وسط الجوقة العامة، وإن اكتشف فهم لا يبالون كثيرًا. أُنشد كثيرٌ من هذه المقطوعات القصيرة على مقربة جدًّا من لورد چورچ غوردن، غير أنه كان يمرُّ بهيئته المعتادة الصرامة والوقار غير منتبه تمامًا لِمَا تحمله من

هزلٍ، وهو في غاية السرور لسلوك أتباعه التقيِّ.

هكذا تابعوا ما هم فيه، مارِّين بهذا الخط وذاك، وحول محيط تلك الدائرة، وعلى كل جانب من هذا المربع الفارغ، وبقيت رغم ذلك خطوط ومربعات ودوائر تفوق الحصر والقدرة على استعراضها. وحيث كانت حرارة اليوم قد بلغت أقصى مداها والشمس ترسل أقسى أشعَّتها وأشدَّها ضراوةً إلى الحقول، بدأ حاملو الرايات الثقيلة يشعرون بالتعب والإعياء، وغدا كثيرون يتوقون إلى خلع أربطة أعناقهم وفتح معاطفهم وصدريَّاتهم تمامًا، وكان البعض في منتصف الجمع قد غلبته الحرارة الشديدة تمامًا، تلك التي زادها الزحام الشديد قسوةً، فرقدوا على العشب، وغدوا يعرضون كلَّ ما في حوزتهم مقابل جرعة ماء. رغم ذلك لم يغادر أحدهم المكان، ولا حتى من هؤلاء الذين بلغ منهم الجهد مبلغه، وما زال لورد چورچ ينصبُّ من كلِّ ثقب ماضيًا برفقة غاشفورد، وما زال بارنابي وأمُّه يتبعانهما من قريبٍ.

وصلوا إلى مقدمة خط طويل مكوَّن مما يقرب من ثمانمائة رجلٍ في صفٍّ واحدٍ، وأدار لورد چورچ رأسه لينظر خلفه حين علت صيحة تعرَّف بتلك النبرة الغريبة نصف المكتومة التي يكتسيها الصوت حين يعلو في الهواء الطَّلق وسط جمعٍ غفيرٍ من الناس، وما لبث أحدهم أن تقدَّم من الصف بصيحة مقهقهة وضرب بارنابي على كتفه بيده الثقيلة صائحًا:

«كيف أنت الآن؟ بارنابي ردچ! أين كنت مختبئًا طيلة الأعوام المائة الفائتة؟!».

كان بارنابي يفكِّر بينه وبين نفسه أنَّ رائحة العشب وقد وطئته الأقدام قد أعاد إليه أيَّامه الخوالي حين كان صبيًّا يلعب الكركت في (تشغول غرين). أربكه هذا الخطاب المباغت الهادر فأجفل في حيرة ثم قال بصعوبة:

«ماذا؟! هيو؟!».

أجابه الآخر: «نعم هيو، هيو من مايپول! هل تذكر كلبي؟ إنه ما زال حيًّا، وأراهن أنه سيتذكَّرك، ماذا؟ إنك ترتدي اللون، أليس كذلك؟ حسنًا فعلت، هاهاها!».

قال لورد چورچ: «أرى أنك تعرف هذا الشاب».

«أعرفه يا سيدي اللورد! تمامًا كما أعرف يمناي! وقائدي يعرفه، كلُّنا يعرفه».

«هلّا أخذته إلى فرقتك؟».

قال هيو: «ليس فيها من هو أفضل ولا أخف ولا أنشط من بارنابي ردج. أرني من يقول إنَّ فيها من هو أفضل! انضم إلينا يا بارنابي. سيسير بيني وبين دنس يا سيدي اللورد. ثم أضاف وهو يتناول راية من يد رجلٍ متعبٍ ناوله إيَّاها: «وسيحمل ألطف راية حريرية في هذا الجيش الشجاع».

صرخت الأرملة وهي تنطلق صوبهم: «بحق الرب لا! بارنابي، سيدي اللورد، انظر، سيعود معي، بارنابي، بارنابي!».

صاح هيو وهو يتوسَّط بينهما ويحول دون تقدُّمها: «نساء في الميدان؟! هولوا! هيَّا يا قائدي!».

صاح سايمن تاپرتت وهو يتقدَّم مسرعًا في حماس: «ما الأمر هنا؟ أتدعون هذا نظامًا؟».

أجابه هيو وهو ما زال يحجزها بذراعه المفرودة: «لا شيء من النظام في هذا يا قائد، هذا ضد كل نظام. النساء يمنعن جنودنا البواسل من واجبهم. كلمة القيادة يا قائد! إنهم يتحركون مغادرين الميدان. بسرعة!».

صاح سايمن بكلِّ ما في رئتيه من قوة: «تقاربوا، انتظموا، سيروا!».

طُرِحت الأرملة أرضًا، وتحرّك الميدان بكامله، وأخذت الدوامة بارنابي إلى قلب جمعٍ كثيفٍ من الرجال، ولم تعد هي تراه.

* * *

الفصل التاسع والأربعون

كان الجمع منقسمًا منذ لحظة احتشاده أربعة أقسام، لندن ووستمنستر وساوثوارك وسكوتش. وكلٌّ من هذه الأقسام كان مقسَّمًا بدوره إلى عدة فرق، كل فرقة منها ترسم شكلًا ما، وهكذا كان الترتيب العام غير مفهوم إلا للقادة ورؤساء الفرق القلائل، تمامًا كما تكون خطة معركة كبرى بالنسبة إلى أقل جندي في الميدان. غير أنَّ هذا الترتيب لم يكن يفتقر إلى النهج، فقد تشكَّل هذا الحشد في ثلاث جماعاتٍ كبيرة في فترة قصيرة جدًّا بعد بدء تحرُّكه، وكانت هذه الجماعات على أهبة الاستعداد كما رتَّب لذلك لعبور النهر فوق جسورٍ مختلفة، وللمضيّ إلى مجلس العموم في كتائب منفصلة.

أخذ لورد چورچ غوردن مكانه على رأس تلك الجماعة التي كان يفترض أن تتَّخذ طريق جسر وستمنستر إلى مسرح العمليات، وإلى يمينه غاشفورد وعدد من الهمج ذوي الهيئة التي لا تدعو إلى التفاؤل إطلاقًا، مكوِّنين حوله نوعًا من أركان الحرب. أما قيادة الجماعة الثانية التي كان طريقها يمرُّ بـ(بلاكفرايرز)[1] فقد أسندت إلى لجنة قيادة ربما تضم دستة

(١) بلاكفرايرز Blackfriars في الركن الجنوبي الغربي من مدينة لندن، والاسم يشير إلى المعطف الأسود الذي كان رهبان الدومينيكان يرتدونه.

رجال. هذا في حين أن سايمن تاپرتت كان على رأس الجماعة الثالثة التي كان يفترض أن تسلك جسر لندن ومنه إلى الشوارع الرئيسة حتى يكون في ذلك إعلان عن أعدادها ونواياها الجادة للمواطنين فيقدِّروها، وكان يعاون (سايمن) قليلٌ من التابعين المختارين من رابطة الكلاب الثيران المتحدين، بينهم (دنس) الشانق، و(هيو) وغيرهما.

وفور صدور الأمر أخذت كلُّ جماعة من هذه الثلاث الطريق المرسومة لها، ومضت إلى هدفها في نظامٍ تامٍّ وصمتٍ عميقٍ. كانت الجماعة التي عبرت المدينة تفوق الأخريين عددًا، وكانت ممتدةً امتدادًا مذهلًا، لدرجة أن مقدِّمتها كانت تسبق مؤخِّرتها بأربعة أميالٍ حين بدأت المؤخرة تتحرك، مع ملاحظة أن رجالها كانوا يسيرون ثلاثة ثلاثة، بصفوفٍ جدّ متقاربة.

وفي مقدمة هذه الجماعة كان بارنابي يسير حيث وضعه (هيو) في فورة جنونه، بين ذلك الرفيق الخطير من جانب والشانق من الآخر، وهذا ما ظل يتذكره جيدًا كثيرون من الآلاف الذين كانوا يشاهدون المسيرات في ذلك اليوم. كان جنون اللحظة قد أنساه كلَّ ما عداها، فكان وجهه محتقنًا وعيناه تلمعان بالبهجة، غير عابئ بثقل الراية الكبيرة التي يحملها، لا يلتفت إلَّا إلى تألَّقها تحت الشمس وخفقها مع نسمة الصيف. مضى في طريقه، فخورًا سعيدًا جذلًا إلى درجة تفوق الوصف، فكان بحقٍّ المخلوق الوحيد الخلي القلب السليم الطوية وسط هذا الجمع.

سأله هيو وهما يعبران الشوارع المزدحمة وينظران إلى النوافذ المكتظة بالمشاهدين: «كيف ترى هذا؟ لقد خرجوا جميعًا ليروا أعلامنا

ورایاتنا؟ هاه یا بارنابي؟ لماذا، إن بارنابي أعظم رجل في الجماعة كلها! رایته أكبر الرایات، وأشدها تألقًا. لیس في هذا العرض مثل بارنابي! كل الأعین علیه. هاهاها!».

زمجر الشانق وهو یرمق بارنابي بنظرة تفتقر إلى الاستحسان: «كفّ عن هذا الصخب یا أخي، أرجو ألَّا یكون قد تصوَّر أنّه لا شيء لیفعل إلَّا حمل هذه الخرقة الزرقاء، كصبيٍّ حال خصام رفاقه. أرجو أن تكون مستعدًّا للعمل، هاه؟» ثم أضاف وهو یلكز بارنابي بمرفقه في فظاظة: «أعنیك أنت، فیم تحدِّق؟ لم لا تتكلم؟».

كان بارنابي یحدق إلى رایته، وأخذ ینقل نظرته الخاویة بین من یسأله و(هیو).

قال الأخیر: «هو لا یفهم طریقتك، سأشرح له. بارنابي أیها الصبي الكبیر، انتبه لي».

قال بارنابي وهو ینظر حوله في قلقٍ: «سأنتبه، لكني أتمنى أن أستطیع أن أراها في أي مكان».

سأله دنس بنبرة فظَّة: «ترى من؟ أرجو ألَّا تكون عاشقًا یا أخي؟ تعرف أن هذا الأمر غیر مناسبٍ لأمثالنا. لیس لنا أن نحب هنا».

قال بارنابي: «ستكون حقًّا فخورًا بي إن رأتني الآن، ألیس كذلك یا هیو؟ ألن یسعدها أن تراني على رأس هذا العرض الكبیر؟ أنا واثق أنَّها ستبكي من الفرح. أین یمكن أن تكون؟ إنها لا تراني أبدًا وأنا في أفضل أحوالي، وماذا یهمُّني من أن أكون فرحًا وفي حال جیدة إن لم تكن تراني؟».

قال مستر دنس باستهجانٍ شديدٍ: «أيّ هذر هذا؟! أرجو ألَّا يكون بيننا أعضاء عاطفيُّون».

صاح هيو: «لا يسؤك هذا يا أخي، إنه فقط يتكلم عن أمه».

قال مستر دنس بسبابٍ شديدٍ: «عن من؟!».

«أمِّه».

زمجر مستر دنس باحتقارٍ بالغٍ: «وهل ضممت نفسي إلى هذه الجماعة وخرجت في هذا اليوم المشهود لأسمع رجالًا يتحدثون عن أمهاتهم؟! إن فكرة حبيبة أحدهم سيئة بما يكفي، لكن أم أحدهم؟!» وهنا كان احتقاره قد بلغ درجةً شديدةً حتى لقد بصق على الأرض ولم يستطع أن يقول شيئًا بعد ذلك.

صاح هيو ضاحكًا: «بارنابي محقٌّ، وأنا أقولها. انظر أيُّها الفتى الجريء. إن لم تكن هي موجودةً لتراك، فذلك لأنّي قد أعددت لها مأوىً، وأرسلت نصف دستة رجال، مع كلٍّ منهم راية زرقاء -وإن لم تكن في نصف جمال رايتك- ليأخذوها بدلًا من بقائها هنا إلى منزل عظيم معلَّقة على جدرانه من كلِّ جانب رايات ذهبية وفضية، وفيه كل شيء آخر تحبه، حيث ستنتظر هنا إلى أن تعود إليها، ولن يعوزها شيء».

قال بارنابي ووجهه ينطق بالسرور: «إيه؟ أحقًّا فعلت؟ ما أجمل أن أسمع هذا! ما أحسنه! هيو الطيب!».

ردَّ هيو وهو يغمز لدنس الذي كان ينظر إلى رفيق سلاحه الجديد في دهشة عظيمة: «لكن هذا لا يقاس إلى ما لم يحدث بعد، بوركت».

صاح بارنابي: «أحقًّا؟».

قال هيو: «لا يقاس إطلاقًا. أموال وقبعات مقرَّنة وريش، ومعاطف حمراء وأشرطة ذهبية، كل ما هنالك من أشياء جيدة، وما كان منها وما سيكون، سيكون لنا إن وفَّينا لذلك السيد النبيل، أفضل رجل في العالم، وحملنا راياتنا أيامًا معدودات وحافظنا عليها سليمة، هذا كلُّ ما ينبغي لنا فعله».

صاح بارنابي بعينين تلمعان وهو يحكم قبضته أكثر حول سارية رايته: «أهذا كلُّ ما في الأمر؟ أنا أعدك بأن أحافظ على هذه سليمة إذن. لقد وضعتها في يدٍ أمينة. أنت تعرفني يا هيو، لن يستطيع أحد أن ينتزع منّي هذه الراية».

صاح هيو: حسنًا ما قلت! هاها! ما أنبل ما قلت! هذا هو بارنابي الشديد الذي أعرفه، والذي تسلَّقتُ وقفزت معه، أيامًا وأيامًا. كنت أعرف أنك لن تخيِّب ظني». ثم أضاف هامسًا وهو يتسحَّب إلى الجانب الآخر لدنس: «ألا ترى يا صاحبي أن الفتى على سجيَّته ويمكن إقناعه بفعل أي شيء إذا ما أحسنت معاملته؟ بغض النظر عن كونه أضحوكةً، فإنه حقًّا يساوي دستة من الرجال، وستكتشف هذا بنفسك إن جرَّبته، اتركه لي. وستعرف عمَّا قريب إن كان فيه نفعٌ أم لا».

استقبل مستر دنس هذه الملاحظات التفسيرية بكثيرٍ من الإيماء والغمز، ومنذ هذه اللحظة ألان جانبه لبارنابي. وضع هيو أصبعه على أنفه وعاد إلى مكانه الأول ثم تابعوا المسير في صمتٍ.

كانت الساعة بين الثانية والثالثة بعد الظهر حين تقابلت الجماعات الثلاث في وستمنستر وانضمَّت مكوِّنة كتلة واحدة كبيرة لتطلق صيحة

رهيبة. لم تكن هذه مجرد إشارة إلى حضورهم وإنما كانت إشارة كذلك إلى أولئك الذين كانت مهمَّتهم أن يحتلُّوا قاعات بيتي البرلمان وما يوصل إليهما من دروب فضلًا عن درج البهو. هرع هيو ودنس مباشرةً -وبينهما تلميذهما كما كان- إلى الدرج، وسلَّم بارنابي رايته ليدي واحد من جماعتهم ظلَّ واقفًا يحرس دخولهم على الباب الخارجي. حملهم ضغط أتباعهم من خلفهم إلى أبواب البهو كما لو كان موجةً عظيمةً، وكان من المستحيل أن يتقهقروا حين وصلوا إلى تلك الأبواب، حتى ولو مالت نفوسهم إلى التقهقر، وذلك أنَّ الزحام الذي كان يخنق الممرات يمنع من مجرد التفكير في ذلك. ومن الشائع في وصف أي زحامٍ عظيمٍ أن نقول إنَّ أحدهم كان يمكن أن يسير فوق رؤوس الناس. في حالتنا هذه حدث هذا بالفعل، فقد تصادف أنَّ صبيًّا وُجِد وسط هذا الحشد بوسيلة ما أو بأخرى، وكان موشكًا على أن يختنق، تسلَّق كتفي رجل بجانبه وأخذ يسير فوق قبَّعات وأرؤس الناس إلى الشارع المفتوح، وفي مسيره هذا قطع المسافة الكاملة لدرجين وبهو طويل. ولم يكن الزحام بالخارج أقل كثافةً، فقد تصادف أن سلةً قذف بها وسط الزحام أخذت تترجرج من رأسٍ إلى رأسٍ ومن كتفٍ إلى كتفٍ، وسارت تدوِّم وتدور فوق الجموع حتى غابت عن الأنظار من دون أن تسقط بينهم أو تقترب من الأرض ولو مرة واحدة.

خلال هذا الحشد الكثيف الذي كان المتعصِّبون المخلصون يتناثرون في جنباته هنا وهناك بلا شكٍّ -وإن كان يتكوَّن في معظمه من حثالة لندن وأوباشها الذين تزايدت أعدادهم بفعل القوانين الجنائية السيِّئة ونظم السجون البالية والشرطة التي كانت أسوأ ما يمكن تصوُّره- كان ثَمَّ أعضاء من بيتي البرلمان لم يتمكَّنوا من أخذ احتياطهم ليكونوا في

أماكنهم في ذلك الوقت، فلم يكن أمامهم إلا أن يقاتلوا ليستطيعوا المسير إلى داخل البرلمان. أوقفت عرباتهم وكسِّرت، ونزعت عجلاتها، وتناثر زجاجها شظايا، وتلفت ألواحها، وجُذِب السائقون والخدم والسادة من مقاعدهم بعنفٍ وأطيح بهم في الوحل. وكان اللوردات والعامة والأساقفة المبجَّلون يركلون ويضربون ويدفعون من دون كثير تمييز لأشخاصهم أو أحزابهم، وتتناوبهم الأيدي خلال مراحل مختلفة من الإساءة، ليرسلوا في النهاية إلى زملائهم من أعضاء البرلمان بملابس ممزَّقة كل ممزَّقٍ، وشعورهم المستعارة منزوعة، بينما هم أنفسهم ذاهلون عن الكلام تتقطَّع أنفاسهم، يغطيهم المسحوق الذي نفض من شعورهم. ظلَّ أحد اللوردات طويلًا في أيدي العامة، حتى إنَّ زملاءه اللوردات قرروا أن يتحركوا كتلةً واحدةً ليستنقذوه، وبينما هم في ذلك إذا هو لسعادتهم يظهر بينهم، تغطيه الرضوض والتراب، لا يكاد يتعرَّفه من كانوا أعرف الناس به. كان الصخب والجلبة يتزايدان كل لحظة، واللعنات والزعيق والعواء تملأ الجو. هكذا ظلَّ الحشد مزمجرًا هائجًا بلا توقُّفٍ كوحشٍ مجنونٍ، لا يزيده كل انتهاك يقترفه إلَّا هياجًا.

أما في الداخل فكانت الأمور أكثر تهديدًا. كان لورد چورچ قد أخذ مقعده في ساعة مبكرة قبل أن يشرع رئيس المجلس في صلاته، وكان قد دخل أمامه رجلٌ يحمل الالتماس الضخم على رباط حمَّال عبر الردهة إلى باب مجلس العموم، حيث استقبل الالتماس موظفان من موظفي المجلس ووضعاه على المنضدة جاهزًا لتقديمه. في الوقت نفسه كان أتباع لورد چورچ ينصبُّون إلى الداخل، فما لبثت الردهة والطرقات كلها أن امتلأت بهم كما رأينا. وهكذا لم يقتصر الهجوم على الأعضاء على مسافة مرورهم

في الشوارع وإنما امتد إلى داخل حرم البرلمان، وكان الصخب في الداخل والخارج هائلًا، لدرجة أنَّ من كان يحاول الكلام لم يكن يسمع صوتَ نَفَسِه إلَّا بصعوبة، ولم يكن هؤلاء إلَّا يتباحثون فيما ينبغي لهم فعله في هذا الظرف الشديد، أو يحمِّس بعضهم بعضًا ليقاوموا في صمودٍ وكرامة. وبمجرّد وصول أيّ عضو مشعَّث الشعر مضطرب الهندام ليصارع الزحام من أجل عبور الردهة، كانت الحشود تتصايح وتصرخ في انتصارٍ، وحين كان من بالداخل يواربون باب قاعة المجلس بحذرٍ ليسمحوا بدخوله فيتمكَّن المحتشدون بالخارج من رؤية لمحة مما بالداخل، كانوا يزدادون همجية ووحشية، كاهتياج الوحوش حين ترى فرائسها، ويندفعون صوب البوابة اندفاعًا يضغط أقفالها ورتجها ويهزُّ الأعمدة هزًّا.

كان رواق الغرباء الكائن فوق باب المجلس مباشرةً قد أمر بإغلاقه مع أول إشاعة عن الفوضى الوشيكة، فكان خاليًا إلَّا من لورد چورچ الذي كان يأخذ مقعده هناك بين الفينة والفينة ليكون على قمة الدرج الموصل إليه، فيكرر على مسامع الناس ما كان يحدث بالداخل. وعلى ذلك الدرج كان بارنابي وهيو ودنس واقفين. كانت هناك قلبتان قصيرتان ضيِّقتان متوازيتان شديدتا الانحدار، تؤديان إلى بابين صغيرين متّصلين بممرٍّ خفيضٍ يفتح على الرواق. وبين القلبتين بئرٌ أو فتحة إنارة سقفية غير مصقولة لتسمح بدخول النور والهواء إلى الردهة من ارتفاع ثمانية عشر أو عشرين قدمًا.

على أحد هذين الدرجين الصغيرين –ليس ذلك الذي كان لورد چورچ يظهر على قمته بين الفينة والفينة وإنما الآخر– كان غاشفورد واقفًا مستندًا بمرفقه إلى الدرابزين، مريحًا خدّه على يده، بهيئته الماكرة المعتادة. وكان كلما غيَّر هذه الوضعيَّة أقلَّ تغيير –ولو بحركة بالغة اللطف

من ذراعه- كان الصخب يزداد بالتأكيد، ليس قربه فحسب وإنما في الردهة بالأسفل، حيث كان أحدهم بلا شكٍّ يقوم بدور المثال المحتذى بالنسبة إلى الآخرين، فكان ينظر إلى أعلى دائمًا مرتقبًا كلَّ إيماءة من غاشفورد.

وحين ظهر لورد چورچ على قمة الدرج صاح هيو بصوتٍ سُمِع فوق الصخب والجلبة: «انضباط! أنباء! أنباء من سيدي اللورد!».

استمرت الجلبة رغم ظهوره حتى قلَّب غاشفورد بصره فيما حوله. إذ ذاك ساد الصمت على الفور، حتى بين الواقفين في الممرات الخارجية، وعلى السلالم الأخرى ممن لم يكن في مقدورهم أن يروا أو يسمعوا، وإن كانت الإشارة قد نقلت إليهم بسرعة معجزة رغم ذلك.

قال لورد چورچ الذي كان في غاية الشحوب والارتباك: «أيها السادة، علينا أن نصمد. إنهم يتحدثون عن تأجيلاتٍ، غير أنه يتحتَّم ألَّا تكون هناك تأجيلات. يتحدثون عن المداولة في أمر التماسكم الثلاثاء المقبل، غير أنه يجب أن يُنظَر التماسنا الآن. لا تبدو الأمور كما هي عليه مبشِّرةً بنجاحنا، غير أننا ينبغي لنا أن ننجح، وسننجح!».

ردَّد الجمع: «ينبغي لنا أن ننجح وسننجح!» وهكذا انحنى لهم وانسحب بين صيحاتهم وزعيقهم وهتافاتهم، ثم ما لبث أن عاد ثانية. تبعت ظهوره إيماءة أخرى من غاشفورد، وساد صمتٌ قاتلٌ على الفور.

قال هذه المرة: «أخشى أيها السادة ألَّا يكون لدينا ما يبرِّر تمسُّكنا بأي أملٍ في شيء من الإنصاف تسفر عنه مداولات البرلمان. غير أنه ينبغي لنا أن ننتصف لما يكربنا، وعلينا أن نلتقي ثانيةً، وعلينا أن نثق بالعناية الإلهية، وستبارك جهودنا».

أما وقد كانت هذه الخطبة أكثر اعتدالًا بقليلٍ من سابقتها، فإنَّ الجمهور لم يحسن استقبالها. وحين بلغ الصخب والسخط أقصى مداهما عاد ثانيةً وأخبرهم بأن القلق قد انتشر لأميالٍ عدة من حولهم، حتى إنه لا يخالجه شكٌّ في أنَّ جلالة الملك حين سيسمع باحتشادهم في هذا الحشد العظيم سيرسل أوامر خاصة بتلبية مطالبهم. وكاد يواصل حديثه على المنوال ذاته بأسلوبه الطفولي نفسه المفعم بالارتباك والحيرة، لولا الظهور المباغت لسيدين على الباب حيث كان يقف، إذ تجاوزاه ونزلا درجتين على السلم ليواجها الجموع.

ألجمتهم مفاجأة هذا الفعل الجريء، وزاد ارتباكهم أن التفت أحد السيدين إلى لورد چورچ قائلًا بصوتٍ عالٍ حتى يسمعوه جيدًا، وإن كان في برودٍ ورصانة:

«لك أن تخبر هؤلاء الناس إن شئت يا سيدي اللورد بأنني الجنرال (كنواي) الذي سمعوا به، وأنني ضد التماسهم وكل ما يقومون وتقوم به. لك أن تخبرهم بأنني رجلٌ عسكريٌّ وسأحمي حرية هذا المكان بسيفي. لعلَّك رأيت يا سيدي اللورد أن أعضاء هذا المجلس مسلَّحون اليوم جميعًا، ولعلَّك تعرف أن مدخله ضيق، ولا أظنك تجهل أن رجالًا بين هذه الجدران مصمِّمون على الدفاع عن هذا الممر إلى النهاية، ولا بُدَّ أنّ كثيرين سيلقون مصرعهم أمامهم إن استمر أتباعك فيما هم فيه، تدبَّر ما ستفعله».

قال السيد الآخر مخاطبًا إياه بالأسلوب نفسه: «وإنني أرغب أن يسمعوا هذا مني يا سيدي اللورد چورچ، أنا الكولونيل غوردن، قريبك.

إذا عبر واحدٌ من هذا الجمع الذي يصم آذاننا صخبه عتبة مجلس العموم، فإنني أقسم –لا أن أقتله هو– وإنما أن أقتلك أنت في هذه اللحظة!».

وما إن فرغا من خطابيهما حتى تراجعا ووجهاهما جهة الحشود، وأخذ كلٌّ منهما أحد ذراعي الرجل النبيل المضلل ساحبين إيَّاه إلى الممر، وأغلقا الباب ثم أرتجاه من الداخل.

حدث ذلك بسرعة بالغة، وكان سلوك كلا الرجلين اللذين لم يكونا شابين مفعمًا بالفروسية والتصميم، حتى لقد ارتبك الجمع وحدَّق كلٌّ منهم إلى رفاقه بنظراتٍ ملؤها الخوف والحيرة. حاول كثيرون أن يستديروا صوب الباب، وصرخ بعض ضعاف القلوب أن أولى بهم أن يعودوا أدراجهم، ونادوا من خلفهم أن يفسحوا الطريق، وكان الخوف والحيرة يزدادان بسرعة، وفي تلك الأثناء همس غاشفورد في أذن هيو.

زمجر هيو بصوتٍ جهيرٍ وهو يلتفت إلى الجموع: «ماذا الآن؟ لماذا نتراجع؟ في أي مكانٍ تستطيعون أن تبلوا أفضل من هنا أيها الصبية؟! اندفاعة قوية على هذه الأبواب، وأخرى مثلها بالأسفل في الوقت نفسه، تكفيان لإنهاء الأمر. انطلقوا إذن! بالنسبة إلى الباب الذي بالأسفل، فليتراجع الخائفون. أمَّا غير الخائفين فليروا من منهم يكون أول من يعبره، هيَّا! انظروا إلى الأسفل هناك!».

ودون لحظة تردُّد ألقى بنفسه رأسيًّا على الدرابزين إلى الردهة بالأسفل. وما إن لمست قدماه الأرض حتى كان بارنابي إلى جواره. انسحب على الفور معاون الكاهن مع بعض الأعضاء الذين كانوا يتوسَّلون إلى الحشود أن تتراجع، ثم ما لبث الحشدان بالأعلى والأسفل أن اندفعا

صوب الأبواب في فوضى، مطلقين صيحةً عظيمةً، وطوَّقوا المجلس في حماسٍ.

في تلك اللحظة حين كانت بداية ثانية كفيلةً بجعلهم يصطدمون بأولئك الواقفين في مواقع الدفاع بالداخل –وهو أمرٌ لو حدث لترتَّب عليه فقد الكثير من الأرواح ولسالت دماء غزيرة بلا شكٍّ– أفسح الجزء الخلفي من الحشد الطريق، وانتشرت شائعة من فمٍ إلى فمٍ، مفادها أنَّ رسولًا قد أرسل عبر الماء إلى الجيش الذي كان يعد تشكيلاته في الشارع. وفي خوفهم من التعرُّض لهجمة بينما هم مزدحمون إلى درجة التلاصق في الممرات الضيقة، انصبَّت الحشود إلى الخارج في تهور كما اقتحمت المكان في تهور. ولأنَّ التيار قد انعكس اتجاهه بالكامل مرة واحدةً فقد انجرف معه بارنابي وهيو، وهكذا بعد أن قاتلا وصارعا ووطئا أجساد من سقطوا ووطئ جسداهما، طفوا مع الحشد تدريجيًّا إلى الشارع المفتوح، إلى حيث هرعت كتيبة كبيرة من (الحرَّاس) خيَّالةً ومشاةً، تخلي الفناء أمامها بسرعة كبيرة، حتى لقد بدا كأنَّ الناس يذوبون كلما تقدَّمت تلك الكتيبة.

وما إن صدر إلى الجنود الأمر بالتوقُّف حتى تشكَّلت صفوفهم في الشارع، وكذا تشكَّلت صفوف المتظاهرين الذين كانوا يلهثون منهكين مما بذلوا من جهدٍ، وإن جاءت صفوفهم بالغة الافتقار إلى التنظيم. أسرع الضابط القائد على صهوة جواده إلى الفضاء المفتوح بين الطرفين، وبرفقته قاضٍ وموظفٍ من مجلس العموم، وأسرع جنديان بالترجُّل عن حصانيهما ليركبا هذين الأخيرين مكانهما. تُلي قانون مكافحة الشغب، غير أنَّ أحدًا لم يحرك ساكنًا.

كان بارنابي وهيو واقفين جنبًا إلى جنبٍ في الصف الأول من الثوار. كان أحدهم قد دفع إلى يدي بارنابي حين خرج إلى الشارع رايته الثمينة التي كانت تبدو الآن وقد لفَّت وربطت حول ساريتها نبُّوتًا عملاقًا، وقد وقف آخذًا حذره وهو يقبض عليها بثباتٍ. ولو كان لإنسان أن يعتقد من كلِّ روحه وقلبه أنه منخرطٌ في الدفاع عن قضية عادلة، وأنَّ عليه أن يقف إلى جوار قائده إلى النهاية، فقد كان بارنابي المسكين هذا الإنسان، معتقدًا ذلك في نفسه وفي لورد چورچ غوردن.

وبعد أن حاول القاضي دون جدوى أن يسمع الناس صوته، أصدر الأمر، فجاء الحرَّاس الخيَّالة راكبين وسط الجموع. لكنه حتى بعد ذلك أخذ يركض هنا وهناك حاثًّا الناس على أن يتفرَّقوا، ورغم تعرُّض الرجال لحجارة ثقيلة ألقيت عليهم فجرحت بعضهم ورضَّت البعض الآخر، لم يتلقَّوا من الأوامر إلَّا ما يوجب عليهم أن يأسروا من المتظاهرين أنشطهم، وأن يسوقوا الناس إلى التقهقر بمتون سيوفهم. ولمَّا رأى المحتشدون أنَّ الخيل قد توسَّطتهم، أفسحوا الطريق في نقاطٍ عديدة، وما لبث الحرس أن بنوا على ما ربحوه فأجلوا المحتشدين بسرعة، وإذ ذاك انبرى اثنان أو ثلاثة منهم كانوا قد انقطعوا عن البقية بفضل من يحيط بهم من الناس، واتجه هؤلاء مباشرةً إلى بارنابي وهيو اللذين كانا قد أشير إليهما بلا شكٍّ باعتبارهما من سقطا إلى الردهة من أعلى، وأخذوا يصيبون الأكثر هياجًا من أعدائهم بجروحٍ طفيفة قليلة، سقط بتأثيرها عددٌ من المتظاهرين هنا وهناك بين أذرع رفاقهم وسط الكثير من الصراخ والبلبلة.

امتقع وجه بارنابي وغثيت نفسه حين رأى الوجوه المجروحة تسيل دماؤها للحظة في الزحام قبل أن يخفيها عنه تدافع الناس. لكنَّه تمالك

نفسه وشدَّد قبضته على سارية رايته، وثبَّت بصره على أقرب جنديٍّ إليه، وهو يومئ خلال ذلك بينما هيو يهمس في أذنه بهيئته المتجهِّمة.

أقبل الجندي وهو يهمز حصانه، حتى جعله يشبُّ حين تكأكأ الناس عليه، وأخذ يضرب بسيفه أيدي من أرادوا الإمساك بزمام حصانه ليجبروه على العودة من حيث أتى، ويلوِّح لرفاقه أن يتبعوه، وظلَّ بارنابي ينتظر مقدمه من دون أن يتراجع قيد أنملة. أهاب به البعض أن يهرب، وشرع البعض يحيطونه ليمنعوه من الأسر، وبينا هم على ذلك إذا ساريته تشقُّ الهواء فوق أرؤس الناس، وسرج الرجل يخلو منه في لحظة.

إذ ذاك استدار هو وهيو وهربا، حيث فتحت الجموع لهما الطريق ليعبرا، ثم أغلقت الصفوف ثانية في سرعة بالغة، حتى لم يبقَ من دليلٍ على الطريق التي أخذاها في هروبهما. وصلا إلى أمان ضفَّة النهر وهما يلهثان محمومين والغبار يغطيهما، وقد بلغ منهما الجهد مبلغه. وما لبثا أن ركبا قاربًا بكلِّ ما أوتيا من سرعة، فأصبحا خارج دائرة الخطر القريب.

وبينما ينزلق بهما القارب على صفحة النهر سمعا بوضوحٍ الناس يتصايحون في مرحٍ، فافترضا أنهم ربما أجبروا الجنود على التقهقر، فما كان منهما إلَّا أن استلقيا على مجدافيهما دقائق معدودة، حائرين فيما ينبغي لهما فعله: أيعودان أم لا. غير أنَّ الحشود ما لبثت أن عبرت جسر وستمنستر، فلم يبقَ لديهما شكٌّ في تفرُّق الجمع، وكان هيو محقًّا حين استنتج من ذلك أنَّ ما سمعاه كان هتاف الناس للقاضي حين عرض أن يصرف الجيش شريطة أن يخلوا المكان فورًا عائدين إلى بيوتهم، وأنه يحسن به هو وبارنابي أن يبقيا في مكانهما. ولذا فقد اقترح أن يتَّجها إلى

بلاكفرايرز، وبعد أن يصلا إلى ضفة النهر عند الجسر أن يسرعا ما أسعفتهما الخطى إلى حانة (البوت) حيث التسلية الجيدة والمأوى الآمن، وإضافة إلى هذين فمن المؤكَّد أنَّ كثيرين من رفاقهما المتأخِّرين سينضمُّون إليهما هناك. ولمَّا لم يكن ثَمَّ مانعٌ لدى بارنابي فقد قرَّرا أن ينفِّذا ذلك الاقتراح، ويمَّما شطر بلاكفرايرز.

وصلا إلى البرِّ في وقتٍ حرجٍ، ولحسن حظِّهما كان هذا في اللحظة المناسبة، فإنهما حين دخلا شارع (فليت) وجداه في هرجٍ ومرجٍ غير معتادين، ولمَّا سألا عمَّا عسى أن يكون السبب أجيبا بأنَّ طائفةً من حرس الخيَّالة قد مرَّت منذ قليلٍ، وفي أيديهم أسرى من المتظاهرين، ذاهبين بهم إلى سجن (نيوغات). ولمَّا لم يكن يسوؤهما أن ينجوا بأعجوبة من الخيَّالة على هذا النحو، فقد عزما ألَّا يضيعا المزيد من الوقت في الأسئلة، وإنما هرعا إلى (البوت) بأقصى سرعة قدَّر هيو ضرورتها، من دون أن يبدو عليهما شيء من الغرابة أو يلفتا إليهما قدرًا غير مريح من انتباه العامة.

* * *

الفصل الخمسون

كانا من أوائل من وصلوا إلى الحانة، غير أنهما ما كادا يمضيان هناك دقائق حتى دخلت الحانة هائمة على وجوهها عدة مجموعات ممن كانوا يكوِّنون جزءًا من الحشود. كان بين هؤلاء سايمن تاپرتت ومستر دنس، حيث حيّى كلاهما -والأخير بخاصة- بارنابي تحية مفعمة بالدفء، وأطرياه كثيرًا لما أظهره من البراعة.

وضع دنس نبُّوته في ركنٍ ووضع عليه قبَّعته، ثم أخذ مقعده إلى المنضدة نفسها التي يجلسون إليها وهو يقول:

«إنه شيء يطيب لي التفكير فيه، كانت هناك فرصة! لكنها لم تؤدِّ إلى شيء. بالنسبة إليَّ، فإنني لا أعرف ما كان يمكن أن يؤدي إلى شيء. ليس في الناس روح في زماننا هذا. ائتنا بشيء لنأكل ونشرب هنا، أنا قرفت من البشرية».

كان مستر تاپرتت يطفئ وجهه المحموم في صفيحة نصف غالون، فسأل: «لماذا؟ ألا تعتبر هذه بدايةً جيدةً أيها السيد؟».

ردَّ الشانق: «اضمن لي أنها ليست نهاية. حين سقط ذلك الجندي كان بإمكاننا أن نستولي على لندن، لكن لا، إننا بدلًا من ذلك نظل واقفين

نتفرج ونشاهد. القاضي -ذلك الذي أتمنى لو كان قد أصيب برصاصة في كلِّ عين، وهو ما كان سيحدث لو كنَّا قد عملنا بالطريقة التي أفضِّلها- يقول «يا أولادي، إن وعدتموني بأن تتفرَّقوا فسآمر الجيش بالانسحاب»، فتصيح جماعتنا «هورّاه» وتنفض أيديها من اللعبة وفيها البطاقات التي تضمن الفوز، ويتسلَّل بعضهم لواذًا في إثر بعضٍ كجماعة من الكلاب الأليفة، وهم كذلك»، ثم أردف الشانق في نبرة مفعمة باشمئزازٍ عميقٍ: «آه! شيء يجعل جبيني يندى لأجل زملائي، أتمنى لو كنتُ خلقت ثورًا، نعم!».

ردَّ سايمن تاپرتت وهو يخرج بأسلوبٍ متعالٍ: «أعتقد أنك كنت ستتمتَّع بالشخصية اللطيفة نفسها لو كنت ثورًا».

ردَّ الشانق مناديًا إيَّاه: «لا تكن واثقًا من ذلك أكثر من اللازم. لو كنت حيوانًا بقرنين في هذه اللحظة، ولي أقل قدرٍ ممكنٍ من العقل، لطعنت بقرنيَّ كلَّ من في هذه الرفقة إلَّا هذين» -مشيرًا إلى هيو وبارناب- «لما فعلاه اليوم».

بهذه الاستعادة الحزينة لما مرَّ بهم اليوم بحث مستر دنس عن السلوى في اللحم المسلوق البارد والجعة، لكن دون أن ينفرج شيء من تعبير وجهه العابس الساخط، بل إنَّ أثر ما تناوله سائغًا زاد كآبة ملامحه بدلًا من أن يذهبها.

كان يمكن للرفقة التي سُبَّت على هذا النحو أن تثأر لنفسها بكلماتٍ شديدة إن لم يكن بالضرب، غير أنهم كانوا منهكين منقبضي الصدر. كان أغلبهم صائمًا منذ الصباح، وكلُّهم قد عانى الحرَّ الشديد أيما معاناة،

وكثيرون قد فقدوا أصواتهم تمامًا بين صياح اليوم وإرهاقه وإثارته، ومع أصواتهم فقدوا كثيرًا من طاقتهم حتى كانت أقدامهم تحملهم بصعوبة. وبعد فقد كانوا في حيرة مما ينبغي لهم فعله بعد ذلك، وفي خوفٍ من تبعات ما فعلوه بالفعل، مدركين أنهم لم يحققوا هدفًا في النهاية، بل تركوا الأمور أسوأ مما وجدوها. ومن بين من دخلوا (البوت) أخذ النوم كثيرين خلال ساعة، ومن كان منهم صادقًا مخلصًا حقًّا عزم على ألَّا يعود أبدًا وألَّا يتواصل مع من كانوا رفاقه بعد خبرة الصباح. بقي آخرون ليستعيدوا نشاطهم فحسب، ثم عادوا إلى بيوتهم مكتئبين. وآخرون ممن كانوا مواظبين على الحضور إلى هذه الحانة تجنَّبوها تمامًا. وقد زادت الإشاعات عددَ من سقطوا أسرى في أيدي الحرس من نصف دستة إلى خمسين على الأقل، فخار عزم أصدقائهم المتعبين العقلاء وانحنوا تحت وطأة هذه التأثيرات المثبِّطة، حتى إنه بحلول الثامنة مساءً لم يبقَ في المكان إلَّا دنس وهيو وبارنابي. وحتى هؤلاء سقطوا في نومٍ عميقٍ على مقاعدهم ولم يوقظهم إلَّا دخول غاشفورد.

قال صاحب السر: «أوه! أنتم هنا إذن! يا ويلي!».

ردَّ دنس وهو يعدِّل وضعيَّته جالسًا: «لماذا؟ أين ينبغي لنا أن نكون يا مستر غاشفورد؟».

ردَّ بلطفٍ بالغٍ: «أوه، ليس في أي مكان. الشوارع ملأى بالشارات الزرقاء. لقد فكرت أنكم بينهم. أنا سعيدٌ أنكم لستم بينهم».

قال هيو: «لديك أوامر لنا إذن يا سيدي؟».

«أوه، لا يا عزيزي، ليس ثَمَّ أوامر، لا أوامر يا صديقي الطيب، أي أوامر يمكن أن أحملها؟ إنكم لستم في خدمتي».

احتجَّ دنس: «مستر غاشفورد، نحن ننتمي إلى القضية، ألسنا كذلك؟».

كرَّر صاحب السر وهو ينظر إليه نظرةً شاردةً: «القضية؟ ليس ثَمَّ قضيّة، القضية خسرت».

«خسرت!».

«أوه، نعم. أظنُّك قد سمعت، لقد رفض الالتماس مائة واثنان وتسعون عضوًا مقابل ستَّة قبلوه؛ إنها النهاية تمامًا. كان يمكن أن نوفِّر على أنفسنا بعض المتاعب. لا أشعر بالحسرة إلَّا لذلك ولما يشعر به سيدي اللورد من غيظٍ. لكنني راضٍ تمامًا بالنظر إلى كلِّ ما سوى ذلك».

وإذ فرغ من قوله أخرج من جيبه مدية ووضع قبَّعته على ركبته ثم استغرق في نزع الشارة الزرقاء التي ظل يلبسها طيلة النهار وهو يدندن في الوقت ذاته ترنيمة كانت منتشرةً جدًّا في الصباح، ويفيض في دندنتها بحسرة وادعة.

نظر رفيقاه كلٌّ إلى صاحبه وإليه كما لو كانا في حيرة كيف يتابعان الحديث في الأمر. أخيرًا تجرَّأ هيو بعد لكز وغمز تبادلهما مع مستر دنس، وأمسك بيد غاشفورد سائلًا إيَّاه لماذا يعبث بذلك الشريط في قبَّعته.

قال صاحب السرِّ ناظرًا إليه بشيء بين التمتمة والابتسام: «لأنَّ.. لأنه من المثير للضحك أن أجلس ساكنًا أو أسقط نائمًا وأنا أرتديها، هذا كلُّ ما في الأمر يا صديقي».

صاح هيو: «ماذا تحب أن نفعل يا سيدي؟!».

ردَّ غاشفورد هازًّا كتفيه: «لاشيء، لا شيء. حين وبِّخ سيدي اللورد

وهدِّد لوقوفه معكم، لم يكن يطيب لي كرجلٍ حكيمٍ أن تفعلوا شيئًا. حين كان الجنود يطؤونكم بحوافر خيلهم، لم يكن يطيب لي أن تفعلوا شيئًا. حين صرعت يد جريئة أحدهم، ورأيت وجوههم جميعًا تنطق بالارتباك والخوف، لم يكن يطيب لي أن تفعلوا شيئًا. باختصارٍ، ليس إلَّا ما فعلتموه، هذا هو الشابّ صاحب القليل من الحكمة والكثير من الجرأة، آه! أنا آسف لأجله!».

صاح هيو: «آسف يا سيدي؟!».

ردَّد دنس: «آسف يا مستر غاشفورد؟!».

قال غاشفورد ببرودٍ: «إذا ما أعلنوا غدًا عن مكافأة خمسمائة جنيه أو مبلغ ضئيل كهذا لمن يمسك به، وإذا ما ضمَّ الإعلان رجلًا آخر سقط إلى الردهة من أعلى السلم، فحتى في هذه الحالة لا تفعلوا شيئًا».

صاح هيو وهو يقوم من مكانه مغضبًا: «نار وغضب يا سيدي! ماذا فعلنا حتى تكلِّمنا بهذه الطريقة؟».

ردَّ غاشفورد ساخرًا: «لا شيء، إذا ما رمي بك في السجن.» ثم نظر في صرامة إلى وجه بارنابي المنتبه وتابع:

«وإذا ما جرُّوا هذا الشاب من بيننا ومن بين أصدقائه، وربما من بين من يحبهم، ومن سيقتلهم موته، ثم ألقوا به في الحبس، ثم أخرجوه وشنقوه أمام أعينهم، فلا تفعلوا شيئًا. أنا واثق أنكم ستجدون في ذلك أفضل خطة تنتهجونها».

صاح هيو وهو يتَّجه صوب الباب بخطىً واسعة: «تعاليا، دنس، بارنابي، تعاليا!».

قال غاشفورد وهو ينسلُّ من جانبه ويقف وظهره إلى الباب: «إلى أين؟ ماذا ستفعلون؟».

صاح هيو: «إلى أي مكانٍ. أي شيء! تنحّ جانبًا يا سيدي وإلَّا فالنافذة كفيلة بخروجنا كالباب. دعنا نخرج!».

قال غاشفورد مغيِّرًا أسلوبه إلى أطيب ما في جعبة الصداقة وألطف ما في المزاح: «هاهاها! ما أشد تهوُّر طبيعتك! يا لك من مخلوق سهل الإثارة، لكن ألن تشرب معي قبل أن تمضي؟».

زمجر دنس وهو يمسح شفتيه الظامئتين بكمِّه: «أوه، بلى، بالطبع. لا حزازة يا أخي. اشرب مع مستر غاشفورد!».

مسح هيو جبهته المحمومة وتحوَّلت ملامحه إلى الابتسام، فما كان من صاحب السر الماكر إلَّا أن انطلق ضاحكًا ثم قال في خبثٍ:

«بعض الشراب هنا! أسرع وإلا فإنه لن يتوقَّف حتى لأجل الشراب! إنه رجلٌ ذو مزاجٍ شديد الحدَّة! ما إن يثره أحدهم حتى يصبح شخصًا متوحِّش العزيمة!».

وهو ما أكَّده مستر دنس بعددٍ من الإيماءات والأيْمان التي حلفها مغمغمًا.

رفع هيو ذراعه المتينة عاليًا ثم ضرب ظهر بارنابي آمرًا إيَّاه بألَّا يخشى شيئًا، تصافحا، وكان من الواضح أن بارنابي المسكين واقعٌ بالكامل تحت سيطرة فكرة مفادها أنَّ هيو واحدٌ من أعمق أبطال العالم فضيلةً ونزاهةً، وقهقه غاشفورد مجدّدًا. وبينما يقف غاشفورد بينهم وفي يده قنِّينة شراب هائلة يترع منها كؤوسهم بسرعة كلما أرادوا، قال في نعومة:

«لقد سمعت –وإن كنت لا أستطيع أن أفصل فيما إذا كان هذا صحيحًا أو غير ذلك– أن الرجال الذين ما زالوا يتسكَّعون في الشوارع الليلة تحدوهم رغبة غير مكتملة في هدم كنيسة كاثوليكية أو اثنتين، وأنهم لا ينقصهم إلا القادة. بل إنني سمعت من يذكر هؤلاء الموجودين في شارع (ديوك) و(لنكن إن فيلدز) وشارع (واروك) و(غولدن سكوار)، لكنكم تعرفون إنها ربما كانت أخبارًا متواترة، ألن تذهبوا؟».

صاح هيو: «لكي لا نفعل شيئًا يا سيدي، أليس كذلك؟ لا سجن ولا حبل مشنقة، لا لبارنابي ولا لي. يجب أن يخافوا أن يقدموا على مثل ذلك. ينقصهم القادة، أليس كذلك؟ الآن يا أولاد!».

صاح صاحب السر: «يا له من متهوِّر! هاها! رجل شجاع هادر لا تلين شكيمته! رجل .».

لم يكن بحاجة إلى إنهاء الجملة، فقد انطلقوا خارجين من الحانة وابتعدوا حتى لم يعد في مقدورهم سماعه. توقَّف في منتصف القهقهة وأخذ يتسمَّع وارتدى قفَّازيه، ثم شرع يذرع الغرفة المهجورة مدةً طويلةً وهو مشبِّك يديه خلف ظهره، ثم لوى عنان خطوه إلى المدينة الهادرة مقتحمًا شوارعها.

كانت الشوارع مكتظة بالناس، فقد أحدثت شائعات ما جرى نهارًا جلبةً عظيمة. أما من لم يهتموا بمغادرة بيوتهم فقد كانوا واقفين لدى أبوابهم ونوافذهم، ولم يكن ثم إلَّا موضوع واحد يسيطر على المناقشات على كل جانبٍ. كان البعض يقول إنَّ التظاهرات قد أخمدت تمامًا، والبعض يزعم أنها اندلعت مجدَّدًا. البعض يقول إنَّ لورد چورچ غوردن

اقتيد تحت حراسة مشدَّدة إلى البرج، والبعض يدَّعي أنَّ أناسًا قد حاولوا اغتيال الملك، وأنَّ الجنود قد أُمِروا بالخروج ثانيةً، وأنَّ جلبة البنادق كانت تُسمَع بوضوحٍ من ركنٍ قصيٍّ من المدينة خلال الساعة الماضية. ومع ازدياد ظلمة الليل كانت هذه القصص تأخذ منحىً أشد كارثية وغموضًا، وكثيرًا ما كان أحد المسافرين المذعورين يركض قريبًا، حاملًا أخبارًا عن اقتراب المتظاهرين، فيسرع الناس إلى إحكام إغلاق أبوابهم وتأمين نوافذهم السفلية، ويتصاعد القلق كما لو كانت المدينة تتعرَّض لغزو جيشٍ أجنبيٍّ.

ظلَّ غاشفورد يجول متستِّرًا، متسمِّعًا كل ما يصل إلى أذنيه، وأخذ ينفي أو يثبت ما يسمع من الأخبار الكاذبة حسبما يفيد أغراضه، ما سنحت له إلى ذلك فرصة، ثم ما لبث أن دخل (هولبورن) للمرة العشرين وهو منشغل على هذا النحو، وإذا جمعٌ من النساء والأطفال يركض بطول الشارع، ركضًا كثيرًا ما يقطعه اللهاث والنظر إلى الخلف، وصكَّ أذنه لغطٌ متداخلٌ من أصواتٍ كثيرة. وحين أكدت له هذه العلامات مع الضوء الأحمر الذي بدأ يومض على المنازل على الجانبين أن بعض أصدقائه يقترب بالفعل، طلب المأوى للحظة لدى باب انفتح حين مرَّ إلى جواره، وما لبث أن ركض مع أشخاص آخرين إلى نافذة عليا ونظر من خلالها إلى الزحام.

كان بينهم من يحملون مشاعل، وكانت الوجوه الرئيسة مرئية بوضوحٍ. كان واضحًا جدًّا كذلك أنهم كانوا منشغلين بهدم مبنىً ما، كما كان واضحًا من الأسلاب التي يحملونها غنائم أنَّ ذلك المبنى دار عبادة كاثوليكية، إذ كان يسهل التعرُّف على ملابس كهنة وقطع فخمة من أثاث المذبح. كان بارنابي وهيو ودنس يتقدَّمون الجميع مسرعين كمجانين بشعين، والتراب

والوسخ والجير والسناج يغطِّيهم، وملابسهم ممزَّقة وشعورهم تتدلَّى شعثاء من حولهم، وأيديهم ووجوههم مجروحة تنزف مما أحدثتها بها المسامير الصدئة. وفي إثرهم الجمع الغفير يقاتل في تقدُّمه، والبعض يغني، والبعض يصيح في ظفرٍ، والبعض يتشاجر فيما بينه وبين نفسه، والبعض يهدِّد من يتفرَّجون في أثناء مروره، والبعض يحمل قطعًا خشبيةً عظيمةً يجعلها هدفًا لهياجه كما لو كانت من الأحياء، فيمزِّقونها إربًا إربًا، ويلقون بالجذاذات المتناثرة عاليًا في الهواء، والبعض سكران غير واعٍ بما تلقَّاه من إصاباتٍ أحدثها به الطوب المتساقط والأحجار والأعمدة، وواحد محمول على ضلفة باب في المنتصف بالضبط، مغطًّى بقماشٍ رثٍّ كما لو كان كومةً ضخمةً جامدة. هكذا مضت الجموع كرؤيا من أوجه فظَّة تتخلَّلها هنا وهناك بقعة ضوءٍ مدخَّن محتدم، أو كحلمٍ مزروعٍ برؤوس الشياطين والأعين المتوحشة والعصيّ وقضبان الحديد المرفوعة في الهواء يطوِّح بها حاملوها، أو كرعبٍ محيِّر رؤي به الكثير، وما زال ما رؤي به قليلًا، يبدو طويلًا جدًّا، غير أنه ما زال قصيرًا جدًّا، مكتظًّا بالأشباح التي لا يمكن أن تنسى مدى الحياة، وبعد فهو مكتظٌّ بأشياء كثيرة جدًّا لا تحيط بها نظرة عابرة، إلى أن اختفت عن أنظار المتفرِّجين.

وبينا هم ماضون لشأنهم المفعم بالحقد والخراب سُمِعت صرخة مدوِّية. هرعت مجموعة من الأشخاص إلى تلك البقعة، وبينهم غاشفورد الذي كان قد ظهر لتوِّه في الشارع. كان على حافة الجمع الصغير، غير قادرٍ على أن يرى أو يسمع ما يحدث داخله، غير أنَّ شخصًا آخر كان في مكان أفضل قد أخبره بأنَّ أرملة قد بصرت بولدها بين المتظاهرين.

قال صاحب السر وهو يدير وجهه صوب البيت: «أهذا كل ما في الأمر؟ حسنًا! أعتقد أنَّ هذا يبدو أقرب قليلًا إلى العمل الحقيقي!».

الفصل الحادي والخمسون

رغم أن هذه الانتهاكات كانت تبدو واعدةً وقريبةً من العمل الحقيقي بالنسبة إلى غاشفورد، فإنها لم تمتد أكثر من ذلك في هذه الليلة. استدعي العسكر ثانيةً، وأسروا نصف دستة آخر، وتفرَّق الحشد ثانيةً بعد اشتباكٍ قصير مرَّ من دون إراقة دماء. فرغم أنَّ المحتشدين كانوا هائجين ثملين، فإنهم لم يكونوا قد كسروا بعد كلَّ القيود وتحدَّوا القانون والحكومة معًا. كان فيهم ما زال شيء من احترامهم المعتاد للسُّلطة، ذلك الاحترام الذي يخلقه المجتمع ليحافظ على ذاته، ولو كان الوقت قد صان جلال هذا الاحترام لكان ينبغي لغاشفورد أن يتجرَّع خيبة الأمل كؤوسًا.

كانت الشوارع خاليةً هادئةً بحلول منتصف الليل، وكل شيء كما اعتاد أن يكون، باستثناء وجود كومة من النفايات والحجارة المتساقطة من الجدران في مكانين بالمدينة كان يقف فيهما مبنيان فخمان جميلان وقت الغروب. وحتى ملَّاك الأراضي والتجار الكاثوليك الذين كان كثيرون منهم يعيشون في أجزاء مختلفة من المدينة وضواحيها لم يكونوا يخشون شيئًا على حياتهم وأملاكهم، كما لم يشعروا إلَّا بأقل استياء للإهانة التي تعرَّضوا لها من خلال نهب وتخريب أماكن عبادتهم. كانت تطمئنهم -حتى في ظل ما ارتكب من انتهاكات- ثقة صادقة في الحكومة التي عاشوا في حمايتها سنين طوالًا، واعتماد له ما يبرِّره تمامًا على ما يكنُّه القطاع الأكبر

من المجتمع من مشاعر طيبة وما يتمتَّع به من تفكيرٍ صائبٍ، ذلك القطاع الذي كانوا يتعاملون معه كل يوم تعاملات وديَّةً حميميةً مخلصةً رغم ما بين الطرفين من خلافات دينية، كما كانت هذه الثقة تقنعهم أنَّ أولئك الذين لا يحملون من البروتستانتية إلَّا الاسم لا يمكن اعتبارهم محرِّضين على هذه الأحداث الشائنة بأكثر مما يمكن اتهامهم هم أنفسهم باستخدام المشنقة والخازوق وآلات التعذيب خلال حكم ماري القاسية.

كانت الساعة تدق الواحدة حين جلس غابرييل ڤاردن وامرأته والآنسة مـگز ينتظرون في القاعة الصغيرة. كان محض وجودهم هنا، إضافةً إلى الذبالات المتداعية للشموع الخابية الموشكة على الانتهاء، والصمت المخيِّم عليهم، وفوق كل ذلك قلنسوتا النوم اللتان ترتديانهما الخادمة وسيدتها، كل ذلك كان يمثِّل أدلَّةً كافيةً على أنهم كانوا مستعدِّين للنوم منذ وقتٍ، وأن ثمَّة ما يدفعهم إلى السهر طويلًا بعد الوقت المعتاد لنومهم.

ولو كان لا بُدَّ من إيراد شاهد آخر ليعزِّز هذه الحقيقة فقد كان هذا الشاهد أجلى ما يكون في أفعال الآنسة مـگز، حيث كانت قد وصلت إلى تلك الحالة المضطربة الحسَّاسة للجهاز العصبي، تلك الناجمة عن طول الترقُّب، فأخذت تقرص أنفها وتدلِّكه باستمرارٍ، وتغيِّر وضعها على الدَّوام (مدفوعةً إلى ذلك بالظهور المفاجئ لعقد وعجر خيالية في مقعدها)، ولا تفتأُ تحكُّ حاجبيها، وتسعل سعلةً صغيرةً تعاودها بلا توقف، وتصيح صيحةً صغيرةً أو تشهق أو تتنهَّد أو تتنفَّس نفسًا مسموعًا أو تجفل في تشنُّج، وما إلى ذلك مما هو في بابه، فتبرد بذلك وتكشط ما بقي من صبرٍ لصانع الأقفال كيفما اتفق لها، حتى إنه بعد أن أطال النظر إليها في صمتٍ انفجر أخيرًا مناجيًا إيَّاها:

«عزيزتي مـگز، اذهبي إلى فراشك. إنك حقًّا أسوأ من تنقيط مائة برميل ماء خارج النافذة، أو خمش مائة فأر من خلف ألواح الجدار. لا أستطيع احتمال هذا، اذهبي إلى فراشك يا مـگز، أرجوك اذهبي».

ردَّت الآنسة مـگز: «ليست لديك عقد تفكها يا سيدي، ولذا لا يدهشني طلبك. لكنَّ سيِّدتي لديها»، ثم أضافت ملتفتةً إلى امرأة صانع الأقفال: «وما دمت ساهرة سيدتي، فلا أستطيع، لا، ولو سال على ظهري عشرون ضعفًا كمية الماء البارد في هذه اللحظة، أن أذهب إلى فراشي وأنا مستريحة البال».

وبعد أن فرغت من هذا القول حاولت محاولات مضنيةً أن تدلِّك كتفيها في مكانٍ مستحيل منهما، وأخذت تقشعرُّ من قمَّة رأسها إلى أخمص قدمها، موحيةً إلى الناظرين بأن التسلسل الخيالي المذكور للأحداث ما زال يجري في الحقيقة، لكنَّ شعورها بالواجب يحبسها في مكانها رغم ذلك ورغم أي معاناة أخرى، ويدعم قدرتها على الصمود.

وحيث كانت السيدة ڤاردن نعسانةً بدرجة لا تسمح لها بالكلام، والآنسة مـگز قد قالت ما لديها كما يقال، لم يكن لدى صانع الأقفال إلَّا أن يتنهَّد ويبقى هادئًا قدر مستطاعه. غير أنَّه كان من المستحيل أن يبقى هادئًا وهذه الأفعى الخرافية أمامه. إذا نظر في اتجاه آخر فقد كان مجرد شعوره بأنها تدلِّك خدَّها أو تشد أذنها، أو تغمز بعينها أو تصنع كل ما في جعبة الغرابة من أشكالٍ بأنفها أسوأ بكثيرٍ من أن يرى ذلك بعينيه. ولو تحرَّرت للحظة من هذه الشكاوى، فما ذلك إلَّا لأنَّ قدمها نائمة أو ذراعها قلقة أو ساقها منثنية من الشد العضلي، أو لأي علَّة فظيعة أخرى توجع هيكلها

كلَّه. ولو نعمت براحة لحظة واحدة، فسيراها الناظر إليها جالسةً متيبِّسةً مستقيمةً في مقعدها، بعينين مغلقتين وفم مفتوح على اتّساعه، ثم منحنيةً قليلًا إلى الأمام، ثم متوقِّفةً باهتزازٍ مباغتٍ، ثم منحنيةً أكثر إلى الأمام، ومتوقفةً باهتزازٍ آخر، ثم منتبهة لنفسها، ثم منحنية ثانية إلى الأمام، إلى أسفل وأسفل وأسفل في تدرُّج بطيء، وحين يبدو مستحيلًا أن تظلَّ قادرةً على الاحتفاظ بتوازنها لحظةً أخرى، ويصبح صانع الأقفال موشكًا على أن يناديها في التياع لينقذها من السقوط على جبهتها وانكسار جمجمتها، تعود مستقيمةً متيبِّسةً مفتوحة العينين بغتةً ومن دون سابق إنذار، وفي ملامحها تعبيرٌ عن التحدي، صحيح هو تعبير نعسان، ولكن ما أشد عناده، تعبير يقول بوضوحٍ: «إنني لم أغلقهما ولا مرة منذ نظرت إليك آخر مرة، ومستعدة أن أحلف على ذلك!».

أخيرًا حين دقَّت الساعة الثانية كان ثَمَّ صوتٌ مسموعٌ عند الباب المطل على الشارع، كما لو كان أحدهم قد سقط بالصدفة على مقرعة الباب. قفزت الآنسة مـگز على الفور وصفَّقت بيديها وهي تصيح مازجةً المقدّس بالدنيوي في نعاسٍ: «هاللويا يا ستي! هذه دقة سايمن!».

قال غابرييل: «من بالباب؟».

صاح صوت مستر تاپرتت المعروف جيّدًا: «أنا!».

فتح غابرييل الباب وأذن له بالدخول. لم تكن هيئته على ما يرام، فإنَّ رجلًا له قامته يعاني بالضرورة وسط الزحام، وحيث كان قد أدلى بدلوه في أعمال صبيحة أمس، فقد كانت ملابسه حرفيًّا مهروسةً من رأسه إلى قدميه: فقدت قبَّعته شكلها تمامًا، وتكعَّب حذاؤه فبدا كالخفِّ. كان معطفه

يخفق من حوله مزقًا، ومشابك الثوب مقطوعةً عند الركبتين والقدمين، ونصف وشاحه قد ذهب، وتمزَّق صدر قميصه خرقًا. غير أنه رغم كل هذه الخسائر الشخصية، ورغم شدة ضعفه من الإرهاق والحرِّ، واتِّساخه بالوحل والتراب لدرجة تجعل من العسير أن تميِّز العين شيئًا من الملمس الحقيقي لجلده أو لملابسه، رغم ذلك كله دخل إلى القاعة متبخترًا في كبر، وما لبث أن ألقى بنفسه على أحد المقاعد محاولًا أن يدفع بيديه في جيوب ملابسه الداخلية المقلوبة إلى الخارج بحيث تظهر على ساقيه كالشرابات، وأخذ يتفرَّس أهل البيت في كبرٍ كئيبٍ.

قال صانع الأقفال بلهجة خطيرة: «سايمن، كيف تعود إلى البيت في ساعة متأخرة هكذا، وفي هذه الحالة؟ أكّد لي أنّك لم تكن بين المتظاهرين، وسأقنع بذلك».

ردَّ مستر تاپرتت بنظرة مزدرية: «سيدي، إني لأعجب من ثقتك بتوجيه مثل هذه الأسئلة».

قال صانع الأقفال: «لقد كنت تسكر».

ردَّ صبيه الماهر بكثيرٍ من رباطة الجأش: «كمبدأ عامٍّ، وبأقصى ما للكلمات من معنىً هجومي يا سيدي، فإنني أعتبرك كذَّابًا. وفي ملاحظتك الأخيرة هذه، أصبت كبد الحقيقة عن غير قصدٍ، عن غير قصدٍ يا سيدي».

قال صانع الأقفال وهو يستدير إلى امرأته هازًّا رأسه بأسىً، بينا ترتسم على وجهه ابتسامة أثارها الشبح السخيف الواقف إلى جواره: «مارثا، أكاد أجزم أنَّه ربما يتبيَّن أن هذا الفتى المسكين ليس ضحية الأوغاد والحمقى الذين طالما سمعنا بهم، والذين ارتكبوا الكثير من الأذى اليوم. لو كان قد

ذهب الليلة إلى شارع واروك أو شارع ديوك..».

صاح مستر تاپرتت بصوتٍ جهيرٍ: «لم يذهب إلى أيٍّ منهما يا سيدي» ثم خفض صوته إلى مستوى الهمس وهو يكرر بينا عيناه مثبَّتتان على صانع الأقفال: «لم يذهب إلى أيٍّ منهما».

قال صانع الأقفال بلهجة جادة: «أنا فرح لهذا من كل قلبي، فإنه لو كان قد ذهب، وثبت ذلك عليه يا مارثا، فإنَّ رابطتك الكبرى ستكون بالنسبة إليه بمثابة العربة التي تجرُّ الرجال إلى حبل المشنقة وتتركهم معلَّقين في الهواء. وإن هذا لحق كما أننا نتنفَّس!».

كانت السيدة ڤاردن في غاية الفزع من تغيُّر أسلوب سايمن ومظهره، وكذا من الحكايات التي وصلت إلى مسمعيها الليلة عن المتظاهرين، حتى إنها لم تستطع سبيلًا إلى الرد، ولا إلى اللجوء إلى سياستها الزوجية المعتادة. شبكت الآنسة مـگز أصابع يديها وأجهشت بالبكاء.

قال سايمن بصرامة: «لم يكن في شارع واروك ولا شارع ديوك يا غ. ڤاردن، لكنه كان في وستمنستر. ربما ركل عضو مقاطعة، وربما ضرب أحد اللوردات. لك أن تحملق إليَّ هكذا يا سيدي، وأكرر ما قلته تأكيدًا، كان الدم يسيل من الأنوف، وربما ضرب أحد اللوردات. من يدري؟» ثم أضاف واضعًا يده في جيب صدريَّته ومخرجًا سنًّا كبيرةً جعل مرآها مـگز والسيدة ڤاردن تصرخان: «هذه.. هذه كانت سنَّ أحد الأساقفة. احذر يا غ. ڤاردن!».

قال صانع الأقفال في عجلة: «الآن أقول إني كنت أفضِّل أن أدفع خمسمائة جنيه على أن يحدث هذا. أيها الأبله، أتعرف حجم الخطر الذي تعرِّض نفسك له؟».

ردَّ صبيُّه الماهر: «أعرفه يا سيدي، وهو عين مجدي. لقد كنت هناك، الكل قد رآني هناك، كنت بارزًا واضحًا، وسوف أتحمَّل التَّبعات».

أخذ صانع الأقفال يذرع القاعة جيئةً وذهابًا في صمتٍ وهو مضطرب مهتاج، يرمق صبيه السابق بين الفينة والفينة، ثم توقف أخيرًا أمامه قائلًا:

«امض إلى فراشك ونم ساعتين عسى أن تستيقظ تائبًا ويرتد إليك بعض عقلك. اندم على ما فعلت وسنحاول إنقاذك»، ثم أردف وهو يستدير معجلًا إلى امرأته: «إذا أيقظته في الخامسة فتحمَّم وبدِّل ثيابه، فربما يصل إلى درج البرج ويبحر منه على متن قارب غراڤزإند قبل أن يبدأ في البحث عنه. ومن هناك يمكنه أن يصل بسهولة إلى كانتربري حيث يمنحه قريبك عملًا إلى أن تهدأ هذه العاصفة. لست واثقًا بصواب ما أفعله وأنا أنجِّيه من العقاب الذي يستحقُّه، لكنه قد عاش في هذا المنزل رجلًا وصبيًّا لاثني عشر عامًا، وسآسف إن انتهى إلى نهاية بائسة بسبب ما فعله في يومٍ واحدٍ. أرتجي الباب الأمامي يا مـگز، ولا توجهي أيَّ ضوء صوب الشارع حين تصعدين إلى أعلى، أسرع يا سايمن! اذهب إلى فراشك!».

ردَّ مستر تاپرتت في تثاقلٍ وبطء ما أبعدهما عن سرعة وحماس سيده الطيب القلب: «وهل تفترض يا سيدي، هل تفترض يا سيدي أنني وضيعٌ وحقيرٌ إلى درجة قبول اقتراحك الخانع؟ وغد!».

«أيًّا كان ما تراه يا سم، المهم أن تمضي إلى فراشك، الوقت ثمين، النور هنا يا مـگز!».

صاحت المرأتان معًا: «أجل أجل، افعل كذلك، امض إلى فراشك على الفور!».

لم يبرح مستر تاپرتت مكانه، ثم أجاب بعد أن دفع مقعده بعيدًا ليريهم أنه لا يحتاج إلى مساندة وأخذ يؤرجح نفسه إلى الأمام والخلف، متصرِّفًا برأسه كما لو كان مقطوعَ الصلة بجسمه:

«لقد ذكرت مـگز يا سيدي، فلتمت مـگز مخنوقة!».

صاحت تلك الشابة بصوتٍ خافتٍ: «أوه سايمن! أوه مدام! أوه سيدي! يا ألطاف الرب! ما أشد ما أفزعني!».

ردَّ مستر تاپرتت بعد أن حدجها بنظرة وابتسامة مفعمتين بازدراءٍ يفوق الوصف: «فلتمت هذه الأسرة كلها مخنوقةً يا سيدي! عدا الآنسة ڤاردن. لقد أتيت إلى هنا الليلة يا سيدي لأجلها، خذي هذه الوريقة يا سيدة ڤاردن، إنها حماية يا سيدتي، ربما تحتاجين إليها».

وبينا يقول ذلك مدَّ يده بوريقة مكتوبة متسخة متغضِّنة، فأخذها صانع الأقفال منه وفتحها وقرأ منها:

«أرجو أن يكون كلُّ أصدقاء قضيتنا الطيبين حريصين على ألَّا يلحقوا أيَّ ضرر بممتلكات أي پروتستانتي صادق، وإنني لعلى يقين من أنَّ مالك هذا المنزل صديقٌ ثمينٌ وفيٌّ لقضيتنا. چورچ غوردن».

قال صانع الأقفال بوجه متغيِّر: «ما هذا؟!».

ردَّ صبيُّه الماهر: «شيء سيخدمك خدمةً طيبةً أيها الصديق الشاب، كما ستكتشف بنفسك. حافظ على هذه الوريقة في مكان تستطيع أن تأخذها منه في لحظة، واكتب على بابك بالطبشور «لا للبابوية» في ليل الغد ولمدة أسبوع، هذا كلُّ المطلوب».

قال صانع الأقفال: «إنه مستند أصلي، أنا واثق لأني رأيت هذا

الخط من قبل. أي خطر ذلك الذي يوحي به؟ وأيّ شيطان يقبع خارج الجدران؟».

ردَّ (سم): «شيطان هائج، شيطان ثائر مشتعل. لا تضع نفسك في طريقه وإلَّا فسينتهي أمرك يا صاحبي، كن حذرًا يا غ. ڤاردن. الوداع!».

لكن هنا ألقت المرأتان بنفسيهما في طريقه، خاصة الآنسة مّـگز التي سقطت عليه بكثيرٍ من الحماس فسمَّرته إلى الحائط، وأخذت تناشده بكلمات مؤثِّرة ألَّا يمضي في طريقه قبل أن يفيق من سكرته، وأن يستمع إلى صوت العقل وأن يفكر في الأمر ويرتاح قليلًا ثم يقرر.

قال مستر تاپرتت: «أقول لك إني قد حزمت أمري. وطني النازف يناديني وألبِّيه! مـگز، إن لم تتنحِّي عن طريقي فسأقرصك».

صرخت الآنسة مّـگز صرخةً مدوّيةً وهي ما زالت تتعلَّق بالثائر، لكنَّا لا ندري أكان هذا لشرود ذهنها أم لأنه قد نفَّذ تهديده. قال (سايمن) وهو يحاول أن يحرِّر نفسه من عناقها العنكبوتي رغم عفَّته:

«أطلقيني! دعيني أمضي. لقد رتَّبت لك ترتيبًا يحين أوانه حين يتغيَّر المجتمع، وأنوي أن أهيِّئ لك عيشةً هنيئة. هيَّا. هل يرضيك هذا؟».

صاحت الآنسة مـگز: «أوه سايمن، سايمن المبارك! أوه مدام! كيف هي مشاعري في هذه اللحظة المتضاربة؟».

كان يبدو أن أقرب وصف لمشاعرها هو الاهتياج، فقد طارت من فوق رأسها قلنسوة النوم في هذه المشاجرة، وكانت جاثيةً على ركبتيها، وهيئتها بادية الغرابة بقصاصات جدائلها الزرقاء والصفراء، وضفائرها المهوشة من حولها وأذيال الأربطة التي تثبِّت بها مشدَّاتها والأوتار التي

تبدو مما يستحيل فهمه، وكانت تلهث وهي تشبِّك يديها وعيناها ناظرتان إلى أعلى، تنهمر منهما دموع غزيرة، وعلى سيماها أعراضٌ أخرى متنوعة لأشد معاناة يتصوَّرها العقل.

قال سايمن مستديرًا إلى معلِّمه في تجاهلٍ تامٍّ لما بمـگز من بلوى عذرية:

«إنني أترك صندوق أشياء بالأعلى، افعل به ما يحلو لك. لا أريده. لن أعود إلى هنا أبدًا. اجلب لنفسك صبيًّا يا سيدي، فأنا صبيٌّ وطني، وهذه مهنتي من الآن فصاعدًا».

ردَّ صانع الأقفال وهو يزرع نفسه في طريق الخروج: «كن ما تشاء بعد ساعتين، أمَّا الآن فاصعد لتنام. هل تسمعني؟ اذهب إلى فراشك!».

قال سايمن تاپرتت: «أسمعك وأتحدَّاك يا ڤاردن، الليلة يا سيدي كنت في الريف، أخطِّط لحملة ستملأ روحك المنذورة لتركيب الأجراس بالعجب والرعب. وهي خطة تتطلَّب أقصى طاقتي، دعني أمرُّ!».

ردَّ صانع الأقفال: «سأصرعك إن اقتربت من الباب. من الأفضل لك أن تذهب إلى فراشك!».

لم يحر سايمن جوابًا، لكنه ركَّز قواه بقدر مستطاعه واندفع صوب معلِّمه القديم، وما لبث الاثنان أن تطوَّحا معًا إلى الخارج حيث الورشة، وهما يحركان أيديهما وأقدامهما بسرعة حتى لقد بدوا كنصف دستة رجال، بينما طفقت مـگز والسيّدة ڤاردن تصرخان كدستة كاملة من النساء.

كان من اليسير على ڤاردن أن يصرع صبيَّه القديم ويربطه من يديه وقدميه، غير أنه لم يشأ أن يؤذيه وهو في تلك الحال التي لا يملك فيها

دفاعًا عن نفسه، فاكتفى بتفادي ضرباته متى استطاع ذلك، وأخذها دون ضغينة إن لم يستطع، محافظًا على موقفه بينه وبين الباب إلى أن تسنح فرصة تمكّنه من إجباره على التّراجع إلى الطابق العلوي وحبسه في غرفته الخاصة. لكنه لطيبة قلبه اعتمد أكثر من اللازم على ضعف غريمه، ونسي أنَّ من يثملون لدرجة فقدان القدرة على المشي باتزان يظلُّون محتفظين غالبًا بقدرتهم على الركض. تخابث سايمن تاپرتت متصنِّعًا الوقوع للخلف ومتحيِّنًا فرصته، ثم ترنَّح إلى الأمام على غير المتوقع، وانطلق متجاوزًا ڤاردن وفاتحًا الباب (فقد كان يعرف جيدًا خلّة هذا القفل)، ثم انطلق في الشارع ككلبٍ مجنونٍ. توقف صانع الأقفال لحظةً في غمرة دهشته، ثم شرع يطارده.

كان الوقت مناسبًا أيما مناسبة للركض، فقد كانت الشوارع خاليةً في هذه الساعة الساكنة، والجو منعشًا، وهيئة الهارب أمامه تبدو واضحةً من مسافة كبيرة وهو لا يني يسرع الركض، وفي إثره ظلُّه الطويل النحيل. غير أنَّ صانع الأقفال القصير النفس لم تكن له فرصة ليطاول فيها رجلًا له شباب (سم) وقوامه النحيل، رغم أنه في زمن غابر كان يستطيع أن يتجاوزه بأسرع ما يمكن. أخذت المسافة بينهما تتزايد بسرعة، ولمّا أظهرت أشعة الشمس الطالعة الساقطة على (سم) أنه يستدير إلى طريق أخرى في ركن قصيٍّ، ما كان أحبّ إلى غابرييل ڤاردن أن يقلع عن مطاردته ويجلس على عتبة أحد الأبواب ليلتقط أنفاسه. أمَّا سايمن فقد واصل هروبه بالسرعة نفسها من دون أن يتوقَّف ولا مرة إلى أن وصل إلى (البوت)، حيث كان بعض رفاقه كما كان يعرف جيدًا، وحيث كان رقباء من ذوي مودّته ينتظرون مقدمه طيلة الليل في ظل الضيافة المحترمة للمكان، فقد كان

حصَّل بالفعل امتياز أن يكون في خطرٍ عظيمٍ من قبل القانون. وكان هؤلاء الرقباء الآن ينظرون في الجهات الأربع مرتقبين وصوله.

قال صانع الأقفال بمجرد أن استطاع الكلام: «اذهب حيث شئت يا (سم)، اذهب حيث شئت. لقد بذلت أفضل ما أستطيع لأجلك أيها الصبي المسكين، وكان يطيب لي أن أنقذك، لكن أخشى أن الحبل ملتفٌّ حول عنقك».

قال ذلك وهزَّ رأسه بأسلوبٍ مفعمٍ بالأسى والحزن ثم دار على عقبيه وما لبث أن دخل منزله حيث كانت السيدة ڤاردن ومـگز المخلصة ترتقبان عودته في قلقٍ.

كانت يجثم على صدر السيدة ڤاردن الآن –والآنسة مـگز بالتبعية– هاجسٌ سريٌّ أنها قد أخطأت إذ أعانت وأيَّدت نمو الاضطرابات بأقصى ما في وسائلها المحدودة، تلك الاضطرابات التي كان من المستحيل التنبُّؤ بما ستسفر عنه، وأنها قد تسبَّبت بطريقة غير مباشرة في المشهد الذي قد جرى لتوِّه، وأن الوقت قد حان بالفعل لانتصار صانع الأقفال ولومه إيَّاها. وما كان أشد هذا الشعور الذي تملَّكها، وما كان أعمق ما هي فيه من كمدٍ بسببه، حتى إنها أخفت تحت مقعدها ذلك المنزل الصغير ذا الطوب الأحمر والسقف الأصفر بينا زوجها مشغول بمطاردة صبيِّهم الآبق، حتى لا يثير مرآه الإشارة مجددًا إلى ذلك الموضوع المؤلم، وحين عاد زوجها بالغت في إخفاء المنزل الصغير بتنانير فستانها.

لكن تصادف أن صانع الأقفال كان يفكر في هذا المنزل بالتحديد في طريق عودته إلى منزله، وأنه حين دخل الغرفة ولم يره سأل على الفور عن مكانه.

لم يكن أمام السيدة ڤاردن إلا أن تظهره، وهو ما فعلته وهي تذرف دموعًا كثيرةً، وتحتج احتجاجات غير مكتملة بأنها لو كانت تعرف..

قال ڤاردن: «أجل أجل، بالطبع أعرف ذلك. أنا لا أقصد أن ألومك يا عزيزتي. لكن تذكَّري من الآن أن كل الأشياء الطيبة التي توظَّف لخدمة أغراض شريرة أسوأ من تلك السيئة بطبيعتها. إن امرأةً بالغة اللؤم هي لئيمة حقًّا. ولنفس السبب فإنها تصبح بالغة الخطأ حين ينحرف الدين إلى الخطأ. دعينا ننفض أيدينا تمامًا من هذا الحديث يا عزيزتي».

هكذا أسقط المنزل ذا الطوب الأحمر على الأرض، وسحقه بكعبه إلى شظايا. أخذ نصف البنس وستّات البنسات وغيرها من الإسهامات التطوعية تتدحرج في كل الاتجاهات، وإن لم يقبل أحدٌ على لمسها أو أخذها من الأرض.

قال صانع الأقفال: «ما كان أسهل التخلُّص منه، ولكم كنت أتمنى لو كان التخلُّص من كل ما يخرج من تلك الجمعية بنفس السهولة».

قالت امرأته ومنديلها على عينيها: «من حسن الحظِّ يا ڤاردن أنه حال وقوع المزيد من الاضطرابات –وهو ما لا أرجو أن يحدث، لا أرجو مخلصةً أن يحدث..».

«وأنا كذلك يا عزيزتي».

«أنه حال وقوع المزيد منها، فمعنا الوريقة التي أحضرها ذلك الشاب المضلل المسكين».

قال صانع الأقفال مستديرًا على عقبيه بسرعة: «نعم حقًّا، أين هي تلك الوريقة؟».

وقفت السيدة ڤاردن مبهوتةً وهو يأخذها من يدها الممدودة ويمزِّقها ثم يلقيها في المدفأة.

قالت: «لن نستخدمها؟».

صاح صانع الأقفال: «نستخدمها؟! لا. فليأتوا وليسقطوا السقف على آذاننا. فليحرقونا وليطردونا من البيت. لن ألجأ أبدًا إلى حماية قائدهم ولن أنقش عواءهم على بابي، ولو رموني بالرصاص على عتبة بابي عقابًا لي على ذلك. نستخدمها! فليأتوا وليفعلوا أسوأ ما يقدرون عليه. أول رجل سيعبر عتبة بابي في مثل هذه المهمة سيتمنى لو كان في تلك اللحظة على مبعدة مائة ميل من هنا. فليتجرَّأ على هذه الفعلة. لمن بعده أن يفعلوا ما يحلو لهم. لن أتوسل إليهم ولن أشتري رضاهم ولو كان في مكاني هذا مائة مثقال من الذهب مكان كل رطل من الحديد. امضِ إلى فراشك يا مارثا، سأنزل مصاريع النافذة وأبدأ في عملي».

قالت امرأته: «مبكّرًا هكذا؟!».

ردَّ صانع الأقفال في مرحٍ: «نعم، مبكّرًا هكذا. فإنهم متى أتوا فلن يجدونا مختبئين مستخفين كما لو كنَّا نخشى أن نأخذ حظَّنا من ضوء النهار، تاركينه كله لهم. أحلامًا سعيدةً يا عزيزتي ونومًا هنيئًا!».

قالها وقبَّلها قبلةً مخلصةً، طالبًا منها ألَّا تتأخر أكثر من ذلك، حتى لا يعاجلها وقت النهوض قبل أن ترتاح. صعدت السيدة ڤاردن في وداعة ولطفٍ إلى الطابق العلوي، تتبعها مـگز، تلك التي رغم خضوعها بقدرٍ كبيرٍ لم تستطع أن تمنع نفسها من بعض السعلات المثيرة والشهقات العصبية في طريقها، ولا من رفع يديها في دهشة من سلوك سيدها الجريء.

الفصل الثاني والخمسون

غالبًا ما يكون الجمهور مخلوقًا بالغ الغموض في وجوده، لا سيَّما في مدينة كبيرة. قليلون هم من يعرفون من أين يأتي وإلى أين يذهب. ولفجاءة اجتماعه وتفرُّقه يبدو أنه لا يقل صعوبةً عن البحر نفسه في تتبُّع ينابيعه المتفرقة، ولا ينتهي الشَّبه بينهما هنا، فإن المحيط ليس أكثر منه هوائيةً ولا تذبذبًا، وليس أكثر إرهابًا منه حين يثور، ولا أكثر افتقارًا إلى العقل ولا أقسى منه.

كان أولئك الذين صخبوا صبيحة الجمعة في وستمنستر وأولئك الذين انهمكوا بشغفٍ في أعمال التخريب في شارعي (ديوك) و(واروك) في ليل اليوم نفسه متماثلين في الكتلة. وإذا ما تغاضينا عمن دخلوا إلى الحشد بالمصادفة –أولئك الذين لا يخلو منهم حشدٌ بالتأكيد، لا سيَّما في مدينة لا نعدم فيها أبدًا عددًا هائلًا من المتبطِّلين والمنحلِّين– فإن الجمهور نفسه كان في الموقفين المذكورين. غير أنهم حين تفرقوا في الظهيرة انتشروا في اتجاهاتٍ عدة، ولم يتواعدوا على العودة إلى التجمهر، ولم يكن لديهم غرضٌ محدَّد أو قصدٌ واضحٌ، والحق أنهم تبعثروا بما لا يدع أملًا في احتشادهم مجددًا، مع الأخذ في الاعتبار بكل ما كانوا يعرفونه.

ولم تكن عدة من في (البوت) في تلك الليلة تصل إلى اثني عشر رجلًا، ذلك (البوت) الذي كان المقر الرئيس للمتظاهرين بطريقة ما. كان

بعض من يبيتون هناك ينام في الحظيرة أو المباني الإضافية، والبعض في الغرفة المشتركة، والبعض في السرر مثنى وثلاث. أما الباقون فكانوا في بيوتهم المعتادة أو في أوكارهم. وربما لم تبلغ عدة من كانوا ينامون في الحقول والدروب المتاخمة وتحت أكوام القش أو قرب دفء قمائن الآجر عشرين على الجملة، وهم أولئك الذين لم يناموا في مكانهم المعتاد للراحة تحت السماء المفتوحة. أما بالنسبة إلى الطرق العامة داخل المدينة فقد كان فيها شاغلوها الليليون المعتادون، لم يزد عليهم أحدٌ، نفس القدر من الرذيلة والتعاسة، لم يزدد ذرَّة.

غير أن خبرة ليلة واحدة قد علَّمت قادة الاضطراب الطائشين أن ليس عليهم إلَّا أن يظهروا أنفسهم في الشوارع ليحاطوا على الفور بعدة من التابعين لا يمكنهم أن يحتفظوا بها إلا حين يمكن الاستغناء عن عونها، مسبِّبةً الكثير من الخطر والكلفة والمتاعب. وبمجرد امتلاكهم هذا السر أصبحوا على قدرٍ من الثقة كما لو كان عشرون ألف رجل مخلصين لإرادتهم يعسكرون حولهم، ثقةً لا يمكن تجاوزها بحالٍ، ولو كان هذا العدد حقيقيًّا.

ظلوا هادئين طيلة يوم السبت. وفضَّلوا يوم الأحد أن يدرسوا الكيفية التي يمكنهم بها الاحتفاظ برجالهم على أهبة الاستعداد للتلبية وفي كامل أملهم، على أن يتابعوا ما فعلوه أول يوم بأي إجراءٍ وحشيٍّ.

نهض دنس صباح الأحد متثائبًا بصوتٍ جهيرٍ من فوق كومة قشٍّ كان ينام عليها وهو يقول: «أتمنى.» ثم التفت إلى (هيو) وهو يسند رأسه بيده وتابع: «أن يكون مستر غاشفورد قد سمح ببعض الراحة؟ ربما يريدنا أن نعود إلى العمل، هاه؟».

رد هيو مزمجرًا: «ليس من طريقته أن يترك الأمور تسقط، ثق بذلك. لكني رغم ذلك لستُ في مزاجٍ يدعو إلى النّهوض بعد. متخشِّب كجثَّة، تغطِّيني خدوشٌ قبيحة كما لو كنت قضيتُ أمسي كلَّه أصارع قططًا بريّة».

نظر دنس بالكثير من الإعجاب إلى ذلك الوحشي الماثل أمامه، رأسه الأشعث ولحيته المتلبِّدة ويديه ووجهه الممزّق، وقال: «أنت متحمِّس جدًّا. هذا هو الأمر. يا لك من شيطان! أنت تؤذي نفسك بأكثر مما أنت مضطرٌّ إلى ذلك مائة مرة، لأنك تريد أن تكون في المقدمة في كلّ شيء وتفعل أكثر من الباقين».

ردَّ هيو وهو يهز شعره الأشعث ليعيده إلى الخلف وينظر إلى باب الحظيرة التي يبيتان فيها: «في هذا الأمر ثَمَّ واحدٌ لا يقل عني. بماذا أخبرتك عنه؟ ألم أقل لك إنه يعدل دستةً من الرجال حين شككت أنت به؟».

تدحرج مستر دنس على صدره في تكاسل ثم أراح ذقنه على يده مقلدًا الوضع الذي يرقد فيه هيو، وقال بينا ينظر هو الآخر إلى الباب: «نعم نعم، لقد كنت تعرفه يا أخي. كنت تعرفه. لكن من يقول إنه ينظر إلى ذلك الشاب الآن ويعرف الرجل الذي هو عينه؟! أليس من المثير للشفقة ألف مرة يا أخي أنه بدلًا من أن يرتاح راحته الطبيعية ويهيِّئ نفسه للمزيد من الجهد في قضيتنا الشريفة هذه، يلعب لعبة العسكر كصبي صغيرٍ؟ ونظافته كذلك!».

أضاف مستر دنس هذه العبارة الأخيرة، وهو الذي لم يكن لديه بالتأكيد ما يدعوه إلى التعاطف مع أي شخصٍ يهتم بهذا الأمر الأخير، وواصل: «ما أكثر نقاط الضعف التي تؤخذ عليه فيما يتعلَّق بنظافته! كان

عند الطلمبة في الخامسة من صباح اليوم، رغم أن أي إنسان سيعتقد أنه قد عانى الكثير بالفعل منذ يومين بما يجعله مستغرقًا في النوم في مثل هذا الوقت! لكن لا، حين استيقظت دقيقةً أو اثنتين، كان هو هناك عند الطّلمبة، ولو رأيته يدسُّ ريشات الطاووس في قبعته بعد أن انتهى من غسله، آه! أنا آسف لأن شخصيته ناقصة هكذا، لكن أفضلنا لا يبلغ الكمال أبدًا من وجهة نظر أو أخرى».

لم يكن موضوع هذا الحوار وهذه الملاحظات الختامية التي قيلت بنبرة التأمُّل الفلسفي إلا بارنابي كما خمَّن القارئ، وقد كان يقف حارسًا ورايته في يده في الشريط المضاء بضوء الشمس عند الباب القصي، أو يمشي ذهابًا وجيئةً بالخارج وهو يدندن لنفسه بصوتٍ خافتٍ على إيقاع أجراس الكنيسة الواضح. وسواء وقف ساكنًا مستندًا بكلتا يديه إلى سارية رايته أو أخذ يخطو ذاهبًا آيبًا ببطء وهو يحمل الراية على كتفه، فقد كان هندام زيِّه الفقير وانتصاب قامته وشموخه يشيان بما يشعر به من اعتداد وسعادة بالثقة التي أوليها وأهميتها. وبالنسبة إلى هيو ورفيقه اللذين كانا يرقدان في ركنٍ مظلمٍ من الحظيرة الكئيبة كان يبدو هو وضوء الشمس وصوت صلاة الأحد المفعم بالسلام والذي كان هو يجاوبه بدندنته أقرب إلى صورة مشرقة يؤطِّرها الباب ويبرزها ظلام الحظيرة. كانت الصورة في مجملها نقيضًا لهما حيث هما راقدان يتمرَّغان كحيوانين كريهين في درنهما وخبثهما على كومتين من القشِّ، حتى إنهما أخذا ينظران إليها بضع لحظاتٍ في صمتٍ وكادا يشعران بالخجل.

أخيرًا قال هيو: «آه!» وأنهى الكلمة بضحكة ثم واصل: «إنه إنسانٌ نادرٌ بارنابي هذا، ويستطيع أن يفعل ما هو أكثر بنصيبٍ من الراحة، أو اللحم

أو الشراب أقل من أي منَّا. أمَّا بالنسبة إلى حركة العسكر فقد وضعته أنا حراسةً هناك».

ردَّ دنس بابتسامة عريضة وسباب لا يقل عرضًا: «إذن فقد كان هناك هدفٌ من ذلك، وهدفٌ جيدٌ صحيحٌ كذلك، أحلف على ذلك. ما الهدف يا أخي؟».

قال هيو وهو يزحف مقتربًا منه قليلًا: «لماذا؟ إنك ترى أنَّ قائدنا النبيل هناك قد جاء صبيحة أمس في حالٍ سيئة لإفراطه في الشراب، وكان مثلك ومثلي ثملًا البارحة».

نظر دنس إلى حيث يرقد سايمن تاپرتت منكمشًا على نفسه فوق حزمة قشٍّ وهو يغطُّ في نومٍ عميقٍ، وأومأ بالإيجاب. واصل هيو بضحكة أخرى:

«وقائدنا النبيل.. وقائدنا النبيل وأنا قد خططنا للغد حملةً رائعةً، بها ما بها من الربح».

سأله دنس وهو يفرك يديه: «ضد البابويين؟».

«أجل ضد البابويين، ضد واحدٍ منهم على الأقل، يحمل له بعضنا -وأنا من هذا البعض- ضغينةً ثقيلة».

قال دنس وهو ممتلئ بالتوقعات السارة: «لا تقل إنه صديق مستر غاشفورد الذي تكلّم معنا عنه في منزلي. هاه؟».

أجاب هيو: «هو عينه».

صاح مستر دنس وهو يصافحه في حبورٍ: «هذا هو العمل. هذا هو النوع الجيد من اللعبة. دعنا ننتقم ونصيب وما إلى ذلك، وسنتقدم بضعف خطوتنا. هذا هو الكلام حقًّا!».

أضاف هيو: «هاهاها! القائد يفكر في اختطاف امرأة وسط الجلبة. و.. هاهاها! وأنا كذلك!».

تلقَّى مستر دنس هذا الجزء من الخطة بوجه متمعِّر، مبديًا ملاحظةً مفادها أنه كمبدأ عام يعترض على النساء بعامة، باعتبارهنَّ غير مأمونات ومراوغات لا يمكن حساب حسابهنَّ بأي قدر من التأكُّد، ولأنهن لا يثبتن على رأي واحد لأربع وعشرين ساعةً متصلة. وكان بإمكانه أن يسهب ويطنب في بيان هذه النقطة لولا عنَّ له أن يسأل عمَّا عساه يربط بين الحملة المقترحة وبين وضع بارنابي حارسًا عند باب الحظيرة، ما أجاب عنه هيو بحذرٍ هكذا:

«الناس الذين ننوي زيارتهم كانوا أصدقاءه ذات يوم، وأنا أعرفه بما يكفي لأن أقول بثقة إنه لو فكر أننا سنؤذيهم أي أذىً فلن يكون أبدًا في صفِّنا، وإنما سيمد يد العون إليهم. لذا أقنعته -فأنا أعرفه من قديم- بأنَّ لورد چورچ قد اصطفاه ليحرس هذا المكان غدًا بينما نحن في الخارج، وأنَّ في ذلك شرفًا عظيمًا، وهكذا فهو الآن في مهمَّة رسمية، وهو فخورٌ بذلك كما لو كان جنرالًا، هاها! ما تحب أن تقول عن حرصي كأنّي شيطان؟!».

أرهق مستر دنس نفسه بالإطراءات ثم أضاف: «لكن بخصوص الحملة نفسها.».

قال هيو: «ستسمع تفاصيلها كلها مني ومن القائد الكبير معًا. انظر، إنه يستيقظ. انهض يا قلب الأسد! هاها! تحلَّ بالتفاؤل واشرب مجدّدًا. شعرة أخرى من الكلب الذي عقرك يا قائد! اطلب الشراب!».

ثمّ أضاف وهو يبعد القشَّ ويشير إلى حيث عزقت الأرض حديثًا: «ثمة ما يكفي من أكواب الذهب والفضة والشمعدانات المدفونة تحت فراشي لتسديد كلفة الشراب، ولو كان عشرين قنِّينةً ملآنة! اشرب يا قائد!».

تلقَّى مستر تاپرتت هذه التحفيزات المرحة على مضضٍ، لا سيَّما أن الليلتين اللتين قضاهما في الفجور قد أنهكتا عقله وجسده زيادةً، وأصبح بالكاد قادرًا على أن يقف على ساقيه. لكنه تمكَّن بمساعدة هيو من أن يسير مترنِّحًا إلى الطّلمبة، وبعد أن أنعش نفسه بجرعة كبيرة من الماء البارد وصبَّ من السائل المنعش نفسه قدرًا كبيرًا على رأسه ووجهه طلب بعض الروم واللبن، وتناول إفطارًا لذيذًا من هذا الشراب البريء مع بعض البسكويت والجبن. وبعد أن فرغ من وجبته تمدد في وضعٍ مريحٍ على الأرض جوار رفيقيه اللذين كانا يشربان حسبما تملي ذائقتهما، وشرع يشرح لمستر دنس مشروع الغد.

طال حديثهم فبات واضحًا ما ينطوي عليه من إثارة، لا سيَّما أنّ ثلاثتهم كانوا في غاية الانتباه. وكانوا ينطلقون في قهقهة مجلجلة كلّ حين فيفزعون بارنابي في نوبة حراسته ويدفعونه إلى التساؤل عن موضوع فكاهتهم، وكان هذا كاشفًا عن أنَّ موضوع حديثهم لم يكن يتَّسم بالخطورة الباهظة، وإنما كان يخفِّفه عديدٌ من المسرَّات النابعة من داخله. غير أنهم لم يستدعوا بارنابي لينضم إليهم إلا وقد أكلوا وشربوا وناموا وتحدثوا فيما بينهم ساعات، بل إنهم لم يستدعوه إلا وقد حلَّ الغسق ليخبروه بأنهم على وشك القيام بتظاهرة خفيفة في الشوارع، لئلَّا تفقد الجماعة حماسها، فقد كانوا في ليلة الأحد، فإن لم يفعلوا فربما يشعر الرفاق بالإحباط، وأخبروه كذا بأنه حرٌّ في أن يصحبهم إن كان يطيب له ذلك.

انطلقوا إلى الشوارع من دون أدنى تجهيزٍ، اللهمّ إلَّا أن حملوا هراواتهم

ولبسوا الشارات الزرقاء، وأخذوا يستعرضون في عشوائية من دون أن يكون لهم غرضٌ محدَّدٌ، باستثناء أن يشيعوا من الفوضى ما يقدرون على إشاعته. وما لبثوا أن انقسموا فرقًا حين ازدادت أعدادهم بوتيرة متسارعة، وبعد أن اتفقوا على أن يتقابلوا قريبًا في الحقول القريبة من شارع (ولبك) شرعوا يطوفون بالمدينة في كل اتجاه. كان أكبر تكتُّلاتهم، وهو ذلك الذي أخذ يتزايد بأسرع ما يمكن، هو التكتُّل الذي انتمى إليه هيو وبارنابي. أخذ هذا التكتُّل طريقه صوب مورفيلدز حيث كان معبد فخم تسكن قربه عدة عائلات كاثوليكية.

بدؤوا بالمنازل الخاصة لهذه العائلات فكسروا الأبواب والنوافذ، وبينما يدمِّرون الأثاث ولا يتركون إلا الحوائط العارية أخذوا يبحثون بدقة عن أدوات وآلات الدمار، كالمطارق والمساعر والفؤوس والمناشير وما إليها. وصنع كثيرٌ من هؤلاء المشاغبين أحزمةً من الحبال والمناديل أو أي مادة كانت تصل إلى أيديهم، وأخذوا يلبسون تلك الأسلحة بطريقة مكشوفة كما لو كانوا طلائع في مناورة عسكرية. لم يكن ثَمَّ أقل تنكُّر أو استخفاء، بل لم يكن في هذه الليلة من الإثارة أو العجلة إلَّا أقل القليل. هدموا واختطفوا المذابح نفسها من المعابد، وكذا المقاعد والمنابر والمدرجات والأرضيات، بل إنهم اختطفوا ألواح الجدران والسلالم من المنازل. أخذوا يتابعون ترفيه ليلة الأحد هذه كعمَّال أمامهم مهمة محددة يبتغون إنجازها، وأنجزوها. كان يمكن لخمسين رجلًا ذي عزم أن يهزموهم في أي لحظة، أو فرقة واحدة من الجنود أن يفرِّقوهم كالغبار، غير أنَّ أحدًا لم يتدخَّل، ولم تكفّهم سلطة، وباستثناء المذعورين الذين فرُّوا من أمامهم، فإنه لم يلتفت أحدٌ إليهم إلا قليلًا، كما لو كانوا يتابعون أعمالهم المشروعة بأقصى درجات التعقُّل وطيب المسلك.

وبالأسلوب نفسه ساروا إلى مكان اللقاء المتفق عليه، فأشعلوا حرائق عظيمة في الحقول، وبعد أن احتفظوا لأنفسهم بأثمن غنائمهم أحرقوا البقية. أُلقيت في النار ملابس كهنة، وصور قدِّيسين، وأقمشة فخمة وزينات، وأثاث مذابح، وأمتعة منزلية، وألقت النار بريقًا على الريف المتاخم كلِّه، لكنهم أخذوا يرقصون وينبحون ويزمجرون حول هذه الحرائق إلى أن أنهكهم التعب، ولم يقترب أحدٌ لحظةً ليكفّهم.

وإذ انصرفت الكتلة الأكبر منهم من مشهد هذا الفعل ومرَّت بشارع (ولبك)، التقوا في طريقهم بغاشفورد الذي كان شاهدًا على ما فعلوا، يسير خفية على الرصيف. مشى هيو إلى جواره وغمغم في أذنه من دون أن يبدو عليه أنه يتكلم:

«هل هذا أفضل يا سيدي؟».

قال غاشفورد: «لا، ليس أفضل».

قال هيو: «ماذا تريد أن يفعل؟ الحمَّى لا تصل إلى ذروتها مرة واحدة، ينبغي لها أن تتصاعد درجةً درجة».

قال غاشفورد وهو يقرص ذراعه بغلٍّ حتى لقد بدا أنَّ أظافره ستتقابل في جلده: «أريدك أن.. أريدك أن تجعل لعملك بعض المعنى. حمقى! ألا تستطيعون أن تشعلوا الحرائق إلا في الخرق والنفايات؟ ألا تستطيعون أن تحرقوا شيئًا كاملًا؟».

قال هيو: «القليل من الصبر يا سيدي، انتظر ساعاتٍ قليلة فحسب وسترى، ارتقب حمرةً في السماء غدًا ليلًا».

قالها وعاد إلى مكانه إلى جوار بارنابي، وحين نظر صاحب السر في أثره كان كلاهما قد ضاع في الزحام.

الفصل الثالث والخمسون

أعلنت مقدم اليوم التالي صلصلة أجراس مرحة وانطلاق مدافع القصر الملكي، ورُفعت الرايات على كثيرٍ من أبراج الكنيسة، ونفِّذت الاستعراضات المعتادة على شرف ذكرى ميلاد الملك، ومضى كلُّ إنسان فيما هو بسبيله من متعة أو عمل كما لو كانت المدينة على خير ما يرام، وكما لو لم يكن ثَمَّ نارٌ تحت الرماد في أماكنها الخفية توشك أن تعاود الاضطرام مع حلول الظلام لترسل الخراب والرعب إلى خارجها. ظلَّ قادة أحداث الشغب في رفقة بعضهم لبعض، وقد جرَّأهم نجاح الليلة الماضية وما غنموه من أسلاب، ولم يفكروا إلَّا في توريط جمهور أتباعهم إلى آذانهم حتى لا يغرَّهم أملٌ في عفو أو مكافأة بتسليم حلفائهم الأشهر إلى أيدي العدالة.

والحقّ أنّ الشعور بتجاوز الحد الذي يمكن عنده أن يُنال الصفح قد ربط الجبناء بعضهم ببعضٍ كما ربط الشجعان بعضهم ببعض. هكذا شعر كثيرٌ ممن كان يسيرًا عليهم أن يشيروا إلى طليعة المتظاهرين ويشهدوا ضدهم ألَّا أمل في الهروب بهذه الطريقة، حيث شهد على أفعالهم كلِّها عشراتٌ ممن لم يشتركوا في الأحداث، وممن عانوا في أنفسهم وفي سلامهم وأموالهم من انتهاكات الحشد، وهم أولئك الذين كان يطيب

لهم جدًّا أن يكونوا شهودًا، وكانت الحكومة ستفضِّلهم بلا شكٍّ على أي شاهد ملك يقدِّم شهادته[١]. وكثير ممن ينتمون إلى هذه الطائفة قد هجر انشغالاته المعتادة صبيحة السبت، وقد رأى بعضهم مستخدميهم وهم منخرطون في الشغب، وعرف آخرون أنهم مشتبه فيهم بلا شكٍّ، وأنهم سيسرَّحون من العمل إن عادوا، وكان بعض ثالث قد استيأس من البداية، وأخذ يعزِّي نفسه بالمثل المألوف القائل: ما دام أنه لا مفرَّ من حبل المشنقة، فإن سرقت فاسرق الكبش السمين لا الحمل الهزيل[٢]. وكان كلُّهم يأمل ويصدِّق بدرجة ما أو بأخرى أنَّ الحكومة التي بدا أنهم قد شلُّوها ستتصالح معهم في النهاية من رعبها، وتدعهم يملون شروطهم. وكان أقلهم تفاؤلًا يجادل نفسه بأنهم عديد الحصى بدرجة لا تسمح بعقابهم جميعًا إن كان الأسوأ قادمًا لا محالة، وبأنَّ فرصته في الهروب لا تقل عن غيره. أما المعظم فلم يكن يفكر ولا يمنطق الأمور مطلقًا، وإنما كانت تثيرهم عواطفهم الطائشة وجهلهم وفقرهم وشغفهم بالأذى ورجاء الغنيمة.

وثَمَّ أمرٌ آخر جديرٌ بالملاحظة، وهو أنه منذ لحظة انفجارهم الأول في وستمنستر ذهبت كلُّ بادرة تنظيم أو ترتيب مسبق بينهم أدراج الرياح. وحين انقسموا فرقًا وانطلقوا إلى أجزاء مختلفة من المدينة لم

---

(١) شاهد الملك King›s evidence هو من يقدِّم إلى المحكمة معلوماتٍ مثل أسماء غيره من المجرمين المتورطين في جريمة ما ليقلِّل ما يستحقّه هو من عقوبة.

(٢) Being hanged at all, they might as well be hanged for a sheep as a lamb أقرب معادل عربيّ لهذا المثل هو: إن سرقت اسرق جملًا، وإن كان يبدو لي شديد الالتصاق بالبيئة العربية، فأحجمت عن استخدامه هنا لئلَّا ينبو به مكانه، وآثرت الاقتراب من ألفاظ المثل الإنـكليزي.

يكن ذاك إلَّا وليد اقتراح اللحظة. كانت كلُّ فرقة تنتفخ وتتضخَّم وهي ماضية في طريقها، كالأنهار في مجراها صوب البحر، فكان قادة جدد يظهرون كلما دعت الحاجة، ويختفون بانتهاء تلك الحاجة، ثم يعودون للظهور مع الأزمة التالية. كان كل اضطرابٍ يكتسب شكله وتكوينه من ظروف اللحظة، وهكذا شوهد عمَّالٌ عقلاء في أثناء عودتهم إلى بيوتهم من أعمالهم اليومية يلقون سلال أدواتهم وينقلبون متظاهرين في لحظة، وكذا كان فعل الصبية المبعوثين في مأموريَّات. وباختصارٍ فقد كان هناك وباءٌ خلقيٌّ ينتشر في المدينة. كان للصخب والعجلة والإثارة جاذبيتها لمئات ومئات ممن يفتقرون إلى ما يكفي من العزم لمقاومتها. كانت العدوى تنتشر كحمَّى الخوف، جنونًا ساريًا لم يقارب ذورته بعد، يتملَّك المزيد من الضحايا بمرور الساعات، حتى لقد بدأ المجتمع يرتعد من هياجهم.

كانت الساعة بين الثانية والثالثة بعد الظهر حين نظر غاشفورد إلى ذاك العرين الموصوف في الفصل السابق، ولمَّا لم ير إلَّا بارنابي ودنس، سأل عن هيو. أخبره بارنابي بأنَّ هيو قد خرج منذ ما يربو على الساعة، ولم يعُد بعد.

جلس صاحب السر على برميل واضعًا ساقًا فوق أخرى ثم قال مبتسمًا بأنعم ما لصوته من نبرة:

«دنس! دنس!».

جاهد الشَّانق على الفور ليغيِّر وضعه إلى الجلوس وأخذ يحملق إليه بعينين مفتوحتين على اتساعهما، قال غاشفورد مومئًا:

«كيف حالك يا دنس؟ أرجو ألَّا يكون قد أصابك مكروه من جهودك الأخيرة يا دنس».

ردَّ الشانق وهو يحدِّق إليه: «أنا دائمًا أقول عنك يا مستر غاشفورد أنَّ طريقتك الهادئة هذه يمكنها أن توقظ ميتًا»، ثم أضاف مغمغمًا بالبذاءة وهو ما زال يحدِّق إليه في تفكيرٍ: «إنها طريقة خبيثة إلى درجة فظيعة!».

«واضحة تمامًا، أليس كذلك يا دنس؟».

أجاب وهو يهرش رأسه من دون أن يحوِّل عينيه عن وجه صاحب السر: «واضحة! يبدو لي أني أسمع ما تقوله في عظامي نفسها!».

قال غاشفورد بنبرته الرتيبة المحايدة: «يسعدني أنَّ حاسَّة سمعك على هذا القدر من الحدَّة، وأنني ناجحٌ في أن أقول ما يُفهم عني بوضوحٍ، أين صديقك؟».

تلفَّت مستر دنس حوله كما لو كان يتوقَّع أن يراه راقدًا على فراشه من القشِّ، ثم ردَّ حين تذكَّر أنه رآه خارجًا:

«لا أستطيع أن أقول أين هو يا مستر غاشفورد، فقد توقَّعت عودته قبل الآن. أرجو ألَّا يكون هذا وقت مهمة بالنسبة إليه يا مستر غاشفورد؟».

أجاب صاحب السر: «لا، من يمكنه أن يعرف ذلك كما تعرفه؟ كيف يمكنني إخبارك يا دنس؟ أنت تعرف أنك في كامل السيطرة على أفعالك يا دنس، ولا تدين بمسؤولية أمام أي إنسان، ربما باستثناء القانون أحيانًا، أليس كذلك؟».

ألجم دنس هذا الرد الهادئ الذي يعتبر الأمر مفروغًا منه، ثم استعاد رباطة جأشه حين أشير إلى مهنيَّته، فهزَّ رأسه عابسًا وهو يشير إلى بارنابي.

صاح بارنابي: «ششش!».

قال الشَّانق بصوتٍ خفيضٍ: «آه! اصمت بهذا الخصوص يا مستر غاشفورد، التحيُّزات العامة، أنت دائمًا تنسى. حسنًا بارنابي العزيز، ما الأمر؟».

أجاب: «أسمعه آتيًا، أنصت! هل تسمع هذا؟ إنه وقع قدميه! بوركت، إنني أعرف خطوته وخطوة كلبه كذلك. دوسا، دوسا، هكذا هكذا. ها هما قادمان معًا، وهاهاها!» ثم صاح: «وها هما!» مرحِّبًا بهيو بكلتا يديه في سرورٍ ثم مربِّتًا ظهره في محبة كما لو كان أحد أكثر الرجال سحرًا لا ذلك الرفيق الجلف الذي هو إيَّاه! ثم تابع:

«ها هو، وقد عاد في أمان كذلك! أنا سعيدٌ لرؤيته وقد عاد مجدَّدًا، هيو الكبير!».

قال هيو مصافحًا إياه بنوعٍ من الصداقة الوحشية البالغة الغرابة: «فلأكن تركيًّا إن لم يرحَّب بي ترحيبًا أحرَّ من ترحاب أي رجلٍ عاقلٍ. كيف حالك يا ولد؟».

صاح بارنابي ملوِّحًا بقبَّعته: «معافى! هاهاها! ومرح كذلك يا هيو! ومستعدٌّ لفعل أي شيء لأجل القضية الطيبة والحق، ولمساعدة السيد الطيب الوديع الشاحب الوجه، ذلك اللورد الذي أساؤوا معاملته، هاه يا هيو؟».

أسقط صديقه يده قائلًا: «نعم!» ثم نظر إلى غاشفورد لحظة وقد تغيَّر تعبير وجهه قبل أن يحدِّثه:

«طاب يومك يا سيدي!».

ردَّ صاحب السر وهو يتعهَّد ساقه: «وطاب يومك، وأتمنى لك أيامًا طيبةً كثيرةً، بل أعوامًا كاملةً منها. إنك ساخن».

قال هيو وهو يمسح وجهه: «كذلك كنت ستكون يا سيدي لو كنت تركض هنا مثلي».

«أنت تعرف الأخبار إذن؟ أجل، أظنُّك قد سمعتها».

«أخبار؟ أي أخبار؟».

صاح غاشفورد رافعًا حاجبيه في دهشة: «ألم تسمع بها؟ يا ويلي! تعال، فإنني إذن أول من يعلمك بوضعك الممتاز في النهاية»، ثمَّ سأله مبتسمًا وهو يتناول ورقةً كبيرةً من جيبه ويفتحها ويمدُّ بها يده ليتفحَّصها هيو:

«هل ترى شعار الملك على رأس الصفحة؟».

قال هيو: «حسنًا! ما شأني بذلك؟».

ردَّ صاحب السر: «كثير، معظم شأنك، اقرأها».

قال هيو بنفاد صبرٍ: «لقد أخبرتك في أول مرة رأيتك فيها أنني لا أجيد القراءة، ماذا فيها بحق الشيطان؟».

قال غاشفورد: «إنه إعلانٌ من الملك في المجلس مؤرَّخ باليوم، يعِد بمكافأة قدرها خمسمائة جنيه -وخمسمائة جنيه مبلغ كبير مغرٍ جدًّا لبعض الناس- لمن يكتشف العناصر الأنشط في تخريب تلك المعابد ليلة السبت».

صاح هيو بنبرة لا مبالية: «أهذا كل ما في الأمر؟ لقد كنت أعرف ذلك».

قال غاشفورد مبتسمًا وهو يطوي المستند مجدَّدًا: «ربما كان لي أن أعرف أنك تعلم بذلك حقًّا. كان من المؤكد أن صديقك -كان ينبغي لي أن أخمِّن، وقد خمَّنت في الحقيقة- سيخبرك بالأمر».

تلعثم هيو في محاولة فاشلة لأن يبدو مندهشًا: «صديقي؟ أي صديق؟».

ردَّ غاشفورد وهو يفرك يديه ويضرب ظهر إحداهما على راحة الأخرى وهو يحدجه بنظرة ماكرة:

«مهلًا مهلًا، أتظنني لا أعرف أين كنت؟ ما أغبى الشخص الذي تظنني إياه! هل أقول اسمه؟».

قال هيو بنظرة عجلى صوب دنس: «لا».

تابع صاحب السر بعد صمتٍ برهة: «لا ريب أنك قد سمعت منه كذلك أن المتظاهرين الذين أُلقي القبض عليهم -أولئك المساكين- سيحاكمون، وأنَّ عددًا من الشهود النشطين للغاية كانوا من الوقاحة بحيث شهدوا ضدهم» ثم تابع ببطء شديدٍ وهو يكزُّ على أسنانه كما لو كان يحاول بالقوة ضبط لسانه قبل أن ينطق بكلماتٍ عنيفة صعدت إليه: «وبين هؤلاء.. وبين هؤلاء سيدٌ رأى ما فعلتموه في شارع واروك. سيدٌ كاثوليكي يُدعى هاردال».

كان يطيب لهيو أن يمنعه من نطق الاسم لكنه كان قد نطقه بالفعل. فلما سمع بارنابي الاسم استدار إليهما سريعًا، صاح هيو وهو يلبس أكثر أساليبه سرعة وإثارة ويدفع إلى يده ساريته ورايته اللتين كانتا مسندتين إلى الحائط:

«الواجب الواجب يا بارنابي الجريء! تابع المراقبة من دون إضاعة وقت. فسننطلق على الفور في حملتنا. هيَّا يا دنس، استعد! انتبه لئلَّا يقلِّب أحدهم القشَّ في فراشي يا بارنابي الشجاع. كلانا يعرف ما تحته، أليس كذلك؟ والآن يا سيدي، أسرع! قل ما لديك مسرعًا، فإنَّ القائد الصغير وعددًا منهم في الحقول، لا ينتظرون إلَّا وصولنا. كلمة حادّة وفعل سريع، هيَّا!».

لم يكن بارنابي بمنجى من هذه الدعوة إلى النشاط والهمَّة. وحين مرقت الكلمات من ذاكرته كما تمرق الأنفاس من مرآة مصقولة اختفت من على وجهه تلك النظرة التي امتزجت فيها الدهشة بالغضب حين استدار إليهم، فقبض على السلاح الذي أجبره عليه هيو وأخذ وقفته لدى الباب في فخرٍ، بعيدًا عن مرمى تهامسهم.

قال هيو: «أوشكت تفسد خططنا يا سيدي، أنت تحديدًا كنت ستفسدها!».

حثَّه غاشفورد: «من كان يظن أنه سيكون سريعًا هكذا؟».

قال هيو: «أحيانًا يكون في سرعتك أو سرعة أي إنسانٍ آخر، لا أقصد سرعة يديه فأنت تعرف ذلك، وإنما سرعة مخِّه. دنس، إنه الوقت الذي حدَّدناه لذهابنا، إنهم في انتظارنا وقد أتيت لأخبرك بهذا. ناولني عصاي وحزامي. هنا! ساعدني يا سيدي. ضع هذا على كتفي، واشبكه من الخلف، هل ستفعل؟».

قال صاحب السر وهو يعدِّل حمولته على كتفه كما أراد: «سريعًا كالعادة!».

«على المرء أن يكون سريعًا اليوم، فأمامنا عملٌ سريعٌ لإنجازه».

قال غاشفورد: «هناك عملٌ، أليس كذلك؟» قالها متصنِّعًا الجهل بطريقة مستفزة لدرجة أنَّ هيو قد ردَّ عليه وهو ينظر إليه شزرًا في غضب قائلًا:

«أليس كذلك؟! أنت تعرف أنه هناك. من يعرف أفضل منك يا سيدي أن أول خطوة عظيمة يمكن أن تؤخذ هي أن نجعل من هؤلاء الشهود عبرة لمن يعتبر، ونرهب الجميع من الظهور ضدنا أو ضد أيٍّ من أعضاء رابطتنا فيما بعد؟».

ردَّ غاشفورد بابتسامة معبِّرة: «هناك من نعرف أنه ملمٌّ بهذا الموضوع مثلي ومثلك على الأقل».

قال هيو في خفوتٍ: «إذا كان كلانا يقصد السيد نفسه كما أظنُّ، فدعني أخبرك بأنَّ لديه معلوماتٍ جيدةً تصله سريعًا عن كلِّ شيء مثل.» وهنا توقَّف وأخذ ينظر إلى ما حوله كما لو كان يستوثق أن الشخص المذكور ليس في مرمى تهامسهم، ثم تابع: «مثل (نك) الكبير نفسه. هل فعلت ذلك يا سيدي؟ ما أبطأك!».

قال غاشفورد وهو ينهض: «الآن الأمر سريع. أقول، لم تجد أن صديقك لم تعجبه حملة اليوم الصغيرة؟ هاهاها! من حسن الحظ أنَّ ذلك يتجاوب وسياستنا مع الشهود تمامًا، فإنها خطة بمجرد أن توضع لا بُدَّ أن تُنفَّذ. والآن أنت ذاهب، أليس كذلك؟».

ردَّ هيو: «والآن نحن ذاهبان يا سيدي! هل من كلمة تودُّ قولها في وداعنا؟».

قال غاشفورد بنبرة ودودٍ: «أوه، لا يا عزيزي، لا».

صاح هيو وهو يلكز دنس المبتسم: «أأنت واثقٌ؟».

قهقه الشانق: «أأنت واثق تمامًا يا مستر غاشفورد؟ هاه؟».

توقَّف غاشفورد لحظةً يجاهد حذره وحقده، ثم وقف بين الرجلين واضعًا يدًا على ذراع كلّ وقال هامسًا في تشنُّج: «لا تنسيا يا صديقيَّ الطيِّبين –وأنا واثق أنكما لن تنسيا– حديثنا ذات ليلة في منزلك يا دنس عن ذلك الشخص، لا رحمة ولا هوادة ولا عمودين من منزله يظلَّان واقفين حيث أقامهما من بناه! يقول المثل إنَّ النار خادمٌ جيدٌ، ولكنَّها سيِّدٌ سيِّئ. اجعلاها سيِّده، فهو لا يستحق سيّدًا أفضل. على كلِّ حال أنا واثقٌ أنكما ستتحلِّيان بالعزيمة، وواثق أنكما ستكونان غايةً في التصميم، ومتأكد أنكما ستذكران أنه متعطِّش إلى موتكما وموت كل رفاقنا الشجعان. لو سبق وكنتما قد تصرَّفتما كأتباعٍ مخلصينٍ فستكونان اليوم هكذا، أليس كذلك يا دنس؟ أليس كذلك يا هيو؟».

نظر كلاهما إليه ونظر كلٌّ إلى صاحبه ثم تمنطقا بهراوتيهما عاليًا وهما ينفجران مقهقهين، ثم ما لبثا أن صافحاه وانطلقا إلى الخارج.

لم يمضِ كثير وقت على ذهابهما وتبعهما غاشفورد. لم يكونا قد غابا عن الرؤية، مسرعين إلى ذلك الجزء من الحقول المتاخمة الذي احتشد فيه أتباعهما بالفعل، وكان هيو ينظر إلى الخلف ويلوِّح بقبَّعته لبارنابي الذي جاوبه بالمثل مسرورًا بثقته ثم مضى يخطو ذهابًا وجيئةً أمام باب الحظيرة حيث كانت قدماه بالفعل قد حفرتا ممشى له. وحين كان غاشفورد نفسه قد ابتعد تمامًا ونظر خلفه للمرة الأخيرة كان بارنابي ما زال يخطو ذهابًا وجيئةً بالخطوة المنتظمة نفسها وهو أخلص بطل وقف حارسًا على

الإطلاق وأنشطه، وقد رفع روحه المعنوية كثيرًا شعوره الشجاع بالواجب وتصميمه على الدفاع عن هذا الواجب إلى النهاية.

ابتسم غاشفورد لسذاجة الأبله المسكين ومضى في طريقه إلى شارع ولبك سالكًا دربًا مختلفًا عن ذلك الذي كان يعرف أنَّ المتظاهرين سيأخذونه، ثم ما لبث أن جلس خلف ستارٍ في إحدى النوافذ العليا في منزل لورد چورچ غوردن وأخذ ينتظر مقدمهم بنفاد صبرٍ. وقد تأخَّروا كثيرًا لدرجة أنه رغم معرفته باستقرار العزم على مجيئهم بتلك الطريق خشي أن يكونوا قد غيَّروا خططهم وأخذوا طريقًا مختلفة، لكن أخيرًا سمعت زمجرة أصواتهم في الحقول المتاخمة، وبعدها بقليلٍ مرُّوا أمامه محتشدين في زحامٍ عظيمٍ.

لكنهم رغم ذلك لم يكونوا جميعًا ولا حتى معظمهم في كتلة واحدة، وإنما كانوا منقسمين أربع فرقٍ كما اكتشف بعد قليلٍ، توقَّف كلٌّ منها أمام المنزل ليهتف ثلاثة هتافات ثم مضت جميعًا والقادة يصيحون بالوجهة التي سينطلقون إليها وينادون المتفرِّجين أن ينضمُّوا إليهم. كانت الفرقة الأولى تحمل كالرايات بعض بقايا الخراب الذي أحدثوه في (مورفيلدز)، وأعلنت اتجاهها إلى (تشلسي) التي سيعودون منها بنفس الترتيب، ليعملوا حريقًا هائلًا للأسلاب التي يحملونها. أما الفرقة الثانية فقد أعلنت وجهتها (واينغ) لتدمير معبدٍ، وأعلنت الثالثة وجهتها (إيست سمثفيلد) للهدف نفسه. حدث هذا كلُّه في نهارٍ صيفيٍّ قائظٍ. كانت العربات والكراسيّ الأنيقة تتوقَّف لتسمح لهم بالعبور، أو تدور على أعقابها لتتجنَّبهم، والمشاة يتنحَّون جانبًا في مداخل الأبواب، وربما طرقوا الأبواب وتوسَّلوا الإذن بالدخول ليتسنَّى لهم الوقوف في نافذة أو في القاعة إلى أن يمرَّ

المتظاهرون، لكن لم يتدخَّل معهم أحدٌ، وحين مضوا في طريقهم عاد كلُّ شيء كما كان.

بقيت الفرقة الرابعة، وقد أخذ صاحب السر يترقَّبها بشغفٍ ما بعده شغف. أخيرًا ظهرت، كانت عديد الحصى، مكوَّنةً من رجالٍ مصطفين، فإنه لمَّا نظر فيما بينهم تعرَّف كثيرًا من الوجوه أدارها أصحابها إلى أعلى، بينها وجوه سايمن تاپرتت وهيو ودنس في المقدِّمة بالطبع. توقَّفوا وهتفوا كما فعل سابقوهم، لكنهم حين عادوا إلى الحركة لم يعلنوا وجهتهم كالآخرين، ولم يزِد هيو على أن رفع قبَّعته على هراوته، ثم مضى في طريقه وهو ينظر إلى متفرِّج على الجانب الآخر من الطريق.

تبع غاشفورد اتجاه نظرته في تلقائية فرأى سير چون تشستر واقفًا على الرصيف مرتديًا الشارة الزرقاء، كان رافعًا قبَّعته بوصةً أو اثنتين فوق رأسه، محيِّيًا الحشود، مبتسمًا في ودٍّ بينما يتَّكئ على عصاه بخفَّة حركة، عارضًا كلَّ ما يتسنَّى عرضه من لباسه وشخصه، وكان ينظر أمامه في حال هي أوفر ما يصل إليه الخيال من طمأنينة. وقد رآه غاشفورد مع كلِّ ذلك في مهارته ولمَّاحيَّته المعروفتين، رآه يبادل هيو نظرة راعٍ لمن في رعايته. ومذ ذاك لم يعد يتابع الحشود وإنما ركَّز نظره الحريص على سير چون.

وقف في المكان نفسه وعلى وضعه لا يغيِّره إلى أن خرج آخر رجلٍ في الحشد من ركن الشارع، ثم نزع الشارة الزرقاء من قبَّعته عامدًا متعمِّدًا، ووضعها في جيبه بحرصٍ، مستعدًّا لما يجدُّ من طوارئ، ثم أنعش نفسه ببعض السعوط، قبل أن يضع صندوقه في جيبه ويمضي في بطء، وبينا هو ماضٍ في طريقه إذا عربة تتوقَّف ويد سيدة تُنزِل زجاجها. ارتفعت قبَّعة

سير چون ثانية على الفور. وبعد حديثٍ استمرَّ دقيقةً لدى نافذة العربة كان واضحًا فيه أنه يتكلم في استفاضة عن موضوع الحشود، دلف إلى داخل العربة وابتعد فيها.

ابتسم صاحب السر، لكنَّ أفكارًا أخرى كانت تشغله، فما لبث أن أسقط الموضوع من تفكيره. أُحضِر له العشاء لكنَّه صرفه ولم يذُق منه شيئًا، وقضى أربع ساعاتٍ مملَّة بين ذرعه الغرفة ذهابًا وجيئةً من دون راحة والنظر إلى الساعة كلَّ بضع لحظاتٍ ومحاولات كثيرة بلا طائلٍ للجلوس والقراءة أو الذهاب إلى الفراش أو النظر من النافذة، وحين أخبرته العقارب بمضيّ ذلك الوقت صعد متسلِّلًا إلى قمة المنزل وجلس حين وصل إلى السطح ووجهه صوب الشرق.

أخذ يراقب ويراقب غير عابئ بالهواء المنعش الذي هبَّ على جبهته الساخنة والمروج المبهجة التي عبر منها إلى هنا، غير ملتفتٍ إلى أكوام الأسطح والمداخن التي كان ينظر إليها، ولا إلى الدخان والضباب المتصاعد الذي كان يحاول اختراقه ببصره من دون جدوى، ولا إلى صياح الأطفال الحاد في لعبهم المسائي، غير منتبه لطنين المدينة البعيد وصخبها، ولا إلى أنفاس الريف المرحة التي مرقت لتقابله قبل أن تخفت وتموت. ظلَّ يراقب إلى أن حلَّ الظلام، لا يقطعه سوى بقع الضوء التي طفقت تتألَّق في الشوارع بعيدًا في الأسفل. ومع تكاثف سجف الظلام كان يرهف نظرته ويزداد شوقه وارتقابه.

غمغم في قلقٍ: «لا شيء سوى الظلام في هذا الاتجاه إلى الآن! أيُّها الكلب! أين ما وعدتني به من حمرة في السماء؟!».

الفصل الرابع والخمسون

كانت شائعات الاضطرابات السائدة قد بدأت إذ ذاك تأخذ درجةً أعمَّ من الانتشار فيما حول لندن من المدن والقرى، وكانت الأخبار تتلقَّى في كلِّ مكان بتلك الشهيَّة المعروفة لما هو عجيب وذلك الشغف المشهور بما هو رهيب، ذينك اللذين ربما كانا من السمات الطبيعية للبشرية منذ بدء الخليقة. غير أنَّ هذه الحكايات كانت تبدو لكثيرين في ذلك الزمن – كما كانت ستبدو لنا في زمننا الحالي لولا علمنا بأنها تاريخية– مبالغةً في الوحشية والاستعصاء على الإمكان، حتى إنَّ كثيرين ممن كانوا يقطنون بعيدًا ويتميزون بسرعة التصديق في أمورٍ أخرى كانوا حقًّا عاجزين عن إقناع عقولهم بإمكان حدوث هذه الأشياء، فما كان منهم إلَّا أن رفضوا ما تلقَّوه من هذه الحكايات على الأصعدة كافةً، باعتبارها خرافيةً سخيفةً تمامًا.

كان مستر ولت أحد هؤلاء الذين أصرُّوا على رفض الائتناس بذلك الموضوع الحالي ولو للحظة، وربما لم يكن هذا راجعًا بالدرجة الأكبر إلى كونه قد ناقش الأمر وحسمه بينه وبين نفسه بقدر ما كان راجعًا إلى عناده الطبيعي. في تلك الليلة نفسها، وربما في الوقت نفسه الذي كان غاشفورد مكبًّا فيه على نوبة مراقبته الانفرادية، كان (چون) العجوز قد

احمرَّ وجهه لفرط ما هزَّ رأسه اعتراضًا على آراء أصحابه الثلاثة القدامى ورفاق كأسه، حتى لقد بدا ظاهرةً غريبةً جديرةً بالمشاهدة، وحتى أضاء احمراره رواق مايپول حيث كان أربعتهم جالسين، كما لو كان دمَّلًا عملاقًا في حكاية جنيَّات.

قال مستر ولت وهو يحدُّ النظر إلى سولومون دايزي - إذ كان من عادته حال فوران المشادَّات الكلامية أن يركز على أضأل رجلٍ في الجلوس: «هل تعتقد يا سيدي، هل تعتقد أنني أحمق منذ ميلادي؟».

ردَّ سولومون وهو ينظر حوله إلى الدائرة الصغيرة التي مثَّل جزءًا منها: «لا لا يا چوني، كلنا يعرف أفضل من ذلك، أنت لست بأحمق يا چوني. لا لا!».

هزَّ مستر كب ومستر پاركس رأسيهما في تناغمٍ وهما يغمغمان: «لا لا يا چوني، لستَ كذلك!» لكن حيث كان مثل هذه الإطراءات يدفع مستر ولت عادةً إلى المزيد من استبداده برأيه، فقد أخذ يقلِّب بصره فيهم بنظرة مفعمة بالاستياء، وما لبث أن ردَّ:

«إذن ماذا تعنون بالمجيء إلى هنا وإخباري بأنكم الليلة عازمون على المشي معًا إلى لندن -ثلاثتكم، أنتم- لتتحرَّوا الأمر بحواسِّكم؟» ثم أردف مستر ولت وهو يضع غليونه في فيه وعليه سيماء الاحتقار الرصين: «آه! ألا تكفيكم شهادة حواسي أنا؟».

احتجَّ پاركس في ضراعة: «لكننا لم نحظ بها يا چوني».

كرَّر مستر ولت وهو يحدجه بنظرة مسحته من قمة رأسه إلى أخمص قدمه: «لم تحظ بها يا سيدي؟! لم تحظ بها؟ لقد حظيت بها يا سيدي! ألم

أخبرك بأنَّ جلالة الملك چورچ الثالث المبارك لا يطيق ثوران التظاهرات والشغب في شوارعه فوق ما يطيق تبجُّح پرلمانه عليه؟».

قال مستر پاركس المغامر: «بلى يا چوني، لكنَّ هذا عقلك لا حواسك».

ردَّ چون في أنفة عظيمة: «كيف لكَ أن تعرف؟ إنك تسمح لنفسك بأن تناقض نفسك يا سيدي. كيف لك أن تعرف إن كانت شهادة حواسي أم عقلي؟ لا يحضرني أنني أخبرتك بذلك أبدًا يا سيدي».

وإذ وجد مستر پاركس أنه قد تورَّط في الميتافيزيقا من دون أن يعرف لنفسه مخرجًا واضحًا منها، فقد اعتذر متلعثمًا وانسحب من الجدال. تلا ذلك صمت عشر دقائق أو ربع ساعة، بنهايتها لوحظ أنَّ مستر ولت يهدر ويهتزُّ مقهقهًا ثم يقول مشيرًا إلى غريمه «إنه يتمنى لو كان قد عالجه بما يكفي». إثر ذلك ضحك مستر كب ومستر دايزي وأومآ، ونظرا إلى پاركس نظرتهما إلى من مُني بهزيمة كاملة.

وبعد فترة صمتٍ أخرى قال چون: «أتظنون إن كان كل ذلك صحيحًا أن مستر هاردال كان سيبقى بعيدًا هكذا عن بيته كما هو الآن؟ ألا تظنَّانه كان سيخشى أن يترك المنزل وفيه امرأتان شابتان، وليس معهما إلَّا رجلان تقريبًا؟».

ردَّ سولومون دايزي: «نعم، لكنك تعرف أنَّ منزله يبعد عن لندن مسافةً طيبةً، ويقال إنَّ المتظاهرين لن يبتعدوا عن وسط لندن أكثر من ميلين أو ثلاثة على الأكثر. أضف إلى ذلك أنَّ بعض السادة النبلاء من الكاثوليك قد أرسلوا إلى هنا كما تعرف حليّهم وما إليها لتكون في مأمن. على الأقل هذا ما يقال».

قال مستر ولت في حدَّة: «هذا ما يقال! نعم سيدي. وما يقال كذلك إنك قد رأيتَ شبحًا في آذار الماضي، لكن لا أحد يصدِّق ذلك».

قال سولومون وهو ينهض ليصرف انتباه صديقيه اللذين ضحكا ضحكًا مكتومًا من هذا الرد: «حسنًا! صدق أو لم يصدق، هو حقيقة، وبغض النظر عن كونه حقيقةً أو غير ذلك، فإذا كنَّا ننتوي الذهاب إلى لندن فعلينا أن نتحرك توًّا، صافحنا إذن يا چوني، وطابت ليلتك».

ردَّ مدير الخان واضعًا يديه في جيوبه: «لن أصافح إنسانًا يذهب إلى لندن في مأمورية سخيفة كهذه».

هكذا اضطرَّ أصحابه الثلاثة إلى ضرورة أن يصافحوا مرفقيه، وبعد أن أدُّوا هذا الطقس وأخذوا من داخل الخان قبعاتهم وعصيهم ومعاطفهم تمنَّوا له ليلةً طيبةً وانصرفوا، وهم يعدونه بأن ينهوا إليه غدًا الأخبار الصادقة الكاملة عن الحالة الحقيقية للمدينة، وأن يعترفوا بانتصاره وجدارته إن كانت الأمور هناك هادئة.

تابعهم چون ولت ببصره وهم يتهادون في الطريق في وهج المساء الصيفي الغني، وبعد أن دقَّ غليونه مخرجًا منه رماده أخذ يضحك في سرِّه من حماقتهم إلى أن آلمه عطفاه. ولمَّا بلغ منه الجهد مبلغه –وكان هذا بعد وقتٍ معتبرٍ، فقد كان يضحك بالبطء الذي يفكر ويتكلم به– جلس مرتاحًا وظهره إلى الخان وقد وضع ساقيه على المقعد، ثم غطَّى وجهه بميدعته وغرق في النوم.

لا يهمُّ كم نام، غير أنه لم يكن وقتًا قليلًا، حيث كان الوهج الغني قد خفت حين استيقظ، وكانت ألوان الليل القاتمة تصبغ الأفق بكامله،

ولم يكن في السماء إلا قليل من نجوم متلألئة. كانت الطيور جميعًا قد أوت إلى أوكارها، وأقاحي البساط الأخضر قد تغطَّت بقلانسها السحرية، وسيقان زهر العسل الملتفَّة على الرواق تتنفَّس عطرها مضاعفًا، كما لو كانت قد فقدت حياءها في هذا الوقت الساكن وشاقها أن تنثر عبقها على الليل، واللبلاب لا تكاد أوراقه الداكنة الخضرة تهتز. ما أعمق طمأنينة ذلك الليل وما أجمله!

ألم يكن ثَمَّ صوتٌ في الهواء خلاف حفيف الشجر الوادع وصرير الجنادب المرح؟ أنصت! ثَمَّ شيءٌ بالغ الخفوت والبعد، لا يبعد كثيرًا عن غمغمة تسمعها في المحار. يعلو آنًا ويخفت آنًا، ويختفي آنًا تمامًا. ثم لا يلبث أن يعود فيخبو فيعود مجدّدًا فيعلو فيخبو فيتحوَّل إلى زمجرة. كان على الطريق، يتغيَّر مع تعرُّجاته. وبغتةً تحوَّل إلى صوتٍ واضحٍ، هو أصوات كثرة من الرجال ووقع أقدامهم.

ولا يسعنا أن نعرف ما إذا كان العجوز چون ولت –حتى في هذه اللحظة– سيفكر في المتظاهرين لو لم يسمع صراخ طاهيته وخادمة الخان اللتين صعدتا الدرج مسرعتين تصرخان وأغلقتا على نفسيهما إحدى العليَّات العتيقة، وطفقتا تتصايحان في شؤمٍ وقد فعلتا ذلك بسبيل جعْل ملجئهما بالغ السرية والأمان. شهدت هاتان الأنثيان فيما بعد بأنَّ مستر ولت لم ينطق خلال قلقه إلا بكلمة واحدة نادى بها من هم في أعلى الدرج بصوتٍ جهوريٍّ ستَّ مرات واضحة. لكن حيث إنَّ هذه الكلمة مقطع واحد –ولا تعتبر مقذعةً إذا ما نودي بها الحيوان الذي جعلت له، فإنها تصبح منكرةً مستهجنةً إذا ما استخدمت لتشير إلى إناث ذوات شخصية لا يتطرَّق إليها الشك– فإنَّ كثيرين قد مالوا إلى

أنَّ الشابَّتين كانتا تعانيان نوعًا من الهلوسة نجم عن شدة الخوف، وأنَّ آذانهما قد خدعتاهما.

بغض النظر عن ذلك، وضع چون ولت نفسه في الرواق، وهو ذلك الرجل الذي تحلُّ أقصى درجات الحيرة البليدة من تكوينه محل الشجاعة، وأخذ ينتظر مقدمهم. وخطر له لوهلة بشكلٍ غامضٍ أنَّ هناك بابًا من نوعٍ ما للخان، وأنَّ له قفلًا وأرتجةً، وفي الوقت ذاته خطرت له أفكارٌ ملتبسة عن مصاريع للنوافذ السفلية، مرَّت كلها سريعًا في ذهنه. غير أنه وقف لا يحرك ساكنًا، ينظر صوب جهة الطريق التي تقترب منها الجلبة، ولا يكاد حتى يخرج يديه من جيوبه.

لم يطل انتظاره، فسرعان ما لاحت في الأفق كتلة مظلمة تتحرك في سحابة من الغبار، وحثَّ الحشد الخطى، ومن فيه يتصايحون ويزعقون كالمتوحشين، أتوا يهرعون في اندفاعٍ، وما هي إلَّا ثوانٍ وكانت الأيدي تتدافعه في قلب زحامٍ من الرجال.

صاح صوتٌ عرفه بينما المتكلِّم يشقُّ إليه الزحام: «هالوا! أين هو؟ أعطوني إيَّاه، لا تؤذوه. كيف حالك الآن أيّها العجوز؟ هاهاها!».

نظر إليه مستر ولت ورأى أنه هيو، لكنه لم يقل شيئًا ولم يفكر في شيء. صاح هيو وهو يدفعه صوب المنزل:

«هؤلاء الفتيان عطاش وينبغي لهم أن يشربوا! تحرّك يا چاك تحرَّك! أرِنا الأفضل، نعم الأفضل. النوع الأجود الذي تحتفظ به لشرابك يا چاك!».

شبَّك چون كلماته في خفوتٍ قائلًا: «من سيدفع؟».

صاح هيو مقهقهًا في زمجرة ردَّدها الحشد في صخبٍ: «يقول من سيدفع!» ثم أضاف وهو يستدير إلى چون:

«يدفع؟ لماذا؟ لا أحد!».

حدَّق چون إلى ما حوله من الوجوه المحتشدة، بعضها مبتسمٌ وبعضها متوحشٌ، بعضها ينعكس عليه نور المشاعل، بعضها ملتبسٌ أو غسقيٌّ أو مظلمٌ، بعضها ينظر إليه، وبعضها إلى خانه، وبعضها ينظر إلى بعض، وبينا هو كما كان يفكر مستغرقًا في تفرُّس هذه الوجوه، إذا به يجد نفسه في الحانة من دون وعي منه بأنه قد تحرك، جالسًا في كرسيه العريض يراقب تدمير ممتلكاته، كما لو كان ما يدور حوله لعبةً او تسليةً شاذةً ذات طبيعة مدهشة مذهلة، وإن لم يكن فيها مطلقًا ما يتعلَّق به مما يستطيع تبيِّنه.

نعم هنا كانت الحانة، الحانة التي لم يدخلها أجرأ الناس من دون إذن خاص، الحمى، الخافية، الأرض المقدسة، ها هي تغص بالرجال والهراوات والعصي والمشاعل والمسدسات، مفعمة بصخبٍ مصمٍّ وسباب وصياح وصرخات وزعيق، وقد تحوَّلت فجأةً إلى حديقة دببة، بيمارستان، معبد شيطانيٍّ، حيث ينطلق رجال إلى داخله وخارجين منه عبر الباب والنوافذ، محطمين الزجاج، يديرون الصنابير، ويحتسون الشراب من آنية الخزف، ويجلسون مفترشين القنِّينات، ويدخنون غلايين خاصةً بغيرهم، ويقطعون أغصان بيَّارة الليمون المقدَّسة، ويقرضون ويقتطعون من الجبن المحتفى به، ويفتحون عنوةً أدراجًا مصونةً، ويضعون في جيوبهم أشياء لا تخصُّهم، ويقسِّمون فيما بينهم ماله أمام عينيه، وخلال ذلك يفتؤون يخرِّبون ويكسِّرون ويمزِّقون، فلم يبقَ لشيء سلامه ولم تبق

لشيء خصوصيته، فالرجال في كلّ مكان، في الأعلى والأسفل وفوق رأسه وفي غرف النوم والمطبخ والفناء والحظائر، يتسلَّقون إلى الداخل عبر النوافذ والأبواب مفتوحة، يتساقطون عبر النوافذ بينما الدرج متاح، ويتقافزون من فوق الأفاريز إلى فجواتٍ من الممرات، وكانت وجوه وأشكال جديدة تظهر كلَّ لحظة، بعضها يتصايح وبعضها يغني، بعضها يتشاجر وبعضها يكسر آنية الزجاج والخزف، بعضها يملأ الشراب الذي لم يستطع احتساءه بالتراب، وبعضها يقرع الأجراس إلى أن ينزعها من أماكنها، وبعضهم يضربها بالمساعر إلى أن يحطِّمها، وكان رجال أكثر، أكثر وأكثر، يموج بهم المكان كالحشرات: صخب ودخان وضوء وظلمة وعبث وغضب وقهقهة وصيحات ونهب وخوف وخراب!

وطيلة الوقت بينما ينظر چون إلى هذا المشهد المربك كان هيو قريبًا منه، ورغم كونه الوغد الأعلى صوتًا والأكثر توحشًا وتخريبًا هناك، فقد أنقذ عظم سيده القديم عشرين مرة. بل إنَّه حتى حين جاء مستر تاپرتت وقد لعبت برأسه الخمر فركل چون ولت بأدبٍ في قصبتي ساقيه ليؤكد سلطته، أمره هيو بأن يردَّ التحية، ولو كان لـچون العجوز من حضور الذهن ما يكفي لفهم هذا التوجيه المهموس والاستفادة منه لكان بلا شكٍّ قد فعل ذلك تحت حماية هيو آمنًا من العقاب.

أخيرًا بدأت الفرقة تتجمَّع خارج الخان، وأخذ مَن بالخارج يهيبون بمن بالداخل أن ينضمُّوا إليهم لأنَّ الوقت كان ضيقًا. ولمَّا أخذ هذا الهمس يتزايد ويكتسب نبرةً عاليةً، تشاور هيو مع بعض من ظلُّوا يتلكَّؤون في الحانة ممن كان واضحًا أنهم قادة الفرقة -بعيدًا عن الآخرين- فيما يجب أن يفعل بچون لإسكاته ريثما ينتهون من مهمَّتهم في تشغول. اقترح

البعض أن يحرقوا الخان ويتركوه به، واقترح آخرون أنه يجب أن يُدفع به إلى حالة من فقدان الإحساس المؤقَّت بضربه على رأسه، وآخرون أن يحلَّف على أن يجلس حيث هو إلى غدٍ في مثل تلك الساعة، واقترح فريقٌ آخر تكميمه وأخذه معهم تحت حراسة كافية. ولمَّا أُلغي كل هذه الاقتراحات، انتهي أخيرًا إلى ربطه في كرسيِّه، وصدر الأمر إلى دنس بالتنفيذ.

قال هيو وهو يقطع إليه خطواتٍ واسعةً: «انظر هنا يا چاك! سنقيِّدك من يديك وقدميك، لكنك لن تصاب بأذىً بخلاف ذلك، أتسمعني؟».

نظر چون ولت إلى رجلٍ آخر كما لو كان لا يعرف من منهما يتكلَّم، وغمغم بكلامٍ عن شيء معتاد يحدث كلَّ يوم أحد في الثانية. زمجر هيو وهو يدفع بالتأكيد إليه بضربه ضربةً ثقيلةً على ظهره:

«أقول لك يا چاك إنك لن تصاب بأذىً، هل تسمعني؟ إنه ميِّت في جلده من الخوف، أظنُّه في حالة ذهولٍ تامٍّ. أعطوه جرعةً من شيء ليشربه، فليناوله أحدكم».

ناوله أحدهم كأسًا من الشراب فصبَّ محتوياتها في حلق چون العجوز. أخذ مستر ولت يتمطَّق بشفتيه في وهنٍ، ودفع يده في جيبه، وسأل عن ثمن ما جرعه، مضيفًا وهو ينظر فيما حوله نظرةً خاويةً أنه يعتقد أن هناك بعض الزجاج المكسور.

أخذ يهزُّه من دون أن يبدو أيَّ أثرٍ لذلك في وعيه، حتى خشخشت مفاتيحه في جيوبه، فقال هيو:

«أظنُّه فقد الإحساس مؤقّتًا».

«أين ذلك الـ(دنس)؟».

صدر الأمر مجدّدًا، وما لبث مستر دنس أن هرع إلى الداخل وعلى خصره يلتفُّ حبلٌ طويلٌ في هيئة تشبه هيئة الرهبان، ومن حوله ستة حرَّاس من رجاله.

صاح هيو وهو يضرب الأرض بقدمه: «تعال! أظهر بعض الهمَّة هنا! أسرع!».

فكَّ دنس الحبل من حول جسده بغمزة وإيماءة، ثم رفع عينيه إلى السقف وأخذ يتفرَّسه ويتفرَّس الحوائط والطنف بعين ملؤها الفضول، ثم هزَّ رأسه. صاح هيو وهو يضرب الأرض بقدمه ثانيةً في نفاد صبرٍ:

«تحرك يا رجل، ألا تستطيع؟! هل سننتظر هنا حتى يصل الصراخ إلى عشرة أميالٍ من هنا ويثير من يقاطعون مهمَّتنا؟!».

أجابه دنس وهو يتقدَّم مقتربًا منه: «إنه كلامٌ لا غبار عليه أبدًا يا أخي» ثم همس في أذنه مواصلًا: «لكننا ما لم نفعلها على الباب فلن نستطيع فعلها في هذه الغرفة».

سأله هيو: «لماذا؟».

ردَّ دنس: «لماذا لا نستطيع؟ لماذا، العجوز لا يستطيع».

صاح هيو: «لماذا؟! لا تقل إنك كنت بسبيلك إلى شنقه!».

ردَّ الشانق محدَّقًا إليه: «لا يا أخي؟ فماذا أفعل غير ذلك؟!».

لم يحر هيو جوابًا، غير أنه اختطف الحبل من يد رفيقه وشرع يربط چون العجوز بنفسه، لكنَّ أولى حركاته نفسها كانت من الخرق والتخبُّط بحيث دفعت مستر دنس إلى أن يتوسَّل إليه والدموع تكاد تطفر من عينيه أن يسمح له بالقيام بالواجب. فلما وافق هيو، أنجز دنس المهمَّة في طرفة عين.

نظر في رثاءٍ إلى چون ولت الذي لم يظهر من الانفعال في قيوده فوق ما أظهره قبل أن يقيَّد، ثم قال: «ها هو، هذا هو ما أدعوه شيئًا أنجز على الوجه الأمثل بيد خبيرة. يا له من منظرٍ الآن. والآن أخي، كلمةً واحدةً معك فحسب. الآن وهو مقيَّد بالفعل، ألا يكون من الأفضل لجميع الأطراف أن نقضي عليه؟ سيبدو الخبر لطيفًا بدرجة استثنائية حين يظهر في الجرائد، حقًّا! سيفكر فينا الناس أكثر بكثيرٍ!».

استنتج هيو ما يقصده رفيقه من إيماءاته أكثر مما استنتجه من طريقته العملية في التعبير عن نفسه –وقد كان إلى هذه اللحظة جاهلًا بمهنة دنس– فما كان منه إلا أن رفض الاقتراح للمرة الثانية، وأصدر الأمر: «إلى الأمام!» الذي كرَّره مائة صوتٍ من خارج الأبواب.

صاح دنس وهو ينطلق خارجًا يتبعه الباقون: «إلى منزل وارن! منزل أحد الشهود يا رفاقي!».

تبعت ذلك صيحة عالية، وما لبث الحشد أجمعه أن انطلق مسرعًا، تحدوه رغبة مجنونة في التخريب والدمار. تلكَّأ هيو من خلفهم لحظاتٍ قليلةً ليستحثَّ نفسه بالمزيد من الشراب وليفتح كلَّ الصَّنابير التي نجت بالصدفة من عبث رفاقه، ثم قلَّب بصره في الغرفة المنهوبة المخربة التي دفع المتظاهرون عبر نوافذها المحطمة الناغط نفسه –فحتى هذا الرمز لم يسلم منهم– وأشعل مشعلًا وضرب چون ولت الذي فقد النطق والحركة على ظهره، وما لبث أن هرع في إثر رفاقه وهو يلوِّح بمشعله فوق رأسه ويصيح صيحةً وحشية.

الفصل الخامس والخمسون

حين ترك چون ولت وحده في حانته المفكَّكة ظلَّ يحدّق إلى ما حوله بعينين لا مراء في كونهما مفتوحتين، وإن كانت قوى إدراكه وتأمُّله كلها في سباتٍ عميقٍ. أخذ يقلِّب بصره في الغرفة التي ظلَّت أعوامًا طويلةً -وإلى أقل من ساعة مضت- أكثر ما يشعره بالنشوة، ولم تتحرك خلجة في وجهه. كان الليل في الخارج يبدو حالك السواد باردًا خلال فرج الشباك الكئيبة، والأشربة الثمينة التي شارف تسربها الانتهاء الآن كانت تنقِّط على الأرض بصوتٍ أجوف، والناغط ينظر إلى الداخل في حزنٍ من خلال النافذة المكسورة كدقل سفينة محطَّمة، وفي ذلك كانت الأرض تبدو كما لو كانت قاع البحر، فقد كانت مفروشةً بحطامٍ ثمينٍ.

كانت تندفع إلى الداخل تيارات الهواء عبر الأبواب العتيقة التي أخذت تصرُّ وتزعق على مفصَّلاتها، والشموع ترتجف وتنصهر إلى طبقات طويلة ملتفَّة، والستائر الحمراء القانية المبهجة تصطفق وتخفق في كسلٍ مع الريح، وحتى البراميل الهولندية المتينة كانت تبدو وهي ملقاة فارغةً في أركان مظلمة قشور رفاق جيدين غادر طربهم إلى الأبد، ولم يعُد في مقدورهم أن يضيئوا بذلك البريق الودود. بصر چون بهذا الخراب ولكنه لم يره. كان قانعًا تمامًا بالجلوس حيث كان، محدِّقًا إليه، ولم يشعر باستياء ولا تعبٍ في قيوده يفوق ما كان سيشعر به لو كانت تشريفات

ألبسها. كان الزمن العجوز راقدًا يغطُّ في نومٍ عميقٍ والعالم يقف ساكنًا فيما يخصُّه شخصيًّا.

وباستثناء تنقيط البراميل وخشخشة بعض الحطام الخفيف الذي أحدثته الريح وصرير الأبواب المفتوحة الكئيب، كان كلُّ شيء في غاية الهدوء، بل إنَّ هذه الأصوات كانت كخنافس الموت الدقَّاقة لا تزيد سكونًا تغزوه إلَّا عمقًا ووضوحًا. لكنَّ الأمر كان سواءً بالنسبة إلى چون، لم يبالِ بجلبة ولا هدوء، فلو أنَّ قطار مدفعية ثقيلة جاء وبدأ تدريبًا على المقذوفات في الخارج لظلَّ الأمر سواءً بالنسبة إليه. كانت حاله قد جاوزت الدهشة بمسافة عظيمة، ولم يكن ليبهته في هذه الحال حتى ظهور شبح.

بعد وقتٍ سمع وقع خطىً، عجلة وإن كانت حذرةً، تقترب من الخان. توقَّفت ثم تقدَّمت ثم بدا أنها تدور حول المبنى. بعد ذلك وصلت إلى أسفل النافذة ونظر منها رأسٌ. كان بريق الشموع الآخذة في الانصهار يبرز ذلك الرأس بقوة على خلفية الظلام المخيَّم بالخارج. كان وجهًا شاحبًا متعبًا ذابلًا تبدو عيناه لشدَّة نحوله بالغة الاتساع والبريق، وشعره أسود مغبرًّا. أخذ يقلِّب بصره في الغرفة ثم قال بصوتٍ عميقٍ:

«هل أنت وحدك في هذا المنزل؟».

لم يحرك چون ساكنًا رغم تكرار السؤال مرتين وسماعه إياه بوضوحٍ. وبعد صمت برهة دخل الرجل من النافذة. وحتى هذا لم يدهش چون مطلقًا، فقد تكرَّر الدخول والخروج من النافذة في غضون الساعة الماضية كثيرًا جدًّا حتى لقد نسي الباب تمامًا وبدا كما لو كان قد عاش يشهد هذه

الممارسات مذ كان رضيعًا. كان الرجل يرتدي عباءةً فضفاضةً قاتمةً شاحبةً وقبعةً، مشى إلى قرب چون ونظر إليه، جاوب چون هذا الإطراء باهتمامٍ.

قال الرجل: «منذ متى وأنت جالس هكذا؟».

فكر چون لكنَّ شيئًا لم يولد من هذا التفكير.

«في أيّ جهة غادروا؟».

جالت بخاطر مستر ولت تخميناتٌ عابرة بشأن نمط الحذاء ذي الرقبة الذي يرتديه الغريب بمحض صدفة ما، لكنَّها سرعان ما تبخَّرت تاركةً إيَّاه في حاله الأولى.

قال الرجل: «من الأفضل أن تتكلم، فربما حينئذ تحتفظ بجلدك سليمًا، رغم أنه لم يعُد لديك غيره ليصاب بأذى، في أيّ جهة غادروا؟».

قال چون وقد وجد صوته بغتةً: «تلك!» وأخذ يومئ في صدقٍ تامٍّ -فقد كان لا يقدر على أن يشير لكونه مقيَّدًا بإحكامٍ- إلى الجهة المضادة بالضبط لتلك التي غادروا إليها!

قال الرجل مغضبًا وهو يشير إشارةً مهدِّدةً: «أنت تكذب! لقد أتيت من هذه الجهة، إنك تريد أن تخدعني».

كان واضحًا جدًّا أن هدوء چون غير مصطنع وإنما هو نتيجة الأحداث الأخيرة التي جرت تحت سقفه، حتى إن الرجل أوقف يده وهي موشكة على ضربه ثم انصرف عنه.

تابعه چون بنظراته من دون أن تختلج في وجهه خلجة واحدة. أمسك الرجل بكأسٍ ووضعها تحت إحدى القنِّينات الصغيرة حتى تجمَّع فيها

القليل من القطرات ثم جرعها في نهمٍ. وبعد أن ألقاها على الأرض بنفاد صبرٍ أخذ الوعاء بين يديه وأفرغ محتوياته في حلقه. كان ثَمَّ كسرٌ من الخبز واللحم مبعثرة من حوله، فما لبث أن انكبَّ عليها في قرمٍ، قاطعًا طعامه بين الفينة والفينة ليتنصَّت إلى جلبة متخيَّلة بالخارج. وبعدٍ أن أنعش نفسه بهذا الأسلوب في عجلة عنيفة ورفع برميلًا آخر إلى شفتيه جذب قبَّعته على جبهته كما لو كان ينوي المغادرة ثم استدار إلى چون:

«أين خدمك؟».

تذكَّر مستر ولت –وإن يكن بصورة ضبابية– أنه قد سمع المشاغبين ينادونهم طالبين منهم أن يلقوا إليهم بمفتاح الغرفة التي كانوا فيها من النافذة ليحتفظوا به، ولذا أجاب: «محبوسون».

قال الرجل: «جيد بالنسبة إليهم إن ظلَّوا ساكتين. وجيد بالنسبة إليك أن تسكت مثلهم. والآن أرني الجهة التي غادروا إليها».

أشار مستر ولت هذه المرة إلى الجهة الصحيحة. وبينا يهرع الرجل إلى الباب إذا دقَّات أجراس إنذار عالية سريعة تصل إليهما مع الريح، تلاها وهجٌ ساطعٌ حي شقَّ الأفق فلم يضئ الغرفة فحسب وإنما أضاء الريف كله. لم يكن ما ساق الرجل إلى العودة إلى مكانه كما لو كانت صاعقة قد ضربته هو ذلك التغيُّر المباغت من الظلام إلى الضوء الفظيع، ولم يكن صوت الصراخ البعيد وصيحات النصر، ولم يكن ذلك الاقتحام الرهيب لسكون الليل وسلامه، وإنما كانت الأجراس. لو أنَّ أفظع شكل تصوَّره العقل البشري في أكثر أحلامه إثارةً قد قام فجأةً أمام الرجل لم يكن ليتراجع من لمسته مترنِّحًا هكذا كما فعل مع أول دقَّة من هذا الصوت

الحديدي العالي. رفع إحدى ذراعيه عاليًا في الهواء وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما وأطرافه تتشنَّج ووجهه أفظع ما يكون للناظرين، وبينما يمسك بيده الأخرى شيئًا وهميًّا إلى أسفل وإلى الخلف، أخذ يضربه بيده المرفوعة كما لو كان ممسكًا بسكين يطعنه بها في قلبه. طفق يشدُّ شعره ويضع أصابعه في أذنيه ويدور هائجًا في الغرفة ثَمَّ صرخ صرخةً مرعبةً ما لبث أن انطلق على إثرها خارجًا، لكنَّ الأجراس ظلَّت تدقُّ كما لو كانت تطارده، وصلصلتها تزداد علوًّا بطريقة محمومة. زاد الوهج سطوعًا وزمجرة الأصوات عمقًا، وهزَّ الهواء صوت ارتطام أجساد ثقيلة بالأرض، وشقَّت السماء تياراتٌ ساطعة من الشرر، لكن أعلى من كل هذه كان يتسارع ويتسارع صعود صوت الأجراس إلى السماء، وهي أكثر توحُّشًا وهياجًا منها جميعًا ألف ألف مرة، إذ تصبُّ أسرارًا فظيعةً لبثت أحقابًا صامتةً، وتتحدث بلغة الموتى.

أي مطاردة أشباح يمكنها أن تفوق هذه المطاردة والهرب؟! لو كان ثَمَّ كتيبة من الأشباح في إثره لاحتملها أفضل مما احتمل الأجراس. كان سيكون لهذه الكتيبة بداية ونهاية، أما الواقع فقد امتلأ الفضاء كله بأشباح الأجراس. كان الصوت الذي يطارده في كل مكان، يتردَّد في الأرض وفي الهواء ويهزُّ العشب الطويل ويعوي بين الشجر المرتجف. تردَّدت أصداؤه وطفق البوم ينعب وهو يطير مع النسيم، وصمت العندليب وخبَّأ نفسه بين الأغصان الكثيفة، فقد بدا الصوت يغري ويستحث النار المغضبة ويسوطها دافعًا إيَّاها إلى الجنون، فكان كلُّ شيء غارقًا في الحمرة المهيمنة على المشهد، والوهج في كلِّ مكان، والطبيعة غارقة في الدم، وما زال صراخ هذا الصوت الفظيع الذي لا ضمير له يعلو.. الأجراس.. الأجراس!

توقَّف، لكن لم يتوقَّف في أذنيه. كان جرس النعيِّ في قلبه. لم يكن ثَمَّ ما يشبه هذا الصوت مما صنعه الإنسان، وهو يحذِّره من أنَّه يصرخ بلا توقُّف إلى السماء. من يمكنه أن يسمع هذا الجرس ولا يعرف ما يقول؟! كان ثَمَّ قتل في كل نغمة منه، قتل قاسٍ وحشيّ لا يرحم، قتل رجل وثق بأحدهم بيدي ذلك الذي وثق به. أهابت صلصلته بأشباحٍ ساكنة قبورها. أي وجه ذاك الذي تبدَّلت فيه الابتسامة الودود نظرة رعب نصف مصدقة، ثم تجمَّدت لحظةً إلى نظرة ألم، ثم تبدَّلت ثانيةً نظرةً متوسِّلةً إلى السماء، قبل أن يسقط هذا الوجه في وهنٍ وعيناه دائرتان إلى أعلى كالأيائل الميتة التي دأب النظر إليها حين كان صبيًّا صغيرًا، وهو ينكمش على نفسه ويرتجف، فقد كان ثَمَّ شيء فظيعٌ ليفكر به الآن. ظلَّ متعلِّقًا بميدعة وهو ينظر هكذا! سقط على الأرض وأخذ يزحف كما لو كان بسبيله إلى حفر مخبأ له، وغطَّى وجهه وأذنيه، ولكن هيهات هيهات! لم تكن مائة حائط وسقف من النحاس لتحجب صوت هذا الجرس، فقد كان صوت نقمة الرب يتحدَّث بلسانه، وأنَّى للكون كلِّه على سعته أن يوفر ملجأً من ذلك الصوت؟!

وبينا هو منطلقٌ هنا وهناك لا يدري إلى أين يذهب، وبينا هو رابضٌ على حاله تلك، كان العمل يدور على قدمٍ وساقٍ حقًّا. حين غادر المشاغبون (مايپول) تجمَّعوا في كتلة متينة وتقدَّموا صوب منزل (وارن) بخطىً سريعة. أما وقد سبقتهم إلى هناك شائعات اقترابهم، فقد وجدوا أبواب الحديقة مغلقةً بإحكامٍ، والنوافذ مرتجةً تمامًا، والمنزل يغرق في ظلامٍ دامسٍ، من دون بارقة ضوء في أي جزء من المبنى تراها العين. وبعد أن قرعوا الأجراس وقتًا دون جدوى وضربوا البوابات الحديدية، تراجعوا بضع خطوات ليستطلعوا الأمر وليتباحثوا فيما ينبغي لهم فعله.

لم يحتاجوا إلى كثير تباحث، فقد كانوا جميعًا عازمين على هدفٍ واحدٍ مستيئس، وقد أهاجهم الشراب ودفع الدم إلى رؤوسهم نجاح شغبهم. وحين صدر الأمر بتطويق المنزل تسلَّق بعضهم البوابات أو قفزوا إلى الأخدود الضَّحل ثم تسوَّروا حائط الحديقة، ونزع آخرون السياج الحديدي المتين، وبينا هم مشغولون بعمل فجوة لينفذوا عبرها صنعوا من القضبان الحديدية أسلحةً فتَّاكة. ولمَّا تمَّ تطويق المنزل بالكامل أُرسِل عدد صغير من الرجال لاقتحام مخزن أدوات في الحديقة، وخلال غيابهم في هذه المهمَّة اكتفى الباقون بدقِّ الأبواب بعنفٍ وهم ينادون من بالداخل أن ينزلوا ويفتحوا الأبواب وإلَّا فحياتهم في خطرٍ.

ولمَّا لم يتلقَّوا ردًّا على هذه النداءات المتكررة وعادت الكتيبة التي أرسلوها بمزيد فؤوس ومعاول وبلط، شقَّت هذه الكتيبة طريقها إلى الصفِّ الأمامي مع من كانوا يحملون بالفعل مثل هذه الأسلحة أو غيرها من المعازق والقضبان والعتلات، في استعدادٍ لأن يتناوبوا على الأبواب والنوافذ. لم يكن معهم في هذا الوقت ما يزيد على اثني عشر مشعلًا مضاءً، لكن لمَّا اكتملت هذه التجهيزات تناقلت الأيدي الشُّعَل في سرعة حتى إنَّ ثلثي رجال الحشد المزمجر كانوا يحملون شعلًا متَّقدةً في أيديهم خلال دقيقة. وما لبثوا أن صاحوا صيحةً عاليةً وهم يديرون هذه الشُّعل حول رؤوسهم وانكبَّوا يعالجون الأبواب والنوافذ.

وبين قعقعة الضربات الثقيلة وخشخشة الزجاج المكسور وصراخ الحشد وصياحه وكلِ ما في المشهد من جلبة وفوضى، ظلَّ هيو وأصدقاؤه معًا لدى باب البرج حيث أذن مستر هاردال له ولـچون ولت العجوز بالدخول آخر مرة، وأعملوا قواهم في هذا الباب. كان بابًا عتيقًا قويًّا من

خشب السنديان، تحميه أرتجة جيدة وقضيبٌ ثقيلٌ، لكنه لم يلبث أن تهشَّم على الدرج الضيق خلفه، صانعًا رصيفًا كيفما اتفق، ييسَّر اقتحامهم الغرف التي بالطابق العلويِّ. وتقريبًا في اللحظة نفسها استطاعوا اقتحام اثنتي عشرة نقطةً أخرى، ومن كلٍّ منها كان الحشد يتدفَّق إلى الداخل.

كان هناك قليلٌ من الخدم المسلَّحين يقفون يحرسون القاعة، وحين اقتحم المشاغبون المكان أطلقوا ما يقرب من ستِّ طلقات. فلمَّا لم تجدِ هذه نفعًا، ولمَّا كان الحشد يتدفَّق كجيشٍ من الشياطين، لم يبق أمامهم إلَّا أن يراعوا أمانهم الشخصي، فتقهقروا مردِّدين صيحات مهاجميهم على أمل أن يظنوا هم شخصيًّا وسط الفوضى ضمن حشد المتظاهرين، وقد نجحوا في هذه الخطة، عدا عجوزًا لم يسمع به ثانيةً، وقيل إنَّ المقتحمين قد ضربوه على رأسه بقضيبٍ حديديٍّ حتى خرج مخُّه من جمجمته -وقد قال أحد زملائه إنه قد رأى العجوز يسقط- ثم أحرق في النار التي أشعلوها.

والآن وقد تحكَّم المحاصرون تمامًا في المنزل، فقد راحوا ينشرون أنفسهم في جنباته من عليَّاته إلى أقبيته، ويصطنعون في وحشيَّة أعمالًا شيطانية أخرى. وبينما كانت أجزاءٌ صغيرة من الحشد تشعل تحت النوافذ نيرانًا، كان آخرون يحطِّمون الأثاث ويلقون بالحطام من النوافذ يغذُّون بها النيران بالأسفل، وحيث كانت فجوات الحوائط -تلك التي لم تعُد تقبل أن تسمَّى نوافذ- واسعةً بما يكفي، كانوا يلقون بالمناضد وصناديق الأدراج والسرر والمرايا واللوحات، يطوِّحونها مرة واحدة إلى النيران، وكانت كلُّ إضافة جديدة إلى الكتل المحترقة تُستقبَل بالصياح والعواء، ليضيف ذلك رهبةً جديدةً كئيبةً إلى الحريق. وكان

هؤلاء الذين معهم فؤوس وقد أعملوا هياجهم في المنقولات يقطِّعون ويمزِّقون الأبواب وأطر النوافذ ويكسِّرون الأرضيَّات ويقطعون العوارض الخشبية ويدفنون من تخلَّف في الغرف العلوية تحت أكوام الخراب. بعضهم انكبَّ يبحث في الأدراج والصناديق والخزانات والمكاتب عن الجواهر والأطباق والمال، بينما كان آخرون أقلَّ اهتمامًا بالربح وأكثر جنونًا بالتخريب يلقون بمحتوياتهم كلِّها إلى الفناء من دون أن يتفحَّصوها، ويهيبون بمن بالأسفل أن يكوِّموها في النيران. أمَّا من اتجهوا إلى الأقبية وكسَّروا القنِّينات فقد راحوا ينطلقون ذهابًا وجيئةً في جنونٍ، يشعلون كلَّ ما يبصرون به، وغالبًا ما كان يصل جنونهم إلى ثياب أصدقائهم نفسها، ويشعلون النار في أجزاءٍ كثيرة من المبنى، حتى إنَّ البعض لم يكن أمامه ما يكفي من الوقت للهروب، فشوهد أناسٌ بأيدٍ ساقطة بلا حراكٍ وأوجه مسودَّة معلّقين وقد فارقتهم الحياة على حواف النوافذ التي زحفوا إليها، إلى أن ابتلعهم الأخدود المحترق. وكلما ازدادت النار ثورةً وموزًا كان الرجال يزدادون قسوةً ووحشيةً، كما لو كانت حركتهم في ذلك العنصر الناري قد حوَّلتهم إلى شياطين واستبدلت بطبيعتهم الأرضية تلك الخصائص التي تسرُّ أصحابها في الجحيم.

الركام المحترق الذي يبين عن ممرَّاتٍ وغرفٍ متوهِّجة محمرَّة من خلال فجواتٍ في الحوائط المنهارة، والنيران التي ترفد المحرقة الكبيرة وتلعق الطوب والحجارة الخارجية بألسنتها الطويلة المشقوقة ثم تسرع إلى أعلى لتقابل الكتلة المتوهِّجة بالداخل، وانعكاس اللهب على أوجه الأوغاد الذين ظلُّوا يتفرجون ويغذون النار، وأجيج النار الغاضبة العالية

الساطعة حتى لقد بدت كما لو كانت في ضراوتها قد ابتلعت دخانها نفسه، والشظايا الحية التي حملتها الريح بعيدًا في سرعة وانطلقت مسرعة معها كعاصفة ثلجية مستعرة، وتكسر أعمدة خشبية عظيمة بلا صخبٍ، وقد كانت تسقط كالريش على أكوام الرماد، وتنسحق في سقوطها إلى شررٍ وذرور، والصبغة البشعة التي افترشت السماء، والظلام العميق إذا ما قورن بكلِّ ذلك، ذلك الذي كان يخيِّم في الخلفية، وتعرَّض كلّ زاوية صغيرة لنواظر الأجلاف الأفظاظ، وهي التي كانت قد تحوَّلت إلى مكانٍ مقدَّسٍ بفعل الاستخدامات المنزلية، وتدمير الأيدي الوقحة لكلِّ شيء صغير منزليٍّ مفضَّل كانت ارتباطاته القديمة قد جعلت منه شيئًا ثمينًا عزيزًا، تضافر كلُّ هذا الذي حدث –لا وسط نظرات مشفقة وغمغمات تعاطفٍ وديَّة، وإنما على خلفية صيحاتٍ وحشية همجية كان يبدو أنها قد جعلت من الفئران نفسها التي طالما ارتبطت حياتها بالمنزل العتيق مخلوقات لها بعض الحق في المطالبة بشفقة ورعاية أولئك الذين أظلَّهم وآواهم سقف المنزل– ليشكِّل مشهدًا لا يمكن أن ينساه من رأوه ولم يكونوا ممن شاركوا فيه، مدى حياتهم.

ومن كان هؤلاء؟ لقد رنَّ جرس الإنذار –ولم تكن اليد التي جذبته مرتعشةً أو واهنةً– وقتًا طويلًا، لكن لم يُرَ مخلوقٌ. قال بعض المتشرِّدين إنه حين توقَّف سمعوا صرخات نساء ورأوا ثيابًا تخفق في الهواء، حيث احتمل بعض الرجال أحمالًا لم تخل من مقاومة. لم يستطع أحدٌ أن يؤكد ذلك أو ينفيه في هذه الجلبة، لكن أين كان هيو؟ من منهم رآه منذ اقتحموا الأبواب؟ انتشرت الصيحة وسط الحشد، أين كان هيو؟!

صاح بصوتٍ أجشَّ خارجًا من الظلام يلهث وقد سوَّد وجهه الدخان: «هنا! لقد فعلنا كلَّ ما بوسعنا. النار تأكل نفسها، وحتى الأركان التي لم تنتشر فيها حالت إلى أكوامٍ خرابٍ. تفرَّقوا أيُّها الصبية قبل أن يُقبَض عليكم. عودوا من طرقٍ متفرِّقة ولنلتقِ كما اعتدنا!».

فرغ من مقاله واختفى مجدَّدًا على غير مألوفه، فقد كان دائمًا أول من يتقدَّم وآخر من ينصرف، تاركًا إيَّاهم ليعودوا إلى مستقرِّهم.

لم يكن انسحاب حشدٍ كهذا من قبيل المهمة الميسورة. لو أنَّ أبواب مستشفى المجانين قد فُتِحَت على مصاريعها، لما خرج منها حشدٌ من المجانين كالذي خرج في تلك الليلة. كان منهم من رقص على أحواض الزهور ووطئها كما لو كان يدوس أعداء بشريين، وطفق ينزع الزهور من سيقانها كالمتوحشين حين يلوون أعناق الآدميِّين. وكان من الرجال من ألقوا مشاعلهم المتَّقدة في الهواء وسمحوا لها بالسقوط على رؤوسهم ووجوههم محدثةً حروقًا قبيحةً عميقةً في جلودهم. وكان منهم من انطلقوا إلى النار وأخذوا يخوضون فيها بأيديهم كما لو كانوا في لجَّة، وآخرون لم يثنهم عن الخوض فيها لإطفاء شوقهم المميت إلَّا استعمال القوة. وعلى جمجمة صبيٍّ ثملٍ راقدٍ على الأرض بقنِّينة مرفوعة إلى شفتيه، يشي منظره بأنه لم يتجاوز العشرين، انساب من السقف رصاصه في زخَّة من صهير النار الذي أحمي حتى ابيضَّ، فما لبث أن صهر رأسه كالشمع. وحين اجتمع شمل الفرق المبعثرة كان ثَمَّ رجالٌ ما زالوا أحياء وإن تفحَّم بعض أجسادهم كفعل الأسياخ المحميَّة، التقطوا من الأقبية وحُمِلوا على أكتاف آخرين لم يدَّخروا جهدًا في محاولة إيقاظهم بالنكات البذيئة وهم ماضون في طريقهم، وتركوهم أمواتًا في ممرات المستشفيات. لكنَّ أحدًا من هذا

الحشد العاوي لم يتعلَّم من هذه المشاهد الرحمة ولم تغث نفسه لها، ولم يسكن غضب واحد منهم، ذلك الغضب المتوحِّش المخبول الذي لا عقل له.

ابتعد الحشد وئيدًا في تجمُّعاتٍ صغيرة وهو يطلق صيحات جشَّاء ويكرِّر هتافاته المعتادة. فرَّت آخر قلَّة من المتلكِّئين الحمر الأعين خلف من سبقوهم، وما لبثت الجلبة البعيدة التي أحدثها تصايح الرجال فيما بينهم وصفيرهم لمن يفتقدونهم أن خفتت تدريجيًّا، وفي النهاية اختفت حتى هذه الأصوات ولم يبقَ إلَّا السكون يبسط سلطانه.

السكون حقًّا! تحوَّل وهج اللهب إلى ضوءٍ يومض ويخبو، وعادت النجوم الوادعة التي غيِّبت عن الأنظار إلى الآن فنظرت إلى الكومة المسودَّة. وقد علق دخانٌ كئيبٌ على هذا الخراب كما لو كان يبتغي إخفاءه عن أعين السماء المفتوحة هذه، ورفضت الريح أن تحركه. ذهبت جدران عارية وسطح مكشوف للسماء وغرف طالما نهض فيها من ماتوا من الأحباب في أيامٍ كثيرة لطيفة لحياة وطاقة جديدتين، وطالما حزن فيها وفرح أعزَّاء كثيرون، غرف اتصلت بأفكارٍ وآمالٍ تفوق الحصر، وندم وتغيُّرات، ذهب هذا كله. لم يبقَ إلَّا فضاءٌ كئيبٌ موحشٌ، كومة محترقة من التراب والرماد، وسكون وعزلة الخراب المطلق.

* * *

الفصل السادس والخمسون

أخذ رفاق مايبول يضربون في طريقهم عبر الغابة إلى لندن، لا يكاد يخطر ببالهم أن يعتري مكان اجتماعهم الأثير هذا التّغيُّر حال خروجهم منه، وقد تجنَّبوا الطريق الرئيسة التي كانت حارَّةً متربةً وظلُّوا في الممرات الجانبية والحقول. ولمَّا أصبحوا على مشارف وجهتهم أخذوا يسألون من يمرُّون بهم بخصوص أحداث الشغب وموقف الحكايات التي سمعوها من الصدق أو الكذب. وكانت الإجابات تجاوز الأخبار التي وصلت إلى تشغول الهادئة بكثيرٍ. أخبرهم أحدهم بأنَّ الحرس بينما ينقلون إلى (نيوغات) ظهر اليوم بعض المشاغبين الذين أعيد استجوابهم، أحاطت بهم الحشود وأجبرتهم على التقهقر، وأخبرهم ثانٍ بأنَّ منزلي شاهدين قرب (كلار ماركت) كانا بسبيلهما إلى أن ينهدما إبَّان خروجه من لندن، وثالثٌ بأنَّ منزل سير چورچ ساڤيل الكائن في (لستر فيلدز) سيُحرَق الليلة، وأنَّ الأمور ستكون صعبةً مع سير چورچ إن وقع في أيدي الناس لأنَّه هو من رفع إلى البرلمان عريضة الكاثوليك. وقد اتفقت الشهادات كلُّها على أنَّ الحشود في الشوارع بأعدادٍ أكبر وفي فرقٍ أقوى ممَّا ظهر آنفًا، وأنَّ الشوارع غير آمنة، وأن منزل أيِّ إنسان في تلك الشوارع أو حياته لن يدوما ساعةً على الأكثر، وأن ذعر الناس يتزايد كلَّ لحظة، وأن

عائلاتٍ كثيرةً قد هربت من المدينة. وكان أن لعنهم واحدٌ ممن يلبسون اللون الشعبي لأنهم لا يرتدون الشارات في قبَّعاتهم، وطلب منهم مهدِّدًا أن يراقبوا أبواب سجونهم جيدًا في ليل الغد فإنَّ أقفالها ستكسر، وسألهم آخر إن كانوا مقاومين للنار، لا سيَّما أنهم يجولون في الطرقات دون ارتداء العلامة المميَّزة لكلِّ الطيبين الصادقين، وأمرهم آخر كان يمتطي صهوة جواد وحيدًا بأن يلقي كلٌّ منهم شلنًا في قبَّعته لدعم المتظاهرين. ورغم تخوُّفهم من رفض الانصياع لهذا الطلب، وقلقهم البالغ مما سمعوا من حكايات، فقد اتفقوا أن يواصلوا رحلتهم ما داموا قد قطعوا كلَّ هذه المسافة، ليروا بأعينهم الحالة الحقيقية التي عليها الأمور. هكذا حثُّوا الخُطى كمن تثيرهم الأخبار المنذرة، ولم يتبادلوا الحديث فيما بينهم إلَّا قليلًا، فقد كانوا يسترجعون ما سمعوه ويفكرون فيه.

كان الليل قد حلَّ، ولمَّا شارفوا المدينة تأكَّد لهم ما سمعوا من أخبارٍ بطريقة كئيبة من خلال ثلاثة حرائق عظيمة، ليس أحدها على مبعدة من الآخرين، كانت تتلظَّى في وحشية وتنعكس في كآبة على صفحة السماء. وحين وصلوا إلى الضواحي القريبة وجدوا أن كلَّ منزلٍ تقريبًا قد كُتِب على بابه بالطبشور بحروفٍ كبيرة «لا للبابوية»، وأن الحوانيت مغلقة، والقلق والترقُّب باديان في كلِّ وجه مرُّوا به.

وبعد أن لاحظوا هذه الأشياء بدرجة من التوجُّس لم يهتم أيُّهم بإطلاع رفيقيه عليها في تمامها، وصلوا إلى بوابة رسوم وجدوها مغلقة. وبينا هم يعبرون الباب الدوَّار في الممر إذا فارسٌ قادمٌ من جهة لندن يركض بجواده، ويهيب بمكَّاس البوابة بصوتٍ مهتاجٍ أن يفتح سريعًا بحق الرب. كانت مناشدته بالغة الصدق والحرارة حتى إنَّ الرجل أقبل يركض خارجًا

وفي يده مصباحٌ رغم كونه مكَّاسًا، وكان بسبيله إلى أن يفتح البوابة على مصراعيها، وإذا هو ينظر خلفه بالصدفة ويصيح: «يا للسماء! ما هذا؟! حريق آخر!».

أدار الثلاثة رؤوسهم حين سمعوا ذلك، ورأوا على البُعد -على استقامة الجهة التي أقبلوا منها- ملاءةً عريضةً من النار تلقي ضوءًا مهدّدًا على الغيم الذي أخذ يومض كما لو كان الحريق خلفه، وبدا في الأفق كما لو كان في لحظة غروبٍ ساخطٍ.

قال الفارس: «إمَّا أنَّ الظنون تساورني، وإمَّا أنَّني أعرف من أيِّ مبنىً بعيدٍ تتصاعد ألسنة اللهب هذه. لا تقف مشدوهًا يا صديقي الطيب، افتح البوابة!».

صاح الرجل وهو يضع يده على لجام حصانه بينما يسمح له بالمرور: «سيدي، أنا الآن أعرفك يا سيدي. اسمع نصيحتي ولا تمضِ في طريقك. لقد رأيتهم يعبرون، وأنا أعرف أيَّ نوعٍ من الرجال هم، ستُقتَل».

قال الفارس وهو ينظر صوب النار في تصميمٍ، لا إلى محدِّثه: «ليكن».

صاح الرجل وهو يشدِّد قبضته على زمام الحصان: «لكن سيدي، سيدي، إن مضيت في طريقك، ارتدِ الشارة الزرقاء»، ثم أضاف وهو يأخذ واحدةً من قبعته هو: «هاك يا سيدي، إنها الضرورة التي أملت عليَّ ارتداءها، لا الاختيار. إنه حب الحياة والبيت يا سيدي، البسها هذه الليلة فحسب يا سيدي، هذه الليلة فحسب».

صاح الأصدقاء الثلاثة متزاحمين على حصانه: «افعل ما يقول لك يا مستر هاردال، أيها السيد الغالي، النبيل الطيب، نرجوك، انتصح بنصيحته».

صاح مستر هاردال وهو ينحني لينظر: «من هذا؟ هل سمعت صوت دايزي؟».

صاح الضئيل: «نعم يا سيدي، خُذ بنصيحته يا سيدي، ما يقوله هذا السيد صحيحٌ تمامًا، وربما تكون حياتك رهنًا به».

قال مستر هاردال بغتةً: «هل تخاف أن تأتي معي؟».

«أنا يا سيدي؟ لـ.. لـ.. لا!».

«ضع هذه الشارة في قبَّعتك، وإن صادفنا المتظاهرين احلف أنني قد أخذتك أسيرًا لأنك ترتديها. سأخبرهم بذلك بنفسي، فكما أطمع في الرحمة بعد موتي، لن أستجدي رحمتهم، ولن أرحمهم أنا إن تلاقينا الليلة يدًا ليدٍ. هيَّا اصعد خلفي، أسرع! أمسك بي بقوة ولا تخش شيئًا».

وما لبثا أن انطلقا في لحظة، بأقصى ما أوتي الحصان من سرعة، تشيِّعهما سحابة كثيفة من الغبار، وطفقا يسرعان كصيَّادين في حلمٍ.

كان من الجيد أنَّ الحصان كان يعرف الطريق التي يقطعها، إذ إنَّ مستر هاردال لم ينظر إلى الأرض مرة واحدة -لا، ولا مرة طيلة الرحلة- ولم يحوِّل عينيه لحظةً عن الضوء الذي كانا يسرعان صوبه في جنونٍ. قال مرة بصوتٍ خفيضٍ: «إنه منزلي» لكنَّها كانت المرة الوحيدة التي تكلَّم فيها. وحين كانا يمرَّان بأماكن مظلمة مريبة لم يكن يفوته أبدًا أن يضع يده على الرجل الضئيل ليؤمِّنه في مقعده، لكنه احتفظ بهامته مرفوعةً وعينيه مثبَّتتين على النار في تلك اللحظات وطيلة الرحلة.

كانت الطريق من الخطورة بمكان، فقد سلكا أكثر الطرق مباشرةً بعيدًا عن الطريق الرئيسة، مخترقين دروبًا وممرَّات منعزلةً حفرت فيها عجلات

العربات أخاديد عميقةً، حيث عزل شريطَ الأرض الضيق سياجٌ وأخدودٌ، وحيث الأشجار الباسقة الظّليلة قد جعلت الطريق شديدة الظلمة. لكنَّهما مضيا ومضيا في طريقهما، من دون توقُّف ولا تعثُّر، حتى وصلا إلى باب مايبول وأصبح في مقدورهما أن يريا بوضوحٍ أنَّ النار قد بدأت تخبو، كما لو كان ينقصها الوقود.

قال مستر هاردال وهو يعين دايزي على أن يترجَّل ثم يتبعه: «سنترجَّل لحظةً واحدةً، لحظةً واحدةً فحسب. ولت، ولت، أين ابنة أخي وخدمي يا ولت؟».

هرع إلى داخل الحانة وهو يناديه في شرودٍ. ها هو مدير الخان مربوطٌ مقيَّدٌ إلى مقعده، والمكان مخرَّب ممزَّق مهدَّم من حوله، لا يمكن بحالٍ أن يكون أحدهم قد اتَّخذ هذا المكان ملجأ.

كان رجلًا قويًّا اعتاد أن يلجم نفسه ويكتم انفعالاته القوية، غير أنَّ هذا التجهيز لما كان سيتلوه كان أكثر ممَّا يستطيع احتماله، رغم أنَّه قد رأى تلك النار تضطرم وعرف أنَّ منزله قد انهدم تمامًا ولا بُدَّ، غطَّى وجهه بيديه لحظةً وأدار رأسه بعيدًا.

صاح سولومون -ذلك البسيط القلب- على الفور مشبِّكًا يديه: «چوني چوني! أوه، چوني العجوز العزيز، ها هو التغيُّر! أن يحدث هذا لحانة مايبول ونعيش لنراه! ومنزل وارن العتيق هو الآخر يا چوني. مستر هاردال، أوه چوني، يا له من منظرٍ محزنٍ!».

وبينا يشير سولومون دايزي الضئيل إلى مستر هاردال وهو يتلفظ بهذه الكلمات، وضع مرفقيه على ظهر مقعد مستر ولت وانتحب ملء قلبه.

وبينما سولومون يتكلَّم جلس چون العجوز صامتًا كسمكة مقدَّدة محدِّقًا إليه بنظرة لا إنسانية، وكل ما فيه ينطق بغيابٍ كاملٍ تامٍّ للوعي. لكن حين صمت سولومون أخذ چون يتبع اتجاه نظراته بعينيه المدوَّرتين الواسعتين، وبدا أنَّ فكرةً بعيدةً بدأت تلوح لذهنه، مفادها أنَّ أحدهم قد جاء لزيارته.

قال كاتب الأبرشيَّة الضئيل وهو يضرب صدره بيده: «أنت تعرفنا، أليس كذلك يا چوني؟ أنا دايزي كما تعرف، من كنيسة تشغول، قارع الأجراس، ذو المكتب الصغير أيام الآحاد، إيه يا چوني؟».

أخذ مستر ولت يفكِّر لحظاتٍ قليلةً ثمَّ غمغم في آلية كيفما اتفق: «فلنترنَّم بحمدٍ ومجدٍ.».

صاح الضئيل في عجلة: «أجل، هكذا حقًّا، هذا هو أنا يا چوني، أنت الآن على ما يرام، أليس كذلك؟ قل إنك على ما يرام يا چوني».

تأمَّل مستر ولت كما لو كان ذلك أمرًا بينه وبين ضميره بالكامل: «على ما يرام؟ على ما يرام؟ آه!».

سأله سولومون بنظرة قلقة إلى رأسه: «إنهم لم يسيئوا إليك بالعصيِّ أو المساعر أو أيِّ آلات ثلمة، هل ضربوك يا چوني؟ لم يضربوك، أليس كذلك؟».

عقد چون حاجبيه وأطرق كما لو كان ذهنه منشغلًا بعملية حسابية ما، ثم نظر إلى أعلى كما لو كان المجموع لا يواتيه، ثم إلى سولومون دايزي من حاجبيه إلى مشبك حذائه، ثم في بطء إلى الحانة من حوله، ثم ما لبثت دمعتان كبيرتان مدوَّرتان تبدوان كالرصاص المذاب ولا شفافية

فيهما مطلقًا أن انحدرتا من عينيه، وقال وهو يهزُّ رأسه:

«لو كانوا فقط قد تفضَّلوا بقتلي لشكرت لهم ذلك في طيبة».

قال صديقه الضئيل وهو ينشج: «لالالا، لا تقل ذلك يا چوني، الأمر بالغ السُّوء حقًّا، لكن ليس إلى هذه الدّرجة، لالا!».

صاح چون مديرًا عينيه الحزينتين إلى مستر هاردال الذي جثا على إحدى ركبتيه وشرع يفكُّ قيوده في عجلة:

«انظر يا سيدي! انظر يا سيدي! إنَّ الناغط نفسه، النَّاغط الأعجم العتيق يطلُّ علينا من النافذة، كما لو كان يقول: چون ولت، چون ولت، دعنا نذهب ونلقي بنفسينا في أقرب بركة ماء عميقة بما يكفي لقامتينا، فإنَّ ساعتنا قد حانت!».

كان تأثُّر صديقه برثاء النفس الذي ابتكره خيال مستر ولت لا يقلُّ عن تأثُّره باللهجة الجنازيَّة التي تحدَّث بها عن الناغط، فما لبث أن صاح:

«لا تقل ذلك يا چوني، أرجوك لا تقله!».

قال مستر هاردال وهو يرمق الباب بنظرة قلقة: «خسارتك عظيمة وسوء حظِّك ثقيلٌ، وليس هذا وقتًا مناسبًا لتعزيتك، ولو كان مناسبًا، فلستُ أنا في حالٍ تسمح بذلك. قبل أن أتركك أخبرني بشيءٍ وحيدٍ، وحاول أن تخبرني به بوضوحٍ، أتوسَّل إليك، هل بصرت بـ(إمَّا) أو سمعت بها؟».

قال مستر ولت: «لا!».

«ولا بأيِّ مخلوق بخلاف تلك الذئاب الجائعة؟».

«لا!».

قال مستر هاردال الذي لم يكد يفك عقدةً واحدةً إلى الآن من شدَّة

انفعاله ورغبته العارمة في العودة إلى ظهر حصانه وللمهارة التي ربطت بها الحبال: «أملي أن يكونوا قد ركبوا مبتعدين عن هنا قبل أن تبدأ هذه المشاهد الفظيعة. سكِّينًا يا دايزي!».

قال چون وهو ينظر فيما حوله كما لو كان قد فقد منديل جيبه أو شيئًا بسيطًا من هذا القبيل: «ألم تريا أيُّها السيدان نعشًا في أيِّ مكانٍ؟ هل رأيتما ذلك؟».

صاح مستر هاردال: «ولت!».

سقطت السكِّين من يد سولومون وصاح وقد ارتخى جسده على الفور من رأسه إلى قدميه: «يا إلهي!».

قال چون وهو لا ينظر إليهما البتَّة: «لأنَّ رجلًا ميِّتًا جاء إلى هنا منذ قليلٍ في طريقه إلى هناك. لو كان قد أحضر معه نعشه وتركه هنا لكان بمستطاعي أن أخبركما بالاسم المكتوب على لوحه. أمَّا إن كان لم يفعل، فلن أستطيع».

كان صاحب الخان يستمع إلى هذه الكلمات بانتباه وهو مكتوم الأنفاس، وفي هذه اللحظة هبَّ واقفًا، وشدَّ سولومون دايزي ناحية الباب من دون كلمة، ثمَّ امتطى صهوة جواده وأخذ سولومون خلفه ثانية، وما لبث أن طار –لا نقول ركض– صوب كومة الأنقاض التي كانت منزلًا بالغ الفخامة في صبيحة ذلك اليوم. شيَّعهما مستر ولت بنظرات محدِّقة، وأخذ يتنصَّت، ونظر إلى نفسه ليستوثق من أنَّه ما زال مفكوك القيود، ثم ارتدَّ بلطفٍ إلى الحال التي لم يكن قد أفاق منها تمامًا، من دون أن يبدو عليه أيُّ أثرٍ لنفاد الصبر أو الإحباط أو الدهشة.

ربط مستر هاردال حصانه إلى جذع شجرة وأمسك بذراع رفيقه ثم تسلَّل هونًا عبر الممشى إلى ما كان حديقة منزله. توقَّف لحظةً لينظر إلى جدرانه التي يتصاعد منها الدخان، وإلى النجوم الساطعة من خلال السقف والأرضية على كومة الرماد المتهاوي. نظر سولومون إلى وجهه في هيبة، لكنَّ شفتيه كانتا مطبقتين بإحكامٍ، وعلى جبهته تعبيرٌ ينطق بالصرامة والتصميم، حتى إنه لم تندّ عنه دمعة أو نظرة او إيماءة توحي بالحزن.

امتشق سيفه وأخذ يبحث هنيهةً في صدره كما لو كان يحمل فيه أسلحةً أخرى، ثم ما لبث أن أمسك سولومون من رسغه مجدَّدًا، وأخذ يدور حول المنزل بخطىً حذرة. طفق يتفحَّص كلَّ فتحة باب وكلَّ فجوة في حائط، ويرتدُّ على آثاره قصصًا كلَّما أحدث الهواء بعض الحفيف بين أوراق الشجر، وينقِّب في كلِّ ركنٍ ظليلٍ بيدين ممدودتين مدَّ ذراعيه. هكذا أكملا دورتهما حول المبنى، لكنهما عادا إلى البقعة التي منها بدآ، دون أن يصادفا أيَّ إنسان أو يعثرا على أقلِّ أثرٍ لمختبئ تلكّأ عن رفاقه.

وبعد صمتٍ وجيزٍ صاح مستر هاردال مرتين أو ثلاثًا ثم هتف بصوتٍ عالٍ: «أثَمَّ من يختبئ هنا ويعرف صوتي؟ ليس ثَمَّ ما يخشى الآن، لو أنَّ أحدًا من ناسي هنا فإنني أتوسَّل إليه أن يجيب!».

أخذ يناديهم بأسمائهم واحدًا واحدًا، وكان صدى صوته يتردَّد بنبراتٍ عدَّة ينطق كلُّها بالرثاء، ثمَّ خيَّم الصمت كما كان.

كانا واقفين عند سفح البرج حيث جرس الإنذار، كانت النار قد ثارت

واضطرمت هناك، ونشر خشب الأرضية وقطَّع ودقَّ حتى تحطَّم. وكان البرج قد خُرِّب حتى انفتح على سماء الليل، غير أنَّ جزءًا من درجه قد بقي يتلوَّى صاعدًا من كومة عظيمة من التراب والرماد. وكان حطام درجات السلَّم المكسَّرة المحزَّزة يوفِّر هنا وهناك موطئ قدم غير آمنٍ يوشك أن يميد بمن يقف عليه، ثم لا يلبث السلَّم أن يضيع ثانيةً خلف الزوايا الناتئة من الجدار، أو في الظلال العميقة التي تلقي بها عليه أجزاء أخرى من الأنقاض، فقد كان القمر قد طلع الآن وأخذ يبرق ساطعًا.

وبينا هما واقفان هنا يتسمَّعان الأصداء وهي تخفت ويتمنَّيان من دون جدوى أن يسمعا صوتًا يعرفانه، انزلق بعض الرماد في هذا البرج وأخذ يتدحرج نازلًا. نظر سولومون في وجه رفيقه وقد أجفلته أقلُّ جلبة في هذا المكان الكئيب، فرأى أنه قد استدار ناحية تلك البقعة وأخذ يراقب ويتسمَّع في حرصٍ.

وضع يده على فم الرجل الضئيل، وواصل المراقبة. وعلى الفور أمره وعيناه تضطرمان أن يبقى ساكنًا بحق كل ما هو عزيز، وألَّا يتكلم أو يتحرك. بعدها تسلَّل إلى البرج وهو يكتم أنفاسه منحنيًا وفي يده سيفه، ثمَّ اختفى.

كاد سولومون يتبعه، لا سيَّما أنه كان مذعورًا من أن يُترَك هكذا وحده في مثل هذه الظروف الموحشة وبعد كل ما قد رآه وسمعه في تلك الليلة، لكنَّ شيئًا في أسلوب مستر هاردال ونظرته أوقفه مكانه كالمسحور حين تذكَّره. وقف كالمزروع في مكانه ونظر إلى أعلى في مزيجٍ من الرعب والدهشة وهو لا يكاد يجرؤ على أن يتنفَّس.

انزلق الرماد وتدحرج ثانيةً، بنعومة ولطفٍ ثانيةً، ثم ثالثةً، كما لو كان يتفتَّت تحت قدمٍ تسترق الخطى. وفجأةً ظهر خافتًا شخص إنسان يتسلَّق في تلطُّفٍ بالغٍ ويتوقَّف كثيرًا لينظر أسفله، ثم تابع طريقه العسيرة، وما لبث أن اختفى عن الأنظار ثانية.

ظهر ثانية في الضوء القلق الذي تكتنفه الظلال، وقد وصل إلى درجة أعلى قليلًا، فإنَّ الطريق كانت منحدرةً متعبةً، والتقدُّم فيها وئيدٌ لا محالة. أي شبح خلقه مخّه ذلك الذي كان يتعقَّبه؟ ولماذا كان ينظر إلى أسفل كثيرًا هكذا؟ كان يعرف أنه وحده في المكان. ولا ريب أنَّ ذهنه لم يتأثَّر بخسارة ومرارة هذه الليلة. لم يكن موشكًا على أن يلقي بنفسه مباشرةً من على قمة الحائط المترنِّح. غثي سولومون وعقد يديه، ارتعدت ساقاه من تحته وتفصَّد وجهه الشاحب عرقًا باردًا.

ولو كان الآن منصاعًا لآخر ما أصدره مستر هاردال من أوامر إليه، فذلك لأن طاقته لم تكن تسعفه بكلامٍ ولا حركة. أحدَّ بصره وثبَّته على شريطٍ من ضوء القمر كان لا بُدَّ لذلك الصاعد أن يظهر فيه لو كان مقدَّرًا له أن يواصل صعوده، قرَّر أن يحاول أن يناديه إن ظهر هناك.

انزلق الرماد وتفتَّت مجدّدًا، وتدحرج بعض الحجارة ساقطًا على الأرض بصوتٍ رتيبٍ ثقيلٍ. لم يحرك نظرته بعيدًا عن القطعة التي يضيئها القمر. كان الشخص يقترب منها، فقد كان ظلُّه ملقىً بالفعل على الجدار. الآن ظهر، ونظر فيما حوله إلى سولومون، والآن..

صرخ كاتب الأبرشيَّة الذي بلغ منه الرعب مبلغه صرخةً شقَّت الهواء وصاح: «الشبح! الشبح!».

وقبل أن يخفت صدى صرخته بكثيرٍ انطلق إلى بقعة الضوء شخص إنسان آخر رمى بنفسه على الأول وجثا فوق صدره قابضًا على عنقه بكلتا يديه.

صاح مستر هاردال بصوتٍ رهيبٍ: «وغد!» فقد كان هو.

تابع: «متَّ ودُفِنت كما أقنعتْ حيلك الجهنَّمية الجميع بذلك، لكن السماء أبقت عليك لهذا. أخيرًا، أخيرًا أنت في يدي. أنت الذي تلوَّثت يداه بدم أخي، ودم خادمه الأمين الذي أريق لتخفي به إثمك الوحشي، أنت يا ردچ، قاتل ووحش مرتين، أنا أقبض عليك باسم الرب الذي سلَّمك ليديَّ».

ثم أضاف والقاتل يتلوَّى ويحاول التملُّص منه: «لا، ولو كانت قوتك تعدل عشرين رجلًا، لن تستطيع أن تهرب مني أو تتملَّص من قبضتي الليلة!».

* * *

الفصل السابع والخمسون

ظل بارنابي يخطو ذهابًا وجيئةً أمام باب الحظيرة، مسلَّحًا على النحو الذي رأيناه، وهو سعيدٌ لكونه وحيدًا من جديدٍ، مبتهج من قلبه بالسكون والهدوء غير المعتادين. فبعد دوَّامة الصخب والشغب التي أمضى فيها اليومان الفائتان، شعر بلذائذ الوحدة والسلام مضاعفةً ألف مرة. كان في غاية السرور، وبينما هو متَّكئ إلى عصاه يتأمَّل، ارتسمت على وجهه ابتسامة مشرقة، ولم تطف على سطح ذهنه سوى مراء مفرحة.

ألم يكن إذن يفكر فيها، تلك التي كان هو سعادتها الوحيدة، والتي أغرقها غير واعٍ في ذلك الحزن المرير والغمِّ العميق؟ أوه، بلى! كانت في القلب من كلِّ أمانيّه العذاب وتأمُّلاته المفعمة بالفخر. إنها هي التي خصَّت بأن تسرّ بما حظي به من شرف وامتياز، فالسعادة والفلاح من نصيبها هي. ما أسعدها حين تسمع بشجاعة ولدها المسكين! آه! لم يكن ذلك ليغيب عن باله ولو لم يخبره به هيو. وما أثمن أن يعرف أنها تعيش في سعادة وتسمع بمزيد فخر عمَّا يحظى به من تقديرٍ عالٍ (وكان يتصوَّر ملامحها حين يخبرونها عنه): جريء في الصف الأول من الشجعان، وموثوق به فوقهم جميعًا! وحين تؤذن هذه الاشتباكات بانتهاء وينتصر اللورد الطيب على أعدائه وينعم الجميع بالسلام من جديد ويصبحان –هو وهي– ثريَّين،

فما أسعدهما آنذاك حين يتحدثان عن هذه الأوقات المضطربة حين كان جنديًّا عظيمًا، وحين يجلسان معًا وحدهما في هدأة الغسق ولا يبقى ثَمَّ سببٌ لقلقها من الغد، فأيّ سرور سيجده إذ ذاك في تأمُّل أنَّ هذه الحال من صنيعه هو، بارنابي الأحمق المسكين، وفي تربيت خدِّها وهو يقول بضحكة مرحة: «هل أنا الآن أحمق يا أمي؟ هل أنا الآن أحمق؟».

واصل بارنابي مشيه بقلبٍ أنور وخطوة أخفّ وعينين أكثر التماعًا بدمعتي الفرح اللتين أغامتاهما للحظة، وتابع نوبة حراسته الهادئة وهو يغنّي لنفسه في حبورٍ.

أما رفيقه (غرپ) شريك نوبة حراسته فرغم شغفه بالاستجمام في الشّمس فإنه اليوم قد فضَّل أن يتجوَّل في الحظيرة، شاغلًا نفسه بأمورٍ كثيرة، منها بعثرة القشِّ وإخفاء أشياء صغيرة تُرِكت في المكان بالصدفة تحت القشِّ، فضلًا عن زيارة سرير هيو، ذلك الذي بدا أنه قد تعلَّق به خاصة. كان بارنابي أحيانًا ينظر إلى الداخل مناديًا إيَّاه، فيذهب إليه متقافزًا، لكنه لم يكن يفعل ذلك إلا تنازلًا أمام ضعف سيده، ولا يلبث أن يعود إلى مساعيه الجادَّة، منقِّبًا في القش بمنقاره ثم مغطيًا المكان الذي فتَّش فيه سريعًا، كما لو كان يهمس للأرض بأسرارٍ ويدفنها مثل ميداس[1]، وهكذا ظلَّ يشغل نفسه خلسةً، ويتصنَّع النظر إلى السحب من دون أن يكون ثَمَّ شيءٌ يشغل باله كلما مرَّ به بارنابي، وباختصارٍ فقد كان يسلك مسلكًا ذا أسلوبٍ يتَّسم بأكثر مما اعتاده من التفكير والعمق والغموض على أصعدة عدة!

(١) Midas المقصود هو الملك ميداس Μίδας المشهور في الأساطير الإغريقية بصفته ملك فريجية الممتاز بقدرته على تحويل كلّ ما يلمسه إلى ذهب.

ومع تقدُّم النهار قرر بارنابي أن يفطر، لا سيَّما أنّه لم يفعل ذلك منذ الصباح، ولم تكن قد وجِّهت إليه تعليماتٍ تحظر عليه الأكل والشرب في نوبة حراسته، بل على العكس كان قد زُوِّد بقنِّينة جعة وسلة مؤن. لذا جلس على الأرض أمام الباب واضعًا عصاه على ركبتيه تحسُّبًا للطوارئ والمفاجآت، ودعا (غرپ) إلى الطعام.

أطاع الطائر هذا النداء بخفَّة عظيمة، وبينا ينسلُّ مقتربًا من سيده طفق يصيح: «أنا عفريت، أنا (پلي)، أنا قدر، أنا پروتستانتي، لا للبابوية». أما وقد تعلَّم هذه العاطفة ممن كان يعيش بينهم مؤخرًا، فقد أخذ يصيح بها بتأكيدٍ نادرٍ!

صاح سيده وهو يطعمه قطعًا بالغة الضآلة: «حسنًا ما قلت يا غرپ. حسنًا ما قلت يا فتاي العجوز!».

صاح الغراب: «لا تيأسوا أبدًا. باو واو واو! تحمَّسوا. غرپ غرپ غرپ، هولوا! سنشرب الشاي كلُّنا، أنا قدر پروتستانتي. لا للبابويّة!».

صاح بارنابي: «غوردن إلى الأبد يا غرپ!».

وضع الغراب رأسه على الأرض ونظر إلى سيّده نظرةً جانبيةً كما لو كان يبغي أن يقول: «قلها ثانيةً!» وإذ فهم بارنابي رغبته تمامًا فقد كرَّر الجملة مرات كثيرة. استمع الطائر بانتباه عميقٍ، مردِّدًا الصيحة الشعبية بصوتٍ خفيضٍ أحيانًا كما لو كان يريد مقارنة نسخته بنسخة سيده ليرى إن كان هذا سيساعده في تحقيق هذا الإنجاز الجديد، وخافقًا بجناحيه أحيانًا أو نابحًا، ونازعًا كثرةً من السدادات أحيانًا أخرى بنوعٍ من اليأس وفي شراسة بالغة.

كان بارنابي منهمكًا تمامًا مع عزيزه هذا، حتى إنه لم ينتبه بادئ الأمر لاقتراب شخصين على ظهري حصانين بخطوة هادئة وفي خطٍّ مستقيمٍ متَّجهين إلى مكان خدمته. غير أنه حين شعر بهما وهما على مرمى خمسين ياردةً منه قفز واقفًا في عجلة وأمر غرب بدخول الحظيرة ووقف وكلتا يديه على عصاه مترقِّبًا أن يعرف ما إذا كانا صديقين أم عدوين.

وما إن فعل ذلك حتى لاحظ أنَّ الشخصين المقتربين منه كانا سيدًا وخادمه، وفي اللحظة نفسها تعرَّف في وجه أحدهما على لورد چورچ غوردن الذي كان يقف الآن أمامه مكشوفًا وعيناه في الأرض.

قال لورد چورچ الذي لم يكبح حركة حصانه حتى أصبح قريبًا منه: «طاب يومك! حسنًا!».

صاح بارنابي: «كل شيء هادئ يا سيدي، وكل شيء آمن! الباقون بالخارج. مضوا من هذه الطريق. تلك. رفقة كبيرة!».

قال لورد چورچ وهو ينظر إليه مفكرًا: «أحقًّا؟ وأنت؟».

«أوه! لقد تركوني هنا لأحرس. لأراقب. لأحافظ على كلِّ شيء آمنًا إلى حين عودتهم. سأفعل ذلك يا سيدي لأجلك. إنك سيدٌ صالحٌ، سيدٌ طيبٌ. حقًّا أنت كذلك. هناك كثيرون ضدّك. لكنَّا سنكون خصومًا أكفاء لهم، لا تخش شيئًا!».

أشار لورد چورچ إلى الغراب الذي كان يتلصَّص عبر باب الحظيرة وقال وهو ما زال ينظر إلى بارنابي في تفكير يشوبه شيء من الحيرة فيما يبدو: «ما هذا؟».

ردَّ بارنابي بضحكة دهشة: «لماذا؟! ألا تعرف؟! ألا تعرف ما هو؟! طائر بالتأكيد، طائري، صديقي غرب».

صاح الغراب: «عفريت. قدر. غرب. پلي. پروتستانت. لا للبابويّة!».

أضاف بارنابي بصوتٍ خافتٍ وهو يضع يده على عنق حصان لورد غوردن: «لكن على كلٍّ فلديك مبرّرٌ جيّدٌ حقًّا لأن تسألني ما هو، حيث يبدو لي ملغزًا أحيانًا -أنا الذي اعتدته- أن أفكّر أنّه مجرد طائر، إنه أخي، غرب دائمًا معي، دائمًا يتكلّم، دائمًا مرح، أليس كذلك يا غرب؟».

أجابه الغراب بنعقة ودودٍ، ثم ما لبث أن قفز إلى ذراع سيده التي مُدَّت إليه ليفعل، وخضع لمداعبات بارنابي بهيئة تشي بلا مبالاة تامَّة، وأخذ يدير عينيه القلقتين الفضوليّتين بين لورد چورچ ورجله.

ظلَّ لورد چورچ ينظر إلى بارنابي برهةً في صمتٍ وهو يعضُّ أظافره بأسلوبٍ يشي بالارتباك، ثم قال مشيرًا إلى خادمه: «تعال هنا يا چون».

لمس چون غروبي قبَّعته تحيةً وجاء، فسأله سيده بصوتٍ خافتٍ: «أسبق أن رأيتَ هذا الشاب من قبل؟».

قال چون: «مرتين يا سيدي اللورد، رأيته وسط الحشود ليلة أمس، ويوم السبت».

سأله لورد چورچ متلعثمًا: «هل بدا لك أسلوبه جامحًا أو غريبًا بوجه ما؟».

قال چون باختصارٍ جازمٍ: «مجنون».

قال سيده متحدِّثًا بلهجة ضجرة: «ولِمَ تظنه مجنونًا سيدي؟ لا تستخدم هذه الكلمة بهذه الأريحية. لِمَ تظنه مجنونًا؟».

أجاب چون غروبي: «سيدي اللورد، انظر إلى ثيابه، انظر إلى عينيه، انظر إلى طريقته المرتبكة، اسمعه يهتف «لا للبابوية»؛ مجنون يا سيدي اللورد!».

ردَّ سيده الغاضب ناظرًا إلى نفسه: «إذن فلأنَّ إنسانًا يلبس بطريقة مختلفة عن غيره، وتصادف أنه مختلفٌ عن الآخرين في هيئته وأسلوبه، ولأنه يتبنَّى قضية عظيمة هجرها الفاسدون وعديمو الدين، فهو يستحقُّ أن يُعتَبر مجنونًا، أليس كذلك؟».

ردَّ چون الذي لم تختلج فيه من سكنة: «مجنونًا تمامًا، يطلُّ الجنون من عينيه، ويغلي ويصخب جنونًا يا سيدي اللورد».

صاح سيده مستديرًا إليه بحدَّة: «أتقول هذا في وجهي؟».

ردَّ چون: «في وجه أي إنسان يسألني يا سيدي اللورد».

قال لورد چورچ: «أرى أنَّ مستر غاشفورد كان محقًّا، ظننته متحاملًا، وإن كان حريًّا بي أن أعرف أنَّ رجلًا مثله لا يمكن أن يكون متحاملًا!».

ردَّ چون وهو يلمس قبَّعته في احترامٍ: «لن أحظى أبدًا بكلمة طيبة عني من مستر غاشفورد، سيدي اللورد، ولست حريصًا على ذلك».

قال لورد چورچ: «إنَّك شخص سيِّئ الحال بالغ نكران الجميل، وربما تكون جاسوسًا. مستر غاشفورد محقٌّ تمامًا، كما ملت إلى الاقتناع بذلك. لقد أخطأت بالاحتفاظ بك في خدمتي، وإنَّها لإهانة ضمنية له وهو صديقي المقرَّب المصطفى أن أفعل ذلك، بينما أذكر القضية التي كنت في صفِّها في ذلك اليوم الذي أهين فيه في وستمنستر. ستتركني الليلة، لا، بمجرد أن نصل إلى البيت؛ كلما كان مبكرًا كان أفضل!».

«ما دام الأمر وصل إلى ذلك فأنا أقول قولك سيِّدي اللورد، لينعم مستر غاشفورد بتحقُّق إرادته. أمَّا بالنسبة إلى كوني جاسوسًا سيدي

اللورد، فأنا واثقٌ أنَّ معرفتك بي أفضل من أن تسمح بأن تصدِّق ذلك. لا أعرف الكثير عن القضايا، قضيّتي قضية رجل واحد ضد مائتين، وأرجو أن تظلَّ دائمًا هكذا».

ردَّ لورد چورچ مشيرًا إليه بأن يبتعد إلى الخلف: «لقد قلت ما يكفي، لا أريد أن أسمع المزيد».

قال چون غروبي: «إن سمحت لي بقول كلمة أخرى سيدي اللورد، فإنني أحذِّر هذا الرجل الأحمق من أن يبقى هنا بمفرده. البلاغ قد وصل إلى كثرة كاثرة من الأيدي بالفعل، ومعروف جدًّا أنه متورط في الأحداث التي يتعلَّق بها البلاغ، ومن الأفضل له أن يذهب إلى مكانٍ آمنٍ، ذلك المسكين».

صاح لورد چورچ مخاطبًا بارنابي الذي ظلَّ يحملق إليهما متسائلًا طيلة الحوار السابق: «أتسمع ما يقول هذا الرجل؟ إنه يظنُّك خائفًا من البقاء في نوبة حراستك، وربما تكون موجودًا هنا ضد رغبتك، ما تقول في ذلك؟».

قال چون شارحًا: «أظن أيُّها الشاب أنَّ الجنود قد يظهرون ويأخذونك، وأنهم إن فعلوا، فمن المؤكد أنك ستعلَّق من رقبتك إلى أن تموت، تموت، تموت. وأظن أنه من الأفضل أن تترك هذا المكان بأسرع ما يمكنك، هذا ما أظنه».

صاح بارنابي واضعًا الغراب على الأرض وعصاه على كتفه: «إنه جبان يا غرپ، جبان! دعهم يأتون. غوردن إلى الأبد! دعهم يأتون!».

قال لورد چورچ: «نعم، دعهم! دعنا نرى من يتجرَّأ ويهاجم قوة

كقوَّتنا، الرابطة الجادة لشعبٍ بأكمله. هذا مجنون؟! حسنًا ما قلت، ما أفضل ما قلت! إني لفخور بأني قائدٌ لرجالٍ مثلك».

انتفخ قلب بارنابي في صدره لدى سماعه هذه الكلمات؛ أخذ يد لورد چورچ ورفعها إلى شفتيه، وربّت معرفة حصانه كما لو كان ما يشعر به تجاه الرجل من عاطفة وإعجاب قد امتد إلى الدابة التي يركبها، ثم ما لبث أن فرد رايته وطفق يلوِّح بها في فخر، مواصلًا خطوه ذهابًا وجيئة.

أما لورد چورچ، فبعين متلألئة وخدٍّ متوهِّج بالدم خلع قبَّعته وأخذ يلوِّح بها عاليًا مودِّعًا بارنابي في جذلٍ! ثم ركض مبتعدًا بعد أن حدج خادمه بنظرة غاضبة ليستوثق من أنه يتبعه. همز چون الصادق حصانه وتبع سيده، لكن ليس قبل أن يحذِّر بارنابي بكثيرٍ من الإيماءات الدالة التي ظل يومئها وظل بارنابي يقاومها، ناصحًا إياه بالانسحاب من هنا، حتى أخفت تعرُّجات الطريق كلًّا منهما عن عيني صاحبه.

وحين ترك بارنابي وشأنه وقد زاد شعوره بأهمية مكانه وأثارت حماسه حظوته لدى قائده وتشجيعه إياه، أخذ يمشي ذهابًا وجيئةً كما لو كان في نعاسٍ لذيذٍ، لا كمشية إنسانٍ يقظٍ. كانت الشمس التي بسطت سلطانها على ما حوله قد سطعت في رأسه. لم يبق لديه إلَّا رغبة واحدة لم تتحقق بعد. لو قدّر فقط أن تراه الآن!

انقضى النهار، وحلَّت محلَّ سخونته برودة المساء، وثارت ريح خفيفة أطارت شعره الطويل وجعلت رايته تخفق خفقًا مبهجًا فوق رأسه. كان ثَمَّ حرية وطزاجة في كل من صوت الخفق وفي الوقت، تجاوب كلاهما مع مزاجه أيما تجاوب. كان أسعد مما اعتاد أن يكون.

كان متَّكئًا على عصاه ينظر إلى الشمس الغاربة ويفكر مبتسمًا في أنه يقف الآن حارسًا على ذهب خبيء، وإذا شخصان أو ثلاثة يظهرون في الأفق، مقبلون صوب المنزل بخطىً حثيثة، يلوِّحون بأيديهم كما لو كانوا يحثُّون ساكني المنزل على التراجع أمام خطرٍ يقترب منهم. وكلما اقتربوا ازدادت جدية إيماءاتهم، وحين أصبحوا في مرمى سمع بارنابي صاح طليعتهم إنَّ الجنود قادمون.

وإذ سمع بارنابي هذه الكلمات طوى رايته وربطها حول السارية، ازداد وجيب قلبه وهو يفعل ذلك، لكن لم يداخله من الخوف أو التفكير في الانسحاب أكثر مما داخل السارية نفسها! أسرع المتسكعون الودودون مخلِّفينه وراءهم بعد أن أطلعوه على الخطر المحدق به، وما لبثوا أن دخلوا المنزل حيث ساد على الفور اضطرابٌ عظيمٌ. وبينما كان من بالداخل يغلقون النوافذ والأبواب في عجلة أخذوا يحرِّضونه بالنظرات والإشارات على أن يهرب دون إضاعة وقتٍ، ويهيبون به كثيرًا أن يفعل ذلك، لكنه لم يزد على أن أجابهم بهزِّ رأسه في استياء، ولم يزدد إلَّا ثباتًا في مكانه. فلما رأوا ألَّا سبيل إلى إقناعه انشغلوا بأنفسهم وتراجعوا مسرعين من المكان مخلِّفين فيه امرأةً عجوزًا فحسب.

إلى الآن لم يكن ثَمَّ ما يشير إلى صدق الأخبار إلَّا مخاوف من أتوا بها، غير أنَّه لم يمض على خلاء (البوت) من المتمرِّدين خمس دقائق وظهرت كتلة من الرجال آتية بطريق الحقول، وكان واضحًا من بريق أسلحتهم وزيناتهم في الشمس وأسلوب تقدُّمهم المنظَّم -فقد اقتربوا كرجلٍ واحدٍ- أنهم الجنود. أدرك بارنابي بعد برهة قصيرة أنهم كتيبة

قوية من حرس المشاة، ومعهم سيدان في ملابس مدنية، وفرقة صغيرة من الفرسان في المؤخرة لا تزيد عدة رجالها على ستة أو ثمانية.

اقتربوا بانتظامٍ، لا يحثُّون الخطى مع اقترابهم ولا يهتفون بأي شيء، ولا يظهرون أيَّ قلقٍ أو انفعالٍ. ورغم أنَّ هذا كان أمرًا مفروغًا منه في شأن القوات النظامية، حتى بالنسبة إلى بارنابي، فقد كان فيه شيء صادم مربك جدًّا لشخصٍ اعتاد فوضى الحشود غير المنظمة وصخبها. رغم كل ذلك لم ينزح عن مكانه قيد أنملة وأخذ ينظر إلى الأمام في غير هيبة.

وفي التوِّ تحركوا إلى داخل الفناء وتوقفوا. أرسل الضابط القائد رسولًا إلى الخيَّالة الذين أقبل منهم واحدٌ على ظهر حصانه. تبادلا بضع كلمات ناظرين إلى بارنابي الذي تذكر جيدًا الرجل الذي أسقطه عن صهوة جواده في وستمنستر، فقد كان يراه الآن أمام ناظريه. أذن للرجل بالانصراف سريعًا فقام بالتحية العسكرية وركب عائدًا إلى رفاقه الذين وقفوا منفصلين عن الباقين بمسافة قصيرة.

ثم ما لبث الضابط أن أعطى الأمر بالاستعداد وتعمير السلاح. كان الرنين الثقيل الذي أحدثه ارتطام أخامص البنادق بالأرض مع الخشخشة الحادة السريعة لمدكَّات البنادق في مواسيرها مجلبةً لنوعٍ من الراحة لبارنابي، رغم معرفته بالدلالة المميتة لهذه الأصوات. وحين فرغ من هذا صدرت أوامر أخرى فشكَّل الجنود على الفور صفًّا واحدًا أحاط بالمنزل والحظائر إحاطةً تامةً من مسافة ست ياردات تقريبًا، وكانت هذه المسافة تبدو لعيني بارنابي على الأقل المسافة نفسها التي تفصله عمَّن يواجهونه. وظلَّ الخيَّالة مجتمعين على أنفسهم منفصلين عن الآخرين كما كانوا.

أما السيدان ذوا الملابس المدنية اللذان ظلَّا على مبعدة من الباقين فقد تقدَّما الآن على ظهري حصانيهما على جانبي القائد. أخرج أحدهما البلاغ وقرأه، فأهاب الضابط ببارنابي أن يسلِّم نفسه.

لم يحر جوابًا وإنّما خطا إلى الداخل عبر الباب الذي كان يقضي نوبة حراسته أمامه وقبض على سارية رايته بالعرض ليحمي الباب. وبعد صمتٍ عميقٍ أحاط بالجميع نودي ثانيةً ليستسلم.

ولم يحر جوابًا هذه المرة أيضًا. والحق أنه كان لديه من العمل ما يكفيه، فقد أخذ يقلِّب بصره في الرجال الستة الذين كانوا في مواجهته بالضبط، ويقرر بينه وبين نفسه في عجلة يضرب أيُّهم أولًا حين يتقدَّمون إليه. التقت عيناه بعيني واحدٍ في منتصفهم، وقرَّر أن يصرع ذلك الرجل ولو مات جزاء ذلك.

ساد الصمت القاتل ثانية، وقطعه الصوت نفسه ثانية، مهيبًا ببارنابي أن يسلِّم نفسه. وما هي إلَّا لحظة وكان قد تراجع إلى الحظيرة يضرب كالمجنون من أحاطوا به. تمدَّد عند قدميه رجلان، أحدهما ذلك الذي كان قد قرَّر البدء به حيث سقط أولًا، وكان قد فكر في ذلك وسط معمعة القتال. ضربة أخرى، وأخرى! ثم سقط، ثم شُلَّت حركته، ثم جُرِح في صدره جرَّاء ضربة ثقيلة من أخمص بندقية كان قد رآها وهو يسقط، سقط مكتوم الأنفاس، وأُخِذ أسيرًا.

أعادته إلى وعيه بدرجة ما صيحة دهشة ندَّت من الضابط، فنظر فيما حوله. كان غرب بعد أن أمضى الظهيرة كلَّها في العمل خفية، وضاعف نشاطه بينما انتباه الجميع منصرفٌ عنه، قد نتف القشَّ من فراش هيو،

وقلَّب الأرض الرخوة بمنقاره الحديديّ. كان ثَمَّ حفرة قد مُلِئت في رعونة إلى حافتها ثم نثر عليها التراب كيفما اتفق. إذ ذاك ظهرت للناظرين أقداحٌ ذهبية وملاعق وشمعدانات وجنيهات مسبوكة وكلُّ ما هناك من ثروات.

أحضروا معاول ومخلاةً وأخرجوا كلَّ ما كان مخبوءًا، واحتملوا فوق ما استطاع حمله رجلان. قيَّدوا يديه وربطوا ذراعيه وفتَّشوه وأخذوا كلَّ ما معه. لم يستجوبه أحدٌ ولم يلمه أحدٌ، ولم يبد أنَّ أحدًا يعاني فضولًا بشأنه. أما الرجلان اللذان صرعهما فقد احتملهما رفاقهما بالطريقة العملية نفسها التي حدث بها كلُّ شيء. وأخيرًا تُرِك تحت حراسة أربعة جنود مشرعين حراب بنادقهم، بينما قاد الضابط بنفسه عملية تفتيش (البوت) وما اتصل به من مبانٍ.

وسرعان ما انتهت هذه المهمة. تشكَّل الجنود ثانيةً في الفناء، وسيق إلى الخارج وحوله حراسته، ثم أُمِر أن يسير في المنتصف حيث أخليت له مساحة. نشز الآخرون من حوله مضيِّقين عليه، وهكذا ابتعدوا وأسيرهم في منتصفهم.

وحين خرجوا إلى الشوارع شعر أنه قد أصبح فرجة، وبينما يحثُّون الخطى نظر إلى أعلى فرأى الناس يهرعون إلى النوافذ متأخرين بعض الشيء ويفتحون مصاريعها ليشيِّعوه بنظراتهم. كان أحيانًا يصادف وجهًا محدِّقًا إليه من وراء الرؤوس المحيطة به، أو من تحت أذرع من يسوقونه، أو يتلصَّص عليه من كابينة عربة أو صندوق حنطور، لكن ذلك كان كلُّ ما استطاع أن يراه، لا سيَّما أنه كان محاطًا برجالٍ كثيرين. حتى جلبة الشوارع

كانت تبدو له مخنوقةً مكتومةً، والهواء كان يلمسه راكدًا ساخنًا كأنفاس موقدٍ سقيمة.

مضت الخطى في ثباتٍ والأرؤس منتصبة والأكتاف منتظمة والجميع يمشي في إيقاعٍ مضبوطٍ، كلُّ شيء مرتَّب منسَّق ولا أحد ينظر إليه، ولا أحد يبدو واعيًا بوجوده، حتى إنه كان لا يكاد يصدِّق أنه أسيرٌ. لكنه ما إن يفكر في كلمة (أسير) -مجرّد تفكير، فإنَّ أحدًا لم ينطق بها- كان يشعر بالقيود تسحج معصميه، وبالحبال تضغط ذراعيه إلى جنبيه، وبالبنادق المعمَّرة مصوَّبةً إلى رأسه، وتلك النصال الباردة البراقة الحادَّة الساطعة مدارةً إليه، تلك التي كان مجرد نظره إليها وهو في هذه الحال مقيّد بلا حيلة يجمِّد دم الحياة في عروقه.

* * *

الفصل الثامن والخمسون

لم يمض كثير وقت قبل أن يصلوا إلى المعسكر، فقد كان الضابط الذي يرأس الفرقة حريصًا على ألَّا يوقظ الناس باستعراض القوة العسكرية في الشوارع، كما حرص في الوقت ذاته من منطلقٍ إنسانيٍّ على ألَّا يترك فرصةً لنجاح أي محاولة لإنقاذ أسيره، ليقينه أنَّ فرصة كهذه لا بُدَّ أن تؤدي إلى إراقة الدماء وإزهاق الأرواح، وليقينه أن السلطات المدنية التي رافقته لو خوَّلت له أن يأمر رجاله بإطلاق النار فلربما يسقط أبرياء كثيرون جذبهم إلى المشهد فضولهم أو تسكُّعهم. لذا قاد الفرقة إلى الأمام حاثًّا الخطى، متجنِّبًا الطرق الأكثر ازدحامًا وشعبية بحصافة رحيمة، وسالكًا تلك التي اعتبرها أقل عرضة لأن يجوبها الفوضويُّون. لم يمكِّنهم هذا التصرُّف الحكيم من الوصول إلى مقرِّهم دون أي مقاطعة فحسب، وإنما أربك تمامًا كذلك مجموعةً من المشاغبين تجمَّعت في أحد الشوارع الرئيسة التي اعتبر مرور الجنود منها أمرًا مفروغًا منه، تلك المجموعة التي ظلَّت مجتمعةً لاستنقاذ الأسير من أيدي الجنود وقتًا طويلًا بعد أن أودع مكانًا أمينًا وأغلقت عليه بوابات المعسكر وعُيِّن حارسان على كلِّ مدخل لزيادة الحماية.

وحين وصل بارنابي المسكين إلى هذا المكان اقتيد إلى غرفة ذات أرضية حجرية تعبق برائحة التبغ، وتكتنفها تيارات هواء قوية، وفيها فراشٌ خشبيٌّ عظيم يتسع لعشرين رجلًا. كان ثَمَّ عددٌ من الجنود في ملابس عادية يتسكَّعون في أرجاء المكان أو يأكلون من عبوات من الصفيح، وعتاد حربي معلَّق على الحائط المدهون بالبياض من صفوف من المسامير، ونحو ستة رجال راقدين على أظهرهم يغطُّون في نومٍ عميقٍ يتجاوب غطيط كل منهم مع رفاقه. وبعد أن ظل هنا وقتًا كافيًا لملاحظة هذه الأشياء اقتيد إلى الخارج ثانيةً ونقل عبر ساحة الاستعراض إلى جزء آخر من المبنى.

ربما لا يتسنَّى لإنسان أن يرى الكثير هكذا بنظرة واحدة إلَّا إن كان في موقفٍ حرجٍ. والاحتمالات مائة إلى واحد أنَّ بارنابي لو كان يتسكع بالداخل قرب البوابة وينظر فيما حوله ثم خرج فأخذ يتسكع بالخارج لكانت فكرته عن المكان قد جاءت بالغة النقص، ولما تذكر عنه إلَّا أقلَّ القليل. لكنه لمَّا كان قد أخذ عبر المساحة المفروشة بالحصى موثق اليدين فإنَّ شيئًا لم يفته من تفاصيل المكان. هيئة المربع المغبر الجافة القاحلة، وهيئة المبنى المبنيّ بالطوب العاري، والملابس المعلَّقة في بعض النوافذ، والرجال عراة الصدور وأولئك المرتدون الحمَّالات الذين تتدلَّى أنصافهم العلوية من البعض الآخر، ومظلَّات النوافذ الخضراء في مقرِّ الضباط، والأشجار القليلة في المقدِّمة، والصبية قارعو الطبول المنكَّبُّون على المران في فناء قصيٍّ، والرجال المشغولون بالتدريب في الاستعراض العسكري، والجنديان اللذان يحملان سلة فيما بينهما، واللذان تبادلا التغامز فيما بينهما حين مرَّ بهما وأشارا في

خبثٍ إلى نحريهما، والرقيب المهندم الذي مرَّ مسرعًا وفي يده عصا وتحت إبطه كتابٌ ذو مشبك وغطاء مجلَّد، والرفاق في غرف الطابق السفلي المنهمكون في صقل وتلميع بنود ملابسهم المختلفة، أولئك الذين توقَّفوا لينظروا إليه وكانت أصداء أصوات حديثهم تتردَّد عاليةً في الساحات والممرَّات الخالية، وصولًا إلى حامل البنادق أمام السجن العسكري والطبلة ذات الحزام المعالج بالطين الأبيض الواقفة في أحد الأركان، انطبع كلُّ شيء من هذه الأشياء في ملاحظته كما لو كان قد رآها جميعًا في المواضع نفسها مائة مرة أو قضى بينها يومًا كاملًا، لا دقيقةً عجلة.

أُخِذ إلى فناء خلفيٍّ صغيرٍ مرصوف، وهناك فتحوا بابًا كبيرًا مصفَّحًا بالحديد ومثقوبًا على ارتفاع خمسة أقدام من الأرض ثقوبًا قليلةً لتسمح للهواء والنور بالدخول. سيق إلى هذه الزنزانة مباشرةً، وبعد أن حبسوه هناك وعيَّنوا عليه حارسًا تركوه لتأمُّلاته.

كانت الزنزانة أو الحفرة السوداء –فقد كان هذا الوصف منقوشًا على بابها– مظلمةً تمامًا، ولمَّا كان ثَمَّ متمرِّد سكير قد نزلها حديثًا، فإنها لم تكن نظيفةً بحالٍ. تلمَّس بارنابي طريقه إلى بعض القش في الركن القصي، وحاول أن يعوِّد عينيه الظلام بالنظر جهة الباب، ولم تكن هذه مهمةً سهلةً على من أتى لتوِّه من ضوء الشمس الساطع بالخارج. كان ثَمَّ رواق أعمدة بالخارج، ما حجب حتى الضوء القليل الذي كان يمكن أن يتسلل من خلال فتحات الباب الصغيرة. وكان وقع خطى الحارس يتردد صداه في رتابة وهو يخطو على الرصيف الحجري ذهابًا وجيئةً، مذكِّرًا بارنابي بنوبة حراسته التي قام بها حديثًا، وكلما عبر الباب رائحًا غاديًا كان توسُّط

جسده يزيد سواد الزنزانة لحظيًّا، حتى لقد بدا ابتعاده عن الباب ظهورًا لشعاع ضوءٍ جديدٍ، وحدثًا يشتاق إليه.

وبعد أن أمضى السجين بعض الوقت جالسًا على الأرض ناظرًا من الفرج متسمِّعًا وقع خطى حارسه مقتربةً مبتعدةً، وقف الرجل ساكنًا. كانت رتابة خطاه قد هدهدت بارنابي الفاقد القدرة تمامًا على التفكير أو تخمين ما يمكن أن يُفعل به، فما لبث أن أغفى، غير أن توقُّفه أيقظه، ثم انتبه لرجلين كانا يتحادثان في الرواق قريبًا جدًّا من باب زنزانته.

لم يكن بمقدوره أن يعرف كم أمضيا من الوقت في حوارهما هذا، فقد كان سقط فاقدًا كلَّ وعي بحقيقة وضعه، وحين توقَّفت الخطى كان يجيب بصوتٍ عالٍ سؤالًا يبدو أنَّ هيو قد وجَّهه إليه في الحظيرة، رغم أنه لم يتذكر أي شيء عن فحوى السؤال ولا الإجابة المتخيلين مع أنه قد استيقظ والإجابة على شفتيه. كانت هذه هي أول كلمات تصل إلى أذنيه: «لماذا إذن أحضر إلى هنا ما دام أنه من المقرَّر أن يؤخذ من هنا قريبًا جدًّا؟».

«لماذا؟ أين تريده أن يذهب؟ اللعنة! ليس ثَمَّ مكانٌ آمنٌ له من أن يكون بين قوات الملك، أليس كذلك؟ ماذا كنت تفعل به أنت؟ هل كنت ستسلِّمه إلى حفنة من المدنيين الجبناء الذين ترتعد سيقانهم في أحذيتهم حتى تنحل نعالهم خوفًا من تهديدات الصعاليك الذين ينتمي إليهم؟».

«ما أصدق هذا!».

«ما أصدق هذا؟! سأخبرك بشيء. إنني أتمنى يا (تم غرين) لو كنت ضابطًا مكلّفًا لا ضابط صفٍّ، وأنَّ إليَّ قيادة سريَّتين –سريَّتين فحسب– من

كتيبتي. أهب بي أن أضع حدًّا لهذا الشغب، وامنحني السلطة الضرورية، ومعها ست دفعات من خراطيش الرصاص..».

قال الصوت الآخر: «آي! كلُّ هذا جيد تمامًا، لكنهم لن يمنحوك السلطة الضرورية. إن لم يعط الحاكم الأمر فماذا بيد الضابط أن يفعل؟».

أما وقد كان الآخر لا يدري كيف له أن يتغلَّب على هذه المعضلة فيما يبدو، فقد قنع بأن يلعن الحكام.

قال صديقه موافقًا: «من كل قلبي».

ردَّ صوت الآخر: «ما فائدة الحاكم؟ ما يكون الحاكم المدني في حالة كحالتنا إلَّا نوعًا وقحًا غير ضروريٍّ وغير دستوريٍّ من التدخُّل؟! لدينا بلاغٌ، ولدينا رجلٌ أشير إليه في هذا البلاغ. لدينا دليلٌ ضده وشاهد في مسرح الأحداث. اللعنة! خذوه إلى الخارج وأطلقوا عليه النار يا سيدي؟ ما الحاجة إلى حاكم مدني؟».

سأل من تكلم أولًا: «متى يمثل أمام سير چون فيلدنغ؟».

ردَّ الآخر: «الليلة في الثامنة، وانتبه لِمَا بعد ذلك، سيأمر الحاكم بإيداعه (نيوغات)، ثم يأخذه رجالنا إلى هناك، ثم يضرب المتمردون رجالنا، فيتقهقر رجالنا أمامهم. تقذف الحجارة ويكال السباب ولا تطلق رصاصة واحدة، لماذا؟ بسبب الحكام، اللعنة على الحكام المدنيين!».

وحين أراح الرجل ذهنه بدرجة ما بلعن الحكام في أشكال أخرى متعددة من الكلام سكت، إلَّا من تذمُّرٍ خافتٍ كان ينذُّ عنه بين الفينة والفينة، لم تنقطع إشارته إلى السلطة نفسها. أما بارنابي الذي كان له من

الحجا ما يكفي لأن يعرف أن هذا الحوار يعنيه هو، فقد ظل هادئًا تمامًا إلى أن توقَّفا عن الكلام، وحينها تلمَّس طريقه إلى الباب، وحاول متلصِّصًا من ثقوب التهوية أن يعرف أي نوعٍ من الرجال هذان المتحاوران اللذان كان يتنصَّت عليهما.

كان من يندِّد بالسلطة المدنية بتلك العبارات القوية رقيبًا مكلَّفًا حديثًا بخدمة التجنيد كما تشي بذلك الأشرطة المنسدلة من قلنسوته العسكرية. كان يقف مستندًا بجنبه إلى عمودٍ منتصبٍ أمام الباب تقريبًا، ويرسم بعصاه أشكالًا على الرصيف بينما يتذمَّر بينه وبين نفسه. أما الآخر فكان يولي الزنزانة ظهره، ولم يستطع بارنابي أن يرى منه إلَّا قوامه. وإذا كان له أن يحكم مما رأى فقد كان يبدو رجلًا فارسًا وسيمًا ممتلئًا رجولةً، غير أنه قد فقد ذراعه اليسرى، كانت مقطوعةً بين المرفق والكتف، وكان كمُّ معطفه الخاوي يتدلَّى على صدره.

وربما كانت هذه الحقيقة هي ما أثار اهتمام بارنابي به فوق أي شيء كان لرفيقه أن يفخر به، وهي ما جذب انتباهه. كان ثَمَّ روحٌ من الجندية في هيئته، وكان يرتدي قلنسوةً وسترةً أنيقتين. ربما كان ينتمي إلى الخدمة العسكرية في وقتٍ ما. ولو كان ذلك صحيحًا، فمن المؤكد أنَّ وقتًا طويلًا لم يمر على خروجه من الخدمة، فقد كان ما يزال شابًّا.

قال مفكِّرًا: «حسنًا حسنًا! فليكن الخطأ حيثما هو. من المحزن أن يعود المرء إلى إنگلترا العتيقة ليجدها على هذه الحال».

قال الرقيب وهو يصبُّ اللعنة على المتمردين: «أعتقد أن الخنازير سينضمُّون إليهم فيما بعد، ما دامت الطيور قد ضربت لهم المثل».

كرَّر (تم غرين): «الطيور!».

قال الرقيب في حدَّة: «أجل، الطيور، إنني أتكلم بالإنـگـليزية، أليس كذلك؟».

«لا أدري ماذا تعني».

«اذهب إلى السجن الحربي وانظر، سترى هناك طائرًا له صيحته كأيِّ طائر، ويزعق (لا للبابوية) كالإنسان أو كالعفريت كما يقول عن نفسه، لن أدهش إن كان كذلك. الشيطان مطلق السراح في مكانٍ ما في لندن. اللعنة إن لم ألوِ عنقه إذا صادفته، وإذا حيل بيني وبينه».

خطا الشاب خطوتين أو ثلاثًا مبتعدًا، كما لو كان ينوي أن يذهب ليرى ذلك المخلوق، لكنَّ صوت بارنابي أوقفه مكانه، كان يصيح نصف ضاحك نصف باك:

«إنه ملكي، طائري الأليف، صديقي غرب. هاهاها! لا تؤذوه، إنه لم يفعل ما يضرُّ، أنا الذي علَّمته، إنه خطئي. أرجوكم أعيدوه إليَّ، إنه الصديق الوحيد الذي بقي لي الآن، أنا أعرف أنه لن يرقص ولن يتكلم ولن يصفر لكم، لكنه سيفعل كلَّ ذلك لي لأنه يعرفني ويحبني جدًّا، رغم أنكم لن تصدِّقوا ذلك، أنا واثق أنكم لن تؤذوا طائرًا. أنت جندي شجاعٌ يا سيدي، ولن تؤذي امرأةً ولا طفلًا، لا لا، ولا طائرًا مسكينًا، أنا متأكد من ذلك».

كان الرقيب هو المخاطب بهذا التوسُّل الأخير، لا سيَّما أنَّ بارنابي قد حكم من معطفه الأحمر أنه عالي المنزلة ويستطيع تقرير مصير غرب بكلمة. لكنَّ ردَّ هذا السيد كان لعنه في حدة وهو اللص المتمرد، وبعد أن توعَّد نفسه في نزاهة بالخراب في عينيه وكبده ودمه وجسده، أكَّد لبارنابي

أن لو كان الأمر بيده لأسكت صوت الطائر إلى الأبد، وصوت سيده كذلك.

قال بارنابي مغضبًا: «إنك تتكلَّم في جرأة إلى رجلٍ محبوسٍ، لو كنت على الجانب الآخر من الباب ولم يكن هناك من يحجز بيننا، لغيَّرت نبرتك هذه. لك أن تلقي برأسك إلى الوراء في غضبٍ إن شئت! اقتل الطائر، افعلها، اقتل أيَّ شيء تستطيع قتله، وانتقم بذلك ممن كان في مقدورهم أن يقتلوك بأيديهم العارية غير المقيَّدة!».

وبعد أن نفث ما يعتمل بصدره من تحدٍّ ألقى بنفسه في أبعد ركنٍ من سجنه وطفق يغمغم: «الوداع يا غرپ، الوداع يا عزيزي العجوز غرپ!»، وإذ ذاك ذرف أول دموع مذ سقط في الأسر، وأخفى وجهه في القشِّ.

كان قد تراءى له في البداية أنَّ الرجل ذا الذراع الواحدة سيساعده أو يرد عليه بكلمة طيبة. لم يعرف لِمَ، لكنه ظنَّ ذلك وتمنَّاه. توقف الشاب حين صاح وقد كان يستدير متهيئًا للذهاب، ووقف يستمع إلى كل كلمة قالها. ربما بنى بارنابي ثقته العرجاء على ذلك، وربما على كونه شابًّا ذا أسلوبٍ صريحٍ مخلصٍ. وأيًّا ما كان الأمر، فلم تكن ثقته إلَّا قصرَ رمالٍ، مضى الآخر بمجرد انتهائه من كلامه، ولم يحر جوابًا ولم يعُد. كانوا جميعًا ضده هنا، كان يجب أن يعرف ذلك، الوداع يا غرپ العجوز، الوداع!

جاءوا بعد وقتٍ وفتحوا الباب ونادوه أن يخرج. نهض على الفور وانصاع للأمر، فإنه لم يكن ليسمح لهم بأن يظنُّوا أنه يهابهم أو قد خضع لهم، خرج كالرجال ونقَّل بصره من وجه إلى آخر.

لم يبادل أحدهم نظرته ولم يبدُ على أحدٍ أنه يلحظها، ساقوه إلى العرض العسكري عبر الطريق التي أحضروه منها، وهناك توقفوا وسط مجموعة من الجند تعدل ضعف عدد أولئك الذين أسروه في الظهيرة على الأقل. أمره الضابط الذي رآه من قبل بكلماتٍ قليلة موجزة بأن ينتبه لإن حاول الهرب –مهما كان يعتبر فرصته في الهرب جيدة– فإنَّ من الرجال في هذه اللحظة من هو مأمور بإطلاق النار عليه في الحال. ثم ما لبثوا أن طوَّقوه من كل جانبٍ واقتادوه إلى الخارج مجدّدًا.

وصلوا إلى شارع (باو) بنفس الترتيب غير المنقطع، يتبعهم ويحفُّ بهم من كلِّ جانبٍ حشدٌ من الناس يفتأ يتزايد. وهنا وقف أمام سيدٍ مكفوفٍ وسُئل إن كان يودُّ أن يقول أيَّ شيء. لا يريد، ماذا لديه ليخبرهم به؟ وبعد كلامٍ قليلٍ جدًّا لم يوله اهتمامًا ولا انتباهًا، أخبروه بأنه سيؤخذ إلى (نيوغات)، ومضوا به.

خرج إلى الشارع محاطًا ومطوَّقًا بالجند من كلِّ جانب، حتى إنه لم يستطع رؤية أي شيء، غير أنه قد عرف مما حوله من لغط أنَّ حشدًا هائلًا من الناس كان هناك، وبات واضحًا من تصايحهم وتهامسهم أنهم لا يكنُّون ودًّا للجند. كم تسمَّع بشغفٍ علَّ صوت هيو يتسلَّل إلى أذنيه! لم يكن بين الأصوات صوتٌ يعرفه. هل أُسِر هيو هو الآخر؟ أليس ثَمَّ أملٌ؟!

كانت صيحات الناس تزداد عنفًا كلما اقتربوا أكثر من السجن، وألقيت الحجارة، وكان الجند يُهاجمون بين الفينة والفينة، فيترنَّحون تحت ضغط الهجمات. تألَّم أمامه جنديٌّ قريبٌ منه بفعل ضربة وُجِّهت إلى جبينه، فرفع بندقيته، لكنَّ الضابط ضربها إلى أعلى بسيفه، وأمره بأن

يكفَّ عن ذلك وإلَّا فحياته في خطرٍ. كان هذا آخر ما رآه بأيِّ قدرٍ من الوضوح، فإنه بعد ذلك مباشرة طفق يُرمى به من جهة إلى جهة ويضرب ذهابًا وجيئةً كما لو كان في عرض بحرٍ هائجٍ. لكنَّه حيثما كان كان محاطًا بالحرس أنفسهم. طُرِح أرضًا مرتين أو ثلاثًا، وكذلك هم، لكن حتى في هذه الحال لم يكن في مقدوره أن يخاتل يقظتهم لحظة. نهضوا ثانيةً وطوَّقوه كما كانوا، قبل أن يتمكَّن برسغيه الموثقين بإحكامٍ من النهوض واقفًا. وبينا هو محاطٌ به على هذا النحو شعر بنفسه يُرفَع إلى قمة درج قصير، ثم بصر بلمحة من القتال الدائر في الحشود، وبقلة من المعاطف الحمراء المتناثرة هنا وهناك يجاهد أصحابها لينضمُّوا إلى رفاقهم. في اللحظة التالية كان الظلام الكئيب يسود، وكان واقفًا في ردهة السجن، في منتصف مجموعة من الرجال.

حضر حدَّادٌ في التوِّ، وما لبث أن ثبَّت في معصميه قيودًا حديديةً ثقيلة. سيق إلى زنزانة حجرية محكمة وهو يتعثَّر في طريقه تحت ثقل هذه القيود التي لم يعتدها، وبعد أن أحكموا إغلاق الباب بالأقفال والأرتجة والسلاسل تركوه هناك مؤمَّنًا تمامًا، لكنهم قبل ذلك ألقوا هناك بغرپ دون أن يلاحظ هو. وبدا غرپ برأسه المتدلِّي وريشه الأسود الفاحم المشعَّث الهائج كما لو كان مدركًا بؤس ما آل إليه حظ سيده، مشاركًا في ذلك البؤس.

* * *

الفصل التاسع والخمسون

من الضروري عند هذه النقطة أن نعود إلى هيو، وذلك أنه -بعد أن أهاب كما رأينا بالمتمردين أن يتفرقوا من حول منزل وارن ليجتمعوا فيما بعد كما اعتادوا- تسلل عائدًا إلى الظلام الذي ظهر من جوفه، ولم يظهر ثانيةً في تلك الليلة.

لبث في الأجمة التي حجبته عن أنظار رفاقه المجانين ينتظر ليتأكد ممَّا إذا كانوا سينصاعون لأمره بالانسحاب أو سيتلكَّؤون ويهيبون به أن ينضمَّ إليهم. رأى أنَّ قلَّةً منهم لم يكونوا يميلون إلى الذهاب من دونه، فما لبثوا أن اتجهوا صوب البقعة التي وقف فيها مختبئًا، كما لو كانوا ماضين على أثره منتوين أن يحثُّوه على العودة إليهم. غير أن هؤلاء لمَّا كان رفاقهم قد نادوهم بدورهم، ولمَّا كانوا في الحقيقة غير حريصين على المغامرة باقتحام الأجزاء المظلمة من المكان حيث يسهل أن يباغتهم ويلقي القبض عليهم أيٌّ من جيران العائلة أو خدمها إن كان منهم من يراقب المتمردين من بين الأشجار، فقد تخلَّوا عن هذه الفكرة سريعًا، وغادروا المكان بعد أن جمَّعوا في عجلة كلَّ من وجدوهم يشاطرونهم الرأي نفسه من رفاقهم.

وبعد أن اطمأنَّ إلى أنَّ الشَّطر الأكبر من الثوَّار قد احتذى هذا المثال وأنَّ المكان يخلو سريعًا، أوغل في الجزء الأكثف من الغابة الصغيرة،

واتجه صوب ضوء قصيٍّ وهو يحطم الأغصان تحت قدميه في طريقه، ودليله هذا الضوء، مع وهج النار الكئيب من خلفه.

ومع ازدياد اقترابه من العلامة المضيئة التي كان يتجه نحوها، بدأ يظهر له الوهج الأحمر لقلة من المشاعل، وبدأت أصوات رجال يتحادثون فيما بينهم بنبرة خافتة تقطع السكون الذي كان مخيمًا بالفعل إلَّا من صياحٍ بعيدٍ بين الفينة والفينة. أخيرًا خرج من الغابة، وبعد أن قفز عبر أخدودٍ وقف في دربٍ مظلمٍ حيث كان ينتظر مقدمه بنفاد صبرٍ عددٌ قليلٌ من المتشردين ذوي السحنات غير المطمئنة، كان قد تركهم في هذه البقعة قبل عشرين دقيقة.

كان هؤلاء مجتمعين حول عربة بريد أو حنطور عتيق يقوده واحدٌ منهم يجلس على الحصان القريب بالنسبة إلى مقعد الحوذيِّ. كانت مصاريع النوافذ مفتوحةً، وكان مستر تاپرتت ودنس يحرسان لدى النافذتين. أولهما كان يقود الفرقة، إذ إنه تحدى هيو وهو يقترب منهم، وحين فعل ذلك نهض أولئك الذين كانوا يستريحون على الأرض حول العربة وتجمَّعوا حوله.

قال سايمن بصوتٍ خافتٍ: «حسنًا؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

ردَّ هيو بالنبرة نفسها: «جيد بما يكفي، إنهم يتفرقون الآن، فقد بدؤوا قبل أن أتركهم».

«وهل الساحل خالٍ؟».

قال هيو: «خالٍ بما يكفي أمام رجالنا. ليس هناك كثيرون ممن سيريدون أن يتدخَّلوا معهم الليلة وهم يعرفون بعملهم هناك. من معه بعض الشراب هنا؟».

كان مع كلٍّ منهم بعض الأسلاب من القبو، فما لبثت ستّ قنِّينات وزجاجات أن قُدِّمت إليه على الفور. اختار الأكبر ورفعها إلى فمه مرسلًا نبيذها يترقرق إلى جوفه. وبعد أن فرغ منها ألقاها أرضًا ومدَّ يده طالبًا أخرى ما لبث أن أفرغها هي الأخرى في جرعة واحدة. ثم أُعطي ثالثةً أفرغ نصفها في جوفه واحتفظ ببقيَّتها ليختم به ثم سألهم: «هل مع أحدكم شيء يؤكل؟ إنني جائعٌ كذئبٍ. أيُّكم كان في الكرار؟ هاه؟».

قال دنس خالعًا قبَّعته ومتحسِّسًا تاجها: «أنا يا أخي، يوجد شيء من فطائر لحم الغزال في مكانٍ ما هنا، إن كان هذا يفيدك».

صاح هيو وهو يجلس في الممشى: «يفيدني! هاته لي! أسرع! أضيئوا المكان هنا وتجمَّعوا! دعوني أتعشَّى عشاءً فخمًا يا فتياني! هاهاها!».

ولأنهم جميعًا كانوا قد شربوا حتى ثملوا فكانوا لا يقلُّون عنه اهتياجًا، فسرعان ما أعداهم مزاجه الصاخب فازدحموا حوله، بينما رفع اثنان منهم مشعليهما عاليًا على جانبي هيو، حتى لا يتناول وليمته في الظلام. حينذاك كان مستر دنس قد أفلح في استخراج كتلة كبيرة من فطيرة اللحم من قبعته، كانت محشورةً فيها بإحكامٍ شديدٍ لدرجة أن استخراجها كان مهمةً صعبةً، فوضعها أمامه، وبعد أن استعار هيو من أحد الرفاق سكِّينًا مسنَّنًا مشرشرًا، انهمك في معالجة الفطيرة في نهمٍ.

قال دنس بعد برهة صمتٍ: «ينبغي لي أن أقترح عليك يا أخي أن تبتلع كلَّ يوم شعلة نار صغيرةً قبل الأكل بساعة، فإن ذلك يبدو متوافقًا معك ويثير شهيَّتك».

نظر هيو إليه وإلى الوجوه المسودَّة المحيطة به، وبعد أن توقَّف لحظةً ليرفع سكِّينه عاليًا متمنطقًا به، ردَّ بقهقهة مزمجرة.

قال سايمن تاپرتت: «بعض النظام هنا، هاه؟».

ردَّ ملازمه وهو يفرِّق الرجال الواقفين بينهما بسكِّينه ليتمكَّن من رؤيته: «لماذا؟ ألا يسمح للواحد أن يمتِّع نفسه يا قائدي النبيل؟ أن يمتِّع نفسه قليلًا بعد عملٍ كالذي قمت به؟ ما أقساك من قائدٍ! ما أشدَّ صرامتك! يا لك من قائد طاغية! هاهاها!».

قال سايمن: «أرجو أن يتفضَّل أحدكم أيها الرفاق بأن يرفع إلى فمه زجاجةً ليسكت، إلَّا إذا أردتم أن يحيط بنا العسكر».

ردَّ هيو: «وماذا لو أحاطوا بنا؟! من يهتم لذلك؟ من يخشاهم؟ أقول دعهم يأتون، دعهم يأتون. المرح يحب اللمَّة! هات لي بارنابي الجريء إلى جانبي، وسنتكفَّل معًا بالتصدي للعسكر دون أن نزعج أيًّا منكم. بارنابي هو الرجل المناسب للعسكر، في صحة بارنابي!».

لكن حيث كان أغلب الحاضرين لا يريدون بحالٍ أن يتورطوا في اشتباكٍ ثانٍ هذه الليلة لما هم فيه من التعب والإرهاق، فقد أخذوا جانب مستر تاپرتت، وضغطوا على هيو أن يعجِّل بالانتهاء من عشائه، إذ إنهم قد تأخروا كثيرًا بالفعل. ولمَّا كان هيو يعرف جيدًا -حتى وهو في قمة هياجه- أنهم يعرِّضون أنفسهم لخطرٍ داهمٍ بالبقاء على هذا النحو قرب مسرح الانتهاكات الأخيرة، فقد أنهى وجبته من دون مزيد احتجاجٍ، ونهض متَّجهًا إلى مستر تاپرتت وضربه على ظهره صائحًا:

«الآن إذن أنا مستعدٌّ. ثَمَّ طيورٌ شجاعة داخل هذا القفص، أليس

كذلك؟ طيور رقيقة، حمائم صغيرة محبَّة حنون. أنا حبستها، أنا حبستها، أعطني نظرةً أخرى».

وبينا يتكلم دفع الرجل الضئيل جانبًا، وقفز على الدرج الذي كان منزلًا إلى منتصفه ثم فتح المصاريع بقوة وطفق يحدِّق إلى داخل العربة كغول تنظر في خزانة مؤنها. ثم صاح إذ أمسك بيدٍ صغيرة حاولت عبثًا أن تحرِّر نفسها من قبضته:

«هاهاها! إذن فقد أخذت تخمشين وتقرصين وتقاتلين يا سيدتي الجميلة؟ أنت يا ذات العينين البرَّاقتين والشّفتين الكرزيتين يا منمنمة الملامح؟ لكنني أحبُّك زيادةً لذلك يا سيدتي، أجل أحبك. لك أن تطعنيني على الرحب والسعة إن كان في ذلك سرورك، وعليك أن تداويني بعد ذلك. أحب أن أراك متكبِّرةً محتقرة. إن ذلك يزيد جمالك. ومن ذا الذي يرقى إلى جمالك في أيِّ وقتٍ يا جميلتي؟!».

انتظر مستر تاپرتت خلال هذا الكلام بنفاد صبرٍ معتبرٍ ثم قال: «هيَّا! كفى، انزل».

عقَّبت اليد الصغيرة على هذا التوبيخ بأن دفعت رأس هيو الكبير بعيدًا بكلِّ ما أوتيت من قوة، ثم أغلقت الشيش وهو يقهقه في صخبٍ ويحلف أن يحظى بنظرة أخرى لأن آخر لمحة رآها من هذا الوجه الحلو قد أثارته إثارةً تفوق قدرته على الاحتمال. لكنَّ نفاد صبر الرفاق الذي كظموه إلى الآن كان ينفجر في هذه اللحظات لغطًا مسموعًا، فما لبث أن أعرض عن هذه النيَّة وأخذ مقعده على الحاجز، مكتفيًا بأن يطرق النوافذ الأمامية للعربة ويحاول أن يسترق نظرةً إلى الداخل، أما مستر تاپرتت فبعد

أن اعتلى الدرج وتعلَّق قرب الباب أصدر أوامره للسائق بلهجة ووقفة آمرتين، بينما صعد الباقون إلى الخلف أو أخذوا يركضون جوار العربة قدر طاقتهم، وقد قلَّد بعضهم هيو، محاولين رؤية الوجه الذي أثنى عليه هذا الثناء، وكانت إشارات من هراوة مستر تاپرتت تلفت انتباههم إلى وقاحتهم. هكذا مضوا في رحلتهم سالكين طرقًا دائريةً متعرِّجةً، محافظين على قدرٍ معقولٍ من النظام والصمت، إلَّا حين يتوقَّفون ليلتقطوا أنفاسهم أو ليتشاجروا على أفضل الطرق الموصلة إلى لندن.

في تلك الأثناء كانت (دلّي) -(دلّي) الصغيرة الجميلة الساحرة الآسرة، بشعرها مهوَّشًا وفستانها ممزَّقًا وأهدابها الحالكة مخضلّةً بالدموع وصدرها مثقلًا بالبكاء ووجهها يشحب تارةً من الخوف ويحمرُّ تارةً من الغضب، وكيانها كلُّه أجمل مائة مرة في هذه الهيئة المحتدَّة مما كان عليه من قبل- كانت تحاول عبثًا أن تعزِّي (إمّا هاردال) وتسلِّيها السلوى التي كانت هي شخصيًّا أحوج ما تكون إليها. من المؤكد أن العسكر قادمون، ويجب أن تُنقَذا، وسيكون من المستحيل أن تقتادا عبر شوارع لندن وهما تتحديان تهديدات حراسهما وتصرخان طلبًا للغوث من العابرين. ولو فعلتا ذلك حين تعبر العربة الطرق الأكثر ازدحامًا، فإنها واثقة، واثقة تمامًا، من إطلاق سراحهما. هذا ما قالته (دلّي) المسكينة وما حاولت أن تعتقده، غير أن النتيجة الحتمية لكل تلك المجادلات كانت انفجارها باكية وصراخها وهي مشبّكة يديها في ضراعة، متسائلةً عمَّا سيفعله أهلها وما سيظنونه لدى ورشة (المفتاح الذهبي)، ومن سيعزِّيهم في البيت عن غيابها، وأخذت تنتحب نحيبًا مثيرًا للشفقة.

أمّا الآنسة هاردال التي كانت في العادة أهدأ شعورًا من (دلّي)، بحيث

لا تظهر مشاعرها على السطح بهذه السهولة، فكانت قلقةً إلى درجة بشعة، حتى إنها كانت لتوِّها قد أفاقت من إغماءة انتابتها. كانت بالغة الشحوب، ويدها التي أمسكتها (دلّي) باردةً للغاية، لكنها رغم ذلك طلبت من (دلّي) أن تذكر أنه في ظل العناية الإلهية تعتمد الأمور في تطوراتها على حكمتهما، وأنهما إن ظلَّتا هادئتين وهدهدتا يقظة المتوحشين الذين وقعتا في أيديهم، فإنَّ احتمالات نجاحهما في طلب الغوث حين يصل الرَّكب إلى المدينة تزداد كثيرًا، وأنه ما لم يكن المجتمع قد اضطرب تمامًا فلا بُدَّ أن البحث المحموم عنهما قد بدأ على الفور، وأنها بالطبع واثقة أن عمَّها لن يهدأ حتى يعثر عليهما وينقذهما. لكنها ما إن نطقت هذه الكلمات الأخيرة حتى أخرستها فكرة أنه ربما يكون قد وقع في مذبحة عامة للكاثوليك في تلك الليلة، وهو افتراض ليس بالمستحيل ولا بالبالغ الشَّطط بعد ما رأتاه وخاضتاه. وما لبثت أن جلست فاقدةً القدرة على التفكير أو الكلام أو إبداء أمارات الحزن، شاردةً فيما شهدتاه من فظائع وما قد يخبِّئه لهما القدر، جامدة الملامح شاحبةً باردةً كلوح رخامٍ.

أوه! وما أكثر ما فكرت (دلّي) في هذه الرحلة الطويلة في حبيبها القديم (چو)، ذلك المسكين العاشق المهان! وما أكثر ما تذكرت تلك الليلة حين اندفعت بين ذراعيه محتميةً من الرجل نفسه الذي كان يصوِّب الآن نظرته الكريهة إلى حيث تجلس في الظلام، والزجاج يبدي ما في نظرته من إعجاب حيواني شبقٍ! وحين فكرت في چو –وما كان أشجعه من رجلٍ– وفي أنه كان سيركض على ظهر حصانه في جرأة مخترقًا صفوف هؤلاء الأوغاد الآن، أجل كان سيفعلها ولو كان عددهم ضعف ما هو عليه، حين فكرت فيه على هذا النحو شدَّدت قبضتها وضربت الأرض

بقدمها، وما لبث ما شعرت به من فخرٍ للحظة لأنها قد فازت بقلبه أن خبا وهي تنفجر باكيةً، وأخذت تنتحب في مرارة ما بعدها مرارة.

ومع مضيّ الليل وتقدُّمهم في رحلتهم بطرق غير معروفة تمامًا بالنسبة إليهما -إذ إنهما لم تبصرا أيًّا مما اعتادتا أن تلمحاه بلمحة خاطفة أحيانًا- ازدادت مخاوفهما، ولم تكن مخاوف غير مبررة، فلم يكن من العسير أن تجد شابتان جميلتان أسبابًا تبرر أسوأ أنواع القلق بينما تحملهما عصابة من الأوغاد المخاطرين إلى جهة لا تعلمان بها، وبين هؤلاء الأوغاد من يحدق إليهما هكذا. وحين دخلوا لندن أخيرًا عن طريق ضاحية لم تعرفها أيٌّ منهما، كان الليل قد جاوز منتصفه والشوارع مظلمةً فارغة. ولم يكن هذا أسوأ ما في الأمر، فقد توقَّفت العربة في بقعة منعزلة ففتح هيو الباب بغتةً وقفز إلى الداخل جالسًا بينهما.

ذهبت صرخات استغاثتهما أدراج الرياح. أحاط جيد كلًّ منهما بذراعٍ، وأقسم أن يكتم أنفاسهما بالقبلات إن لم تكونا صامتتين كقبرين، قال:

«جئت لأهدِّئكما، وهذه وسيلتي لذلك، لذا لا تهدآ يا آنستيَّ الجميلتين، بل اصخبا، اصخبا! وسيعجبني هذا أكثر!».

كانوا يتقدَّمون بخطًى حثيثة، وحولهم من الرفاق عددٌ أقل مما كان موجودًا في البداية فيما يبدو، رغم أن الظلام كان شديدًا (فقد أطفئت المشاعل) فلم يكن ذلك أكثر من مجرد تخمين. أجفلتا حين همَّ بلمسهما، فانكمشت كلٌّ منهما إلى أبعد ركن من العربة، لكنه رغم انكماش (دلّي) طوَّق خصرها بذراعه وشدَّد إمساكه بها. لم تصرخ ولم تفِه بحرف، فقد كان الخوف والتقزُّز قد جرَّداها من القدرة على ذلك، وإنما أخذت تسحب يده كما لو كانت ستموت وهي تحاول تخليص نفسها، ثم أفلحت في

إبعاده عنها بقوة تعجّبَت كما تعجَّب هو منها، وهي رابضة على الأرض ورأسها مدار بعيدًا ومطأطأ. توقَّفت العربة مجدّدًا.

قال هيو لمن فتح الباب وهو يتناول يد الآنسة هاردال حيث شعر بثقل سقوطها: «ارفع هذه من هنا، لقد أغمي عليها».

زمجر دنس –فقد كان هو ذلك السيد اللطيف: «ذلك أفضل بكثير، إنها هادئة، أحب دائمًا أن يغبن عن الوعي، إلَّا إن كنَّ حنونات جدًّا ورابطات الجأش».

سأله هيو: «أتستطيع أن تأخذها بنفسك؟».

أجاب الشانق: «لا أدري إلى أن أحاول، المفروض أن أستطيع ذلك، فقد حملت كثيرين طيلة عمري. هيَّا إذن! إنها ليست خفيفةً يا أخي، ليست أيٌّ من الفتاتين الحلوتين هنا خفيفة. هيَّا ثانية! الآن أنا متمكِّن من حملها!».

وبعد أن رفع الشابة بين ذراعيه هذه المرة، مضى يترنَّح بحمله. قال هيو وهو يجذب (دلّي) إليه:

«انظري يا عصفورتي الحلوة، تذكَّري ما أخبرتك به، قبلة لكلِّ صرخة. اصرخي إن كنت تحبينني يا عزيزتي، اصرخي مرة يا سيدتي، يا سيدتي الجميلة، مرة واحدة، إن كنت تحبِّينني».

خضعت (دلّي) لأن تُحمَل إلى خارج العربة وهي تدفع وجهه بعيدًا بكلِّ ما أوتيت من قوة وتطأطئ رأسها، وحملت على إثر الآنسة هاردال إلى كوخٍ بائسٍ حيث أجلسها هيو بلطفٍ على الأرض بعد أن احتضنها إلى صدره.

يا لدلّي المسكينة! لتفعل ما يحلو لها، فإنَّ أيًّا ما تفعله لا يزيدها إلا جمالًا وإغراءً لهم. حين أومضت عيناها في غضب وانفرجت شفتاها

اليانعتان قليلًا لتنفثا تسارع أنفاسها، من يقدر على مقاومة ذلك؟! حين بكت وانتحبت كما لو كان قلبها سينفطر وطفقت تندب حظَّها التعس بأجمل صوتٍ طرق مسامع سامعٍ ذات يومٍ، فمن ذا الذي لا يرق قلبه لعصبيَّتها الصغيرة الأخَّاذة التي كانت تظهر بين الفينة والفينة، حتى وسط حزنها المخلص الجاد؟ وحين كانت تنسى نفسها لحظةً -كما هي حالها الآن- فتجثو على ركبتيها إلى جوار صديقتها منحنيةً فوقها ولاصقةً خدَّها بخدِّها ومحيطةً إياها بذراعيها، فأيّ فانٍ ذلك الذي كان يستطيع أن يغضَّ بصره عن صدارها الرّقيق وشعرها المنساب وفستانها المتروك على رسله وكل هذا الاستهتار والغياب التام عن الوعي من قبل هذا الجمال الرقيق المتفتِّح؟! من ذا الذي يمكنه أن ينظر فيرى تربيتاتها السخيَّة وتدليلها لصديقتها ولا يطيب له أن يكون مكان (إمّا هاردال)، أن يكون إمَّا هي وإمَّا (دلّي)، إمَّا من تُعانِق وإمَّا من تُعانَق؟ لا هيو ولا دنس!

قال مستر دنس: «أنا أخبركما بالأمر يا فتاتيَّ الشابَّتين. أنا لستُ مغرمًا بالسيدات كثيرًا عن نفسي، ولست طرفًا فيما نحن فيه من شأن، إلا أن أساعد أصدقائي على الرحب والسعة، لكنني إن رأيت المزيد مما تفعلانه هنا، فسأتحوَّل من عنصرٍ مساعدٍ إلى طرفٍ أساسيٍّ، أقولها لكما بصراحة».

قالت إمّا: «لماذا أحضرتمونا إلى هنا؟ هل سنُقتَل؟».

صاح دنس وهو يجلس على مقعدٍ وينظر إليها بالكثير من الإعجاب: «تُقتَلا؟! لماذا يا عزيزتي؟ من يمكنه أن يقتل كتكوتتين مثلكما؟ إن كنت سألتني الآن ما إذا كنتما قد أحضرتما إلى هنا لتتزوَّجا، فربّما يكون لهذا السؤال معنى».

وهنا تبادل ابتسامةً ذات مغزىً مع هيو الذي رفع عينيه عن دلّي لهذا الغرض. واصل دنس:

«لا لا، لن يكون هناك قتلٌ يا صغيرتيَّ، لا شيء من هذا، بالعكس تمامًا».

قالت إمّا مرتجفةً: «أنت رجلٌ أسنّ من رفيقك يا سيدي، ألا تشفق علينا؟ ألا تعتبر أننا امرأتان؟».

ردَّ دنس: «بالعكس يا عزيزتي، إنه من القسوة ألا أعتبركما امرأتين وأنتما ما أنتما أمام عينيَّ. ها ها! أوه، نعم، إنني آخذ ذلك بعين الاعتبار، كلُّنا يأخذ ذلك بعين الاعتبار يا آنسة».

هزَّ رأسه هازلًا وتبادل ضحكةً أخرى مع هيو، وأخذ يقهقه كثيرًا كما لو كان قد قال شيئًا نبيلًا، بل لقد فكَّر بالفعل أنه يثبت لنفسه حضورًا بارزًا، ثمَّ ما لبث أن قال وهو يرد قبَّعته إلى أعلى ليحكَّ رأسه وينظر في صرامة إلى هيو:

«لن يكون هناك قتلٌ يا عزيزتي، ولا ذرَّة قتلٍ. لكني أخبرك بما يجب يا أخي، جدير بالملاحظة كدليلٍ على ما يتمتَّع به قانوننا من مساواة وكرامة عجيبتين أنه لا يميِّز بين الرجال والنساء. مرات سمعت القاضي يقول لقاطع طريق أو لص منازل كان يربط أعناق السيدات وأعقابهنّ -وأرجو أن تسامحاني على ذكر هذا الأمر يا عزيزتيَّ- ويضعهنَّ في قبوٍ، إنه لم يكن يقيم اعتبارًا لنساء. والآن أقول إنَّ ذلك القاضي لم يكن يعرف عمله يا أخي، وإنني لو كنت أنا قاطع الطريق أو لص المنازل المذكور لأجبته: «عمَّ تتحدَّث سيدي اللورد؟ لقد أقمت اعتبارًا لهؤلاء السيدات كما يقيم لهنَّ القانون اعتبارًا، وماذا كنت تنتظر منّي أكثر من ذلك؟».

ثم أضاف مستر دنس مستغرقًا في التفكير: «وإذا عددت في الجرائد الإناث اللاتي أعدمن في هذه المدينة وحدها في آخر عشر سنوات، فسيدهشك مجموعهنَّ، سيدهشك تمامًا، هنا شيء بالغ المساواة والكرامة، شيء جميل! لكن ليس لدينا ما يضمن بقاءه. الآن وقد بدؤوا ينظرون بعين الاعتبار إلى أولئك البابويين، فلن أدهش إن غيَّروا حتى هذا الشيء ذات يومٍ، لن أدهش وحياة رأسي».

لم يفلح هذا الموضوع في إثارة اهتمام (هيو) بالقدر الذي انتظره صديقه، وربما كان ذلك لأنه ذو طبيعة خاصة مهنية للغاية. غير أنه لم يكن لديه وقتٌ ليتابعه على أي حالٍ، فقد اندفع إلى الداخل مستر تاپرتت عند هذه الأزمة، وبمجرد أن رأته دلّي أطلقت صرخةً فرحةً وألقت بنفسها بين ذراعيه صائحةً:

«لقد عرفت ذلك، كنت واثقةً من ذلك! أبي العزيز بالباب، حمدًا للرب، حمدًا للرب! بوركت يا (سم)! لتباركَّ السماء لأجل هذا!».

ظنَّ سايمن تاپرتت لأول وهلة أنَّ بنت صانع الأقفال لم تعد قادرةً على كتمان مشاعرها المخبوءة تجاهه فكانت قاب قوسين من أن تنفثها في كامل قوَّتها وأن تصرِّح بأنها ستكون ملكه إلى الأبد، فبدا شديد الحمق حين قالت هذه الكلمات، وما زاد من حماقة منظره أنَّ هيو ودنس قد استقبلا هذه الكلمات بضحكة عالية، فما كان من (دلّي) إلَّا أن تراجعت وأخذت تنظر إليه نظرةً جادةً ثابتة.

وبعد صمتٍ بالغ الخرق قال (سم): «آنسة هاردال، أرجو أن تكوني

في أفضل حالٍ تسمح بها الظروف، (دلّي ڤاردن)، عزيزتي، حبيبتي، حلوتي، أرجو أن تكوني في أفضل حالٍ كذلك».

يا لدلّي الصغيرة المسكينة! رأت حقيقة الأمر وأخفت وجهها بيديها، ثم أخذت تنتحب في مرارة بالغة.

قال سايمن واضعًا يده على صدره: «أنت لا ترين فيَّ الآن يا آنسة ڤاردن صبيَّ ورشة ولا عاملًا ولا عبدًا، ولا ضحيةً لسلوك والدك المستبد، وإنما قائدًا لشعبٍ عظيمٍ، ونقيبًا لفرقة نبيلة ما هؤلاء السادة فيها إلا عرفاء ورقباء. لا تنظرين الآن في شخصي إلى إنسانٍ عاديٍّ، وإنما إلى شخصية عامّة، لا مصلح أقفال وإنما مداويًا لجروح بلاده التعيسة. (دلّي ڤاردن) الجميلة، كم اشتقت إلى هذا اللقاء أعوامًا وأعوامًا! كم نويتُ أن أمجِّدك وأجلّك أعوامًا طويلة! وها أنا أحقِّق ما نويته، انظري فيَّ إلى زوجك. أجل يا (دلّي) الجميلة الساحرة الآسرة، سايمن تاپرتت ملكك!».

وأخذ يتقدَّم منها حين فرغ هذه الكلمات. تراجعت (دلّي) حتى لم يبقَ شبرٌ تتراجع إليه، ثم تهاوت على الأرض. أما وقد فكَّر سايمن أن ذلك ربما كان خجل بنات، فقد حاول أن ينهضها، وإذ ذاك شبَّكت (دلّي) يديها في شعره لما استبد بها اليأس وأخذت تصرخ بين دموعها أنه ليس إلَّا حقيرًا صغيرًا فظيعًا، وكان كذلك دائمًا، وطفقت ترجُّه وتجذبه وتضربه حتى لقد أوشك أن يستغيث، وكانت هذه أكثر لحظات أعجب بها فيها هيو.

قال سايمن وهو يسوِّي ريشه المهوَّش: «إنها في حالٍ مهتاجة الليلة، ولا أدري متى تتحسَّن. دعوها تنفرد بنفسها إلى الغد، وسيهدئها هذا قليلًا، احملوها إلى المنزل المجاور».

على الفور أخذها هيو بين ذراعيه، ربما رقَّ قلب مستر تاپرتت لكربها حقًّا، وربما شعر أنه من غير اللائق بدرجة ما أن تظلَّ عروسه المستقبليَّة تصارع في قبضة رجلٍ آخر، فأمره بعد أن أعاد التفكير بأن يتركها، وظلَّ ينظر في كآبة وهي تهرع إلى جوار الآنسة هاردال وتتعلَّق بفستانها مخفيةً وجهها المحتقن في طيَّاته. ثم قال بعد أن استعاد كرامته المبعثرة تمامًا:

«ستبقيان معًا هنا إلى الغد، إلى الغد. هيَّا إلى الخارج!».

صاح هيو: «نعم، هيا إلى الخارج أيها القائد. هاهاها!».

سأله سايمن في صرامة: «ممّ تضحك؟».

ردَّ هيو وهو يضرب بيده كتف الرجل الضئيل: «لا شيء يا قائد، لا شيء» ثم ضحك مجدّدًا لسببٍ مجهولٍ وقد ازدادت قوة ضحكه عشرة أضعاف.

نظر إليه مستر تاپرتت من قمة رأسه إلى أخمص قدمه باحتقارٍ متكبِّرٍ، ولم يزِده هذا إلَّا ضحكًا، ثم التفت إلى السجينتين قائلًا:

«عليكما أن تلاحظا أيتها السيدتان أنَّ هذا المكان مراقبٌ جيدًا من كل الجهات، وأنَّ أقلَّ صخبٍ من المؤكَّد أن تترتَّب عليه عواقب وخيمة. ستسمعان كلاكما المزيد عن نوايانا غدًا، وإلى أن يحدث ذلك لا تظهرنَّ أيٌّ منكما في النافذة ولا تناديا إنسانًا تريانه يمرُّ بها، فإنكما إن فعلتما فسيعرف على الفور أنكما آتيتان من بيتٍ كاثوليكيٍّ، ولن يفلح حينذاك كل ما قد يبذله رجالنا من جهودٍ لإنقاذ حياتيكما».

بعد هذا التحذير الذي كان صادقًا بما يكفي استدار إلى الباب وتبعه هيو ودنس. توقَّفوا لحظةً في أثناء خروجهم لينظروا إليهما متعانقتين، ثم

ما لبثوا أن غادروا الكوخ وأرتجوا الباب معيَّنين عليه وحول المنزل كلِّه حراسةً جيدة.

قال دنس مزمجرًا بينما يبتعدون مترافقين: «رأيي أنهما زوجان من الفتيات الرقيقات، وفتاة مستر غاشفورد لا تقلُّ جمالًا عن الأخرى، أليس كذلك؟».

قال هيو في عجلة: «ششش! لا تذكر أسماءً، فهذه عادة سيئة!».

قال دنس: «لا يطيب لي أن أكون في مكانه إذن –ما دمتَ لا تحبّ ذكر الأسماء– حين يفضي إليها بالأمر. هذا كلُّ ما هنالك. إنها واحدة من الفتيات الحسان المتبخترات ذوات الأعين السوداء، أولئك اللائي لا آمنهنَّ وسكّين على مقربة منهنَّ في مثل هذه الأوقات. لقد رأيت بعضًا من نوعيتهنَّ هذه قبل الآن. أذكر واحدةً أعدمت منذ أعوام كثيرة –وكان هناك رجلٌ في تلك القضية أيضًا– كانت تقول لي بشفة مرتجفة وإن كانت يدها في غاية الثَّبات «دنس، إنني أقترب من نهايتي، لكن لو كان بين أصابعي خنجرٌ وكان هو قريبًا مني لأرديته قتيلًا» آه، هذا ما قالته وما كانت ستفعله».

سأله هيو: «من ذلك الذي كانت ستورديه قتيلًا؟».

أجابه دنس: «كيف لي أن أعرف؟ لم تخبرني بذلك أبدًا».

بدا هيو للحظة كما لو كان سيلقي بالمزيد من الأسئلة بشأن هذه الذكرى غير المتسقة، لكنَّ سايمن تاپرتت الذي كان مستغرقًا بعمقٍ في التأمُّل حوَّل مسار تفكيره إذ قال:

«هيو! حسنًا فعلت اليوم؛ ستكافأ، وكذا أنت يا دنس. أليس ثمّة فتاة يطيب لك أن تذهب بها؟».

رد ذلك السيد وهو يداعب لحيته الشعثاء ذات البوصتين طولًا: «لا لا! لا أحد على وجه الخصوص في ظني».

قال (سم): «حسنًا جدًّا، إذن فسنجد طريقةً أخرى لمكافأتك» ثم استدار إلى هيو مواصلًا: «أمَّا بالنسبة إليك أيُّها الفتى الكبير، فستحظى بـمـگز -تلك التي كنت قد وعدتك بها- خلال ثلاثة أيامٍ. انتبه، إنني أعطيك كلمتي».

شكره هيو بحرارة، وبينما يفعل ذلك عادت إليه نوبة ضحكه عنيفةً جدًّا، حتى لقد اضطرَّ إلى أن يمسك بجنبه بإحدى يديه، ويستند بالأخرى إلى كتف قائده الضئيل الذي لولا دعمه إياه في هذه اللحظات لتدحرج على الأرض ضاحكًا!

* * *

الفصل الستُّون

يمَّم الوجهاء الثلاثة شطر (البوت)، وفي نيَّتهم أن يقضوا الليلة في ذلك الملتقى، وأن ينشدوا الراحة التي كانوا في أمسِّ الحاجة إليها بين جدران وكرهم القديم، فبعد إنجاز ما قصدوا إليه من أذىً ودمار، وبعد كنّ أسيرتيهم في مكانٍ آمنٍ لهذه الليلة، بدؤوا يدركون ما هم فيه من الإنهاك ويشعرون بالآثار المضنية لذلك الجنون الذي أدَّى إلى تلك النتائج المؤسفة.

ورغم الإعياء والتعب اللذين سيطرا على هيو كما سيطرا على رفيقيه وعلى كل من شارك مشاركة إيجابية في أعمال تلك الليلة حقًّا، فإن مرحه الصاخب كان ينفجر مجددًا كلما نظر إلى سايمن تاپرتت، كما كان مرحه هذا يجد متنفَّسًا في قهقهاتٍ عالية تثير استياء (سايمن) وتكفي للفت الأنظار إلى الرفاق وتوريطهم في مناوشاتٍ ليسوا أهلًا للدخول فيها الآن وهم على هذه الحال من الإنهاك. وحتى مستر دنس الذي لم يكن يعبأ إطلاقًا بمسألة الرصانة والمهابة، والذي كان يستحسن جدًّا مزاح صديقه الشاب المتطرِّف، حتى هو تحيَّن الفرصة ليجادله بشأن هذا السلوك غير الحكيم الذي اعتبره نوعًا من الانتحار، يعدل أن يشنق المرء نفسه من دون أن يدينه القانون، وهو الأمر الذي لم يكن يتصوَّر أنَّ هناك ما يفوقه سخفًا ووقاحة.

مضى هيو يتمايل بينهما وهذا التقريع لم يهدِّئ شيئًا من مرحه الصخَّاب، وهو يتأبَّط ذراعًا من كلٍّ منهما، حتى لاح (البوت) في الأفق وأصبحوا على مبعدة مضمارٍ أو اثنين من هذه الحانة المريحة. ومن حسن طالعه آنذاك أنه كان قد أسرف في الزمجرة والصياح حتى لم يعُد في مستطاعه إلَّا أن يصمت. مضوا في طريقهم دون جلبة، وإذا عنصر استطلاعٍ كان قد واصل التسلُّل حول الخنادق طيلة الليل ليحذِّر المتسكِّعين من الإيغال فيما أصبح الآن منطقةً خطرةً، يسترق النظر في حذرٍ من مخبئه، ويهيب بهم أن يتوقّفوا.

قال هيو: «نتوقّف! ولماذا؟».

ردَّ عنصر الاستطلاع قائلًا إنَّ المنزل ممتلئ بالشرطة والجنود، حيث داهموه ظهيرة اليوم. لاذ قاطنوه بالفرار وأُسِر منهم من أسر، لكنه لا يعلم مصير كل فردٍ منهم. وقد منع هو كثرةً من الناس من الاقتراب، ويعتقد الآن أنهم قد مضوا إلى الأسواق وما إليها من أماكن لتمضية الليلة. لقد رأى النيران البعيدة لكنها قد خبت كلُّها الآن. وقد سمع من مرُّوا بالمكان مرة واثنتين يتحدثون هم أيضًا عن النيران، ويستطيع أن يقرر أن الرأي الغالب بينهم ينحو ناحية القلق والخوف. لم يسمع شيئًا عن بارنابي، بل إنه لا يعرف ذلك الاسم، لكن وصل إلى مسامعه أن أحدهم قد أخذ إلى (نيوغات)، غير أنه لا يستطيع أن يجزم ما إذا كان هذا صحيحًا أم غير ذلك.

تشاور الثلاثة فيما بينهم لدى سماعهم ذلك، وتجادلوا في أفضل ما يمكن فعله الآن. اعتبر هيو أنَّه من الممكن أن يكون بارنابي في أيدي العسكر الآن، معتقلًا في هذه اللحظة داخل (البوت)، فمال إلى التسلُّل

خفيةً وإمطار المنزل بوابلٍ من النيران، لكنَّ رفيقيه اللذين اعترضا على مثل تلك التصرفات الهوجاء -إلَّا إن كان ثَمَّ حشدٌ يحمي ظهورهم- دفعوا بأنَّ بارنابي إن أُخِذ أسيرًا حقًّا فمن المؤكَّد أنه قد نُقِل إلى سجن أمنع، فليس واردًا أن يخطر ببال العسكر أن يحتفظوا به طيلة الليل في مكانٍ ضعيفٍ كهذا ومكشوفٍ لأيِّ هجومٍ. انصاع هيو لمنطقهم وإقناعهم ورضي بأن يدور على عقبيه ليذهب إلى (فليت ماركت) وهو المكان الذي كان يبدو أنَّ قلَّة من أشجع رفاقهم أخذوا طريقهم إليه حين وصلتهم الأخبار نفسها.

وإذ شعروا بعودة روحهم المعنوية وتعضيد قوتهم مع ظهور الحاجة إلى الفعل من جديدٍ، فقد هرعوا ناسين تمامًا ما كانوا يرزحون تحت نيره من إنهاكٍ حتى دقائق مضت، وما لبثوا أن وصلوا إلى وجهتهم الجديدة.

كان سوق (فليت) في ذلك العهد صفًّا طويلًا غير منتظمٍ من سقائف وظلل الماشية يحتلُّ منتصف ما يُسمَّى الآن شارع (فارندن)[1]. كانت هذه السقائف مبعثرةً في غير نظامٍ، مكوِّنةً منظرًا بالغ القبح في منتصف الطريق، سادّةً المرور ومزعجةً المارَّة الذين كانوا يجاهدون للمرور بين العربات والسِّلال والقنِّينات والشاحنات والأثقال والمقاعد، متدافعين مع الحمَّالين والباعة المتجوِّلين والسائقين وزحام على كلِّ لونٍ من المشترين والبائعين والنشَّالين والمتسكِّعين والمتبطِّلين. كان الهواء يعبق بنتن أوراق الشجر المتحلِّلة والفاكهة الذابلة وفضلات محالِّ الجزارة وسقط وقمامة من مائة نوعٍ ونوعٍ. في ذلك العهد لم تكن الأماكن التي تقدِّم ما يريح

(١) Farringdon Street

الجمهور لتستغني بحال عن أن تكون مصادر إزعاج للجمهور في الوقت ذاته، ولم يكن (فليت ماركت) استثناءً من هذه القاعدة.

إلى هذا المكان انطلق كثيرٌ من المتمردين، لا الليلة فحسب وإنما لليلتين أو ثلاث قبلها، وربما كان ذلك لأن حظائره وسلاله كانت بديلًا معقولًا للأسرَّة، وربما لأنها كانت توفِّر وسيلةً لعمل حواجز ومتاريس عاجلة إذا ما دعت الحاجة. كنَّا في وضح النهار الآن، غير أنه لمَّا كان الصباح باردًا فقد اجتمع بعضهم حول مدفأة في حانة يحتسون الجعة المنكَّهة بالشِّيح ويدخنون الغليون ويدبِّرون خططًا جديدةً للغد. وإذ كان هيو ورفيقاه معروفين لمعظم هؤلاء الرجال فقد استقبلوا بعلامات الاستحسان وقُدِّموا إلى أشرف المقاعد. أغلق باب الغرفة وأرتج لمنع المتطفِّلين، ثم شرعوا يتبادلون الأخبار.

قال هيو: «سمعت أنَّ العسكر قد استولوا على (البوت)، من يعرف أيَّ شيء عن هذا الأمر؟».

صاح عددٌ منهم بأنهم يعرفون، غير أنه لمَّا كان معظم الرفاق قد انشغلوا بالهجوم على منزل (وارن)، ولمَّا كان كلٌّ من الحاضرين قد خرج في إحدى مهام الليلة، فقد اتضح أنه لا أحد يعرف فوق ما يعرفه هيو نفسه، إذ لم يزِد أحدهم على أن يكون قد تلقَّى تحذيرًا من أحد رفاقه أو من عنصر الاستطلاع، مع كونهم لا يعرفون حدود علمهم بالأمر.

قال هيو وهو ينظر فيمن حوله: «لقد تركنا رجلًا يحرس هناك اليوم، وهو ليس هنا، تعرفون من هو، إنه بارنابي الذي أسقط الجندي في وستمنستر، ألم يره أو يسمع به أيُّكم؟».

هزُّوا رؤوسهم وغمغموا بإجابة نافية بينا ينظر كلٌّ منهم حوله ويهيب بصاحبه، وإذا جلبة في الخارج ورجل سمعوه يقول إنه يريد (هيو) ويجب أن يراه، فصاح هيو فيمن يحرسون الباب:

«إنه ليس إلَّا رجلًا واحدًا، فلتدعوه يدخل».

تمتم الآخرون: «نعم نعم، دعوه يدخل! دعوه يدخل!».

على ذلك رفع رتاج الباب وفتح، وإذا رجل بذراعٍ واحدة مربوط الرأس والوجه بقطعة قماش ملوَّثة بالدم كما لو كان قد ضُرب حتى أوجع، ممزَّق الثياب وفي يده الباقية هراوة غليظة، دخل بين الرفاق مسرعًا وسأل عمَّن يكون (هيو) وهو يلهث.

ردَّ الشخص الذي يسأل عنه: «ها هو أمامك، أنا هيو، ما شأنك بي؟».

قال الرجل: «لديَّ رسالة لك، تعرف رجلًا يُدعى بارنابي؟».

«ماذا عنه؟ أهو من أرسل الرسالة؟».

«أجل، لقد أُخِذ، إنه في إحدى الزنزانات الحصينة في نيوغات. لقد دافع عن نفسه بأقصى ما يستطيع، لكنَّ الكثرة تغلب الشجاعة، هذه رسالته».

سأله هيو معجلًا: «متى رأيته؟».

«في طريقه إلى السجن حيث كان في حراسة مجموعة من العسكر، لقد سلكوا طريقًا جانبيًّا، لا ذلك الذي توقَّعناه. كنت واحدًا من القلائل الذين حاولوا إنقاذه، ولقد ناداني وطلب مني أن أخبر هيو بمكانه. لقد قاتلنا جيدًا لكن هزمنا، انظر هنا!».

وأشار إلى ثيابه ورأسه المضمَّد، وأخذ يقلِّب بصره في الغرفة وهو ما زال يلهث، قبل أن يواجه هيو ثانيةً قائلًا:

«أنا أعرف شكلك، فقد كنتَ في الحشود يومي الجمعة والسبت، وكذا أمس، وإن كنتُ لم أعرف اسمك. أنا أعرف أنك رجلٌ جريء، وكذلك هو. لقد قاتل الليلة كأسدٍ، وإن لم يجد هذا نفعًا. أنا فعلت ما بوسعي، مع الأخذ بعين الاعتبار أني بذراعٍ واحدة».

ثم قلَّب بصره في الغرفة في فضول ثانيةً أو بدا كما لو كان يفعل ذلك، فقد كان وجهه مخبوءًا بالضمادة، ثم واجه هيو ثانيةً في حدَّة وهو يقبض على هراوته كما لو كان يرتقب أن يهاجم، ووقف في وضع الدفاع عن نفسه. غير أنه لو كان قد ساوره قلقٌ حقيقيٌّ بهذا الخصوص فسرعان ما طمأنه سلوك كل الحضور. لم يفكر أحدهم في حامل الأخبار، فقد ضاع شخصه فيما يحمله من أخبار. طفق الرفاق يحلفون الأيمان ويكيلون الوعيد ويصيحون على كلِّ جانبٍ، فصاح البعض إنهم إن احتملوا ذلك في وداعة فيوشك يوم آخر أن يأتي وكلُّهم معتقلٌ، وصاح آخرون إنه كان حريًّا بهم أن ينقذوا السجناء الآخرين، فلو كانوا قد فعلوا لما حلَّ هذا الخطب الأخير، وصاح واحدٌ بصوتٍ جهيرٍ: «من يتبعني إلى نيوغات؟!» فتعالت الصيحات وهرع الحشد صوب الباب.

لكنَّ هيو ودنس وقفا وظهراهما إلى الباب يمنعانهم من الخروج، حتى خفتت الجلبة بما يسمح لصوتيهما أن يسمعا، فأهابا معًا بالحشد قائلين إن الخروج الآن إلى نيوغات في وضح النهار ضربٌ من الجنون،

وإنهم إن تلبَّثوا إلى الليل ودبَّروا خطةً للهجوم فلربما يتمكَّنون من إطلاق كلِّ السجناء لا رفاقهم فحسب، ولربما يحرقون السجن.

صاح هيو: «ليس هذا السجن فحسب، وإنما كلّ سجن في لندن، لن يكون لديهم مكانٌ يضعون فيه سجناءهم، سنضرم فيها النيران ونحرقها كلَّها» ثم واصل الصياح ممسكًا بيد الشانق: «هيَّا! لينضمَّ إلينا كلُّ من كان رجلًا هنا، لنعقد الخناصر على ذلك. بارنابي إلى خارج السجن، ولا سجن يبقى منتصبًا في مكانه! من معنا؟».

كلُّ الحضور، حلفوا يمينًا مغلَّظةً أن يطلقوا أصدقاءهم من نيوغات في الليلة المقبلة، أن يقتحموا الأبواب ويحرقوا السجون، وإلَّا فلتأكلهم النار هم أنفسهم.

* * *

الفصل الحادي والستُّون

هكذا تتراكب الأحداث بعضها فوق بعض في أوقات القلاقل والحيرة، حتى ليجدنَّ المرء من الوقائع المثيرة ما يفوق ملء عمرٍ كاملٍ، وقد انضغطت في مدى أربع وعشرين ساعة. في الليلة نفسها بعد أن أوثق مستر هاردال أسيره بإحكامٍ بمعونة موظف الكنيسة وأجبره على امتطاء حصانه، ذهب به إلى تشغول، معتزمًا أن يجد ما وسيلة مواصلات من هناك إلى لندن، ليحمله معه ليقدِّمه إلى العدالة. كان يعرف أن ما في المدينة من فوضى سيوفِّر سببًا كافيًا لأن يطلب إيداع القاتل السجن قبل انبلاج الصبح، إذ لن يستطيع كائنٌ أيًّا من كان أن يتحمَّل مسؤولية أمان أقسام الشرطة أو المعتقلات الاعتيادية، وسيكون حريًّا بعملية نقل سجين في الشوارع حيث الحشود قد خرجت مجدّدًا أن تعتبر تحدِّيًا لمحاولة أكيدة لتهريب ذلك السجين، فضلًا عن كونها مهمة تنطوي على الكثير من الخطر. أخذ يمشي قريبًا جدًّا من القاتل وهو يوجِّه موظف الكنيسة إلى قيادة الحصان، وهكذا وصلوا إلى القرية في منتصف الليل تقريبًا.

كان الجميع ساهرين، يحذرون أن تحرق عليهم بيوتهم وهم نيام، وأخذوا يحرسون في جماعات ليسلِّي ويطمئن بعضهم بعضًا. وكانت قلَّة من شجعان القلوب قد تسلَّحت وتكتَّلت في المساحات الخضراء.

اتجه مستر هاردال على الفور إلى هؤلاء الذين كانوا يعرفونه جيدًا، وأوجز لهم ما جرى، راجيًا منهم أن يعينوه على نقل المجرم إلى لندن قبل مطلع الفجر. غير أنَّ أحدًا منهم لم يجرؤ على أن يعينه ولو بإشارة إصبع، وذلك أن المتمردين خلال عبورهم القرية هدَّدوا بأقسى ما في جعبتهم من انتقامٍ كلَّ من تسوِّل له نفسه أن يعين على إخماد النيران أو يمدُّ إليه أو إلى أي كاثوليكيٍّ يد العون. وقد امتدت تهديداتهم إلى أنفس الناس وممتلكاتهم. على هذا اجتمع الناس لحماية أنفسهم، ولم يعد في مقدورهم أن يخاطروا بمساعدته بأي قدرٍ. كان هذا ما أخبروه به، يلجمهم التردُّد والأسف بينما يقفون على مبعدة منه في ضوء القمر ويسترقون النظر في خوفٍ إلى الراكب البشع الذي لم يحرِّك ساكنًا ولم يفِه بحرفٍ، بينا رأسه يتدلَّى على صدره وقبَّعته متهدِّلة على جبهته.

وإذ وجد مستر (هاردال) أنه من المستحيل إقناعهم بما يريد، وأنه لا يدري حقًّا أنَّى له أن يقنعهم بعد ما رأوا من هياج الحشود، فما كان منه إلَّا أن رجاهم أن يتركوه على الأقل يتصرَّف لنفسه، وأن يسمحوا له بأخذ العربة الوحيدة والحصانين اللذين يوفرهما المكان. وحتى هذا الطلب لم يقابل بالموافقة إلَّا بصعوبة، لكنَّهم في النهاية قالوا له أن يفعل ما يحلو له، ويغادرهم بحق السماء.

جرَّ هاردال العربة بيديه، تاركًا موظف الكنيسة على السرج، وأوشك أن يشدَّ الحصانين إلى العربة، لولا رقَّ لجدِّيَّته وانفعاله الصادق صبيٌّ بريد القرية –وقد كان هذا نوعًا من الفتيان رقيق القلب متشرِّدًا لا يصلح لشيء– فما لبث ذاك الصبي أن ألقى إلى الأرض مذراةً كان قد سلَّح نفسه بها، وآلى ألَّا يقف متفرِّجًا بينما يهان إلى هذه الدرجة سيدٌ

شريفٌ لم يفعل سوءًا، وقرَّر أن يفعل ما يستطيع لمساعدته ولو قطَّعه المتمردون إربًا إربًا إن شاؤوا. شدَّ مستر هاردال على يديه في حرارة وشكره من قلبه. وفي خمس دقائق كانت العربة جاهزةً، وهذا الوغد الطيب على السرج. وُضِع القاتل بالداخل وأغلق شيش النافذة، وأخذ موظف الكنيسة مقعده على حاجز العربة، بينما امتطى مستر هاردال حصانه وركب قريبًا من بابها، وهكذا انطلقوا في هدأة الليل ميمِّمين شطر لندن يخيِّم عليهم السكون.

كان الذعر بالغًا، حتى إنَّ الخيل التي نجت من النيران في (وارن) لم تستطع أن تجد رفاقًا تلجأ إليهم. مرَّ الركب بهذه الخيل في الطريق ترعى العشب القصير، وأخبرهم السائق بأن الحيوانات المسكينة شردت إلى القرية أولًا، لكنها طردت لئلَّا تجلب على أيٍّ من السكان نقمة الحشود. ولم يكن هذا الشعور قاصرًا على الأماكن القليلة الأهمية حيث الناس هيَّابون جهَّال يفتقرون إلى الحماية. فإنَّ الركب حين شارف لندن قابل في غبش الصبح أكثر من عائلة كاثوليكية مسكينة أرهبتها تهديدات وتحذيرات جيرانها فغادرت المدينة سيرًا على الأقدام، وقال أهل هذه العائلات إنهم لم يكن في مستطاعهم أن يؤجِّروا عربةً ولا حصانًا لينقلوا عليه متاعهم، فاضطروا إلى تركه وراءهم تحت رحمة الحشود. وقرب (مايل إند) مرُّوا بمنزل اكترى سيده الكاثوليكي الرقيق الحال عربةً لنقل أثاثه في منتصف الليل، فاضطرَّ إلى إنزال هذا الأثاث كلِّه إلى الشارع ليرقب وصول العربة ويوفِّر الوقت الذي قد يضيع في حزم الأمتعة. غير أنَّ الرّجل الذي تعاقد معه على ذلك أبى أن يحفظ كلمته حين أقلقه منظر نيران هذه الليلة ومنظر المتمردين وهم يمرُّون ببابه، فجلس السيد المسكين مع زوجه وخادمته

وصغاره يرتعدون وسط أمتعتهم في الشارع المكشوف، يذعرهم اقتراب الصبح ولا يدرون إلى أين يولُّون ولا ماذا عساهم أن يفعلوا.

ولم يكن ثَمَّ اختلافٌ في المواصلات العامة كما سمعوا. فقد كان الهلع عظيمًا لدرجة أن عربات البريد ومركبات الأجرة كانت تخشى أن تنقل أيَّ مسافرٍ يدين بالديانة المؤذية. فسواء كان السائق يعرف الكاثوليكي أو صرَّح هذا الأخير بملَّته، فإن النتيجة أنَّ العربة لن تأخذه، لا، ولو عرض مقابلًا كبيرًا من المال، وبالأمس كان الناس يخشون أن يظهروا معرفتهم بالكاثوليك في الطرقات لئلَّا يلاحظهم الجواسيس ويُحرَقوا بالتبعية، هذا ما كان يقال. وقد حدث أنَّ عجوزًا وادعًا، كاهنًا دمر معبده، وقد كان مخلوقًا بالغ الوهن عليلًا مسالمًا، كان يمشي متثاقلًا وحده وفي نيَّته أن يبتعد مسافةً عن المدينة ثم يجرِّب حظَّه مع عربات الأجرة، أخبر مستر هاردال بأنه يخشى ألَّا يجد حاكمًا له من الصلابة ما يجعله يأمر بسجن أحد المجرمين إن اشتكى إليه هذا المجرم. لكن الركب واصل طريقه رغم هذه الحكايات غير المشجِّعة، ووصلوا بعد طلوع الشمس بقليلٍ إلى مقرِّ حاكم لندن[1].

ترجَّل مستر هاردال عن حصانه، لكنَّه لم يكن بحاجة إلى طرق الباب، فقد كان مفتوحًا بالفعل، وعلى عتبته عجوزٌ متين البنيان شديد حمرة الوجه، وربَّما جاز أن نقول أرجواني الوجه، كان يجادل شخصًا غير مرئيٍّ أعلى الدرج وعلى سيماه آي القلق، بينما قد خرج البواب ليغلق الباب

(١) Mansion House المقرُّ الرسمي للّورد عمدة لندن، وهو مبنًى مدرج على قوائم آثار إنگلترا التاريخية، وقد أنشئ بين عامي ١٧٣٩ و١٧٥٢، على يد المعماري (چورچ دانس الكبير) على الطراز الـپالادي، نسبةً إلى المعماري الـڤينيسي أندريا پالاديو.

تدريجيًّا ويتخلَّص منه. اندفع مستر هاردال إلى الأمام بنفاد صبرٍ بالغٍ وثورة طبيعيين بالنسبة إلى شخصٍ في ظروفه، وكان على وشك أن يتكلم لولا قاطعه السيد البدين العجوز قائلًا:

«سيدي الطيب، أرجوك دعني أحصل على إجابة، هذه سادس مرة آتي إلى هنا. لقد أتيت إلى هنا خمس مرات أمس، منزلي مهدَّدٌ بالتدمير، سيُحرَق الليلة، وقد كانوا سيحرقونه البارحة، لولا شغلهم عنه شاغلٌ آخر، أرجوك دعني أحصل على إجابة».

ردَّ مستر هاردال هازًّا رأسه: «سيدي الطيب، لقد أُحرِق منزلي حتى سُوِّي بالأرض، لكن لتحل السماء من دون أن يلقى منزلك المصير ذاته، احصل على ما تنتظره من إجابة، لكن أوجز رحمةً بي».

قال السيد العجوز مناديًا من بأعلى الدرج حيث كانت تخشخش تنُّورة فستان على البسطة: «والآن أتسمع هذا سيدي اللورد؟ هنا سيد أُحرِق منزله البارحة بالفعل».

ردَّ صوتٌ نزقٌ: «يا ويلي، يا ويلي، أنا جدٌّ آسف لذلك، لكن ماذا عساي أصنع؟ لا أستطيع أن أبنيه مجدّدًا. لا يستطيع الحاكم الأعلى للمدينة أن يمضي ليعيد بناء منازل الناس يا سيدي الطيب، ما أسخف هذا!».

صاح السيد العجوز بأسلوبٍ غاضبٍ: «لكن الحاكم الأعلى للمدينة يملك أن يجنِّب منازل الناس الحاجة إلى إعادة بنائها، إن كان هذا الحاكم رجلًا لا دميةً، ألا يمكنه ذلك سيدي اللورد؟».

قال اللورد حاكم المدينة: «أنت غير محترمٍ أيها السيد، أعني أنك على الأقل غير محترم».

ردَّ السيد العجوز: «غير محترم سيدي اللورد؟! لقد كنت محترمًا خمس مرات أمس، لا يمكنني أن أظلَّ محترمًا إلى الأبد. لا يستطيع الناس أن يظلُّوا محترمين وبيوتهم توشك أن تُحرَق على رؤوسهم وهم فيها، ماذا عساي أفعل سيدي اللورد؟ هل سأحظى بأي حماية؟!».

قال اللورد الحاكم: «لقد أخبرتك أمس يا سيدي، أن بإمكانك أن تحظى بعضو مجلس بلدي في منزلك إن استطعت إقناع أحدهم بالذهاب معك».

ردَّ السيد العجوز الغاضب: «وما يجديني عضو المجلس البلدي نفعًا بحق الشيطان؟».

قال اللورد الحاكم: «يخيف الحشود يا سيدي».

أخذ السيد العجوز يئنُّ وهو يمسح جبهته في كربٍ مضحكٍ: «أوه، ارحمنا يا سيدي اللورد! أن تفكر في إرسال عضو مجلس بلدي ليخيف الحشود! لماذا سيدي اللورد؟ إنهم حتى لو كانوا كثرةً من الرضَّع يقتاتون على لبن أمهاتهم، هل تظنُّهم سيبالون بعضو مجلس بلديٍّ؟! هل ستأتي؟!».

قال اللورد الحاكم في توكيدٍ بالغٍ: «أنا؟ لا بالطبع».

ردَّ السيد العجوز: «إذن، ماذا عساي أفعل؟ هل أنا مواطن إنـكـليزي؟ هل سأنتفع بالقانون؟ هل سأحظى بفائدة ما أدفع من ضرائب الملك؟».

قال اللورد الحاكم: «أنا متأكد أنني لا أدري! إنه لأمر مثير للشفقة أنك كاثوليكي! لماذا لم تكن بروتستانتيًّا فتجنِّب نفسك هذه المتاعب؟ أنا واثق أني لا أدري ما يمكن أن يفعل. إنَّ خلف أحداث الشغب هذه

ناسًا كبارًا. أوه، يا ويلي، ما أفدح أن يكون المرء شخصيّةً عامة! عليك أن تزورنا ثانيةً خلال اليوم. أيكفيك حارس؟ أو، لدينا الشرطي (فلـپس)، وهو خارج الخدمة. إنه ليس عجوزًا جدًّا بالنسبة إلى رجلٍ في سنِّه، إلَّا فيما يتعلَّق بساقيه، وإن وضعته لدى النافذة فسيبدو شابًّا تمامًا في ضوء الشموع، وربما يخيفهم! أوه يا ويلي! حسنًا! سننظر في الأمر!».

صاح مستر هاردال وهو يدفع الباب ليفتحه بينما يجاهد البواب لإغلاقه: «توقف!» ثم أخذ يتكلم بسرعة:

«سيدي اللورد حاكم لندن، أتوسَّل إليك ألَّا تتركنا، لديَّ رجلٌ هنا ارتكب جريمة قتل منذ ثمانية وعشرين عامًا. وستكفي ستُّ كلمات أقولها بعد أن أقسم لتأمر به إلى السجن ليحاكم، والآن لا أريد إلَّا أن يودع مكانًا آمنًا، وإنَّ أقل تأخير ربما يمكِّن المتمرّدين من إنقاذه».

صاح اللورد الحاكم: «أوه يا ويلي! فليبارك الرب روحي وجسدي، أوه لور..!حسنًا، أنا.. تعرف أنَّ أناسًا مهمِّين خلف أحداث الشغب هذه، عليك ألَّا تفعل ذلك».

قال مستر هاردال: «سيدي اللورد، إنَّ المقتول أخي، وقد ورثته أنا، ولم تكن تنقصنا الألسنة الناطقة بالافتراءات في ذلك الوقت، وقد طفقت تلك الألسنة تتهامس بأنَّ إثم هذه الفعلة الشائنة القاسية يقع عليَّ، عليَّ أنا الذي أحببته من كل قلبي، كما يعرف وهو في الجنَّة. وقد حان الوقت بعد كلِّ هذه السنين الكئيبة البائسة للانتقام له، ولإلقاء الضوء على جريمة ارتكبت بحذقٍ شيطانيٍّ حتى إنها لتعدم النظير. كلُّ ثانية تأخير تتسبَّب فيها تحرِّر يدي هذا الرجل الملطَّختين بالدماء مجدّدًا، وتؤدِّي إلى نجاحه في

الهرب. سيدي اللورد، إني أطلب منك أن تسمعني وتنفذ هذا الأمر في التوِّ».

صاح الحاكم الأعلى: «أوه يا ويلي! إننا لسنا في ساعات العمل كما تعرف. إنك لتدهشني! ما أبعد ما تفعله من أخلاق السادة المهذبين! يجب ألَّا تفعل ذلك، يجب حقًّا ألَّا تفعله، وهل أنت أيضًا كاثوليكي؟».

قال مستر هاردال: «أجل».

صاح اللورد الحاكم: «فليبارك الربّ روحي. أعتقد أنَّ الناس يتحوَّلون إلى الكاثوليكية عامدين ليغيظوني ويقلقوني! أرجو ألَّا تعاود المجيء إلى هنا، فسيحرقون مقرَّ الحاكم الأعلى في مهمتهم القادمة، وستكون أنت من نشكره على ذلك! عليك أن تحبس أسيرك يا سيدي، عيِّن عليه حارسًا، وتعال إلى هنا ثانيةً في وقتٍ مناسبٍ، وساعتها سننظر في الأمر».

وقبل أن يتمكَّن مستر هاردال من الرد نبَّهه الصوت الحاد لإغلاق الباب وسحب أرتجته إلى أنَّ اللورد الحاكم قد تراجع إلى غرفة نومه، وألَّا نفع يُرجى من وراء المزيد من الجدال. تراجع طالبا الحاجات كذلك إلى الشارع، وأغلق البواب الباب خلفهما.

قال السيد العجوز: «هكذا يؤجِّلني، لا سبيل لي إلى الخلاص ولا العون، ماذا ستفعل يا سيدي؟».

أجابه مستر هاردال الذي كان قد امتطى صهوة جواده الآن: «سأحاول في مكان آخر».

قال السيد العجوز: «إنني أشعر بك، أؤكد لك. ولأننا في مركبٍ واحدة، وربما لا يمسي لديَّ بيتٌ أعرض عليك المبيت فيه الليلة، فدعني

أعرضه عليك طالما استطعت ذلك» ثم أضاف وهو يضع في جيبه كتيبًا كان قد أخرجه في أثناء كلامه: «غير أني حين أعيد التفكير فإنني أقرر ألَّا أعطيك بطاقتي، فإنها إن وجدت معك، ربما أوردتك المتاعب. اسمي (لانغدال)، خمَّار وصاحب حانة في (هولبورن هل)، سيكون مرحَّبًا بك إن أتيت».

انحنى له مستر هاردال وركب مبتعدًا، على مقربة من باب العربة كما كان آنفًا، وهو مصمِّم على الذهاب إلى منزل سير (چون فيلدنغ) المشهور بكونه قاضيًا جريئًا نشيطًا، ومصمِّم كذلك أقصى ما يكون التصميم على أن يعدم القاتل بيديه إن أحاط بهم المتمردون، فذلك خير من أن يتركه يطلق سراحه.

غير أنهم قد وصلوا إلى مسكن القاضي من دون مضايقة -فقد كانت الحشود كما رأينا تعتزم تنفيذ خطط أعمق- وطرقوا الباب. وحيث كانت الشائعة قد انتشرت بأنَّ المتمردين اعتبروا سير چون شخصًا محظورًا، فقد كان ثَمَّ فرقة من مكافحي اللصوص تحرس البيت طيلة الليل. صرَّح مستر هاردال لواحدٍ من هذه الفرقة بشأنه، فما لبث هذا أن استصدر له إذنًا فوريًّا بالدخول حين بدا له أن ذلك الشأن على قدر من الأهمية يبرِّر إيقاظ القاضي.

لم يُضَع وقتٌ، وإنما أُمِر بالقاتل على الفور إلى (نيوغات) الذي كان إذ ذاك مبنىً جديدًا فُرِغ من إنشائه حديثًا بتكلفة كبيرة واعتبر مكانًا بالغ الحصانة والمنعة. وما إن صدر الأمر حتى أوثقه ثلاثة من مكافحي اللصوص ثانيةً -فيبدو أنه كان يجاهد في العربة لفك وثاقه ونجح في

خلخلة القيود بالفعل- وكمَّموا فاه خشية أن يقابلوا أحدًا من الحشود فيصيح طالبًا الغوث، وجلسوا وأجلسوه معهم في العربة. ولمَّا كان كلُّ هؤلاء الرجال مسلَّحًا تسليحًا جيدًا، فقد كانوا حرسًا منيعًا، لكنهم أغلقوا الشيش مجددًا كما لو كانت العربة فارغةً، ووجهوا مستر هاردال إلى أن يركب أمامهم حتى لا يلفت الانتباه إن بدا أنه ينتمي إلى ركبهم.

وقد ظهرت حكمة هذا التصرُّف جليةً بما فيه الكفاية، فإنهم وهم يهرعون عبر طرقات المدينة مرُّوا بين مجموعات عدة من الرجال، ولو لم يظن هؤلاء أنَّ العربة فارغة تمامًا لكانوا قد أوقفوها بلا شكٍّ. لكن لمَّا كان من بداخلها محافظين على تلاصقهم، ولمَّا كان السائق مسرعًا بما لا يسمح بأن تُوجَّه إليه أي أسئلة، فقد وصلوا إلى السجن من دون مقاطعة، وبمجرد وصولهم أخرجوا القاتل، ووضعوه بأمان بين جدران السجن الكئيبة في لمح البصر.

رآه مستر هاردال موثقًا محبوسًا في زنزانته بعينين مشتاقتين إلى هذا المشهد وانتباه مشحوذ. بل إنه حين ترك السجن ووقف في الشارع خارجه أخذ يتحسَّس بيديه صفائح الحديد على أبواب السجن ويسحبها على الجدران الحجرية ليستوثق من أنَّ ما يحسُّه حقيقة وليسعد بمنعة السجن وخشونته وبرودته. ولم يتسلَّل إليه الشعور بثقلٍ يجثم على قلبه إلَّا حين أدار ظهره للسجن ونظر إلى الشوارع الهادئة الخالية من الحياة في الصباح الساطع، وذلك أنه عرف كم يعذبه القلق لأجل من تركهم في البيت، ولم يكن هذا البيت نفسه إلَّا حبَّةً في مسبحة أحزانه الطويلة.

الفصل الثاني والستُّون

لمَّا تُرِك السجين بمفرده جلس على فراشه وأراح مرفقيه على ركبتيه وذقنه على يديه، وظل ساعات على هذا الوضع. ومن العسير أن نقول على أي شكلٍ كانت أفكاره في هذا الوقت، فقد كانت تفتقر إلى الوضوح، وباستثناء بعض الومضات بين الفينة والفينة فإنها لم تكن تمتُّ بصلة إلى حاله الآنيَّة ولا إلى سلسلة الظروف التي أدت إلى هذه الحال. شقوق رصيف زنزانته، وفرج جدرها حيث الحجر مضموم إلى الحجر، وقضبان نافذتها، والحلقة الحديدية على الأرض، مثل هذه الأشياء كان يذوب أحدها في الآخر بغرابة أمام ناظريه ويوقظ نوعًا لا يوصف من الاهتمام والتسلِّي، فكانت في جملتها تستحوذ على ذهنه بكامله، ورغم أنَّ شعورًا مربكًا بالإثم كان يقبع في قاع كل فكرة من أفكاره، مع خشية الموت، فإنه لم يكن يشعر بشيء أكثر من محض الوعي الغامض بهذه المشاعر، تمامًا كشعور النائم بالألم. يظل الألم يطارد النائم في أحلامه، وينهش قلب كل ملذَّاته المتخيَّلة، ويسلب الوليمة مذاقها والموسيقى حلاوتها ويجعل السعادة نفسها تعيسةً، لكنه يظل بعيدًا عن أن يكون إحساسًا جسديًّا، وإنما

هو شبحٌ بلا شكلٍ ولا هيئة ولا وجود مرئيٍّ، يتخلَّل كلَّ شيء وإن كان لا وجود له في نفسه، يعرفه أينما يمَّم وإن كان لا يراه في جهة ولا يلمسه ولا يقابله وجهًا لوجه، وهكذا إلى أن ينقضي النوم فيعود الألم الممضّ إلى اليقظة.

بعد وقتٍ طويلٍ انفتح باب زنزانته. نظر فرأى المكفوف يدخل، فارتدَّ إلى وضعه الذي كان عليه. تقدَّم الزائر إلى حيث كان يجلس، تدلُّه أنفاسه عليه، ثم توقف إلى جواره ومدَّ يده ليستوثق من صحة ما ذهب إليه، وظل صامتًا مدة طيبة ثم قال أخيرًا:

«إنه لأمر سيِّئ يا ردچ، أمرٌ سيّئ».

أخذ السجين يخرفش بقدميه على الأرض وهو يستدير بجسده بعيدًا عنه، لكنه لم يحر جوابًا آخر. سأله المكفوف:

«كيف أخذوك؟ وأين؟ إنك لم تخبرني أبدًا إلَّا بنصف سرِّك. ليس هذا مهمًّا، فأنا أعرفه الآن. كيف كان ذلك وأين؟ هاه؟» سأله مجدّدًا وهو يقترب منه.

قال الآخر: «في تشغول».

«في تشغول! كيف ذهبت إلى هناك؟».

أجاب: «لأني ذهبت إلى هناك لأتجنَّب الرجل الذي عثرت به. لأنه هو والقدر طارداني وساقاني إلى هناك. لأنَّ شيئًا أقوى من إرادتي حثَّني على الذهاب إلى هناك. حين وجدته يراقب في المنزل الذي اعتادت أن تعيش فيه ليلةً بعد ليلة عرفت ألَّا مهرب لي منه، أبدًا! وحين سمعت الجرس.».

أخذ يرتجف هنا ويغمغم بأنَّ الجوَّ باردٌ جدًّا، ويذرع الزنزانة الضيقة

ذهابًا وجيئةً بسرعة، ثم جلس ثانيةً وعاد إلى وضعه الأول. قال المكفوف بعد برهة صمتٍ أخرى:

«كنت تقول إنك حين سمعت الجرس.».

ردَّ بصوتٍ معجلٍ: «دع هذا الأمر جانبًا، اتفقنا؟ إنه ما زال معلَّقًا في المكان نفسه».

أدار المكفوف إليه وجهًا حزينًا ملؤه التساؤل، لكنه ظلَّ يتكلم من دون أن يلاحظه:

«ذهبت إلى تشغول باحثًا عن الحشود. لقد كان شبح هذا الرجل يطاردني ويحيط بي لدرجة أني لم أر لي منجىً إلَّا في الانضمام إليهم. كانوا قد سبقوا إلى هناك، وتبعتهم حين توقَّف».

«ما ذاك الذي توقّف؟».

«الجرس. كانوا قد تركوا المكان. كنت أرجو أن يكون بعضهم ما زال يتلكَّأ بين الأطلال، وكنت أبحث عنهم، وإذا بي أسمع.» وهنا شهق شهقةً طويلةً ومسح جبهته بكمِّه مواصلًا: «صوته».

«ماذا كان يقول؟».

«لا يهم، لا أدري. كنت إذ ذاك عند سفح البرج حيث..».

قال المكفوف وهو يومئ برأسه في رباطة جأش تامة: «نعم، أفهم».

«تسلَّقت الدرج، أو ما تبقَّى منه، قاصدًا أن أختبئ إلى أن يذهب، لكنه سمعني وتبعني بمجرد أن وضعت قدمي على الرماد».

قال المكفوف: «كان لك أن تختبئ في الحائط وتلقيه من حالق أو تطعنه».

«أكنت أستطيع؟ بيني وبينه كان ثَمَّ واحد يقوده -أنا رأيت ذلك، أما هو فلم يره- ويرفع يدًا ملطَّخةً بالدم فوق رأسه. كان ذلك في الغرفة العلوية حين وقفت أنا وهو، يحدِّق كلٌّ منَّا إلى صاحبه في ليلة القتل، وقبل أن يسقط رفع يده هكذا وثبَّت ناظريه عليَّ. كنت أعرف أن ملاحقته إياي ستنتهي هناك».

قال المكفوف بابتسامة: «خيالك قوي».

«قوِّ خيالك بالدم، وانظر إلام سيقودك هذا».

ثم أخذ يتأوَّه ويهزُّ نفسه وقال بصوتٍ خافتٍ أجوف وهو ينظر إلى صاحبه للمرة الأولى:

«ثمانية وعشرون عامًا! ثمانية وعشرون عامًا! لم يتغيَّر أبدًا طيلة هذه المدة، لم يسنّ ولم يعرض له أقل تغيُّر في هيئته. كان أمامي في حلكة الليل وفي وضح النهار، في الغسق وفي ضوء القمر وضوء الشمس وضوء النار والمصباح والشمعة، وفي أعمق ظلمة. كان دائمًا كما هو. وأنا في رفقة، وأنا وحدي، على الأرض، وعلى متن السفينة، كان أحيانًا يتركني وشأني شهورًا، وأحيانًا يلتصق بي كظلّي. رأيته في البحر آتيًا ينزلق في هدأة الليل على انعكاس القمر الساطع على الماء الهادئ، ورأيته في المراسي والأسواق ويداه مرفوعتان، عملاقًا في منتصف زحام صاخب غير منتبه من فيه للكيان الفظيع الواقف بينهم في صمتٍ. خيالي؟! هل أنت حقيقي؟ هل أنا حقيقي؟ هل هذه القيود الحديدية التي ثبَّتتها مطرقة الحدَّاد فيَّ حقيقية أم خيال أستطيع أن أحطمه بضربة؟».

أخذ المكفوف يسمعه في صمتٍ.

«خيالي! هل أتخيَّل أني قتلته؟ هل أتخيَّل أني حين تركت الغرفة التي كان يرقد فيها رأيت وجه رجل يتلصَّص من باب مظلم، أخبرتني هيئته المخيفة بوضوح أنه يرتاب فيما فعلته؟ هل أذكر أني قد تحدثت معه على رسلي وأخذت أقترب منه رويدًا رويدًا والسكِّين المحمى في كمِّي؟ هل أتخيَّل كيف مات؟ ألم أره يترنَّح عائدًا إلى زاوية الجدار التي حاصرته فيها وهو ينزف إلى الداخل واقفًا لا يسقط، جثَّةً أمامي؟ ألم أره للحظة كما أراك الآن منتصبًا على قدميه ولكن ميتًا؟».

عرف المكفوف أنه قد نهض فأشار إليه أن يعود ليجلس ثانيةً على فراشه، لكنه لم يبال بالإشارة.

«كان ذلك هو الوقت الذي فكرت فيه لأول مرة في أن أثبت القتل عليه. إذ ذاك ألبسته ملابسي، وسحبته إلى أسفل على الدرج الخلفي إلى البركة. ألست أذكر أني سمعت الفقاقيع التي تصاعدت حين دحرجته في البركة؟ ألست أذكر أني مسحت الماء من وجهي، ولأن جسده هو الذي نثر الماء عليَّ في نزوله شعرت أنّه لا بُدَّ أن يكون دمًا؟ هل عدت إلى بيتي حين فرغت من ذلك؟ أوه، يا إلهي! كم استغرق ذلك؟ هل وقفت أمام امرأتي وأخبرتها؟ هل رأيتها تتهاوى إلى الأرض؟ وحين انحنيت لأنهضها، هل دفعتني بقوة ألقتني أرضًا كما لو كنت طفلًا، ملطَّخًا بالدم يدها التي أمسكت برسغي؟ هل هذا خيال؟ هل جثت على ركبتيها ودعت السماء أن تشهد أنها وطفلها الذي في بطنها بريئان مني منذ تلك الساعة؟ وهل نصحتني بكلماتٍ صارمة جدًّا -حتى لقد جمَّدت الدماء في عروقي أنا الذي كنت لتوِّي قد اقترفت بيديَّ هاتين أفظع الفظائع- بأن أهرب ما كان الوقت يسمح بذلك، لأنّها رغم كونها ستظلُّ صامتةً حيال جريمتي

لكونها امرأتي التعيسة فإنها لن تؤويني؟ هل مضيت إلى سبيلي تلك الليلة يلعنني الرب والعبد ومكاني في أعماق الجحيم، لأجول في الأرض هائمًا على وجهي مدَّ وثاقي إلى جهنم، ثم لأسقط فيها في النهاية؟».

قال المكفوف: «لم عدت؟».

«لِمَ الدم أحمر؟ لم أكن لأقاوم ذلك بأكثر مما أستطيع أن أعيش من دون أن أتنفَّس. قاومت هذا الدافع لكنني جُذِبت رغم أنفي إلى العودة، عبر كل الظروف الصعبة غير المواتية، كمن تجذبه آلة جبَّارة؛ لم يكن شيء ليوقفني. لم أختر اليوم ولا الساعة، ظللتُ محاطًا بأشباح الماضي أعوامًا وأعوامًا، في منامي ويقظتي، حتى لقد زرت قبري! لِمَ عدت؟ لأن هذا السجن كان فاغرًا فاه في انتظاري، وكان هو واقفًا يشير إليَّ على بابه».

قال المكفوف: «لم يعرفوك؟».

«كنت رجلًا مات منذ ثمانية وعشرين عامًا، لا، لم يعرفوني».

«كان عليك أن تحفظ سرَّك أفضل مما فعلت».

«سري؟ سري أنا؟ لقد كان سرًّا تستطيع أيُّ نسمة هواء أن تبوح به إن أرادت. كان في تلألؤ النجوم وانسياب الماء وحفيف أوراق الشجر وعود الفصول، كان يجوس في وجوه الغرباء وأصواتهم، كان لكل شيء شفتان يرتجف عليهما هذا السرُّ دائمًا، وتقول سرِّي؟!».

قال المكفوف: «في النهاية لم يكشفه إلَّاك».

«ليس الفعل فعلي، أنا من أقدمت عليه، لكنَّه ليس فعلي. أحيانًا كنت أشعر أني مجبرٌ على أن أدور وأدور وأدور حول تلك البقعة. إن كنت قد قيَّدتني بالسلاسل وأنا في تلك النوبة لوجدتني أكسر قيودي وأمضي إلى

هناك. كما يجذِب المغنطيس الحديد كان بإمكانه هو وهو في قعر قبره أن يجذبني إليه متى شاء. أكان هذا خيالًا؟ هل كنتُ أحبُّ أن أذهب إلى هناك أم أنني جاهدت وصارعت تلك القوة التي أجبرتني على ذلك؟».

هزَّ المكفوف كتفيه وابتسم غير مصدِّق بينما عاد السجين إلى وضعه الأول، وخيَّم الصمت عليهما مدة طويلة قبل أن يقطع الزائر الصمت أخيرًا:

«أظنُّك إذن تائبًا مستسلمًا، وأنك تودُّ لو تصالح الجميع وبالأخصِّ امرأتك التي أدَّت بك إلى ما أنت فيه، وألَّا شيء ترجوه الآن أكثر من أن تُحمَل على وجه السرعة إلى تايبرن؟ إن كان الأمر كذلك، فالأفضل أن أستأذنك مغادرًا، فأنا لست صالحًا بما يكفي لأن أكون رفيقًا لك».

قال الآخر في شراسة: «ألم أخبرك أنني جاهدت وصارعت القوة التي أحضرتني إلى هنا؟ هل تتصوَّر أن تكون حياتي كلها لثمانية وعشرين عامًا صراعًا ومقاومةً أبديَّين، ثم ينتهي بي الأمر هنا وأنا أريد أن أستسلم للموت؟ لو كان الجميع يهابون الموت، فأنا أشدهم مهابةً له!».

ردَّ المكفوف في لهجة آلف لمحدِّثه، واضعًا يديه على ذراعه: «أحسنتَ القول. الآن يا (ردچ) تقول كلامًا -لكنِّي لن أناديك بهذا الاسم ثانيةً- أفضل من كلِّ ما قلته إلى الآن. انظر، أنا لم أقتل أبدًا إنسانًا، لأني لم أقف أبدًا موقفًا يضطرني إلى ذلك، أضف إلى ذلك أنني لا أحبِّذ قتل الناس، ولا أظنني أنصح بالقتل أو أحبُّه، إذ إنه شيء بالغ الخطورة تحت كل الظروف. لكن حيث شاء سوء حظِّك أن تتورَّط في هذا الأمر قبل أن أعرفك، وحيث إنك كنت رفيقًا لي وطالما أفدتني كثيرًا إلى الآن،

فإنني أتغاضى عن هذا الجزء من الأمر، ولا يقلقني الآن إلَّا أن تموت لغير ضرورة تدعو إلى ذلك، والآن فأنا لا أعتبر أنَّ هناك أي ضرورة تدعو حاليًّا إلى موتك».

ردَّ السجين: «هل بقي لي من شيء غير الموت؟ هل أحفر لنفسي طريقَ هربٍ في هذه الجدران بأسناني؟».

ردَّ صديقه: «شيء أيسر من ذلك، عدني ألَّا تتكلم ثانية عن خيالاتك تلك الحمقاء التافهة التي لا تليق برجلٍ، وسأخبرك بما أعنيه».

قال الآخر: «أخبرني».

«امرأتك الغالية ذات الضمير الحسَّاس، زوجك الورعة الفاضلة المدقِّقة، وإن لم يكن الحب يعميها.».

«ماذا عنها؟».

«في لندن الآن».

«اللعنة عليها أيًّا كانت!».

«هذا طبيعيٌّ جدًّا. لو كانت قد أخذت معاشها السنوي كما اعتادت لما كنت أنت الآن هنا، ولكانت حالنا أفضل مما هي عليه، لكن ما علينا من هذا الآن، هي الآن في لندن. لأنها خائفة ولا تشكُّ في كونك قريبًا منها -فهذا ما صوَّرته لها حين زرتها، ولم أفعل ذلك بالطبع إلَّا لأحثَّها على الانصياع لِمَا طلبته، فأنا أعرف أنها لا تشتاق لرؤيتك- تركت ذلك المكان وسافرت إلى لندن».

«كيف عرفت ذلك؟».

«من صديقي القائد النبيل، الجنرال المغوار، النفَّاخة مستر تاپرتت.

عرفت منه آخر مرة رأيته فيها –وقد كان ذلك أمس– أنَّ ابنك المدعوّ بارنابي –لا أظنُّه قد سُمِّي كذلك تيمُّنًا باسم أبيه– ..».

«الويل! هل يصنع هذا أيَّ فارق الآن؟!».

قال المكفوف بهدوءٍ: «إنك نافد الصبر، هذه علامة طيبة على الحياة. عرفت أن أحد رفاق ابنك بارنابي الذين كانوا يعرفونه من قديمٍ في تشغول قد أغراه بالابتعاد عن أمِّه، وأنَّه الآن بين المتمردين».

«وما يعني هذا لي؟ إن شنق الأب والابن معًا، فأي سلوى أجدها في ذلك؟».

ردَّ المكفوف بنظرة ماكرة: «اصبر، اصبر يا صديقي؛ إنك تسبق الأحداث إلى نهاياتها! افترض أنني ذهبت في إثر سيدتي تلك وقلت لها «تريدين ابنك يا سيدتي؟ حسنًا، أنا أعرف أولئك الذين أغروه بالبقاء بينهم، وأستطيع أن أعيده إليك يا سيدتي. حسنًا. عليك أن تدفعي ثمنًا لعودته تلك يا سيدتي. حسنًا مرة أخرى، إنه ثمن ضئيل يسير يا سيدتي العزيزة. هذا أفضل ما يمكن».

«أي استخفاف هذا؟».

«غالبًا سترُدُّ بتلك الكلمات بالضبط. فأجيبها أنا: «لا استخفاف على الإطلاق يا سيدتي، إنَّ شخصًا يقال إنه زوجك –ومن الصعب إثبات الهوية بعد انقضاء كلِّ هذه السنين– في السجن الآن، وحياته في خطرٍ إذ إنَّ التهمة الموجَّهة إليه هي القتل. والآن سيدتي، فإن زوجك ميتٌ منذ أمدٍ بعيدٍ. لن يخطئ فيه السيد أبدًا إن تكرَّمت وقلت بضع كلمات بعد أن تقسمي بخصوص الوقت الذي مات فيه وكيف مات، وإنَّ ذلك

الشخص الذي قيل لي إنه يشبهه بدرجة ما ليس زوجك. شهادة كهذه ستحسم المسألة تمامًا. احلفي لي أنَّك ستدلين بهذه الشهادة يا سيدتي، وسآخذ على عاتقي أن أحفظ ابنك –ذلك الصبي الجيد– بعيدًا عن الخطر إلى أن تقومي بهذه الخدمة البسيطة، وحينذاك سيُسلَّم إليك ابنك سليمًا معافى. أمَّا إن رفضت، فأخشى أن يغدر به ويسلَّم إلى العدالة التي ستحكم عليه بالموت لا محالة. والحقيقة أنَّ في هذا اختيارًا بين حياته وموته. إن رفضت، سيتدلَّى من حبل المشنقة. أمَّا إن قبلت، فثقي أنَّ خشبة المشنقة التي يمكن أن تصيبه بأدنى أذىً لم ينم شجرها بعد، ولم يبذر بعد القنّب الذي صنع منه حبلها![1]».

صاح السجين: «هناك بصيص أملٍ فيما تقول!».

ردَّ صديقه: «بصيص؟! إنه وهج الظهيرة، إنه نور النهار الساطع المجيد. ششش! أسمع وقع أقدام بعيدة، ثق بي».

«متى سأسمع المزيد؟».

«بمجرَّد أن أسمع أنا، أتعشَّم أن يكون هذا غدًا . إنهم قادمون ليخبرونا بأنَّ وقتنا معًا انتهى. أسمع رنين المفاتيح. ولا كلمةً أخرى بهذا الخصوص الآن، وإلَّا فربما يسمعوننا».

---

(١) If you comply, the timber is not grown, nor the hemp sown, that shall do him any harm آثرت ألّا أميل إلى استخدام معادل عربيّ شائع لهذه المقولة، على غرار «ما عاش ولا كان من يصيبه بأذى» أو «لم يولد بعد من يمكن أن يؤذيه»، وأن أتتبَّع معانيها الخاصة لِمَا فيها من ارتباطٍ طريفٍ بعالم (تايبرن)، إذ كما قال لورد بايرون في مقال له اسمه Tyburn إنه بخلاف الشائع عن حبل المشنقة الذي كان يُصنَع في العادة من الفراء أو الصوف ليكون ليّنًا دافئًا حول العنق، كان حبل المشنقة في تايبرن يصنع من ألياف القنّب.

فلما فرغ من هذه الكلمات أدير القفل وظهر على الباب أحد حراس السجن معلنًا أنَّ الوقت قد حان لمغادرة الزائرين.

قال (ستاگ) في وداعة: «هكذا بسرعة؟! على كلٍّ لا حيلة لنا في ذلك، طب نفسًا يا صديقي. سرعان ما سيحلُّ هذا الخطأ. وحينذاك تعود رجلًا حرًّا. إذا تكرَّم هذا السيد الخيِّر بأن يقود رجلًا ضريرًا – لا يملك في المقابل إلَّا أن يصلي لأجله– إلى رواق السجن ويوجِّهه ناحية الغرب، فما أجلّ صنيعه آنذاك. شكرًا أيها السيد الطيب، أشكرك شكرًا جمًّا».

وبعد أن قال ذلك وتوقَّف برهةً على الباب ليدير وجهه المبتسم إلى صديقه، تركه ومضى. وبعد أن أوصله الحارس إلى الرواق عاد ففتح أقفال الزنزانة وأرتجتها وترك بابها مفتوحًا، وأخبر ساكنها بأنه حرٌّ لمدة ساعة في أن يتجوَّل في الفناء المتاخم للزنزانة إن شاء. ردَّ السجين بإيماءة كئيبة، وما إن تُرِك وحده ثانيةً حتى أخذ يفكر فيما سمعه لتوِّه، ويتأمَّل الآمال التي أيقظها هذا الحوار الأخير، وهو يحملق شاردًا خلال ذلك في الضوء القادم من الخارج وفيما يلقيه كلُّ جدارٍ على الآخر وعلى الأرض المرصوفة بالحجر من ظلال.

كان فناءً كئيبًا مربَّعًا، زادت الجدران العالية برودته وظلمته حتى لقد بدا أنَّ ضوء الشمس نفسه يتجمَّد فيه. كانت الحجارة العارية الخشنة الصلبة تملؤه بأفكارٍ ملؤها الحنين إلى الأرض الخضراء والشجر، وبلواعج الشوق إلى الحرية. وبينا ينظر نهض، وما لبث أن استند إلى قائم الباب، وطفق يحدِّق إلى السماء الزرقاء البرَّاقة التي لم تحرم حتى موطن الجريمة الكئيب هذا من ابتسامها. ولوهلة بدا أنه يتذكر نفسه منذ وقتٍ

بعيدٍ راقدًا على ظهره في مكانٍ عبق ينظر إلى السماء من خلال الأغصان المهتزَّة.

فجأة لفت انتباهه صوتٌ رنَّان، وكان يعرف ما هو، فقد فزع هو نفسه حين اكتشف أنه يثير الجلبة نفسها وهو يمشي إلى باب الزنزانة. وما هي إلَّا لحظة وأنشأ صوت بشري يغني، ورأى ظلَّ إنسان على الرصيف. توقف الصوت، سكت بغتةً، كما لو كان الشخص قد نسي لوهلة أين هو، ثم ما لبث أن تذكر، وهكذا اختفى الظل بالجلبة الرنانة نفسها.

خرج إلى الفناء وأخذ يذرعه جيئةً وذهابًا، مرعدًا الأصداء خلال ذلك برنين قيوده الحاد. كان ثَمَّ بابٌ قريبٌ من بابه، مفتوحٌ عن آخره مثله بالضبط. ولم يكن قد دار ستَّ دورات ذاهبًا آيبًا في الفناء حين وقف ساكنًا ليلاحظ هذا الباب فسمع الصوت الرنَّان مجدّدًا. أطلَّ وجه من النافذة ذات القضبان، كان يراه بالكاد في الظلام، فقد كانت الزنزانة مظلمةً والقضبان ثقيلةً، وبعدها مباشرةً ظهر رجلٌ وتقدَّم نحوه.

ولو كان الأمر يتوقَّف على ما يشعر به من وحدة، لقلنا إنه ربما قضى في السجن عامًا كاملًا. وإذ زاد شغفه لمعرفة ذلك القادم أمله في الرفقة، فقد حثَّ الخطى ليقابله في منتصف الطريق.

وماذا كان هذا؟ إنه ابنه!

وقفا وجهًا لوجه، يحدِّق كلٌّ منهما إلى الآخر. انكمش على نفسه رغم إرادته، وأخذ بارنابي يجاهد مع ذاكرته الناقصة ويعجب أين رأى هذا الوجه من قبل. لم تطل حيرته، فقد وضع يديه عليه بغتةً وصاح محاولًا أن يصرعه:

«آه! أعرفك، أنت السارق!».

لم يقل أبوه شيئًا في البداية، وإنما خفض رأسه وصارعه في صمتٍ، ولمَّا وجد الشاب يفوقه قوة بكثيرٍ، رفع وجهه ونظر في عينيه من قريبٍ، وهو يقول:

«أنا أبوك».

لا يعلم إلَّا الرب أي وقعٍ ساحرٍ كان لهذه الصفة على مسمعيه، لكن على أي حالٍ فإنَّ بارنابي أطلقه من قبضته وتراجع وأخذ ينظر إليه في ذهولٍ. ثم قفز نحوه فجأة وأحاط عنقه بذراعيه واحتضن رأسه ضاغطًا بها خدَّه.

أجل أجل، هو أبوه. إنه واثقٌ بذلك. لكن أين كان مختفيًا كلَّ هذا الوقت، ولماذا ترك أمَّه وحدها، بل ما هو أسوأ من أن تكون وحدها، تركها مع ولدها الأحمق المسكين؟ وهل هي حقًّا سعيدة الآن كما يقولون؟ وأين هي الآن؟ أهي قريبة منهما؟ أهي الآن غير سعيدة وهو أيضًا في السجن؟ آه، لا.

لم يفه الأب بكلمة، لكن (غرپ) أخذ يزعق بصوتٍ جهيرٍ ويتقافز دائرًا حولهما كما لو كان يحيطهما بدائرة سحرية ويستحضر كلَّ قوى الشيطنة.

* * *

الفصل الثالث والستّون

طيلة هذا اليوم كانت كلُّ فرقة عسكرية في العاصمة أو قربها ملتزمةً بمهمة في أحد أجزاء المدينة، وبدأ النظاميُّون وأفراد القوات شبه العسكرية ينصبُّون إلى داخل المدينة من كلِّ الطرق تنفيذًا للأوامر التي أرسلت إلى كلِّ الثّكنات والمواقع التي يمكن أن يوصل إليها خلال أربع وعشرين ساعة. غير أنَّ الفوضى كانت قد بلغت مبلغًا عظيمًا، والمتمردين قد أصابوا من المنعة ما زاد جرأتهم، لدرجة أنَّ منظر هذه القوات العظيمة التي لا تفتؤ تتدعَّم بمن يصلون كلَّ حين أثارهم إلى القيام باعتداءاتٍ أشد من كلِّ ما قاموا به إلى ذلك الحين بدلًا من يوقفهم عند حدِّهم، كما ساعد هذا المنظر على إذكاء نار في لندن لم يُرَ مثلها من قبل، حتى في العهود اللندنية القديمة الحافلة بالثورات.

وطيلة أمس، واليوم كذلك، ظلَّ القائد العام يحاول أن يستثير في القضاة والحكَّام المدنيين شعورًا بالواجب، وبالأخص اللورد الحاكم العام للندن، ذلك الذي كان أجبنهم طرًّا. ولهذا الهدف أرسلت تكتُّلات كبيرة من العسكر عدة مرات إلى مقرِّه ارتقابًا لأوامره، لكن حيث إنه لم يكن ثَمَّ وعيدٌ ولا إقناعٌ قادرًا على جعله يصدر أي أوامر، وحيث ظلَّ الرجال في الشارع المكشوف دون أن يتحقَّق لهم أيُّ هدفٍ إيجابي، بله ألَّا

يتحقَّق غرض بالغ السوء، فإن هذه المحاولات الجديرة بالاحتفاء أضرَّت أكثر مما نفعت. وذلك أنَّ حشود المتمردين إذ عرفت سريعًا مزاج الحاكم العام لم تألُ جهدًا في استغلاله لمصلحتها بأن أخذت تفاخر بأنه حتى السلطات المدنية تقف ضد البابويين، ولم تطاوعها قلوبها على عقاب من كانوا غير مدينين إلَّا بتهمة تخصُّ الاعتداءات على أولئك البابويين. وكان المتمردون حريصين على هذا التبجُّح والتباهي بحيث يصل إلى مسامع العسكر، ولمَّا كان هؤلاء يتجنَّبون بطبيعة الحال الاشتباك مع الشعب فقد تلقَّوا خصومهم على نحو طيب، فكانوا إذا ما سئلوا عمَّا إذا كان في نيَّتهم أن يطلقوا النار على مواطنيهم يجيبون «لا، فلتحلّ علينا اللعنة إن فعلنا»، كما كانوا يظهرون علامات البساطة الصادقة وحسن النيَّة باستمرارٍ. وبناءً على ذلك سرعان ما انتشر الشعور بأنَّ العسكر رجال ضد البابوية، وأنهم يطيب لهم أن يعصوا الأوامر وينضمُّوا إلى الحشود. وأخذت شائعات استياء العسكر من مهمَّتهم وميلهم إلى القضية الشعبية تنتشر من فم إلى فم كالنار في الهشيم، وحيثما وقفت تشكيلاتهم بفتورٍ في الشوارع والميادين لم يكن يتخلَّف عن التجمُّع حولهم حشد يتصايح ويصافحهم ويظهر في معاملتهم المزيد من آي الثقة والمودة.

حينذاك كانت الحشود في كلِّ مكانٍ وقد اطرحت كلَّ تخفٍّ كانت تلجأ إليه، بل إنها تخلَّلت كلَّ ركنٍ في المدينة. ولو احتاج أيٌّ ممن فيها إلى المال لم يكن مضطرًّا إلى أكثر من أن يطرق باب أحد المنازل أو يدخل حانوتًا ويطلب ما يحتاج إليه باسم المتظاهرين، فيلبَّى طلبه على الفور. فإنه لمَّا كان المواطنون المسالمون يخشون أن يمسّوا أيًّا منهم بسوءٍ وهو وحيد منفرد بنفسه، فمن السهل أن نستنتج أنهم متى اجتمعوا معًا في تكتلات

كانوا في منعة تامة ضد أي تدخُّل. كانوا يتجمَّعون في الشوارع ويقطعونها كلما أرادوا ويتفقون على خططهم على الملأ. هجر الناس أعمالهم بنسبة كبيرة، فكان معظم الحوانيت مغلقًا، ورفرفت الرايات الزرقاء على أكثر المنازل معلنةً انتماء أهلها إلى الجانب الأكثر شعبية، بل إنه حتى اليهود في هاوندزدتش ووايتّشابل وتلك النواحي كتبوا على أبوابهم ومصاريع نوافذهم «هذا المنزل پروتستانتي صدقًا» كانت الحشود الآن هي القانون، ولم يتمتَّع القانون أبدًا بمثل ما تمتع به من مهابة في هذه الفترة، ولم يطع أبدًا طاعةً عمياء كما هي حاله فيها.

كانت الساعة قرابة السادسة مساءً حين تدفَّقت حشودٌ هائلة إلى (لنكنز إن فيلدز) عبر كلِّ طريق ممكنة، وانقسمت فرقًا عدة، وكان هذا الانقسام فيما يبدو تبعًا لخطة موضوعة سلفًا. وليحذر القارئ أن يتصوَّر أنَّ هذا الترتيب كان معروفًا للحشد بأجمعه، وإنما كان صنيع قلَّة من القادة الذين ما إن اختلطوا بالرجال وهم يحتشدون في مكان التظاهرات حتى شرعوا يهيبون بهم أن ينحازوا إلى هذه الحركة أو تلك من حركات المتظاهرين، فلم يلبث ذاك الترتيب أن تحقَّق بأيديهم على الأرض كما لو كان قد وُضِع بمحضر الجميع وعرف فيه كلُّ متمردٍ موقعه سلفًا.

وقد شاعت تمامًا في الجموع تلك المعلومة التي مفادها أنَّ أكبر تكتُّل -وهو ذاك الذي استوعب ما يقرب من ثلثي العدد الإجمالي- معدٌّ للهجوم على (نيوغات). وقد ضم هذا التكتُّل كلَّ المتمردين الذين برزوا في أي من مشاركاتهم السابقة، وكل من زكُّوهم باعتبارهم شجعانًا مناسبين لهذه المهمة، وكل من أسر رفاقهم في الأحداث السابقة، فضلًا عن عددٍ كبيرٍ من أقارب وأصدقاء الجناة المسجونين. ولم تقتصر هذه

الفئة الأخيرة على أكثر الأوغاد المنبوذين استماتةً في لندن، وإنما ضمَّت بعض الأبرياء بالمقارنة. كان فيهم أكثر من امرأة متنكِّرة في زيِّ رجلٍ ومصمِّمة على استنقاذ ولدها أو أخيها، وكان فيهم ولدا رجلٍ محكوم عليه بالإعدام مع ثلاثة آخرين بعد غد، وكان ثَمَّ حزبٌ عظيمٌ من الصبية أودع زملاؤهم السجن، وفوق كلِّ هؤلاء كان هناك قرابة عشرين امرأةً تعيسةً نبذهنَّ القريب والبعيد، يرجون أن يطلقن سراح مخلوقات ساقطة لا تقل عنهن تعاسةً، أو ربما يكنَّ -والرب أعلم- قد حرَّكهنَّ تعاطفٌ غير محددٍ مع كل من يعيشون تعساء بلا أملٍ.

سيوف عتيقة ومسدسات من دون بارود أو طلقات ومطارق ثقيلة وسكاكين وفؤوس ومناشير وأسلحة مسلوبة من حوانيت الجزارة، غابة من قضبان الحديد والهراوات الخشبيَّة، وسلالم طويلة لتسلُّق الجدران، محمول كل منها على أكتاف دستة من الرجال، ومشاعل موقدة وحبال ملوَّثة بالقار والقطران والكبريت، وعصيّ منزوعة من أسوارٍ وسياجاتٍ، وصولًا إلى عكاكيز مأخوذة من المتسولين المقعدين في الشوارع، كلُّ هذه كانت تؤلِّف أسلحتهم. وحين كان كلُّ شيء معدًّا، تقدَّمهم هيو ودنس وبينهما سايمن تاپرتت، وفي إثرهم الحشود تزمجر هائجةً كالبحر الغاضب.

وبدلًا من أن يتَّجهوا مباشرةً صوب السجن عبر هولبورن كما توقَّع الجميع، أخذ قادتهم الطريق إلى (كلركنول)، ومنها تدفَّق الحشد إلى شارعٍ هادئ ليتوقَّف أمام منزل صانع أقفال وورشته المسمَّاة (المفتاح الذهبي).

صاح هيو فيمن حوله: «اقرعوا الباب، نريد واحدًا له هذه الحرفة الليلة. إن لم يجب أحدٌ اكسروا الباب».

كانت الورشة مغلقةً، وكان الباب والمصاريع من نوعٍ متينٍ، فظلُّوا يقرعونها من دون جدوى. لكن لمَّا صاح الحشد نافد الصبر «أحرقوا المنزل!» وأخذت المشاعل تمرَّر إلى الأمام فُتحِت نافذة عليا ووقف أمامهم صانع الأقفال العجوز المتين وسألهم:

«وماذا الآن أيها الأوغاد؟ أين ابنتي؟».

ردَّ هيو وهو يلوِّح لرفاقه بأن يلتزموا الصمت: «لا توجِّه إلينا أي أسئلة أيُّها العجوز، لكن انزل إلينا ومعك أدواتك؛ نريدك».

صاح صانع الأقفال وهو ينظر إلى الزي العسكري الذي كان يرتديه: «تريدونني! أجل، ولو كان لبعض من أستطيع أن أدعوهم بالاسم قلوب فئران، لكنت معكم من قديم. اسمعني أيُّها الفتى، وأنتم يا من حوله اسمعوني كذلك. أرى من بينكم من أعرفهم، وليعتبروا أنفسهم في عداد الموتى منذ الساعة. انصرفوا! واسطوا على دكَّان حانوتيٍّ إذا ما استطعتم! فعمَّا قريب تحتاجون إلى بعض الأكفان!».

صاح هيو: «هل ستنزل إلينا؟».

صاح صانع الأقفال: «هل ستعطيني ابنتي أيُّها الوغد؟».

ردَّ هيو: «لا أعرف شيئًا عنها، أحرقوا الباب!».

صاح صانع الأقفال بصوتٍ أربكهم وهو يبرز بندقية بينما يتكلم: «توقفوا! دعوا رجلًا عجوزًا يفعل ذلك. بإمكانكم أن توفِّروا عليه ذلك!».

وحين سمع الشاب الذي كان يمسك بالمشعل وينحني أمام الباب

هذه الكلمات نهض معجلًا وتراجع. مسح صانع الأقفال بنظره الوجوه المحدِّقة إلى أعلى، واحتفظ بسلاحه مصوَّبًا إلى عتبة منزله. لم يكن السلاح مستندًا إلا إلى كتفه، لكنّه كان راسخًا مستقرًّا كالمنزل نفسه. قال لهم بثباتٍ:

«فلينتبه من يقدم على ذلك لصلاته قبل أن يموت، أنا أحذِّره».

كان هيو يتقدَّم إلى الأمام وهو يكيل السباب بعد أن اختطف مشعلًا من واحدٍ يقف قربه، وإذا صرخة حادة عالية تجمِّده مكانه، وحين نظر إلى أعلى رأى ثوبًا يخفق فوق سطح المنزل، تلت ذلك صرخة أخرى، وثالثة، ثم صاح صوتٌ حادٌّ:

«هل (سمن) معكم؟».

وفي اللحظة نفسها رؤيت رقبة نحيلة تمدُّ من فوق الحاجز، وطفقت الآنسة مـگز -تلك التي لم تكن هيئتها لتميَّز إلَّا قليلًا في ظلام الليل المتكاثف- تصرخ مهتاجةً: «أوه! أيها السادة الأعزَّاء، دعوني أسمع ردَّ (سمن) من فمه هو، تحدَّث إليَّ يا (سمن)، تحدَّث إليَّ!».

نظر إلى أعلى مستر تاپرتت الذي لم يرقه أبدًا هذا الإطراء، وبعد أن طلب منها أن تلزم الهدوء أمرها أن تنزل إليهم وتفتح الباب لأنهم بحاجة إلى سيِّدها ولن يقنعوا بأيِّ رفضٍ.

صاحت الآنسة مـگز: «أوه أيها السادة الطيبون، أوه، أيُّها الغالي عندي (سمن)!».

ردَّ مستر تاپرتت: «كفِّي هراءك، رجاءً، وانزلي وافتحي الباب. غ.ڤاردن، أنزل هذه البندقية وإلَّا فلن يكون هذا في صالحك».

صرخت مـگز: «لا تلتفت إلى بندقيَّته. (سمن) ومن معه من السادة، لقد صببت قدحًا من جعة المنضدة في ماسورة البندقية».

صاح الحشد صيحةً جهيرةً تبعتها قهقهة مزمجرة، فصرخت مـگز: «لن تطلق ولو عمَّرتموها إلى فوَّهتها. (سمن) ومن معه من السادة. أنا محبوسة في العليَّة الأمامية، عبر الباب الصغير على الناحية اليمنى حين يظنُّ الصاعد أنه قد وصل إلى قمة الدرج، ثم يصعد درجًا آخر في الركن، وليحذر الصاعد أن تتهشَّم رأسه في العوارض الخشبية وأن يطأ جانبًا واحدًا إن تصادف أن يسقط في غرفة النوم المزدوجة من خلال اللوح الخشبي والجصِّ، ذلك اللوح الذي يسقط الواقف عليه بدلًا من أن يحمله. (سمن) ومن معه من السادة، لقد حبست هنا في العليَّة حرصًا على أماني، لكني طالما حاولت ودائمًا سأحاول أن أكون في جانب الحق، الجانب المبارك، وأن أعلن أنَّ بابا بابل وثنيٌّ بكل أفعاله الداخلية والخارجية!».

ثم صرخت مضيفةً بالمزيد من الحدة: «أنا أعرف أن عواطفي قليلة الأهمية، لأن وضعي لا يتجاوز وضع الخادمة، لكني رغم هذه المذلَّة حريصة ما زلت على التعبير عن مشاعري، وأعتمد على أولئك الذين يشاركونني آرائي!».

ودون كثير التفات إلى هذه الثرثرة بعد أن أدلت الآنسة مـگز بتصريحها الأول بشأن البندقية، رفع الحشد سلَّمًا إلى حذاء النافذة التي كان صانع الأقفال يقف فيها، ورغم كونه قد أغلقها وأرتجها ودافع عنها برجولة إلَّا أنهم قد نجحوا في اقتحامها بأن هشَّموا الزجاج والإطار. وبعد أن ناول من أحدقوا به عدَّة ضرباتٍ قوية وجد صانع الأقفال نفسه مكشوفًا

وسط زحامٍ هائجٍ ملأ الغرفة ولان إلى كومة مهوَّشة من الوجوه لدى الباب والنافذة.

كانوا شديدي الحنق عليه -فقد أصاب اثنين منهم- حتى لقد أهابوا بمن هم في الصفوف الأمامية أن يحضروه ويعلِّقوه على عمود إنارة، لكنَّ ذلك لم يفتّ في عضد غابرييل الذي قلَّب بصره بين هيو ودنس اللذين أمسكاه من ذراعيه وسايمن تاپرتت الذي وقف في مواجهته، ثم قال:

«لقد سرقتم مني ابنتي التي هي أغلى عندي بكثيرٍ من حياتي، ولكم أن تقتلوني إن شئتم، وإني لأشكر الرب أن استطعت أن أجنِّب امرأتي هذا المشهد، وأن جعلني رجلًا لا يمكنه أن يطلب الرحمة من أيدٍ كأيديكم».

قال مستر دنس في استحسانٍ: «ويا لك من سيد عجوز ذي عزمٍ، تتحدث عن نفسك كرجلٍ. ما هي الاحتمالات يا أخي، إن كان مصيره إلى عمود إنارة الليلة أو فراش ريش بعد عشرة أعوام؟ هاه؟».

رمقه صانع الأقفال بنظرة مزدرية ولم يحر جوابًا، فقال الشانق الذي كان يفضِّل اقتراح عمود الإنارة:

«بالنسبة إليَّ، فأنا أحترم مبادئك، إذ إنها مبادئي بالضبط» وهنا أكَّد كلامه بقسمٍ مضيفًا: «وحالما تكون المبادئ هكذا، أصبح مستعدًّا أن أقابلك أو أقابل أيَّ إنسان في منتصف الطريق. أليست لديك قطعة حبلٍ متاحة في أيِّ مكان هنا؟ إن لم يكن لديك فلا تكلِّف نفسك أيَّ جهدٍ خاصٍّ، فمنديل سيقوم بالواجب».

غمغم هيو وهو يمسك ڤاردن بغلظة من كتفه: «لا تكن أحمق يا

سيدي، لكن افعل ما تؤمر به، فعمَّا قريب تسمع ما أنت مطلوب لأجله. افعله!».

ردَّ صانع الأقفال: «لن أفعل شيئًا تطلبه أو يطلبه أيٌّ وغد هنا، إن أردتم مني تقديم أي خدمة فوفِّروا على أنفسكم مشقَّة إخباري بطبيعتها. أخبركم مسبَّقًا بأنني لن أفعل لأجلكم أي شيء».

تأثَّر مستر دنس كثيرًا بثبات العجوز الصامد، لدرجة أن أخذ يحتج والدموع تكاد تطفر من عينيه أنه من القسوة والجفاء أن تحبط ميوله، وهي قسوة لن يقدر أبدًا على أن يصالح عليها ضميره. وقال إنَّ السيد قد صرَّح بكلماتٍ كثيرة جدًّا أنه على أهبة الاستعداد للإعدام، وما دام الأمر كذلك فقد اعتبر أنَّ من واجبهم كحشدٍ متحضِّرٍ مستنير أن يعدموه. ثم أضاف أنه أمرٌ لا يحدث كثيرًا أن يكون في مقدورهم أن يكيِّفوا أنفسهم لتحقيق رغبات من شاء سوء الحظ أن يختلفوا معهم. أما وقد وجدوا الآن فردًا يعبِّر عن رغبة يمكنهم أن يحققوها بطريقة معقولة –وبالنسبة إلى نفسه فقد كان حرًّا بما يكفي للاعتراف بأنَّ هذه الرغبة قد أشعرته بمشاعر طيِّبة– فقد أعرب عن رجائه في أن يقرروا النزول على ذلك الاقتراح قبل أن يمضوا لشأنهم. إن هي إلَّا تجربة ستنتهي في خمس دقائق إن أدِّيت بمهارة وحذقٍ، وتحقَّق الراحة لجميع الأطراف، ورغم أن مستر دنس لا يناسبه أن يمدح نفسه، فقد اعتمد على أن يسمح له في هذا المقام بأن يقول إنَّ لديه معرفةً عمليةً بهذا الموضوع، ولمَّا كان يميل بطبعه إلى أن يكون ودودًا دمثًا، فسيعدم السيد بقدرٍ من السّرور.

استقبلت هذه الملاحظات التي وجَّهها إلى أولئك المحيطين به وسط صخب عارم وفوضى مفزعة بكثيرٍ من الاستحسان، وربما لم يكن هذا راجعًا إلى بلاغة الشانق في المقام الأول، بقدر ما كان مردُّه إلى عناد صانع الأقفال. كان غابرييل يمثِّل لهم خطرًا وشيكًا، وكان مدركًا ذلك، غير أنه احتفظ بصمته في ثباتٍ، وكان مستعدًّا أن يستمرَّ كذلك حتى ولو شرعوا يتجادلون فيما إذا كان ينبغي لهم أن يشووه على نارٍ هادئة.

وبينما الشانق يتكلَّم كان ثَمَّ حركة وارتباك على السلَّم، وبمجرد أن صمت –حقًّا بمجرد أن أمسك لسانه، لدرجة أن الحشود بالأسفل لم يتح لها من الوقت ما تعرف فيه ما كان يقوله ولا أن تصيح مجيبةً إيَّاه– صاح شخصٌ ما عند النافذة:

«إنّه أشيب، إنه عجوزٌ. لا تؤذوه».

استدار صانع الأقفال مجفلًا صوب المكان الذي جاءت منه هذه الكلمات، وقلَّب بصره معجلًا فيمن كانوا متعلِّقين بالسلَّم وببعضهم بعضًا، ثم أجاب الصوت، لا أيّ شخص يراه:

«لا تلقِ بالًا إلى شيبي أيُّها الشاب. أنا لا أطلب ما تقول. إنَّ قلبي أخضر بما يكفي لأن أحتقر وأزدري كلَّ واحدٍ منكم يا عصابة اللصوص!».

لم يهدِّئ هذا الجواب غير الحذر وحشيَّة الحشود بحالٍ، فصاحوا ثانيةً مطالبين بإخراجه، وكانت الأمور في طريقها إلى أن تتأزَّم مع صانع الأقفال المخلص لولا ذكَّرهم هيو مجيبًا صياحهم بأنهم بحاجة إلى خدماته ويجب أن يكون معهم، وقال لسايمن تاپرتت:

«إذن أخبره بما نريد، وبسرعة، وافتح أذنيك يا سيدي إن أردت أن تستخدمهما بعد الليلة».

عقد غابرييل ساعديه اللذين كانا حرَّين الآن، ونظر إلى صبيِّه القديم في صمتٍ، قال (سم):

«انظر يا ڤاردن، إننا ماضون إلى نيوغات».

ردَّ صانع الأقفال: «أعرف ذلك، لم تقولوا كلمةً أصدق من هذه!».

قال سايمن: «أعني ماضون لنحرقه ونقتحم بواباته ونحرِّر سجناءه. وقد اشتركت أنت في عمل قفل الباب الكبير».

قال صانع الأقفال: «أجل. ليس عليك أن تشكرني لذلك، كما ستكتشف ذلك بنفسك عمَّا قريب».

ردَّ صبيُّه القديم: «ربما، لكن يجب أن ترينا كيف نفتحه بالقوة».

«أيجب عليَّ؟!».

«أجل، لأنك تعرف ذلك وأنا لا. يجب أن تصحبنا، وتطفِّشه بيديك[1]».

قال صانع الأقفال بهدوءٍ: «حين أفعل ستسقط يداي من الرسغين، وسترتديهما أنت يا سايمن تاپرتت على كتفيك ككتفيّتين».

صاح هيو مقاطعًا بينما يثور استياء الحشد مجدّدًا: «سننظر هذا الأمر.

---

(١) And pick it with your own hands لم أهتد إلى تفصيح سابق للمفردة المصريّة (تطفيش) التي تعني فتح القفل دون مفتاح، لكن لمّا كان الجذر اللّغويّ (ط ف ش) يعني بين ما يعنيه الخروج على غير هدىً، والنّكاح، مفترضًا في المعنيين درجةً من درجات العنف والسّرقة، ولمّا كانت صيغة الكلمة مضبوطةً بالطبع على الميزان الصّرفيّ العربي (تفعيل)، فقد سمحت لنفسي باستخدامها هنا بصفتها فصيحة.

املأ سلَّةً بما سيحتاج إليه من أدوات، بينما أصطحبه أنا إلى أسفل. فليفتح بعضٌ منكم الأبواب بالأسفل، ولينر آخرون الطريق للقائد العظيم! أليس أمامكم عملٌ تقومون به أيها الفتية إلا أن تقفوا هكذا وتتذمَّروا من دون أن تفعلوا شيئًا؟».

نظر بعضهم إلى بعض ثم ما لبثوا أن تفرَّقوا منتشرين في المنزل ينهبون ويكسرون كما اعتادوا ويحتملون ما يروقهم مما غلا ثمنه. لم يتح لهم كثير وقت لهذه الأفعال، فسرعان ما أعدَّت سلَّة الأدوات وعُلِّقت على كتف أحدهم. وإذ انتهت التحضيرات الآن وأصبح كلُّ شيء معدًّا للهجوم، فقد نودي أولئك الذين انشغلوا بالنَّهب والتدمير في الغرف الأخرى لينزلوا إلى الورشة. كانوا على وشك الخروج، وإذا آخر رجل كان بالطابق العلويِّ يتقدَّم إلى الأمام ويسأل عمَّا إذا كانوا سيطلقون سراح الشابة التي في العليَّة، تلك التي -كما قال- كانت تصخب صخبًا فظيعًا وظلَّت تصرخ من دون أدنى توقُّف.

بالنسبة إلى سايمن تاپرتت فإنه كان يطيب له بالتأكيد أن يجيب بالنفي، لكن لمَّا كان رفاقه يعتنقون رأيًا آخر، ناظرين بعين الاعتبار إلى الخدمة الجيدة التي أسدتها إليهم في مسألة البندقية، فإنه لم يستطع إلَّا أن يردَّ بالإيجاب. وعلى ذلك عاد السائل أدراجه ليطلق سراحها، وما لبث أن عاد ومعه الآنسة مـگز، منهكةً منثنيةً على نفسها ومبتلَّةً جدًّا من أثر البكاء.

ولمَّا لم تظهر هذه الشابة أيّ علامة على كونها في وعيها في طريقهما إلى أسفل، فإنَّ حاملها قرَّر للجمع أنها إما ميتة أو تحتضر، ولأنه كان

حائرًا فيما عساه يفعل بها فقد طفق ينظر فيما حوله باحثًا عن مقعدٍ مناسبٍ أو كومة رمادٍ يضع فوقها جسدها الفاقد الوعي، وإذا بها تستعيد وعيها بطريقة غامضة وتقف بغتة على قدميها وتعيد شعرها إلى الخلف وتحدِّق إلى مستر تاپرتت بعنفٍ صائحةً:

«حياة سايمن عزيزي ليست ضحية!»، وسقطت بين ذراعيه بسرعة عظيمة حتى لقد ترنَّح وتراجع عدة خطواتٍ إلى الخلف وهو يرزح تحت حمله الحلو.

قال مستر تاپرتت: «أوه، يا أخي، هيَّا! فليمسكها أحدكم. أغلقوا الباب عليها ثانيةً، فلم يكن يجب أن يُسمَح لها بالخروج أبدًا».

صاحت الآنسة مـگز باكيةً وهي تكاد يُغشى عليها: «(سمن) عزيزي! (سمن) المبارك إلى الأبد!».

ردَّ مستر تاپرتت بنبرة شديدة البرود: «تماسكي، رجاءً، فسأدعك تسقطين إن لم تتماسكي. لماذا تزلقين قدميك من على الأرض هكذا؟!».

غمغمت مـگز: «ملاكي (سمنز)! لقد وعدني.».

أجابها سايمن بحدَّة: «وعدتُ؟! حسنًا! وسأفي بوعدي. أن أؤمِّن معاشكِ، أليس كذلك؟ انهضي!».

صاحت مـگز: «إلى أين أذهب؟ ما عسى يُفعَل بي بعد ما فعلته الليلة؟! أي مكان بقيت لي فيه راحة الآن إلَّا المقابر الساكنة؟!».

صاح مستر تاپرتت: «لقد كان ليسرّني لو كنتِ في المقابر الساكنة حقًّا! مسجّاةً في تابوت منيع محكم!» ثم صاح في واحدٍ من الواقفين قريبًا منه: «هيَّا!» ثم همس في أذنه لحظةً: «خذها من هنا. هاه؟ أتعرف إلى أين؟».

أومأ الرجل بالإيجاب، وما لبث أن أخذها بين ذراعيه رغم احتجاجاتها المتقطِّعة وصراعها (وذلك النوع الأخير من الاعتراض كان يشمل الخمش، فكانت مقاومته أصعب بكثيرٍ)، واحتملها مبتعدًا بها. تدفَّق من كانوا بالمنزل إلى الشارع، وأُخِذ صانع الأقفال إلى رأس الحشد، وطولب بأن يمشي بين مرافقيه، وحثّ الجمع كله على الإسراع. ومن دون صياح أو جلبة اتجهوا صوب نيوغات مباشرةً، وتوقَّفوا أمام بوابة السجن في تكتُّلٍ كثيفٍ.

* * *

الفصل الرابع والستّون

ولمَّا أصبحوا على مشارف السجن قطعوا الصمت الذي التزموه من بداية الرحلة وصاحوا صيحةً عظيمةً، مطالبين بالحديث إلى حاكم السجن. ولم تكن هذه الزيارة غير متوقَّعة تمامًا، فقد كان منزله في واجهة الشارع محصَّنًا بإحكامٍ، وخوخة السجن مغلقةً، ولم يكن ثَمَّ إنسانٌ يُرى من أيِّ كوَّة أو حاجز شباك. وقبل أن يكرروا نداءهم عدة مرات ظهر رجلٌ على سطح منزل الحاكم، وسألهم عمَّا يريدون.

قال البعض إجابةً ما، والبعض إجابةً أخرى، وبعض ثالث لم يزِد على أن فحَّ أو تأوَّه. وذلك أنه لمَّا كان الظلام قد بدأ يخيِّم ولمَّا كان المنزل مرتفعًا، فإنَّ كثيرين في الحشد لم يدركوا أنَّ إنسانًا قد أتى ليجيب نداءهم، فواصلوا ضجيجهم حتى سرت المعلومة تدريجيًّا إلى الجمع بأكمله. وقد مرَّ عشر دقائق أو يزيد قبل أن يُسمَع أيُّ صوتٍ واضحًا وضوحًا معقولًا، وخلال هذه المدة ظل شبح الرجل جاثمًا وحده على السطح تحت سماء الليل الصيفي، ناظرًا إلى أسفل حيث الشارع المضطرب.

قال هيو أخيرًا: «أأنت مستر (آكرمان) رئيس السجَّانين؟».

غمغم دنس: «هو بالطبع يا أخي».

لكنَّ هيو لم يبالِ بما قال، وأخذ إجابته من فم الرجل نفسه الذي قال: «نعم، أنا هو».

«إنك تحتجز بعض أصدقائنا يا سيدي».

نظر إلى أسفل إلى داخل السجن وهو يتكلم: «لديَّ عددٌ كبيرٌ من الناس محتجزٌ».

أثار الحشد أيَّما إثارة ذلك الشعور بأنَّ الرجل يستطيع أن يرى داخل الأفنية المختلفة وأنه مشرفٌ على كل شيء تخبئه عن أنظارهم الجدران المجعَّدة، فطفقوا يتعاوون كالذئاب.

قال هيو: «سلِّم إلينا أصدقاءنا، وتستطيع الاحتفاظ بالباقين».

«إنَّ من واجبي أن أحتفظ بهم جميعًا، وسأقوم بواجبي».

قال هيو: «إن لم تفتح الأبواب سنحطِّمها، فإننا سنخرج الثوَّار».

ردَّ آكرمان: «كلُّ ما أستطيع فعله أيُّها الطيبون، أن أهيب بكم أن تتفرَّقوا، وأن أذكِّركم بأنَّ أيَّ إزعاج في هذا المكان تترتَّب عليه عواقب وخيمة للغاية، سيندم عليها معظمكم حين لا ينفع الندم».

بدا كما لو كان يتراجع منسحبًا وهو يختم هذا القول، لكنَّ صوت صانع الأقفال أوقفه مكانه، صاح غابرييل:

«مستر آكرمان. مستر آكرمان».

ردَّ الحاكم وهو يستدير صوب الصوت ملوِّحًا بيده: «لن أسمع المزيد من أيٍّ منكم».

قال غابرييل: «لكنني لستُ واحدًا منهم، أنا رجل صدق يا مستر آكرمان، صاحب صنعة محترم، غابرييل ڤاردن صانع الأقفال، هل تعرفني؟».

صاح الحاكم وقد تغيَّرت لهجته: «أنت وسط هذا الحشد؟!».

ردَّ صانع الأقفال: «أُحضِرت إلى هنا بالقوة، أُحضِرت إلى هنا لأطفِّش قفل الباب الكبير لهم. اشهد يا مستر آكرمان أنني أرفض أن أفعل ذلك، وأنني لن أفعله أيًّا كانت النتائج. إن ارتُكِب في حقِّي أيُّ عنفٍ فأرجوك تذكر ذلك».

قال الحاكم: «أما من طريقة لمساعدتك؟».

قال صانع الأقفال وهو يستدير إليهم: «لا يا مستر آكرمان، أنت ستقوم بواجبك وأنا سأقوم بواجبي. مرة ثانية أيها اللصوص السفَّاحون، أنا أرفض. آه! اعووا إلى أن تبحَّ أصواتكم، أنا أرفض».

قال السجَّان في عجلة: «انتظر انتظر! مستر ڤاردن، أنا أعرفك رجلًا محترمًا لا يمكنه أن يفعل شيئًا ضد القانون إلَّا تحت الإجبار.».

قاطعه صانع الأقفال الذي شعر بأن النبرة التي قيل بها هذا الكلام تنقل انطباع المتكلِّم أنَّ لدى (غابرييل) عذرًا كافيًا في الانصياع للحشد الهائج الذي أحاط به من كلِّ جانبٍ، والذي كان يقف وسطه وحده رجلًا عجوزًا:

«إنني تحت الإجبار يا سيدي، تحت الإجبار لن أفعل شيئًا».

قال السجَّان في قلقٍ: «أين هو ذلك الرجل الذي تحدَّث إليَّ منذ قليلٍ؟».

ردَّ هيو: «هنا!».

«أتعرف ما إثم القتل؟ أتعرف أنك باحتفاظك بهذا الحرفيّ الشريف إلى جوارك تعرِّض حياته للخطر؟!».

أجاب: «نعرف ذلك جيّدًا، وإذن فلأيِّ غرض غير ذلك أحضرناه إلى هنا؟ دعنا نتسلَّم أصدقاءنا يا سيدي، وستتسلَّم صديقك، أليس ذلك عادلًا يا فتيان؟».

أجابه الجمع بصيحة جهيرة «هورّاه!».

صاح ڤاردن: «هل ترى يا سيدي؟ لا تسمح لهم بالدخول بحق الملك چورچ، وتذكَّر ما قلت لك، طابت ليلتك!».

لم يطل النقاش أكثر من ذلك، فقد أجبر السجَّان على التراجع منسحبًا سيلٌ من الحجارة وغيرها من القذائف، وسيق غابرييل ڤاردن إلى أمام الباب بقوَّة الحشد المتضاغط المحيط بالجدران.

وُضِعت سلة الأدوات أمامه على الأرض دون جدوى، وطفقوا يحثِّونه على إنجاز المهمة التي أتوا به إلى هنا لأجلها، تارةً بالوعود، وتارةً بالضرب، مرة بأن يعرضوا عليه المكافأة، ومرة بأن يهدِّدوه بالموت، فما كان من صانع الأقفال الصَّمود إلَّا أن صاح فيهم:

«لا، لن أفعل!».

إنه لم يحب الحياة أبدًا كما أحبَّها الآن، لكنَّ شيئًا لم يستطع أن يحرِّكه. الوجوه الهمجيَّة المحدِّقة إليه أينما ولَّى، وصيحات أولئك المتعطشين إلى دمائه كالحيوانات المتوحشة، ومنظر الرجال المتضاغطين في تقدُّمهم، يدوسون رفاقهم وهم يحاولون الوصول إليه ليوجهوا إليه الضربات من فوق رؤوس الآخرين بالفؤوس وقضبان الحديد، لم يفتّ شيء من ذلك في عضده. أخذ يقلِّب بصره من رجلٍ إلى رجلٍ ومن وجه إلى وجه، وظلَّ يصيح في ثباتٍ، بأنفاسٍ متلاحقة ووجه آخذ في الشحوب:

«لن أفعل».

وجَّه دنس إلى وجهه ضربة صرعته، فما كان منه إلَّا أن نهض واقفًا ثانية كرجلٍ في فورة شبابه، وقبض على رقبة دنس والدم يلطِّخ جبهته، صائحًا:

«أيُّها الكلب الجبان، أعطني ابنتي، أعطني ابنتي».

تصارعا، وصاح البعض: «اقتله»، وحاول البعض أن يطؤوه إلى أن يموت، وإن لم يكونوا على مسافة قريبة تسمح بذلك، ورغم محاولات دنس الإمساك برسغي العجوز فإنه لم يستطع إجباره على أن يرخي قبضتيه عن عنقه، فما كان منه إلَّا أن قال بصعوبة بالغة وكثيرٍ من السباب:

«هل هذا جزائي أيُّها الوحش الجاحد؟!».

صاح صانع الأقفال الذي أصبح الآن لا يقل ضراوةً عمَّن يحدقون به: «أعطني ابنتي! أعطني ابنتي!».

صرع ثانيةً ثم نهض ثم صرع مجدّدًا، وأخذ يقاوم مجموعةً منهم طفقوا يتناقلونه من يدٍ إلى يدٍ، وإذا رجل طوال آتٍ لتوّه من مجزر وملابسه وحذاؤه الطويل ساخنان بالدهن والدم يرفع بلطةً ويهوي بها قاصدًا رأس العجوز المكشوف وهو يحلف أيمانًا مغلَّظة. وفي اللحظة نفسها وقع هذا الرجل نفسه كما لو كان قد أصابته صاعقة، وهرع لنجدة صانع الأقفال رجلٌ بذراعٍ وحيدة واطئًا جثَّة ذلك الجزار، وكان معه رجلٌ آخر، وما لبث هذان أن أمسكا بصانع الأقفال بقوة.

صاحا في هيو وهما يحاولان جاهدين أن يمرَّا إلى الخلف من بين الجموع: «اتركه لنا! اتركوه لنا، لماذا تبدِّدون طاقتكم كلها مع واحدٍ مثله بينما يستطيع رجلان أن يقضيا عليه في وقتٍ قصيرٍ؟ إنكم تضيعون الوقت، تذكَّروا السجناء! تذكَّروا بارنابي!».

انتشرت الصيحة في الحشد، فشرعوا يعملون المطارق في الجدران، وحاول كلٌّ منهم أن يصل إلى السجن وأن يكون في طليعة المقتحمين.

تقهقر الرجلان وبينهما صانع الأقفال، وهما يشقَّان جاهدين طريقهما بين الحشود باستماتة كما لو كانا بين أعدائهما لا رفاقهما، وسحبا العجوز إلى قلب الجمع.

في هذه الأثناء كانت الضربات قد بدأت تنهمر كالمطر على البوابة والمبنى الحصين، فقد أخذ أولئك الذين لم يستطيعوا الوصول إلى الباب ينفثون غضبهم المتوحش في أي شيء، ولو كان كتل الحجارة الكبيرة التي حُطِّمت أسلحتهم عليها وأفقدت أيديهم وأذرعهم الإحساس كما لو كانت الجدران حية في مقاومتها الصامدة، تردُّ ضرباتهم ضربات مماثلة. اختلطت صلصلة وقوع الحديد على الحديد بالضجيج الذي يصمُّ الآذان، بل إنها ارتفعت فوقه حين طفقت المطارق ترنُّ وهي تهوي على الباب المصفَّح ذي المسامير، فتطاير الشَّرر سيولًا، وكان الرجال يعملون في مجموعاتٍ، ويريح بعضهم بعضًا كلَّ فترة وجيزة حتى تخلص طاقتهم للمهمة التي بين أيديهم، لكنَّ الباب ظلَّ صامدًا، رصينًا قاتمًا منيعًا كما كان، لم يتغيَّر في شيء بخلاف تلك الشقوق التي علت سطحه الرثّ.

وبينما كرَّس بعضهم كلَّ طاقته لهذه المهمة الشاقة، وحاول البعض الآخر لاصقًا السلالم إلى جدر السجن أن يتسنَّم الجدران التي كانت أعلى من أن يقفزوا إلى قممها، واشتبكت فئة ثالثة مع مجموعة من الشرطيين تقارب المائة وأخذت تقارعها وتطؤها تحت أقدامها بقوة العدد الهائل، نذرت فئة رابعة نفسها لحصار المنزل الذي ظهر فوق سطحه السجَّان، وبعد أن اقتحموه أخرجوا أثاثه وكوَّموه على بوابة السجن ليشعلوا محرقةً كفيلةً بهدمه. وبمجرد أن فهمت هذه الحيلة ألقى كلُّ من كانوا يعملون المطارق في البوابة أدواتهم وأعانوا على زيادة الكومة التي وصلت إلى

منتصف الشارع، كما كانت عاليةً لدرجة أنَّ أولئك الذين كانوا يصبُّون الوقود على قمَّتها كانوا يصعدون إليها بالسلالم. وحين فرغ من إلقاء متاع حاكم السجن بكامله في هذه الكومة الثمينة إلى آخر قطعة، دهنوها بالقار والقطران والقلفونية التي أحضروها معهم، ورضُّوا عليها زيت التربنتين. وفعلوا مثل ذلك مع كلِّ ما هو خشبي حول أبواب السجن، حتى لم ينجُ من هذا الصنيع عمودٌ أو عارضة. وما إن فرغوا من هذا التعميد الجهنَّمي حتى أضرموا النار في الكومة بالثقاب الموقد والحبال المشتعلة، ووقفوا ينظرون النتيجة.

ولمَّا كان الأثاث شديد الجفاف، وقد جعله الشمع والزيت –فضلًا عمَّا استخدموه من حيلٍ– أكثر قابلية للاحتراق، فقد اشتعل في التوِّ. علت زمجرة النيران في شراسة، مسوِّدةً جدران السجن، وصاعدةً تتلوَّى على واجهته العالية كثعابين مشتعلة. ازدحموا في البداية حول النيران، سامحين لجذلهم بأن يبدو في نظراتهم فحسب، لكن مع ازدياد سخونة النار وشراستها –حيث أخذت تطقطق وتتقافز وتزمجر كما لو كانت في فرنٍ عظيمٍ– وحين سطعت على المنازل المقابلة، ولم تتوقَّف عند إضاءة الوجوه الشاحبة المتعجِّبة المطلَّة من النوافذ وإنما امتدَّ ضوؤها إلى أقصى الأركان الداخلية لكلِّ منزل، وحين رؤيت النار خلال الحرارة الحمراء القانية ووهجها تداعب الباب وتلاعبه، متعلِّقةً آنًا بسطحه الصلب، منزلقةً آنًا في طيشٍ وحشيٍّ لتحلِّق عاليًا في السماء، ثم تعود من قريبٍ فتحيط به في قبضتها المشتعلة مغريةً إيَّاه بالاستسلام لخرابه، وحين سطعت وتوهَّجت

برَّاقةً جدًّا لدرجة أنَّ ساعة كنيسة (سان سپلكر)[1] التي كثيرًا ما تشير عقاربها إلى ساعة الموت كانت واضحةً كما في وضح النهار، وطفقت دوَّارة الريح الواقفة على قمة برجها تلمع في الضوء غير المعتاد كشيء مرصَّع بالجواهر في بذخٍ، وحين تحوَّلت الحجارة المسودة والطوب القاتم إلى الأحمر القاني بفعل انعكاس ضوئها العميق، وتوهَّجت النوافذ كالذهب الصقيل مرصَّعةً المسافة الأطول في المشهد المحتدم ببقعها اللامعة، وحين بدت الجدر والأبراج والأسطح وأعمدة المداخن كأنها قد ثملت جميعًا، تتمايل وتترنَّح في الوهج المرتجف، وحين اقتحمت الأفق

(١) Saint Sepulchre without Newgate أو Holy Sepulchre London: أكبر أسقفيَّة في مدينة لندن. في موقعها نفسه كانت هناك كنيسة ربما يعود تاريخها إلى ما قبل الغزو النورمندي، منذورة للقديس إدموند الملك الشهيد، ثم مُنِحت إلى دير القديس برثُلماوس عام ١١٣٧، وما لبثت أن أعيد نذرها إلى القديس إدموند والضريح المقدس خلال الحملات الصليبية التي سُيِّرت في القرن الثاني عشر، تيمُّنًا باسم كنيسة الضريح المقدس (واسمها الأشهر عربيًّا هو كنيسة القيامة) في القدس. والشاهد في هذا السياق أن جرسًا يدويًّا وُضع فيها عام ١٦٠٥ ليعلن إعدام السجناء على مشنقة سجن (نيوغات) القريب من الكنيسة، وكان أحد رجال الكنيسة منوطًا بدقِّه خارج زنزانة المحكوم عليه بالإعدام في نيوغات في الليلة السابقة لتنفيذ الحكم، وذلك بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر. وكان يشفع ذلك بإلقاء أبيات تذكِّر المدان بإثمه وتحثُّه على الندم والتوبة. وكان من أجراسها المعلَّقة على أبراجها كذلك ما يعلن لحظة الإعدام في تايبرن. وهذه هي الأبيات التي كانت تلقى: All you that in the condemned hold do lie. Prepare you, for to-morrow you shall die. Watch all, and pray, The hour is drawing near. That you before the Almighty must appear. Examine well yourselves, in time repent. That you may not to eternal flames be sent. And when St Sepulchre›s bell to-morrow tolls. The Lord above have mercy on your souls. Past twelve o›clock! وقد حاولت ترجمتها فجاءت على هذا النحو: « يا من يرقد في هذي الزنزانة. هيِّئ نفسك فغدًا سوف تموت. ارتقبوا، صلّوا، ساعتكم جبَّانة. وغدًا تقفون بحضرة ذي الجبروت. ليراجع كلّ ما قدَّم ولينـدم. حتى لا يخلد في نيران جهنم. فإذا ما جنَّ جنون الجرس ودقّ. فليرحم أنفسكم مولاها الحقّ. الساعة جاوزت الظّهر!».

أشياء عديدة لم تبصرها عينٌ من قبل، وبدَّلت أشياء أخرى سمتها وكانت الأعين قد اعتادت مرآها، حينذاك انضمَّت الحشود إلى الدوَّامة، وتحرَّك من فيها يطعمون النار ويحافظون على ارتفاعها الشاهق وهم يتصايحون ويصخبون صخبًا سعيدًا يندر أن يسمع المرء مثيلًا له.

ورغم شدة الحرارة لدرجة أنَّ طلاء المنازل المتاخمة للسجن جفَّ وتشقَّق، ثم ما لبث أن تورَّم محدثًا ما يشبه الدمامل كما لو كان ضحيَّةً لتعذيبٍ رهيبٍ، لينتهي كسرًا ومزقًا، ورغم تساقط الزجاج من أطر النوافذ، ورغم أنَّ ما في الأسطح من رصاصٍ وحديدٍ كان يحرق اليد الغافلة التي تلمسها، والعصافير أخذت تحلِّق في الطّنف قبل أن يدوِّخها الدخان فتسقط وهي تخفق على الكومة المشتعلة، رغم كل ذلك ظلَّت الأيدي المشغولة تطعم النار من دون توقُّف، وظلَّ الرجال يدورون حولها. لم يفتر حماسهم أبدًا، ولم ينأوا بأنفسهم عنها، وإنما كانوا يتضاغطون صوبها، حتى إنَّ أولئك الذين في المقدمة كانوا يعانون الكثير من الارتباك لينقذوا أنفسهم من أن يلقوا فيها، وإن سقط أحدهم أو أُغشي عليه كانت دستة منهم تجاهد لتأخذ مكانه، هذا رغم علمهم بألَّا قبل لأحد بما يعانيه من أمام النار من ألمٍ وعطشٍ وضغطٍ. وقد حمل من لم تسحقهم الأقدام ولم يحترقوا من أولئك الذين سقطوا مغشيًّا عليهم إلى فناء خان قريبٍ، وكان الماء يُرشُّ عليهم من مضخَّة، حيث كانت أيدي الرجال تتناقل دلاءً ملأى من هذا الماء وسط الزحام، لكنَّ رغبة الجميع في الشرب كانت من القوة وكان القتال بينهم مستحرًّا على الدلاء، بحيث إنه في معظم الأوقات كانت الدلاء تنسكب على الأرض بالكامل من دون أن تبتلَّ شفتا رجلٍ واحدٍ.

وخلال ذلك، ووسط كلِّ هذا الصخب والجلبة، أخذ أولئك الأقرب إلى الكومة يلقون إلى النار مجددًا بالقطع المشتعلة التي تدحرجت من فوق الكومة إلى الأرض، ويحركون النار حول الباب الذي رغم استحالته إلى لوحٍ ملتهبٍ إلَّا أنه ظلَّ بابًا محكم الإغلاق والإرتاج لا يسمح لهم بالدخول. كانت قطع كبيرة من الخشب المشتعل تمرَّر فوق أرؤس الناس إلى من يقفون حول السلالم، وقد طفق بعض هؤلاء يصعدون إلى الدرجة العليا للسلَّم ويستندون بيدٍ واحدة إلى جدار السجن ليلقوا بهذه الشُّعل بكل ما أوتوا من قوة ومهارة على السقف، أو إلى أسفل حيث الأفنية الداخلية. وقد تكلَّلت مجهوداتهم بالنجاح في أحيان كثيرة، ما أضاف إضافةً مفزعةً جديدةً إلى ما يختزنه المشهد من رعبٍ، فإنَّ السجناء بالداخل لمَّا رأوا من خلال قضبانهم أن النار قد أمسكت بأماكن كثيرة وازدادت في شراسة، فقد بدؤوا يدركون أنهم مهدَّدون بأن يحترقوا أحياء لأنهم جميعًا محبوسون في زنزاناتٍ منيعة طيلة الليل. انتشر هذا الخوف الرهيب من زنزانة إلى أخرى ومن فناء إلى غيره، وعبَّر عن نفسه بصيحاتٍ رهيبة وعويلٍ وصراخٍ هائلٍ مستغيث، حتى لقد تردَّدت أصداء هذه الجلبة في السجن كلِّه، وحتى تعالت هذه الأصوات على صياح الحشود بالخارج وعلى زمجرة النيران، وكانت أصواتًا مفعمةً باليأس واللوعة، حتى لقد ارتجفت لسماعها أجرأ القلوب.

كان من اللافت أن هذه الصيحات قد بدأت في الجزء من السجن الذي يواجه شارع نيوغات، حيث كان معروفًا أن هذا الجزء يضمُّ الرجال المحكوم عليهم بالإعدام يوم الخميس. ولم يقتصر الأمر على أن أولئك الأربعة الذين لم يكن أمامهم كثير وقت ليعيشوه كانوا أول من يجوس

بقلوبهم الخوف من الموت حرقًا، وإنما كانوا كذلك الأكثر إزعاجًا في كل شيء، فقد كان من المستطاع سماعهم بوضوحٍ رغم سماكة الجدران العظيمة، يصرخون أن الريح تهبُّ في هذا الاتجاه، وأن النيران أوشكت تطالهم، ويهيبون بضباط السجن أن يأتوا ويطفئوا النيران من صهريج في فنائهم مملوء بالماء. وإذا ما حكمنا بما استطاعت الحشود خارج الجدران أن تسمعه بين الفينة والفينة، فإن هؤلاء التعساء الأربعة لم يكفُّوا أبدًا عن الاستغاثة، وأنهم كانوا يفعلون ذلك بقدرٍ من الارتباك وجنون التعلُّق بالوجود كما لو كان لكلٍّ منهم حياة سعيدة شريفة تنتظره، لا ثمان وأربعون ساعة لا غير من الحبس البائس، يتلوها موتٌ عنيفٌ شائنٌ.

غير أن قلق ومعاناة ابني أحد هؤلاء الأربعة حين سمعا أو تخيَّلا أنهما سمعا صوت أبيهما لا يكادان يوصفان. فبعد أن شبَّكا أيديهما في ضراعة وهرعا ذهابًا وجيئةً كمجنونين، اعتلى أحدهما كتفي أخيه وحاول أن يتسلَّق وجه الجدار المرتفع الذي تحرس قمَّته برامق ونصالٌ من حديدٍ. وحين سقط وسط الحشد لم تمنعه رضوضه من تكرار المحاولة فاعتلى ثانيةً وسقط مجدّدًا، فلما وجد المهمة مستحيلةً أخذ يضرب الحجارة ويمزِّقها بيديه، كما لو كان في مستطاعه بهذه الطريقة أن يفتح كوَّةً في المبنى المنيع ليمرَّ منها إلى الداخل. لكنَّ الأخوين في النهاية نجحا في أن يشقَّا طريقهما بين الحشود حول الباب، رغم أن كثيرين يعدلونهما معًا اثنتي عشرة مرة قد حاولوا ذلك من دون جدوى، ثَمَّ رؤيا في النار –نعم، فيها– يجاهدان أن يكسرا الباب بالعتلات.

ولم يكن هذان فحسب من تأثَّرا بالصياح القادم من داخل السجن،

فقد طفقت النساء اللاتي كنَّ يراقبن المشهد يصرخن بصوتٍ عالٍ ويضربن أيديهن ويسددن آذانهن، وسقط كثيرون مغشيًّا عليهم. ولم يكن الرجال البعيدون عن الجدران غير المنشغلين بالحصار بلا عملٍ، فقد نزعوا رصيف الشارع في هياجٍ عجول لم يكن ليتجاوز لو كان ما ينزعونه حجارة جدران السجن ولو كانوا قريبين من تحقيق هدفهم. لم تمر لحظة على الحشد كان فيها واحد ممن فيه ساكنًا بلا حراكٍ. كان الجنون سيد الجموع.

صيحة! وثانية! وثالثة أيضًا، رغم أنَّ قلةً فحسب هي التي عرفت سبب الصيحة أو معناها، لكنَّ من حول البوابة رأوها تنصاع لهم ببطء وتنفصل عن مفصَّلتها العليا، فلم تعد معلَّقةً على هذا الجانب إلَّا بمفصَّلة واحدة، لكنها ما زالت منتصبةً، بسبب قضيب الحديد ولأنها قد غطست بقوة ثقلها نفسه في كومة الرماد التي تحتها. وأصبحت هناك الآن فجوة أعلى الباب يمكن من خلالها رؤية ممرٍّ مظلمٍ كئيبٍ غائرٍ. فلتعل كومة الوقود!

أخذ الوقود يحترق في شراسة. احمرَّ الباب من سخونته واتسعت الفجوة. حاولوا أن يحموا وجوههم بأيديهم من دون جدوى، وطفقوا يراقبون المكان واقفين كما لو كانوا يستعدُّون للقفز. رؤيت أشباح مظلمة تمرُّ على السقف، بعضها يزحف على الأيدي والركب، وبعضها تحمله أذرع بعض. كان من الواضح أن مقاومة المبنى تنهار. كان رئيس السجن وضباطه ونساؤهم وأطفالهم يهربون. فلتعل كومة الوقود!

غطس الباب إلى أسفل ثانيةً، حتى استقرَّ أعمق في الرماد، ارتجَّ، ثم لان، ثم سقط!

وبينا يصيحون ثانيةً تراجعوا لحظةً تاركين فضاءً خاليًا حول النار، فيما بينهم وبين مدخل السجن. قفز هيو فوق الكومة المشتعلة مبعثرًا في الهواء قطارًا من الشَّرر، ومنيرًا الردهة المظلمة بما التصق بملابسه من الشَّرر، ثم انطلق إلى داخل السجن.

تبعه الشانق، وفي إثرهما هرع كثيرون، حتى لقد وطئت النار وفرش بها الشارع، غير أن الحاجة إليها كانت قد انتفت الآن، فقد كان السجن مشتعلًا في الداخل والخارج.

* * *

الفصل الخامس والستّون

طيلة زمن هذا المشهد الذي كان قد وصل الآن إلى ذروته، كان أحد السجناء يعاني درجة من الذعر والعذاب النفسي لا يضارعها شيء، ولا حتى لدى المحكوم عليهم بالإعدام. فحين اجتمع المتمردون أولًا أمام المبنى أيقظت جلبة أصواتهم وصراع حشودهم القاتل من نومه، لو كان لإغفاءاتٍ كتلك التي يغفيها أن تنعم باسم مبارك كهذا. نهض فزعًا حين قرعت سمعه هذه الأصوات، وطفق يتسمَّع جالسًا على فراشه. وبعد فترة صمتٍ قصيرة انفجرت الضوضاء ثانية. وبمضيِّ الوقت تبيَّن من استماعه المنتبه أنَّ جمعًا هائجًا من الناس يحاصر السجن، وما لبث ضميره الآثم أن صفَّ هؤلاء المحتشدين ضده، فتملَّكه الرعب من أن يقصدوا إليه من بين السجناء ويمزِّقوا أوصاله.

وبمجرد أن تملَّكه رعب هذا التصور، كان كلُّ شيء يميل إلى تقويته وتأكيده في عيني خياله. فجريمته المزدوجة، والظروف التي ارتكبت تحتها، والمدة التي انقضت عليها، واكتشافها رغم كل شيء، كلُّ ذلك جعله في عيني نفسه الهدف المنظور لغضب الجبَّار. ووسط كل ما في سجن العاصمة العظيم من جريمة ورذيلة وظلمة نفسية كان يقف وحده، يميِّزه إثمه العظيم ويفرده، كما لو كان لوسيفر بين الشياطين! كان السجناء الآخرون جماعةً، يخبِّئ ويؤوي بعضهم بعضًا، حشدًا كانوا، كذلك

الحشد المجتمع خارج الجدران. أمَّا هو فكان رجلًا واحدًا ضد الجمع بمن فيه، رجلًا وحيدًا منعزلًا منفردًا يتحاشاه ويقشعرُّ لرؤيته كلُّ من في السجن من نزلاء.

ربما انتشر خبر القبض عليه وإيداعه هذا السجن خارج الأسوار فأتوا إلى هنا قاصدين إخراجه وقتله على قارعة الطريق، وربما هم المتمردون وقد أتوا ليخربوا السجن مواصلين خطة قديمة. لكنه كان فاقدًا كل أمل في النجاة من أيديهم في كلتا الحالتين. كانت كلُّ صيحة يصيحونها وكلُّ صوتٍ يحدثونه ضربةً موجَّهةً إلى قلبه، وكان يزداد اهتياجًا وجنونًا كلما أوغلوا في الهجوم، فيحاول نزع القضبان التي تحمي المدخنة وتمنعه من تسلُّقها، وينادي الحراس بأعلى صوته أن يتجمَّعوا حول الزنزانة وينقذوه من غضب الغوغاء، أو يضعوه في قبوٍ تحت الأرض، لا يهم عمقه ولا ظلمته ولا كراهته ولا إن كان مسكونًا بالفئران والزواحف، بل المهم أن يخفيه عن الأعين فلا تستطيع إليه سبيلًا.

لكن لم يأتِ أحدٌ ولم يجِبه. فلمَّا خاف –حتى وهو يناديهم– من أن يثير الانتباه، سكت. وبعد وقتٍ رأى وهو ينظر من خلال قضبان نافذته بصيصَ ضوءٍ غريبًا منعكسًا على جدران الفناء الحجرية ورصيفه. كان في البداية ضعيفًا يأتي ويذهب، كما لو كان ثَمَّ ضباط يحملون مشاعل يخطون ذهابًا وجيئةً فوق سطح السجن. ثم ما لبث أن احمرَّ، وتساقطت مشاعل موقدة تدوّم من أعلى لتفرش الأرض نارًا وتواصل احتراقها في الأركان في منظرٍ كئيب. تدحرج أحدها أسفل مقعد خشبي وأشعله، وأشعل آخر فسقية ماء لتتسلَّق ناره الحائط تاركةً خلفها مسارًا ناريًّا مستقيمًا طويلًا. وما هي إلَّا مدة قليلة وبدأت كسر مشتعلة تنهمر في بطء وكثافة أمام بابه من جزء

علويٍّ من السجن يكاد يكون مشتعلًا. وإذ تذكَّر أنَّ هذا الباب ينفتح إلى الخارج، فقد أدرك أنَّ كلَّ شرارة تسقط على الكومة وتفقد حياتها المتوهِّجة خلال ذلك لتموت بقعة تراب وقمامة قبيحةً كانت تساعد في دفنه في قبرٍ حيٍّ. لكن رغم أنَّ السجن كان يردِّد أصداء الصراخ وصيحات الاستغاثة، ورغم تقافز النِّيران كما لو كان كلُّ لسان لهب يتمتع بحياة نمرٍ مزمجرٍ بصوتٍ ملؤه الجوع، ورغم اشتداد الحرارة إلى درجة فظيعة، ورغم أن الهواء أصبح خانقًا، ورغم ازدياد الجلبة في الخارج، ورغم أن كل لحظة تمر كانت تزيد ما يحدق بموقفه من خطرٍ من كلِّ عنصر قاس من هذه على حدة، رغم كل ذلك كان يخشى أن يرفع صوته مجدَّدًا لئلَّا تقتحم الحشود السجن فتعرف مكان زنزانته بآذانها أو مما سيخبرها به السجناء الآخرون. هكذا كان يخشى من بالداخل ومن بالخارج على السواء، يخشى الضجيج والصمت، والنور والظلمة، يخشى أن يطلق سراحه كما يخشى أن يترك في مكانه إلى أن يموت، وهكذا بلغ منه العذاب مبلغه، حتى إن شيئًا مما اقترفه إنسان ذات يوم بحق آخر في غمرة انتشائه بالقوة والقسوة لم يكن ليتجاوز العقوبة التي عذَّب صاحبنا بها نفسه.

الآن، الآن سقط الباب. الآن أتوا منطلقين عبر أفنية السجن، يتنادون فيما بينهم في الممرات المسقوفة، ويحطمون البوابات الحديدية الفاصلة بين الأفنية، ويضربون أبواب الزنزانات والعنابر، وينزعون القضبان والأرتجة والأقفال، ويخلعون عوارض الأبواب ليخرجوا السجناء، ويحاولون سحبهم بالقوة خلال الكوى والنوافذ التي لا يمكن لطفلٍ أن يمرَّ خلالها إلا بشقِّ الأنفس، ويسعلون ويتصايحون دون لحظة راحة، ويركضون في الحرارة واللهب كما لو كانوا مصفَّحين بالحديد. وطفقوا

يسحبون السجناء إلى الخارج من أرجلهم وأذرعهم وشعر رؤوسهم. وكان بعضهم يلقي بنفسه على السجناء حين يقتربون من الأبواب، ويحاول أن يفك قيودهم، وبعضهم أخذ يرقص حول السجناء بفرحة مجنونة ويشقُّ ثيابهم، وكان يبدو أن هؤلاء مستعدون لتقطيع أوصالهم في غمرة هذه الفرحة. ثم ما لبثت فرقة من اثني عشر رجلًا أن اقتحمت الفناء الذي كان القاتل يصوِّب إليه عبر نافذته المظلمة نظرات ملؤها الخوف، وأخذوا يسحبون على الأرض سجينًا كادوا يمزِّقون ثيابه من على جسده في محاولتهم المحمومة لإطلاق سراحه، وكان هذا فاقد الوعي ينزف في أيديهم. والآن طفق قرابة عشرين مسجونًا يركضون هنا وهناك وقد فقدوا طريقهم في متاهات السجن، كما أربكتهم الضوضاء والوهج حتى لقد حاروا إلى أين يذهبون أو ماذا عساهم يفعلون، فواصلوا الاستغاثة صائحين صياحًا جهيرًا كما كانوا يفعلون. وبين لحظة وأخرى يُرى تعسٌ جائعٌ لم تكن سرقته إلَّا رغيف خبز أو قطعةً من لحم الجزار، يمرُّ مستخفيًا حافي القدمين، في طريقه إلى الخروج لأن هذا السجن الذي كان بيته يحترق، لا لأن في حوزته بيتًا آخر، ولا لأن لديه أصدقاء سيلقاهم، ولا أماكن قديمةً اعتاد ارتيادها ينوي أن يلمَّ بها، ولا أي حرية سيكسبها إلَّا حريته في أن يتضوَّر جوعًا فيموت. ثم مرَّت جماعة من قطَّاع الطرق يقودهم أصدقاؤهم الذين لهم من بين الحشود، وهم يخفون أصوات أغلالهم خلال مشيهم بالمناديل وبأشرطة من القش، ويدثِّرونهم بالمعاطف والعباءات ويرفعون إلى شفاههم الزجاجات ليشربوا منها بسبب أغلال أيديهم التي لم يكن ثَمَّ وقتٌ ليخلِّصوهم منها. كان كلُّ ذلك يحدث، وربما ما هو أكثر منه مما لا يعلم إلا الله، وسط جلبة وعجلة وذهول من الصعب تخيُّلها حتى في

أحلامنا، ظلَّت تزداد وتزداد ولا تكاد تخبو ولا لحظةً واحدة.

ظلَّ صاحبنا ينظر من نافذته إلى ما يحدث، وإذا فرقة من الرجال مدجَّجة بالمشاعل والسلالم والفؤوس وغيرها من الأسلحة تندفق إلى الفناء وتدقُّ باب زنزانته، ويتساءل من فيها عمَّا إذا كان في الزنزانة سجين. حين رآهم ترك النافذة وتراجع إلى أبعد ركنٍ في الزنزانة، لكن رغم أنه لم يحر جوابًا إلَّا أنهم تراءى لهم أنَّ أحدًا ما بالداخل، إذ إنهم سرعان ما أسندوا السلالم إلى جدار الزنزانة، وشرعوا ينزعون القضبان من إطار النافذة، وليس ذلك فحسب، وإنما أخذوا يحفرون حجارة الجدران نفسها بالبلط.

وبمجرد أن أحدثوا كوةً في النافذة تكفي لمرور رأس إنسان، أدخل أحدهم مشعلًا منها وأخذ يقلِّب بصره في الغرفة، فتبع صاحبنا نظرة ذلك الرجل إلى أن استقرَّت عليه هو نفسه، وسمعه يسأله لِمَ لم يُجِب عن سؤالهم، لكنَّه لم يحر جوابًا هذه المرة كذلك.

والحق أنهم كانوا قد اعتادوا مثل ذلك في جو المفاجأة والدهشة المخيِّم على الموقف، فطفقوا يوسعون الكوَّة التي أحدثوها إلى أن صارت تكفي لمرور جسد رجلٍ، وذلك من دون أن يفوه أحدٌ بحرفٍ زيادةً، ثم أخذوا يتساقطون منها إلى أرضية الزنزانة واحدًا في إثر الآخر، حتى امتلأت بهم الزنزانة، ثم ما لبثوا أن رفعوه بينهم إلى النافذة، وأوصله أولئك الواقفون على السلَّم إلى رصيف الفناء. ثم خرج الباقون واحدًا وراء الآخر، وبعد أن أمروه بأن يهرب على الفور من دون أن يضيِّع وقتًا وإلا وجد الطريق مسدودةً، هرعوا لنجدة سجناء آخرين.

بدا أنَّ الأمر لم يستغرق ولا دقيقةً واحدةً من بدايته إلى نهايته. ترنَّح واقفًا على قدميه غير مصدِّق ما حدث، وإذا الفناء يمتلئ مجددًا بحشدٍ مسرعٍ وفيه بارنابي. حدث هذا في دقيقة تالية، لا، لم يأخذ الأمر كلَّ ذلك الوقت! بل في اللحظة نفسها من دون مدة تفصل الحدثين، أخذت الأيدي تتناقله هو وابنه وسط الزحام الكثيف في الشارع، ووجدا نفسيهما ينظران إلى الخلف حيث كومة عالية تحترق، قال أحدهم إنها كانت سجن (نيوغات).

فرَّق المتمردون أنفسهم على طرقات السجن منذ اللحظة الأولى لاقتحامهم إيَّاه، فلم يتركوا منه شقًّا ولا ثغرةً لم يدخلوها، كما لو كانوا على علم تامٍّ بخارطة أجزائه الداخلية وفي أذهانهم صورة دقيقة له في مجمله. وقد كانوا مدينين في هذه المعرفة الدقيقة بالمكان بدرجة كبيرة دون شكٍّ للشَّانق الذي وقف في الردهة يوجِّه بعضهم أن يسلكوا هذه الطريق وبعضهم أن يسلكوا تلك، فكان له الفضل في السرعة المذهلة التي أنجزت بها مهمة إطلاق سراح السجناء.

غير أنَّ رجل تنفيذ القانون هذا قد احتفظ لنفسه بمعلومة مهمة حجبها عنهم، فإنه لمَّا أصدر تعليماته بخصوص كلِّ جزء من المبنى، وتفرَّق الحشد من أقصى السجن إلى أقصاه وانشغل من فيه بمهماتهم، أخذ هو حزمة مفاتيح من دولاب في الحائط، ثم سلك ممرًّا متاخمًا للكنيسة المتاخمة لمنزل حاكم السجن، التي كانت تحترق في تلك اللحظة، وقصد إلى زنزانات المحكوم عليهم التي لم تكن إلا سلسلةً من الغرف الصغيرة الحصينة الكئيبة التي تُفتَح على دهليزٍ منخفضٍ، وتحرسها عند الطرف الذي دخل منه خوخة حديدية منيعة، وعند الطرف المقابل بابان

وحاجز قضبان غليظ. وبعد أن أغلق الخوخة إغلاقًا مزدوجًا واطمأنَّ إلى أنَّ المداخل الأخرى مؤمَّنة جيدًا، جلس على مقعدٍ في الدهليز وأنشأ يمصُّ رأس عصاه وعلى سيماه آي الرضا والهدوء والسكينة!

ولو أنَّا سمعنا برجلٍ يمتِّع نفسه بهذا الأسلوب الهادئ بينما السجن يحترق والهواء يشقُّه هذا الصخب العنيف لاعتبرنا ذلك من الغرابة بمكان، ولو كان ذلك الرجل خارج جدران السجن. أما هنا في قلب المبنى، مع صلوات وصراخ الأربعة الرجال المحكوم عليهم بالإعدام يتردَّد صداها في أذنيه إضافةً إلى ذلك، وأيديهم ممدودة من خلال قضبان أبواب زنزاناتهم، مشبَّكة في ضراعة مجنونة أمام ناظريه، فقد كان الأمر حقًّا جديرًا بالالتفات. والحق أنَّ مستر دنس بدا أنه يعتقد أنه ظرفٌ نادرٌ، ويمازح نفسه بشأنه، فقد أمال قبَّعته جانبًا كما يفعل بعض الرجال حين يستبد بهم مزاج الدعابة، وأخذ يمصُّ رأس عصاه وقد بلغت منه اللذة مبلغها، وابتسم كمن يقول «يا لك من شخصٍ غريبٍ يا دنس! إنسان عجب! صاحب مثير للإعجاب! شخصية متفرِّدة!».

ظلَّ جالسًا هكذا عدة دقائق، بينما أخذ الأربعة الرجال الواثقون داخل زنزاناتهم أن شخصًا ما قد دخل إلى الدهليز وإن لم يستطيعوا أن يروا من هو، أخذوا يتوسَّلون ويتضرَّعون ضراعات مثيرةً للشفقة من النوع الذي ينتظر أن يوحى به إلى تعساء في مثل حالهم البائسة، فيرجونه أيًّا من كان أن يطلق سراحهم لأجل السماء، ويحتجُّون في حرارة –وربما في صدقٍ، على الأقل في تلك اللحظات– بأنهم إن هربوا فسيصلحون طرائقهم ولن يعودوا إلى الخطيئة في عيني الرب أو في أعين خلقه، وإنما سيعيشون حياةً عاقلةً تائبةً ويندمون في حزنٍ على ما اقترفوه من جرائم. وكانت الحرارة

الرهيبة التي يتكلمون بها كفيلةً بأن تلين قلب أيِّ إنسان بغض النظر عن طيبته أو عدله –لو كان لأيِّ إنسان طيبٍ أو عادلٍ أن تقوده قدماه إلى ذلك المكان الحزين في تلك الليلة– لأن يطلق سراحهم، وأن ينقذهم من هذا العقاب الأخير الفظيع الكريه ولو كان سيترك لكلِّ عقوبة أخرى أن تأخذ مجراها، لا سيَّما أنه عقابٌ لم يغيِّر أبدًا إنسانًا يميل إلى الشر، وإنما دفع إلى قسوة القلب بآلاف كانوا يميلون نصف ميل إلى الخير.

كان مستر دنس –ذلك الذي رُبِّي وغُذِّي تبعًا لأعراف المدرسة القديمة الصالحة، والذي طالما نفَّذ القوانين القديمة الصالحة على الطريقة القديمة الصالحة– قد دأب لفترة طويلة أن يعامل هذه التوسُّلات بقدرٍ من التفلسف مرة وربما مرتين كل ستة أسابيع. غير أنه لمَّا شعر أخيرًا أنَّ تكرارها على هذا النحو يزعج تأمُّلاته السعيدة أخذ يضرب أحد الأبواب بعصاه صائحًا: «كفُّوا عن هذه الضوضاء، اتَّفقنا؟!».

إذ ذاك صاحوا جميعًا أنهم سيشنقون غدًا عدا واحدًا، وعادوا يتوسَّلون عونه، فردَّ عليهم وهو يضرب ممازحًا عقل أصابع اليد الممدودة الأقرب إليه:

«عوني؟ علام؟».

صاحوا: «على إنقاذنا!».

غمز للحائط في غياب كل صديق يمكنه أن يضحك معه من المزحة وقال: «أوه! بالطبع! وهكذا فأنتم بسبيلكم إلى أن تشنقوا، أليس كذلك يا إخوتي؟».

صاح أحدهم: «إلّا إن أطلق سراحنا الليلة، فإن لم يحدث فنحن في عداد الأموات!».

قال الشانق برصانة: «أنا أخبركم بالأمر، أخشى يا صديقي ألا تكون الآن في حالة نفسية ملائمة لوضعك. وإذن فإنك لن يُطلق سراحك، لا تفكر بذلك. أيمكن أن تغادر هذا الصف السافل؟ إني لأتعجَّب لأنَّكم لا تخجلون من أنفسكم!».

وأتبع هذا التقريع بأن ضرب براجم أيديهم واحدًا وراء الآخر، فلما فرغ من ذلك استعاد جلسته والسعادة بادية في ملامحه. ثم قال وهو يضع ساقًا فوق أخرى ويرفع حاجبيه:

«كان لديكم قانون، لقد صُنِعت القوانين خصِّيصًا لأجلكم، وبني سجن بالغ الأناقة خصيصًا لأجلكم، واحتفظ فيه بقسٍّ لأجلكم، وعُيِّن موظف دستوري لأجلكم، واحتفظ لأجلكم بالعربات، ثم إنكم غير راضين بعد كل ذلك! أيها السيد في الزنزانة القصية، ألن تكفَّ عن هذه الجلبة؟!».

لم يحر السيد من إجابة إلّا أنينًا، فقال مستر دنس بنبرة يختلط فيها المزاح بالاحتجاج:

«فيما أرى، ليس بينكم رجلٌ. أكاد أميل إلى الظن الآن أنني في الجانب المقابل من السجن بين السيدات، رغم أنني قد رأيت بين السيدات كثيرات يواجهن الأمر بطريقة تشرِّف جنسهنَّ. أما أنتم فتحلُّون في المرتبة الثانية، وليس لكم أن تشتكوا إزاء ذلك».

ثم واصل وهو يضرب الباب بعصاه: «لم أر في هذا المكان من قبل من هو أسوأ منكم أسلوبًا، إنني في غاية الخجل منكم، إنكم عارٌ على نظامنا القضائي كله».

وبعد أن توقّف مستر دنس لحظةً يسمع إن كان لديهم ما يحتجُّون به، واصل بنبرة متملِّقة: «والآن انظروا أيها الأربعة، لقد أتيت إلى هنا لأعتني بكم، وأتأكد أنكم لم تُحترَقوا. لذا فمن غير المجدي أن تحدثوا أيَّ جلبة، لأنَّ من اقتحموا السجن لن يعثروا عليكم، ولن تزيدوا أنفسكم إلَّا بحَّة صوت حين يأتي ميعاد المحاكمة، وهو أمرٌ مثيرٌ للشفقة. وما أقوله دائمًا بشأن المحاكمة هو «تكلَّموا»، هذا شعاري، تكلّموا».

ثم واصل الشانق وهو يخلع قبَّعته ليأخذ من أعلاها منديله ليمسح به وجهه ثم يلبسها مجددًا، مميلًا إيّاها جانبًا أكثر مما كانت:

«لقد سمعت.. سمعت بلاغةً في المجالس. تعرفون أي مجالس أعني. وسمعت درجةً من الكلام في المحاكمات، كانت رائقةً كصوت الجرس، جيدةً كمسرحية. هناك نموذج! ودائمًا حين يحين أمرٌ من هذا النوع، فإن ما أنصح به هو الحالة المزاجية الملائمة. دعونا نحصِّل حالةً مزاجيةً ملائمةً وسنستطيع أن نخوض المسألة بطريقة موثوقة سعيدة ودود. فأيًّا كان ما تفعلونه –وإنني في ذلك بالتحديد أخاطب ذلك الذي في الزنزانة القصية– لا تتباكوا. إنني على استعداد لأن أرى رجلًا يمزق ملابسه عامدًا ليفسدها قبل أن تصل إلى يدي –رغم ما في ذلك من خسارة لي– ولا أراه يتباكى. فإن الأول في حالة مزاجية تفضل حالة الثاني عشر مرات!».

وبينما يخاطبهم الشانق على هذا النحو بنبرة وأسلوب راعٍ يخاطب شعب كنيسته خطابًا أليفًا، إذا الجلبة تخفت بدرجة ما، إذ انشغل المتمردون

بنقل السجناء إلى (بيت الجلسات)[1] الذي كان خارج جدران السجن وإن كان متصلًا به، كما انشغلت الحشود بنقلهم من هناك عبر الشارع. غير أنه حين وصل إلى هذه النقطة من حديثه كانت الأصوات في الفناء تشي بعودة الحشود وبأنها متجهة صوب مكانه، ثم ما لبث صوت ارتطام عنيف عند الحاجز القضباني السفلي أن أوضح أنهم يهاجمون الزنزانات الآن أخيرًا.

وعبثًا أخذ الشانق يركض من بابٍ إلى آخر ويغطي بقبَّعته النوافذ ذات القضبان واحدةً وراء أخرى محاولًا أن يكتم صوت صراخ الرجال الأربعة بالداخل، وعبثًا طفق يتعقَّب أيديهم الممدودة ويضربها بعصاه أو يهددهم بإيلامهم آلامًا مبرحةً لا عهد لهم بها وهو ينفِّذ مهام وظيفته، فقد كان السجن يردد أصداء صراخهم. وتضافر هذا الصراخ مع شعور المحاصرين بأن هؤلاء آخر من في السجن فكان لهما معًا أكبر الأثر في إثارتهم، حتى إن اقتحامهم النافذة السفلية المنيعة ذات القضبان لم يستغرق إلا وقتًا بالغ القصر، تلك النافذة التي كانت تتكون من قضبان من الحديد قطر الواحد منها بوصتان، واقتحموا البابين الآخرين كما لو كانا مجرد حواجز ورقية، وها هم الآن واقفون في نهاية السرداب لا يفصلهم عن الزنزانات إلَّا قضيب أو اثنان.

صاح هيو الذي كان أول من نظر خلال الممر المظلم: «هالوا! دنس

(١) Sessions House كان بيت الجلسات تاريخيًّا عبارةً عن قاعة محكمة تُعقَد فيها جلسات أيام أواخر أرباع السنة الأربعة، وكان في المملكة المتّحدة كثير منها، يأتي في مقدمتها ذلك الكائن في (أولد بايلي Old Bailey) في قلب لندن.

أمامنا! حسنًا ما فعلت أيها الرفيق العجوز. أسرع وافتح لنا، قبل أن يخنقنا الدخان في خروجنا».

قال دنس: «إذن اخرجوا على الفور، ماذا تريدون من هنا؟».

ردَّد هيو سؤاله متعجِّبًا: «ماذا نريد؟! الرجال الأربعة».

صاح الشانق: «أربعة شياطين! أما علمت أنهم محكوم عليهم بالموت الخميس القادم؟ ألا تحترم القانون؟ الدستور؟ ألا تحترم شيئًا؟ دع الرجال الأربعة وشأنهم».

صاح هيو: «هل هذا وقتٌ مناسبٌ للمزاح؟ ألا تسمعهم؟ انزع هذه القضبان المثبَّتة بين الباب والأرضية، ودعنا ندخل».

قال الشانق بصوتٍ خفيضٍ وهو ينحني متظاهرًا بفعل ما طلبه هيو وإن كان في الحقيقة ينظر في وجهه فحسب:

«أخي، ألا يمكن أن تترك هؤلاء الرجال الأربعة لي إن كان يحلو لي هذا؟! إنك تفعل ما يحلو لك وتأخذ ما تشاء من كل شيء ضمن نصيبك، فأعطني نصيبي. وأنا أقول لك إنني أريدكم أن تتركوا هؤلاء الأربعة وشأنهم!».

لم يزد رد هيو على أن قال: «انزع القضبان أو ابق بعيدًا عن طريقنا».

قال الشانق ببطء: «تستطيع أن تجعل الحشد يستدير خارجًا إن شئت، فأنت تعرف السبيل إلى ذلك جيدًا يا أخي. ماذا؟! ستدخلون؟ أحقًّا؟!».

«أجل».

قال الشانق وهو يتراجع إلى الباب الذي دخل منه وينظر إلى رفيقه في

عبوسٍ: «ألن تترك هؤلاء الرجال وشأنهم وتتركهم لي؟ إنك لا تحترم أيَّ شيء، أليس كذلك؟ أنت ستدخل، أليس كذلك يا أخي؟!».

«أقول لك نعم، ماذا يضيرك من هذا بحق الشيطان؟ إلى أين أنت ذاهب؟».

ردَّ الشانق وهو ينظر إلى الداخل مجددًا من خلال الخوخة الحديدية التي كاد يغلقها على نفسه وإن كان يواربها:

«لا يهم إلى أين أذهب، تذكَّر من أين أتيت، فهذا هو المهم!».

قالها واهتزَّ ظلُّه أمام ناظري هيو، ثم ابتسم له ابتسامةً تبدو ابتسامته المعتادة لطيفةً إذا ما قورنت بها، ثم اختفى وأغلق الباب. لم يطل سكون هيو. مدفوعًا بصراخ المتهمين ونفاد صبر الحشود حذَّر الرجل الواقف خلفه بالضبط أن يتراجع -فقد كانت الطريق لا تتسع إلّا لواحدٍ- وأمسك بمطرقة ثقيلة ضرب بها القضبان ضربات قليلةً قويةً، انحنى الحديد لها وانكسر وسمح لمن وراءه بالدخول.

ولو كان ابنا أحد هؤلاء الرجال الأربعة -اللذان قد أتينا على ذكرهما من قبل- مهتاجين في حماسهما قبل هذه اللحظة، فقد كانت لهما الآن قوة وغلّ الأسود. مضت فرقة لتعمل على كل زنزانة مقتحمةً بابها بالقوة ونازعةً العوارض والأرتجة من مكانها، وهي تهيب بالرجل المحبوس في كلّ أن يتراجع بقدر ما يستطيع لئلّا تصيبه الفؤوس الهاوية على الباب. لكن رغم أن هذين الفتيين كانا في الفرقة الأضعف وكان تسليحها الأسوأ بين الفرق، ورغم أنهما لم يبدآ العمل إلا بعد أن بدأ الآخرون، حيث توقَّفا وقتًا ليهمسا لأبيهما عبر القضبان، رغم كل ذلك فقد كان باب زنزانة أبيهما

أول ما انفتح من الأبواب، وخرج أبوهما أول الأربعة. وبينما يسحبانه عبر السرداب ليفصلا عنه أغلاله سقط بينهما كومةً من الأغلال، وحمل إلى الخارج على أكتاف الرجال وهو على هذه الحال دون أثر لحياة.

كان تتويج ما اكتنزه المشهد العام من رعبٍ هو إطلاق سراح هذه المخلوقات الأربعة التعيسة ونقلهم حائرين دهشين إلى الشوارع المفعمة بالحياة، ذلك المشهد الذي لم يتصوروا أن يروه ثانيةً حتى خرجوا من العزلة والصمت في هذه الرحلة الأخيرة حيث الجو تثقله أنفاس الآلاف المكبوتة، والشوارع والمنازل تكاد تكون مبنيةً ومسقوفةً بالوجوه البشرية، لا بالطوب والقرميد والحجارة. كان يميزهم في أعين الحشد شحوبهم ورثاثتهم وأعينهم الغائرة وأقدامهم المترنِّحة وأيديهم الممدودة كما لو كانوا يحافظون بها على اتزانهم لئلَّا يسقطوا، فضلًا عن مسلكهم المتذبذب المفتقد إلى الثّقة ومنظرهم وهم يتنفَّسون بصعوبة بالغة أوَّل ما غطسوا في الزحام كما لو كانوا في الماء. لم تكن من حاجة إلى أن يقال «إنَّ هذا كان محكومًا عليه بالإعدام» فقد كانت هذه الكلمات مطبوعةً على وجوههم تسمهم بين الناس. تراخت الحشود كما لو كان هؤلاء الأربعة محمولين إلى أجداثهم ثم قاموا أحياء في أكفانهم، ورؤي كثيرون يرتجفون كلما لمسوا ملابس أيٍّ من الأربعة بالصدفة أو احتكُّوا بها، كما لو كانوا أمواتًا حقًّا.

وبأمر الحشود أضاء الناس منازلهم في تلك الليلة من قممها إلى أرضياتها كما لو كان الوقت وقت فرح وابتهاجٍ شعبيٍّ. وبعد مضي أعوام كثيرة كان كثير من المسنِّين الذين عاشوا في شبابهم قرب هذا الجزء من المدينة يذكرون أنهم شهدوا في تلك الليلة وهجًا عظيمًا، سواء داخل

البيوت أو خارجها، وأنهم رأوا وهم ينظرون من نوافذهم -وهم بعد أطفال خائفون- وجهًا مرعبًا يمرُّ! ورغم نسيانهم تلك الحشود الهائلة وكل ما لها من رهبة، فقد بقيت منها هذه الذكرى وحدها، واضحةً كفلق الصبح. بل إنه حتى في عقول الرضَّع غير المدربة، فإن منظر أحد هؤلاء الأربعة الذي لم ير إلا لحظةً، وهو منطلق بسرعة بدفع الحشود، كان من القوة بحيث شحب في خلفيته منظر الحشود أجمعها، ووجد لنفسه مكانًا في ذاكرة الرضَّع وظلَّ به دائمًا.

وحين أنجزت هذه المهمة الأخيرة، خفت الصياح والصراخ، ولم تعد تُسمَع جلبة الأغلال التي كان صداها يتردد في جنبات الطرق في أثناء تهريب السّجناء، وخفت ضجيج الحشود فبات لغطًا أجشَّ كئيبًا وهي تبتعد عن مسرح عملياتها، وحين انقشع هذا الضباب الآدمي بقيت كومة من الأطلال يتصاعد منها الدخان، تميِّز البقعة التي كانت الحشود فيها تهتاج وتزمجر.

* * *

الفصل السادس والستّون

رغم كون مستر هاردال لم يحظَ بأيِّ قسطٍ من الراحة في الليلة الماضية، ورغم أنه واصل المراقبة طيلة الأسابيع الفائتة، لا يقطعها إلَّا قليلًا، ولا ينام إلا سويعات يختطفها من النهار ويقوم منها فزعًا، فإنه أخذ يبحث عن ابنة أخيه منذ الفجر إلى الغروب في كل مكان اعتبر أنه من الممكن أن تكون قد أوت إليه. لم تبتل شفتاه طيلة اليوم إلا بجرعة ماء، رغم أنه قد وسَّع دائرة بحثه عنها بأقصى ما استطاع، ولم يرتح جالسًا خلال ذلك ولا مرةً واحدة.

بحث في كلِّ ركنٍ خطر له، في تشغول وفي لندن، في منازل أصحاب الحرف الذين دأب التعامل معهم، وعند أصدقائه. ظلَّ ينتقل من حاكم محليٍّ إلى آخر، فريسةً للقلق والخواطر السيئة، حتى وصل في النهاية إلى وزير الدولة. ولم يرحه أحدٌ أقل راحة إلا هذا الوزير الذي طمأنه أن الحكومة الآن وقد وجدت نفسها مضطرةً إلى ممارسة أقصى صلاحيات التاج مصممة على بذل ما في وسعها بمقتضى هذه الصلاحيات، وأنه ربما يصدر إعلان رسمي غدًا يمنح الجيش قوةً تقديريةً غير محدودة في إخماد أحداث الشغب، وأن الملك والحكومة ومجلسي البرلمان وكل الخيِّرين من كل طائفة دينية متعاطفون جميعًا بقوة مع مصاب الكاثوليك، وأنه لا

بديل عن إعادة حقوقهم إليهم بأي ثمن ومهما كانت التضحيات. كما أخبره بأن آخرين أحرقت منازلهم فقدوا أثر أطفالهم أو أقاربهم، لكنهم تمكنوا في كل الحالات التي أحاط بها علمه من اكتشاف أماكن مفقوديهم، وأنه لا محيص عن تذكر شكواه والنص عليها بالكامل ضمن التعليمات التي ستوجه إلى قادة الضباط وإلى أصغر تابع من منفِّذي العدالة، وأنه لا بُدَّ من فعل كل ما من شأنه مساعدته بنيَّة طيبة وإخلاص.

انسحب مستر هاردال من حضرة الوزير شاكرًا تعزيته على ضعف إشارتها إلى الماضي وضآلة ما أحيت من أمل في انفراج الغمِّ الأثقل على قلبه، ممتنًّا حقًّا لما أبداه الوزير من اهتمام ومشاركة في الشعور بحاله. ومع دخول الليل وجد نفسه وحيدًا في الشوارع، مفتقرًا إلى مكان يضع فيه رأسه لينام.

دخل فندقًا قرب (تشارن كرس)[1] وطلب طعامًا وفراشا. ثم رأى أن مظهره المتعب المنهك قد جذب اهتمام صاحب الفندق وندله، فخطر له أنهم ربما ظنُّوه معدمًا، فأخرج حافظته ووضعها على المنضدة. قال صاحب الفندق بصوتٍ مرتجفٍ إنَّ الأمر ليس كذلك، فإنه لو كان واحدًا ممن عانوا على يد المتمردين فإنه لا يجرؤ على أن يزوده بطعامٍ. إن لديه أسرةً وأطفالًا، وقد تلقى تحذيرًا مضاعفًا أن يحذر في استقبال نزلائه. طلب الرجل منه بحرارة أن يسامحه على ذلك، لكنه ليس لديه ما يفعله سوى هذا.

---

(١) Charing Cross تقاطع شهير في لندن تلتقي فيه ستّ طرق، كما يشير الاسم إلى الصليب التذكاري للملكة إليانور Queen Eleanor Memorial Cross.

لا شيء، وما من أحد كان أصدق شعورًا بذلك من مستر هاردال، فما كان منه إلا أن قال ذلك للرجل وغادر الفندق. ولمَّا شعر بأنه كان يجب أن يتوقع حدوث ذلك بعد ما رآه صباحًا في تشغول حيث لم يجرؤ رجلٌ على أن يلمس مجرفةً رغم أنه قد وعد بمكافأة سخية كل من يأتي ويحفر بين أطلال منزله، مشى في (الاستراند) وهو يأنف أن يعرِّض نفسه لرفضٍ آخر، ولديه من كرم الروح ما يمنعه من أن يورِّط في الغم أو الخراب أي صاحب حرفة شريف قد يضعف أمام حاله فيؤويه. أخذته قدماه إلى أحد الشوارع قرب ضفة النهر، وبينما يخطو ذهابًا وجيئةً مستغرقًا في التفكير في أشياء مرَّ على حدوثها زمنٌ طويلٌ، إذا هو يسمع خادمًا ينادي من نافذة علوية خادمًا آخر على الجانب الآخر من الشارع قائلًا إن الحشود قد أضرمت النيران في (نيوغات).

في نيوغات! حيث كان ذلك الرجل؟! عادت إليه قوته الذاهبة، واستعاد في التوِّ طاقته مضاعفةً عشر مرات. لو كان هذا ممكنًا، ولو حدث أنهم قد أطلقوا سراح القاتل، فهل مكتوب عليه بعد كل ما خاضه أن يموت والشكوك ما زالت تحوم حوله قاتلًا لأخيه؟

لم يكن في كامل وعيه وهو في طريقه إلى السجن، لكن ها هو الآن واقف أمامه. كانت الحشود متضاغطةً في كتلة متحركة كثيفة قاتمة، وها هي ألسنة اللهب تتطاير في الهواء. دار رأسه ودار، وأومضت الأنوار أمام ناظريه، وقاوم رجلين مقاومةً عنيفة.

قال أحدهما: «لا لا، كن نفسك أكثر من ذلك يا سيدي الطيب. إننا نثير الفضول بوقوفنا هنا. دعنا نترك هذه البقعة. ما تستطيع أن تفعل بين هذه الكثرة من الرجال؟».

قال الآخر وهو يدفعه أمامه بقوة: «هذا السيد يفعل دائمًا شيئًا ما. إنني معجب به لذلك. إنني معجب به حقًّا لذلك».

كانا إذ ذاك قد اقتاداه إلى فناء على مقربة من السجن. نقَّل بصره بينهما وهو يحاول أن يحرِّر نفسه من قبضتيهما، وشعر بأنه يترنَّح. كان من تكلَّم منهما أولًا هو ذلك السيد العجوز الذي رآه لدى زيارته اللورد الحاكم العام. أما الآخر فلم يكن غير (چون غروبي) الذي وقف إلى جانبه في رجولة في وستمنستر. سألهما بصوتٍ بادي الضعف:

«ما يعني ذلك؟ كيف اجتمعنا هنا معًا؟».

ردَّ صاحب الحانة: «على أطراف الحشد. لكن تعال معنا. فضلًا تعال معنا. يبدو أنك تعرف صديقي هذا؟».

نظر مستر هاردال بوعي غائمٍ إلى چون وقال: «بالتأكيد».

ردَّ السيد العجوز: «سيخبرك إذن أنني رجلٌ يوثق به، إنه خادمي. كان إلى وقتٍ قريبٍ كما تعرف بالتأكيد في خدمة لورد چورچ غوردن، لكنه تركها ونقل بنيَّة طيبة إليَّ وإلى آخرين حدَّدهم مثيرو الشغب أهدافًا لعملياتهم معلومات ألمّ بها تخصّ خططهم».

قال چون وهو يلمس قبعته محيّيًا: «بشرطٍ واحدٍ إذا سمحت يا سيدي. لا شهادة ضد سيدي اللورد، فهو ليس إلّا رجلًا طيب القلب غُرِّر به، إنه لا يقصد كلَّ ذلك أبدًا».

ردَّ صاحب الحانة العجوز: «سنحافظ على هذا الشرط بالطبع، إنها مسألة شرف. لكن تعال معنا يا سيّدي، أرجوك تعال معنا».

لم يضف (چون غروبي) أيّ توسُّلات وإنما تبنَّى نوعًا مختلفًا من

وسائل الإقناع بأن وضع ذراعه في إحدى ذراعي مستر هاردال بينما تأبَّط سيده الأخرى، واقتاده بعيدًا بأقصى ما أوتي من سرعة. أدرك مستر هاردال من خفَّة غريبة برأسه وصعوبة يجدها في تركيز أفكاره على أي شيء، لدرجة أنه لا يستطيع أن يحفظ في ذهنه هوية رفيقيه دقيقةً واحدةً من دون أن يعيد النظر في وجهيهما، أدرك أنَّ ما تعرَّض له وما زال فريسةً له من معاناة وغليان قد أثَّر بذهنه، فما كان منه إلَّا أن أسلم لهما قياده. وبينا هم في طريقهم، انتبه لأنَّه لا يملك شيئًا مما يقول أو يفكر، وأنه يخشى أن يجنّ.

كان صاحب الحانة يقطن كما أخبره في لقائهما الأول في (هولبورن هل) حيث مخازنه الكبيرة وتجارته الواسعة. اقتربوا من منزله عبر مدخل خلفيٍّ ليتفادوا أن تلاحظهم الحشود، وأتوا على غرفة علوية تطلُّ على الشارع، غير أنَّ نوافذها كنوافذ كلِّ غرف المنزل كانت مبطَّنةً من الداخل بالألواح حتى يبدو المنزل من الخارج غارقًا في ظلامٍ دامسٍ. أرقداه على أريكة في تلك الغرفة، فاقدَ الوعي تمامًا، لكنَّ چون أتى في التوِّ بجرَّاح سحب منه كميةً كبيرةً من الدم، ما لبث على إثرها أن استعاد وعيه. ولمّا كان أضعف من أن يمشي، فإنهما لم يجدا صعوبةً في إقناعه بأن يظل حيث هو تلك الليلة، وأرقداه في فراش دون إضاعة دقيقة واحدة. بعد ذلك أعطياه شرابًا منعشًا وبعض الخبز المحمَّص ثم شرابًا مهدِّئًا قويًّا ما لبث أن سقط تحت تأثيره نائمًا، ناسيًا متاعبه لبعض الوقت.

لم يكن صانع الخمور العجوز الثمين الشديد الإخلاص هذا يريد أن يأوي إلى فراشه، إذ إنه قد تلقَّى عدة تحذيرات مهددة من مثيري الشغب، ولم يخرج في الحقيقة تلك الليلة إلا محاولًا أن يجمع من أطراف أحاديث

الحشود ما يفيد إن كانوا يعتبرون منزله الهدف القادم لهجومهم. سهر الليل كلّه جالسًا في مقعدٍ مريحٍ في الغرفة نفسها، مغفيًا قليلًا كلَّ حين، متلقيًا بين الفينة والفينة ما ينقل إليه چون غروبي واثنان آخران أو ثلاثة من مستخدميه الجديرين بالثقة من تقارير، وقد كان هؤلاء يخرجون إلى الشارع كعناصر استطلاع، وقد وُضِع لهم قدرٌ وافرٌ من الطعام والشراب الطيّبين في غرفة متاخمة، وكان الخمَّار نفسه يأخذ منهما بنصيب بين الفينة والفينة رغم ما هو فيه من قلقٍ.

وكان ما يعودون به من تقارير مقلقًا بدرجة كبيرة منذ البداية، لكنه كان يسوء كلما أوغل الليل، فيضم المزيد من الخراب والفوضى الرهيبين، حتى لقد بدا كلُّ ما ثار من قلاقل إلى الآن كأنَّه لا شيء إلى جوار هذه الأخبار الجديدة.

وأوَّل ما وصل من أخبار كان استيلاء الحشود على نيوغات، وهروب السجناء كافة، وقد كان رنين أغلال هؤلاء وهم في طريقهم إلى (هولبورن) والشوارع المتاخمة يعلن مسارهم للمواطنين المحبوسين في منازلهم، فقد شكَّل ما يشبه حفلًا كئيبًا سمع في الأنحاء كافة كما لو كانت كثرة كاثرة من ورش الحدادة تعمل معًا في الوقت نفسه. كذلك كانت ألسنة اللهب تتراءى ساطعةً براقة من مناور منزل الخمَّار، حتى لقد ضاءت الغرف وضاء الدرج بالأسفل كما لو كنَّا في وضح النهار، بينما بدا صياح الحشود القصي كما لو كان يهزُّ الجدران والأسقف نفسها.

بعد فترة سمعوا يقتربون من المنزل، وتلت ذلك دقائق من القلق الرهيب. وصلوا إلى قرب المنزل ووقفوا أمامه، لكن بعد أن أطلقوا ثلاث صيحات عالية مضوا في طريقهم. ورغم أنهم قد عادوا عدة مرات في

تلك الليلة، باعثين قلقًا متجددًا في كلِّ مرة، فإنهم لم يفعلوا شيئًا هناك، إذ كان بأيديهم ما يشغلهم عن ذلك. وبعد أن مضوا أول مرة بقليلٍ هرع أحد عناصر الاستطلاع إلى داخل المنزل يحمل أخبارًا تفيد أنهم قد توقفوا أمام منزل لورد مانسفيلد في ميدان بلومزبري.

بعد ذلك بقليلٍ جاء عنصرٌ آخر، وثان وثالث، ثم عاد أولهم، وهكذا اكتملت حكايتهم بالتدريج شيئًا فشيئًا كالتالي: أنَّ الحشود تجمَّعت حول منزل لورد مانسفيلد[1]، وأهابوا بمن بالداخل أن يفتحوا الباب، فلما لم يتلقَّوا ردًّا -إذ كان اللورد والسيدة مانسفيلد قد هربا عبر طريق خلفية- اقتحموا المكان كما اعتادوا. بعد ذلك بدؤوا يخرِّبون المنزل في هياجٍ عظيمٍ، ويضرمون النار في أجزاءٍ عديدة منه، فأحدثوا خرابًا شملَ كلَّ الأثاث الثمين والخزف والحليِّ وسرداب جميل محلّىً باللوحات، فضلًا عن أندر مجموعة مخطوطاتٍ امتلكها شخصٌ واحدٌ في العالم كلِّه، والأسوأ من كل ذلك -إذ لا يمكن تعويض تلك الخسارة- خراب المكتبة القانونية العظيمة التي سجَّل القاضي في كلِّ صفحة من كتبها تقريبًا ملاحظات بخطِّ يده لا تُقدَّر بثمنٍ، إذ إنها كانت ثمرات حياة طويلة حافلة بالدرس والخبرة. وأنَّ الحشود بينا تتعاوى في جذلٍ حول النيران أتتهم فرقة من الجنود ومعها قاضٍ، ولأنها وصلت متأخرةً تمامًا -إذ كان الضرر قد وقع بالفعل- فإنها لم تزِد على أن بدأت تفرِّق الجموع. وأنه لمَّا قُرئ قانون مكافحة الشغب وظلَّت الحشود تقاوم، تلقَّى الجنود أوامر بإطلاق النار، وبعد أن صوَّبوا بنادقهم، أسقطوا مع الدفعة الأولى من الرصاص

(١) Lord Mansfield, William Murray (١٧٠٥ - ١٧٩٣) محام وسياسيّ وقاض اشتهر بإصلاحاته للقانون الإنـكليزي، وقد كان قاضي القضاة وقت نشوب أحداث عام ١٧٨٠.

ستة رجال وامرأةً صرعى وجرحوا كثيرين، ثم أتبعوا ذلك بتعمير بنادقهم ثانيةً وإطلاق دفعة جديدة، لكن افترض أنهم قد أطلقوها فوق أرؤس الناس هذه المرة، إذ لم يُرَ أحدٌ يسقط. وأن الحشود بدأت تتفرَّق بعد ذلك وقد فتَّ الصراخ والفوضى في عضدها، وأن الجنود مضوا لشأنهم تاركين القتلى والجرحى مطروحين أرضًا، وأنهم بمجرد أن تركوا المكان عادت الحشود مجددًا، وما لبثت أن أخذت جثامين الموتى والمصابين وشكَّلت موكبًا وقحًا في مقدمته الجثامين. وأنهم قد مشوا مستعرضين بهذه الطريقة في مرحٍ فظيعٍ، مثبَّتين في أيدي الموتى أسلحةً ليظهروا كالأحياء، يتقدَّمهم شخصٌ يصلصل بجرس طعام لورد مانسفيلد بأقصى ما أوتي من قوة.

وقد قال عناصر الاستطلاع فوق ذلك إنَّ هذه الفرقة قد قابلت أخرى كانت في مهمة مشابهة في مكانٍ آخر، فما لبثتا أن تكتَّلتا في فرقة أكبر، وبعد أن تركوا قليلًا من الرجال مع القتلى والجرحى، انطلقوا إلى منزل لورد مانسفيلد الريفي في (كان وود) بين (هامپستد) و(هايغات) مصمِّمين أن يدمِّروه هو الآخر ويضرموا فيه النيران لترى من ذلك الارتفاع العظيم في كلِّ بقعة من لندن. غير أنهم أخفقوا في هذا المسعى، فإن فرقة خيَّالة سبقتهم إلى هناك فما لبثوا أن تراجعوا بأسرع مما ذهبوا، وعادوا أدراجهم على الفور إلى المدينة.

والآن وقد أصبح الشارع مكتظًّا بالفرق، فقد ذهبت كلٌّ منها تعمل كما يحلو لها، وسرعان ما أضرمت النيران في دستة من المنازل، منها منزل سير (چون فيلدنغ) وقاضيين آخرين، وأربعة في هولبورن وهو أحد أكبر شوارع لندن، وكانت جميعًا تحترق في الوقت نفسه، وظلَّت تحترق إلى أن انطفأت من تلقاء نفسها، إذ إنَّ الناس قد قطعوا خرطوم مطفأة الحريق ولم

يسمحوا لرجال الإطفاء بملاعبة ألسنة اللهب. وفي منزلٍ قرب مورفيلدز وجدوا بعض طيور الكناريا في أقفاصٍ في إحدى الغرف، فألقوها حيةً في النار. قيل إنَّ المخلوقات الضئيلة المسكينة أخذت تصرخ كالرضَّع حين ألقيت في الضرام، فتحرَّك لها قلب رجلٍ فحاول بلا جدوى أن ينقذها، ما أثار استياء الحشود وكاد يكلِّفه حياته.

وفي هذا المنزل نفسه حدث أنَّ أحد الرفاق بينما يجوس خلال الغرف مكسِّرًا الأثاث ومسهمًا في تدمير المبنى إذا هو يعثر على دمية طفلة، لعبة مسكينة ما لبث أن أمسك بها من النافذة لتراها الحشود بالأسفل باعتبارها صورة أحد القديسين الدَّنسين الذين كان سكان المنزل يعبدونهم. وبينا هو في ذلك إذا رجلٌ آخر ذو ضميرٍ لا يقل حنانًا -فقد كان كلاهما في طليعة من ألقوا بالكناريا لتُشوى حيةً- يجلس على سور البيت ويخطب في الحشود من منشور توزِّعه الرابطة بخصوص مبادئ المسيحية الحقة! وفي تلك الأثناء وقف اللورد حاكم لندن يتفرَّج ويداه في جيوبه كما ينبغي لأيِّ رجل متبطِّل أن يقف ليشاهد عرضًا ما، وبدا في غاية الرضا لكونه قد حظي بمكانٍ جيدٍ يراقب منه ما يحدث.

كانت هذه هي التقارير التي رفعها إلى الخمَّار العجوز خدمُه وهو جالسٌ قرب فراش مستر هاردال، غير قادرٍ حتى على أن يغفي قليلًا بعد انقضاء الجزء الأول من الليل، وقد أزعجته مخاوفه أيَّما إزعاج، وأزعجه صياح الجموع ووهج الحرائق وإطلاق الجنود النار. كل ذلك، إضافةً إلى إطلاق سراح كل سجناء السجن الجديد في كلركنول وكثرة من حوادث السطو على المارَّة في الشوارع -تلك التي انخرطت فيها الحشود كما يحلو لها- كلُّ ذلك كان مجموع المشاهد التي كان مستر هاردال لحسن حظِّه غافلًا عنها، والتي تمَّت جميعًا قبل انتصاف الليل.

الفصل السابع والستُّون

حين انقشع الظلام وانبلج الفجر كان للمدينة سمتٌ غريبٌ حقًّا. كان النوم فكرةً لا تكاد تخطر ببال أحدٍ طيلة الليل. وكان القلق العام باديًا في وجوه السكان، يطلُّ من تعبيراتها التي أحدَّتها قلَّة الراحة –فمنذ الاثنين لم يجرؤ على أن يأوي إلى فراشه إلَّا قلَّة ممن ليس لهم ما يخشون ضياعه– حتى إنَّ غريبًا لو دخل شوارع المدينة لافترض أنَّ وباءً مميتًا أو طاعونًا كان يفعل بأهل المدينة الأفاعيل. فبدلًا من مرح الصباح ونشاطه المعتاد كان كلُّ شيء ميتًا صامتًا. ظلَّت الحوانيت مغلقةً والمكاتب والمتاجر مقفلةً ومواقف العربات والكراسي مهجورة، ولا تلمح العين عربةً تتحرك في الشوارع البطيئة اليقظة، وقد أُخمِدت كلُّ صيحة مبكرة وخيَّمت على المدينة كآبة عامة. كان في الشوارع أعدادٌ غفيرة من الناس، حتى مع انبلاج الفجر، لكنهم كانوا متذبذبي الخُطى هنا وهناك كما لو كان وقع خطاهم نفسه يفزعهم، وأمَّا الطرق العامة فقد خفَّ المرور بها حتى لكأنَّ من بها أشباحٌ، وكان الناس يقفون متباعدين صامتين حول الأطلال التي يتصاعد منها الدخان، لا يجرؤون على إدانة مثيري الشغب ولا على أن يبدو عليهم أنهم يدينونهم ولو همسًا.

وفي مقرِّ اللورد رئيس الحكومة في پيكادلّي، وفي قصر لامبث، وفي مقر اللورد المستشار بشارع أورموند الكبير، وفي بورصة التجارة، والبنك،

وفي دار البلدية، وفي الهيئات القانونية وفي قاعات المحاكم، وفي كل غرفة تطلُّ على الشوارع المتاخمة لقاعة وستمنستر ومجلسي البرلمان، كانت فرقٌ من العسكر تتمركز منذ ما قبل طلوع الصبح. كما كانت فرقة من الخيَّالة تستعرض فناء القصر، وكوَّنت معسكرًا في منتزهه حيث عسكر فيه ألف وخمسمائة رجلٍ وخمس كتائب مدججون جميعًا بالسلاح، وحُصِّن البرج، ورفعت الجسور المتحركة، وعُمِّرت المدافع وصوِّبت، وانهمكت فرقتا مدفعية في تقوية الحصن وإعداده للدفاع. كما تمركزت فصيلة من الجند ذات عدد عند مصبِّ النهر الجديد لتحرسه[١] حيث هدَّدت الحشود بمهاجمته، وحيث قيل إنهم ينتوون أن يقطعوا المواسير الأساسية حتى لا يجد الناس ماءً يطفئون به ما يشعله المتمردون من حرائق. وفي شارع پولتري وشارع كورنهل ونقاط أخرى مهمة كانت الأغلال الحديدية تُجرُّ عبر الشوارع، كما توزَّعت فرقٌ من الجند في بعض الكنائس القديمة قبل انبلاج الفجر، وكذا في عدة منازل خاصة -بينها منزل (لورد ركنام)[٢] في ميدان غرسـڤنر- حوصرت لتطويق المكان وصُوِّبت البنادق من نوافذها. وحين أشرقت الشمس كانت تضيء منازل فخمةً مملوءةً بالرجال المسلَّحين، حيث كُوِّم الأثاث على عجلٍ في الأركان، غير ملتفت إليه إلَّا قليلًا وسط ما تشهده اللحظة من فزعٍ، وكانت أشعَّتها تنعكس على أسلحة تلمع في قاعات المدينة بين المكاتب والمقاعد والكتب المتربة، أو تنفذ

(١) مصبّ النهر الجديد New River Head نهاية النهار الجديد وهو ممرٌّ مائيٌّ اصطناعيٌّ افتتح عام ١٦١٣ ليزوِّد لندن بالماء.

(٢) Charles Watson-Wentworth, the Marquess of Rockingham كان رئيسًا لوزراء المملكة المتحدة مرتين، في عام ١٧٦٥ وفي عام ١٧٨٢.

إلى أفنية الكنائس الصغيرة المدخَّنة في دروبٍ غريبة وطرقٍ جانبية حيث الجنود يرقدون بين المقابر أو يرتاحون في ظلِّ الشجرة الوحيدة العتيقة، بينما تلمع كومة بنادقهم في ضوء الشمس، أو تضيء جباه حرَّاسٍ منفردين يخطون ذهابًا وجيئةً في الأفنية الساكنة الآن وإن كانت أمس مسرحًا لصخبٍ وجلبة العمل، وباختصار فإنَّ كلَّ بقعة في لندن زارتها الشمس في هذا الصباح كانت ممتلئةً بغرف الحراسة والحاميات والإعدادات المنذرة.

ومع مضيِّ النهار كانت الأعين تشهد مناظر أغرب في الشوارع. فحين فتحت بوَّابات سجون محكمة الملك و(فليت) في ساعتها المعتادة، وجدت ملصقةً عليها لافتات تعلن أنَّ المتمردين آتون الليلة ليحرقوها. وكان يطيب للسجانين الذين يعرفون تمامًا احتمال أن يتحقَّق هذا الوعد أن يطلقوا سراح سجنائهم ويأذنوا لهم بنقل أمتعتهم، وهكذا ظلَّ من لديهم منهم أي أثاثٍ منشغلًا طيلة النهار بنقله إلى هذا المكان أو ذلك، ولم تكن قلة تلك التي نقلت أمتعتها إلى دكَّان الدلَّال لتبيعها عن طيب خاطر بأيِّ ثمنٍ تعيسٍ يعرضه الدلَّالون. وكان بين هؤلاء المفلسين رجالٌ منكسرون مرَّ عليهم زمنٌ طويلٌ وهم في السجن، فكانوا في غاية البؤس والافتقار إلى العون، وقد نسيهم العالم ولم يعد يأبه بهم فكأنَّهم في عداد الموتى، إلى درجة أنهم قد توسَّلوا إلى سجَّانيهم ألَّا يطلقوا سراحهم، فإن كان لا بُدَّ فليرسلوهم إلى محبسٍ آخر. غير أن السجَّانين لمَّا كانوا يرفضون تلك التوسُّلات حتى لا يجرُّوا على أنفسهم غضب الحشود فقد طردوهم إلى الشوارع حيث ظلُّوا يجولون هنا وهناك لا يكادون يذكرون شيئًا من تلك الطرق التي لم تطأها أقدامهم منذ أمدٍ بعيدٍ، ويبكون حالهم البائسة التي

أحالتهم إليها تلك السجون الخربة القلوب وهم ينسلُّون في أسمالهم ويجرُّون أقدامهم في أخفافها البالية على الرصيف.

وحتى بين السجناء الثلاثمائة الذين هربوا من نيوغات كان هناك بعض هؤلاء -كانوا قلة حقًّا لكنَّ هذا لا ينفي وجودهم- ممن أخذوا يبحثون عن سجَّانيهم وسلَّموا أنفسهم مفضِّلين الحبس والعقاب على فظائع ليلة أخرى كتلك التي عاشوها أخيرًا. وكان كثيرٌ من المحكوم عليهم ممن جذبهم جاذبٌ لا سبيل إلى اكتناهه إلى محبسهم الأول، أو رغبة في الشماتة في انهيار السجن وشفاء الغليل برؤيته وقد حال إلى كومة رمادٍ، قد عادوا في وهج الظهيرة وطفقوا يتسكَّعون حويل زنزاناتهم. وأُلقي القبض على خمسين منهم ثانية بين جدران السجن في ذلك اليوم التالي لأحداث نيوغات، غير أن هذا المآل لم يرهب غيرهم ممن كرروا الأمر نفسه رغم كل شيء، وألقي القبض عليهم مثنى وثلاث، مرتين أو ثلاثًا في اليوم كان ذلك يحدث، طيلة الأسبوع. وبين الخمسين الذين سبق ذكرهم كان هناك من انهمكوا في محاولة إضرام النار ثانيةً، وإن لم يكن يبدو أن لديهم هدفًا محددًا يشغلهم بعامة غير أن يتسكعوا ويجولوا حول المكان القديم، فقد كان يُعثَر عليهم نائمين بين أطلال السجن أو جالسين يتحدثون هناك أو حتى يأكلون ويشربون كما لو كانوا في منتجعٍ اختياريٍّ.

وبالإضافة إلى لافتات بوابات سجون (فليت) ومحكمة الملك فقد تركت إعلانات شبيهة كثيرة قبل الواحدة ظهرًا على منازل المواطنين العاديِّين، فضلًا عن أنَّ الحشود قد أعلنت عن عزمِها على الاستيلاء على البنك ودار السكة والأسطول في (وولوتش) والقصور الملكية. وكانت الإعلانات نادرًا ما يسلِّمها أكثر من رجلٍ واحدٍ، فإن كان يسلِّمها لحانوتٍ

فإنه كان يدلف إليه ويضع الإعلان على طاولة البائع، ربما وهو يهدده تهديدًا دمويًّا، وإن كان يسلِّم إعلانه في منزلٍ خاصٍّ، فقد كان يطرق الباب ثم يدفع بالورقة في يد الخادم. ورغم انتشار الجيش في كل ركن من المدينة، ورغم القوة العظيمة المنشورة في المنتزه، فقد كان هؤلاء الرسل ينفِّذون مهمَّاتهم في حصانة طيلة اليوم. وكذلك كان الأمر مع صبيِّين ذهبا إلى هولبورن وحدهما، مسلَّحين بقضبان منزوعة من سور منزل لورد مانسفيلد، إذ طلبا مالًا لمصلحة الثوَّار. وكذا فعل رجلٌ طوال يمتطي صهوة جواد وقد جمع مبلغًا للغرض نفسه في شارع (فليت)، وقد رفض أن يأخذ إلَّا ذهبًا.

وفي ذلك الوقت كانت شائعة قد بدأت تتداول، ناشرةً في لندن من الفزع ما يفوق تلك النوايا المعلنة للمتمردين، وذلك رغم علم الجميع بأن هذه النوايا إن تحقَّقت فإنَّ إفلاسًا قوميًّا وخرابًا عامًّا واقعان لا محالة. كانت الشائعة تقول إنَّ المتمردين ينوون أن يفتحوا أبواب مستشفى المجانين، محرِّرين نزلاءها. بثَّ ذلك في خيال الناس صورًا فظيعةً، وكان يمثِّل حقًّا فعلةً حبلى بأنواع جديدة من الرعب لم تخطر على قلب أحدٍ، حتى لقد أغمَّ الناس أكثر مما فعلت أي خسارة أو قسوة كان بإمكانهم توقُّع أسوأ ما فيها، وكاد يدفع الكثير من العقلاء إلى أن يجنّوا هم أنفسهم.

هكذا مرَّ اليوم والسجناء ينقلون أمتعتهم والناس يركضون هنا وهناك في الشوارع حاملين ممتلكاتهم، وتجمُّعات تقف صامتةً حول الأطلال، وكل الأعمال معلَّقة، والعسكر موزَّعون كما ذكرنا آنفًا وقد ظلُّوا غير نشطين، هكذا مرَّ اليوم واقترب حلول الليل المخوف مجددًا.

وأخيرًا في السابعة مساءً أصدر مجلس شورى الملك إعلانًا صارمًا أنَّ الضرورة تقتضي الآن الاستعانة بالجيش، وأن الضباط لديهم أوامر مباشرة صريحة بممارسة أقصى ما في جعبتهم من قوة على الفور لإخماد الاضطرابات، ومهيبًا بكلِّ رعايا الملك الأخيار أن يبقوا هم وخدمهم وصبيان حرفهم في بيوتهم الليلة. ثم سلَّم كلُّ جندي في الخدمة ستًّا وثلاثين قذيفةً من البارود والطلقات، ودقَّت الطبول وكانت القوات جميعًا مسلَّحةً مع الغروب.

فلما أثارت سلطات المدينة هذه الإجراءات العنيفة عقدت مجلسًا مشتركًا أصدر شكرًا رسميًّا لمنظمات الجيش التي قدَّمت يدَ العون للسلطان المدنية، وقبلت هذا العون ووضعتها تحت تصرُّف اثنين من عمَّال الملك. ووضعت في السابعة مساءً في قصر الملكة حراسة مزدوجة في الممرَّات وعلى السلالم، ومعها خواص الرجال الذين في الخدمة ومشرفو الرّياش الملكي[1] وسواهم من الأتباع، وصدرت إليهم تعليماتٍ مشدَّدة بالتيقُّظ في أماكنهم طيلة الليل، وغلّقت الأبواب جميعًا. أما السادة المقيمون في (التمپل) وغيره من الهيئات القانونية اللندنية فقد تولَّوا الحراسة خلف بواباتهم وعضَّدوها بحجارة الرصيف الضخمة التي أخذوها لهذا الغرض. بينما ترك السادة في (لنكنز إن) القاعة وغرفة الطعام

(١) Groom Porters كانت هذه وظيفةً في البلاط الملكي البريطاني، يعهد إلى صاحبها بالتأكّد من أن أماكن إقامة الملك مزوَّدة جيدًا بالمناضد والمقاعد والمدافئ وأوراق اللعب والنّرد متى احتيج إليها في اللعب، كما كان منوطًا بفضِّ المنازعات التي قد تثور في أثناء اللعب! وقد ظلَّت هذه الوظيفة قائمةً إلى أن ألغيت عام ١٧٨٢ مع وظائف أخرى اعتبرت تافهةً آنذاك. ولم أهتدِ إلى ترجمة لها أوفق من (مشرفي الرّياش الملكيّ)، خاصة أن صياغتها ربما تكون قد أشارت في الأصل إلى المشرف على رياش الملك وأثاثه في غرف نومه.

المشتركة لقوات (نورثمبرلاند) تحت إمرة اللورد (ألغرنن پرسي)، وفي قلة من دوائر المدينة أثبت المواطنون أنهم على قدرٍ كافٍ من الشجاعة من دون استعراضٍ شرسٍ. فقد ألقى عدة مئات من الرجال الثَّبت بأنفسهم في قاعات الشركات المختلفة وهم مدجَّجون بالسلاح، وغلَّقوا الأبواب وأرتجوها، ثم تحدُّوا مثيري الشغب -فيما بينهم وبين أنفسهم- أن يأتوا إن كانوا يغامرون بأرواحهم. ولمَّا كانت هذه الترتيبات كلها قد أنجزت في وقتٍ واحدٍ أو أوقاتٍ متقاربة، فقد اكتملت قبل أن يحلَّ الظلام، ثم أمست الشوارع خاليةً نسبيًّا، يحرسها الجنود في كل ركنٍ مهمٍّ وطريق رئيسة، بينما صالت فرقٌ من الضباط على أظهر الخيل هنا وهناك في الاتجاهات كافة، وأخذ من فيها يأمرون من يلقون بالصدفة من المتسكِّعين بلزوم بيوتهم، وينصحون السكان بألَّا يخرجوا من دورهم، وألَّا يقتربوا من النوافذ إذا ما سمعوا تبادل إطلاق النار. ومد المزيد من السلاسل عبر الطرق التي تغري طبيعتها الحشود الكبيرة بالاقتراب، كما وزِّعت على كلِّ نقطة من هذي قوة معتبرة. ولمَّا أخذت هذه الاحتياطات كلها ولما كان الظلام مخيِّمًا الآن فقد ارتقب القادة النتيجة في بعض القلق، يراودهم الأمل في أن تخذّل شواهد اليقظة هذه الحشود من تلقاء نفسها، وأن تمنع أي اعتداءات جديدة.

غير أن الصواب قد جانبهم في قسوة في حساباتهم هذه، فإن المتمردين لما كانوا قد حالوا بالفعل من دون إضاءة مصابيح الشوارع في فرقٍ صغيرة، فإنهم في نصف ساعة أو أقل ثاروا كبحرٍ متلاطمٍ، كما لو كان حلول الظلام هو إشارة قيامهم المتَّفق عليها، وقد كانت هذه الثورة في أمكنة كثيرة في الوقت نفسه، في هياجٍ لا يرقى إلى مداه تصوُّر، حتى

لقد حار في البداية من بيدهم قيادة الجنود فيما عساهم يفعلون وإلى أين يذهبون. وأخذت حرائق جديدة تثور في كلِّ ركن من المدينة، واحدةً وراء الأخرى، كما لو كان في نيَّة مشعليها أن يطوِّقوا المدينة بدائرة من ألسنة اللهب، لا تترك شيئًا إلَّا أحالته رمادًا إذا ما تقلَّصت أقطارها تدريجيًّا. أخذت الحشود تموج في بعضها وتزمجر في كل شارع، ولمَّا لم يكن في الشوارع إلا المتمردون والعسكر، فقد بدا للعسكر أنَّ لندن عن بكرة أبيها ضدهم، وأنهم يقفون وحدهم في مواجهة المدينة.

وفي خلال ساعتين كان ستة وثلاثون حريقًا قد ثارت، وقد كانت حقًّا ستًّا وثلاثين حريقًا هائلًا، بينها حريقٌ في سجن كلنك في شارع تولي، وفي سجن الملك، وسجن (فليت)، وسجن نيو برايدول[1]. كان ثَمَّ معركة في كلِّ شارع تقريبًا، وفي كلِّ ركنٍ كانت بنادق العسكر تُسمَع فوق جلبة وصياح الحشود. بدأ إطلاق النار في شارع (پولتري) حيث مدَّت السلاسل عبر الطريق، وحيث مات قرابة عشرين إنسانًا مع أول إطلاق. وبعد أن حمل العسكر جثامينهم بسرعة إلى كنيسة سان ملدرد، أطلقوا النار ثانيةً

(١) ربما الأبرز من بين هذه السجون تاريخيًّا هو سجن كلنك The Borough Clink أو كما يُدعى اختصارًا The Clink في حيّ ساوثوارك Southwark الواقع على الضفة الجنوبية لنهر التامز في قلب لندن، وقد ظلَّ هذا السجن قائمًا مستغلًّا منذ القرن الثاني عشر إلى أن أحرقته أحداث (غوردن) عام ١٧٨٠، وكان يخدم إقطاعية (كلنك) التي يمتلكها أسقف ونتشستر، حيث كان إيراد الإقطاعية إلى هذا الأخير، وبصفته مالك الأرض فقد كان حرًّا في إيداع من يعجزون عن تسديد ديونهم هذا السّجن، كما كان له الحقّ في إيداع المهرطقين إياه بصفته الأسقف. وربما كان هذا السجن أقدم سجن للرجال وللنساء في إنگلترا كلِّها. ولا يُعرَف على وجه التحديد إن كان السجن قد أخذ اسمه من الإقطاعية التي كان يخدمها أم أنَّ العكس هو الصحيح، وبالأحرى فاسمه مشتقٌّ من الرنين Clink الذي كان يحدثه الارتطام المعدني مع إغلاق أبواب السجن أو من رنين أغلال السجناء. وتدريجيًّا أصبح اسمه The Clink يطلق على أي سجن.

وتبِعوا الحشود التي بدأت تستسلم حين رأت هذا الإعدام السريع، ثم تشكَّلت صفوفهم عبر (تشيـپسايد) وانقضُّوا على المتمردين مخضعينهم أمام أسنَّة الحراب.

كان منظر الشوارع الآن قد أصبح فظيعًا. فإنَّ صياح السوقة وصراخ النساء والجرحى وإطلاق النار المتصل قد شكَّلت جميعًا فيما بينها إيقاعًا مروِّعًا يصمُّ الآذان، مصاحبًا للمناظر التي كان يشهدها كلُّ ركن. وحيثما سدَّت السلاسل الطريق كان القتال وإزهاق الأرواح على أشدَّهما، غير أنَّ كلَّ طريق رئيس كان يشهد بالمثل احترابًا عنيفًا ودماءً تُراق، وعلى الجملة فإنَّ المشاهد الرهيبة نفسها كانت تحدث في كلِّ شارعٍ كهذا.

في جسر هولبورن وعلى تلِّ هولبورن كانت المعمعة أشدَّ مما في غيرهما، إذ إنَّ الحشود التي تدفَّقت إلى خارج المدينة في تيَّارين عظيمين أحدهما عبر (لدغات هل) والآخر عبر شارع (نيوغات) تجمَّعت عند هذه النقطة مكوِّنةً كتلةً بالغة الكثافة حتى لقد بدا أنَّ الناس يسقطون أكوامًا مع كلِّ قذيفة. وقد تمركزت كتيبة كبيرة من الجند في ذلك المكان وطفقت تطلق النار موغلةً تارةً في سوق (فليت) وتارةً في هولبورن وتارةً في (سنو هل)، ممشِّطةً الشوارع على نحوٍ ثابتٍ في كل اتجاه. وكانت عدة حرائق عظيمة قد ثارت في ذلك المكان، حتى لقد بدا أنَّ فظائع الليلة الماضية كلَّها قد تركَّزت اليوم في بقعة واحدة.

حاول المتمردون عشرين مرة كاملة أن يفتحوا لأنفسهم الطريق عند هذه النقطة ويضرموا النيران في منزل الخمَّار، وعلى رأسهم رجلٌ مسلَّح ببلطة في يمناه، يمتطي صهوة حصان خمَّار هائل الحجم والقوة

مغطًّى بقيودٍ مأخوذة من نيوغات ترنُّ وتطنُّ مع حركته. وردُّوا عن الهجوم عشرين مرة بفقد الأرواح، لكنهم كانوا يعاودون الهجوم، ورغم أن الجميع كان يميِّز قائدهم المعلم الذي كان هدفًا واضحًا بصفته الوحيد الممتطي صهوة جواد، فإن أحدًا لم يتمكَّن من ضربه. كان هو بالتأكيد من انقشع عنه الدخان، ينادي رفاقه بصوت أجشَّ وهو يتمنطق ببلطته عاليًا وينطلق إلى الأمام كما لو كان واثقًا بأنَّ الحظ حليفه وأنه منيعٌ ضد البارود والقذائف.

كان هذا الرجل هو هيو، وكان يُرى في كل جزء من هذه الأحداث. قاد هجومين على البنك، وساعد في اقتحام مكاتب تحصيل المكوس على جسر بلاكفرايرز وعلى إلقاء المال في الشوارع، وأضرم النار في اثنين من السجون بيده، فكان هنا وهناك وفي كل مكان، دائمًا في المقدمة نشيطًا يضرب العسكر ويهتف بالحشود، جاعلًا موسيقى حصانه الحديدية تُسمَع خلال الصياح والجلبة، لكنه لا يُصاب أبدًا ولا شيء يوقفه. أرجعه من حيث جاء في مكان ما، وستجده يقود قتالًا جديدًا في مكان آخر. أجبره على التراجع عند هذه النقطة وسيتقدَّم عند تلك على الفور. حين أجلي عن هولبورن للمرة العشرين ركب على رأس حشدٍ عظيمٍ قاصدًا سان پول وهاجم حاميةً من العسكر كانت تحرس مجموعةً من السجناء خلف الأسوار الحديدية مجبرًا إياهم على التقهقر، وحرّر من في أيديهم من الأسرى، وبهذه الإضافة إلى فرقته عاد مجدّدًا وقد أثاره الشراب والحماس إلى درجة الجنون وطفق ينادي أتباعه كشيطان.

ولم يكن من السهل بحال على أحذق فارس أن يظل على صهوة حصانه وسط هذه الفوضى والزحام، لكن رغم أن هذا المجنون كان يتمايل على ظهر حصانه -إذ لم يكن الحصان مسرجًا- كقاربٍ على

صفحة البحر، فإنه لم يتزحزح عن مقعده لحظةً ولم يخفق مرة في اقتياده إلى حيث يشاء. ومضى يتقدم خلال أشد نقاط الزحام كثافةً وفوق الجثث والشظايا المحترقة، مرة على الرصيف ومرة في الطريق، تارةً صاعدًا درجًا ليصبح أبين في أعين فرقته وتارةً مقتحمًا كتلةً من البشر شديدة التضاغط والكثافة حتى ليبدو أن حدَّ سكِّين لن يفلح في تفريقهم إلا قليلًا، تقدم خلال ذلك كله كما لو كان محض إرادته كفيلًا بتذليل كل ما يواجهه من عقبات. وربما كانت حقيقة كونه لم يصب من إطلاق النار راجعةً بدرجة ما إلى هذا الظرف نفسه، فإن جرأته البالغة والاقتناع العام بأنه واحد ممن يشير إليهم الإعلان قد بثَّا في العسكر رغبةً في أخذه حيًّا، كما حوَّلا بعيدًا عنه تصويبات كثيرةً، لولا هذان العاملان لكانت أقرب إلى إزهاق روحه.

ولمَّا شعر الخمَّار ومستر هاردال أنهما لا يستطيعان أن يجلسا هادئين يستمعان إلى الجلبة من دون أن يريا ما يحدث، فقد تسلَّقا إلى سطح المنزل وطفقا ينظران إلى الشارع في حذرٍ، مختبئين وراء ركام من المداخن، آملين أن يصاب محدثو الشغب بالإحباط بعد أن ردُّوا على أعقابهم كل هذه المرات، وبينا هما على ذلك إذا صيحة عظيمة تعلن أن فرقة ما آتية من الطريق الأخرى، وما هي إلا لحظة وأنبأهما رنين الأغلال الملعونة الكئيب بأن هيو كان على رأس هؤلاء أيضًا. كان العسكر قد تقدَّموا في سوق فليت وفرَّقوا الناس هناك، فأصبحت الطريق مفتوحةً أمام الحشود وسرعان ما أصبحت أمام المنزل.

قال الخمَّار: «انتهى كلُّ شيء الآن، في دقيقة ستبعثر خمسون ألف جنيه، علينا أن ننجو بأنفسنا، لا نستطيع أكثر من ذلك، وإن نجحنا فيه فيجب أن نكون ممتنِّين».

كان أول ما خطر لهما أن يقفزا من سطح منزلٍ إلى آخر، ثم يطرقا نافذة أي عليَّة مستأذنين في الدخول، ومنها يمرَّان إلى الشارع فيهربان. غير أنَّ صيحةً وحشيةً أخرى من أسفل ودوران وجوه المحتشدين إلى أعلى أخبراهما بأنهما قد اكتشفا، بل بأنَّ مستر هاردال قد عُرِف، إذ إنَّ هيو لمَّا رآه بوضوحٍ في وهج النار الساطع الذي أحال الدنيا إلى نهارٍ في هذا المكان، ما لبث أن ناداه باسمه وأقسم أن يجهز عليه.

قال مستر هاردال: «اتركني هنا يا صديقي الطيب، وأرجوك بحق السماء اهتمَّ بأن تنجو بحياتك!» ثم غمغم وهو يستدير صوب هيو مواجهًا إياه دون أي محاولة لمزيدٍ من الاختباء: «هيَّا! إنَّ هذا السقف عالٍ، وإن تقاربنا فسيموت كلانا!».

قال الخمَّار المخلص وهو يجذبه إليه: «هذا جنون، محض جنون. استمع إلى صوت العقل يا سيدي. سيدي الطيب، استمع إلى صوت العقل. لن أتمكَّن أبدًا من إسماع أحد طرقي على النوافذ الآن، وحتى إن تمكَّنت فلن يجرؤ أحدٌ على أن يعينني على الهرب. لكنَّ ثَمَّ ممرًّا إلى الشارع الخلفي خلال الأقبية ندحرج منه الزجاجات إلى الداخل وإلى الخارج. سيكون لدينا من الوقت ما يكفي لأن ننزل إلى هناك قبل أن يتمكَّنوا من اقتحام المنزل. لا تدعنا نتأخَّر لحظةً، تعال معي لأجل حياتينا، لأجل خاطري يا سيدي العزيز الطيب!».

وبينا هو يتحدث جاذبًا مستر هاردال إليه لمح كلاهما الشارع، لم تكن إلَّا لمحةً خاطفةً لكنها أرتهما الحشد المجتمع المتكأكئ حول المنزل، فكان بعض المسلَّحين يتقدم إلى الأمام لهدم الأبواب والنوافذ،

والبعض يحضر الشُّعل من أقرب حريق، وبعض ذوي الوجوه المدارة إلى أعلى يتابع مسيرهما على السطح ويشير إليهما لرفاقه، والجميع مهتاجون يزمجرون كألسنة اللهب التي أشعلوها. رأيا رجالًا يسيل لعابهم طلبًا لكنوز الشراب الحامي التي كانوا يعلمون أنها مخبوءة بالداخل، ورأيا آخرين جرحى يتهاوون على مداخل المنازل المقابلة ويحتضرون تعساء منفردين بتعاستهم وسط هذا الجمع الغفير. وكان من بين ما رأياه امرأة مذعورة تحاول الهروب، وطفل مفقود، ووغد ثمل غير واعٍ للجرح القاتل في رأسه وهو يقاتل مهتاجًا إلى آخر رمقٍ. كلُّ هذه الأشياء -إضافةً حتى إلى وقائع تافهة كرجل خالع قبَّعته أو يستدير أو ينحني أو يصافح آخر- رأوها بوضوحٍ رغم كونها لا تعدو لمحةً شديدة القصر، حتى لقد فقدا كلَّ شيء بمجرد أن تراجعا خطوةً إلى الوراء ولم يعُد أحدهما يرى إلَّا وجه رفيقه الشاحب والسماء المحمرَّة فوقهما.

رضخ مستر هاردال لتوسُّلات رفيقه، ومردُّ ذلك إلى أنه كان مصمِّمًا أن يدافع عنه أكثر مما كان مردُّه إلى أي فكرة تتعلَّق بحياته هو أو إلى أي اهتمامٍ بمسألة أمانه الشخصي. وما لبثا أن دخلا المنزل ثانيةً ونزلا الدرج معًا. كانت مصاريع النوافذ ترتعد تحت وطأة الضربات المدوية، وبدأت الجموع تدفع بالعتلات أسفل الباب، وتساقط الزجاج من الشيش، وكان ضوءٌ وهَّاج يتسلَّل ساطعًا من خلال كلِّ شقٍّ، وسمعا أصوات طلائع الحشود قريبةً جدًّا من كلِّ كوَّة وثقب بابٍ، حتى لقد بدوا يغمغمون بصوتٍ أجشَّ بتهديداتهم في آذان صاحبينا. وما إن وصلا إلى قاع الدرج المؤدي إلى القبو وأغلقا الباب خلفهما حتى كان الحشد قد اقتحم المنزل.

كانت الأقبية غارقةً في ظلامٍ دامسٍ، ولمَّا لم يكن معهما من مصباحٍ ولا شمعة -إذ أحجما عن حمل شيء من هذا القبيل خشية أن تفضح مأواهما، فقد كان مضطرَّين إلى تلمُّس طريقهما بأيديهما. غير أنهما لم يظلَّا طويلًا دون ضوءٍ، فقبل أن يبتعدا سمعا الحشود تقتحم الباب، وحين نظرا وراءهما عبر الممرَّات ذات السقف المنخفضة بصروا بهم يهرعون هنا وهناك بمشاعل متَّقدة، يفتحون القنِّينات ويهشِّمون الخوابي الكبيرة ويدورون إلى اليمين واليسار داخلين الأقبية العديدة ويرقدون لينعموا بالشراب على ضفاف قنوات النبيذ الحار التي كانت تتدفَّق بالفعل على الأرض.

هرع السيدان مسرعي الخطى ووصلا إلى القبو الوحيد الذي يفصلهما عن الممرِّ إلى الخارج، وإذا ضوءٌ وهَّاجٌ يسطع في وجهيهما بغتة من الجهة التي يتَّجهان صوبها، وقبل أن يتمكَّنا من التنحِّي جانبًا أو التراجع أو الاختباء أقبل عليهما رجلان يحمل أحدهما مشعلًا، ويصيحان في همسٍ مفعمٍ بالدهشة: «ها هما!».

وفي اللحظة نفسها نزعا ما كانا يرتديانه على رأسيهما. رأى مستر هاردال أمامه إدوارد تشستر، ثم رأى چو ولت بعد أن نطق الخمَّار باسمه في صعوبة.

أجل، هو (چو) نفسه، لكن بذراعٍ واحدة، ذلك الذي اعتاد القيام بتلك الرحلة كلَّ ثلاثة أشهر على صهوة الفرس الرمادية ليدفع الفاتورة إلى الخمَّار القرمزي الوجه، ونفس الخمَّار القرمزي الوجه الذي كان يعيش سابقًا في شارع (تامز) كان ينظر الآن في وجهه ويناديه باسمه.

قال چو بصوتٍ خافتٍ متناولًا يد الخمَّار سواء قبل أو لم يقبل: «أعطني يدك. لا تخش أن تصافحني، فيدي يد صديقة مخلصة وإن افتقرت إلى زميلتها. ما أحسن ما تبدو وما أذكى خدعتك! وأنت، فليبارِكَّ الرب يا سيدي. تشجَّع تشجَّع. سنعثر عليهما، لا تفقد الأمل فنحن لم نكن متقاعسين».

كان في كلام چو شيءٌ صادقٌ مخلص للغاية، حتى لقد وضع مستر هاردال يده في يده لا إراديًّا، رغم ما شاب هذا اللقاء من ريبة. لكنَّ چو لم تفِته نظرة هاردال إلى إدوارد تشستر ولا ابتعاد هذا الأخير عنه، فما كان منه إلَّا أن قال في صراحة وهو يرمق إدوارد بنظرة جانبية:

«لقد تغيَّر الزمن يا مستر هاردال، وقد جاء الوقت الذي نعرف فيه أصدقاءنا من أعدائنا، من دون خلطٍ بينهما. دعني أخبرك بأنه لولا هذا السيد لكنت الآن في عداد الأموات غالب الظن، أو مصابًا بجروح بالغة السوء على أفضل تقدير».

صاح مستر هاردال: «ماذا تقول؟».

قال چو: «أقول أولًا إنه كان من الجرأة بمكانٍ أن يوجد المرء وسط الحشود متنكِّرًا كواحد ممن ينتمون إليها، رغم أني قررتُ ألَّا أسهب في هذه النقطة الآن لأن ذلك ما فعلته أنا الآخر، وثانيًا أنه كان عملًا شجاعًا مجيدًا -هذا ما أسمِّيه- أن يسقط ذلك الرجل عن صهوة جواده أمام أعينهم!».

«أي رجل؟ أعين من؟!».

صاح چو مستنكرًا: «أي رجل يا سيدي؟! رجل لا يكنُّ لك أيَّ نيَّة

خيرٍ، وبين جنبيه جرأة وشيطنة عشرين رجلًا، إنني أعرفه من قديمٍ. لو كان قد دخل المنزل لما استطاع شيء أن يوقفه عن العثور عليك هنا أو حيثما كنت. أمَّا الباقون فلا يضمرون لك حقدًا أو ضغينةً شخصيةً، وما لم يروك فإنهم لن يفكروا إلَّا في أن يشربوا حتى الثمالة، لكننا نفقد الوقت هكذا، هل أنتم مستعدون؟».

قال إدوارد: «تمامًا، أطفئ الشعلة يا چو، ولنمضِ في طريقنا، والتزموا الصمت، فثمَّ رجلٌ طيبٌ!».

غمغم چو وهو يسقط الشعلة المتقدة على الأرض ويسحقها مطفئًا إياها بقدمه: «نصمت أو لا نصمت.»، ثمّ واصل وهو يعطي مستر هاردال يده: «لقد كان فعلًا شجاعًا مجيدًا، ولا يستطيع أحدٌ أن يغيِّر ذلك».

كان كلٌّ من مستر هاردال والخمَّار المحترم من الدهشة والعجلة بحيث لم يكن في مستطاعهما أن يسألا أي أسئلة أخرى، فتبِعا قائديهما في صمتٍ. وبدا من التهامس القصير الذي تلا ذلك بين الشابين والخمَّار بشأن أفضل الطرق للهروب أنهما قد دخلا من الباب الخلفي بمساعدة (چون غروبي) الذي ظلَّ يراقب في الخارج والمفتاح في جيبه، والذي وثق كلاهما به. ولمَّا كانت فرقة من الحشد آتيةً من هذا الطريق وهما يدخلان فقد أحكم چون إغلاق الباب ثانيةً وانطلق صوب العسكر حتى يقطع على المتمردين سبل الانسحاب.

لكن مع اقتحام الباب الأمامي ولأنَّ هذا الحشد الصغير كان حريصًا على الوصول إلى أقبية الشراب وبالتالي لم يدر بخلد أي ممن فيه أن يضيع المزيد من الوقت في كسر بابٍ آخر، وإنما داروا ودخلوا من هولبورن مع

الباقين، فقد كانت الطرق الضيقة في الخلفية خاليةً من الناس. ولذا فإنَّ أصحابنا الأربعة حين زحفوا خلال الممرِّ الذي أشار به عليهم الخمَّار – ولم يكن ذلك الممر إلَّا حيلة تخزين لإدخال القنِّينات– ثم نجحوا ببعض الصعوبة في أن يفكُّوا سلسلة الباب الذي عند النهاية العليا ويرفعوه، خرجوا إلى الشارع دون أن يلاحظهم أحدٌ أو يقطع عليهم ذهابهم. كان چو ما زال ممسكًا بمستر هاردال بقوة، وإدوارد يفعل مثله مع الخمَّار، وانطلقوا عبر الشوارع وهم يحثُّون الخطى، متنحّين جانبًا بين الفينة والفينة ليسمحوا لبعض اللاجئين بالمرور، أو ليبتعدوا عن طريق العسكر الذين كانوا يتبعونهم، والذين حين توقَّفوا ليوجِّهوا بعض الأسئلة أوقف چو أسئلتهم بسرعة بكلمة واحدة همس بها.

* * *

الفصل الثامن والستُّون

بينما كان نيوغات يحترق في الليلة الماضية وقف بارنابي وأبوه في سمثفيلد على أطراف تجمُّع المتمردين، بعد أن تناقلتهما الأيدي وسط الحشود، وظلَّا يحملقان إلى ألسنة اللهب كرجلين أُيقظا بغتةً من النوم. مرَّت لحظاتٌ قبل أن يتذكَّرا بوضوحٍ أين هما، وكيف أتيا إلى هنا، وقبل أن يدركا أنهما بينما يقفان يشاهدان النار في كسلٍ وفتورٍ كان في أيديهما أدواتٌ أعطياها على عجلٍ حتى يتمكَّنا من فكِّ قيودهما.

ورغم أن بارنابي كان يرسف في أغلاله الثقيلة، فإنه لو كان قد أطاع أول خاطر عنَّ له أو كان وحده لهرع على الفور ليقف إلى جوار هيو الذي كان يسطع الآن في وعيه الملبَّد أبدًا بالغيوم وحوله هالة جديدة باعتباره منقذه وأخلص أصدقائه. غير أنَّ فزع أبيه من البقاء في الشوارع انتقل إليه حين أدرك مدى رعبه بالكامل، وفرض عليه الشوق نفسه إلى الهرب إلى مكانٍ آمنٍ.

وفي ركنٍ من السوق بين حظائر الماشية جثا بارنابي وانهمك في فكِّ أغلال أبيه، وهو يتوقَّف خلال ذلك بين الفينة والفينة ليمسح وجهه بيده أو ينظر إليه مبتسمًا. وبعد أن رآه ينهض واقفًا على قدميه رجلًا حرًّا وعبَّر عن نشوة الفرحة التي أيقظها هذا المنظر، طفق يعمل على أغلاله هو، تلك التي سرعان ما سقطت ترنُّ على الأرض تاركةً أطرافه حرة.

وحين انتهيا من هذه المهمَّة انسلَّا معًا مبتعدين، ومرَّا بعدة مجموعات من الرجال، اجتمع كلٌّ منها حول شبح رجلٍ منحنٍ لتخفيه عن أعين المارَّة، وإن كانت لم تفلح في كتم صوت المطارق الرنَّان الذي كان يشي بأنَّ هذه المجموعة أو تلك منهمكة في المهمة نفسها. واتجه الهاربان صوب (كلركنول)، ومنها إلى (آيلنتن) باعتبارها أقرب نقطة يمكنهما الخروج منها، وسرعان ما أصبحا في الحقول. وبعد أن أطالا التجوال وجدا حظيرةً فقيرةً في مزرعة قرب (فنتشلي)، طينيَّة الجدران مسقوفةً بالحشائش والعلِّيق، بُنيت لقطيع أبقار وإن كانت مهجورةً الآن. هنا باتا ليلتهما.

وحين انبلج الصبح طفقا يجولان هنا وهناك، ومضى بارنابي وحده مرة إلى تجمُّع من الأكواخ الصغيرة على مبعدة ميلين أو ثلاثة ليبتاع بعض الخبز واللبن. غير أنهما لمَّا لم يجدا مأوىً أفضل فقد عادا إلى المكان نفسه ورقدا فيه مجددًا في ارتقاب الليل.

ولا يعلم إلا الله بأيِّ آمالٍ ملتبسة في القيام بالواجب كان بارنابي ينظر إلى ذلك الرجل ويرعاه، ولا بأي محبة ولا بأي دوافع غريبة تمليها عليه طبيعته ويدركها تمامًا كما ينبغي لرجل مشرق الذهن واسع الحيلة، ولا بأي ذكرياتٍ باهتة عن أطفالٍ لعب معهم حين كان طفلًا وكانوا يثرثرون عن آبائهم ويحدِّثون بحبِّهم لهم وحب آبائهم إياهم، ولا بأي تعالقات يذكرها ذكرى غائمةً حلمية من حزن أمِّه ودموعها وترمُّلها. لكن ما نعلم صدقه يقينًا أن زحامًا غامضًا ملتبسًا من مثل هذه الأفكار أخذ يتملَّكه رويدًا رويدًا، وأنَّ هذه الأفكار علَّمته أن يشعر بالأسف كلما نظر إلى وجه أبيه المضنى، وأنها كانت تغيم عينيه كلما انحنى ليقبِّله، وأنها قد أسهرته في

فرح تطفر معه الدموع من عينيه، فعكف عليه يظلُّه كلما ازدادت حرارة الشمس ويروِّح عنه بورق الشجر، ويهدِّئ من روعه كلما فزع في منامه – آه! وما أشد اضطراب نومه ذاك! – ويعجب متسائلًا متى ستأتي أمُّه وتنضمُّ إليهما لتفرح. جلس إلى جواره طوال ذلك اليوم، يتسمَّع وقع أقدامها مع كلِّ نسمة هواء ويبحث عن ظلِّها على العشب الملوِّح بنعومة ويجدل أزهار السياج ليسعدها حين تقدم عليهما، وليسعد أباه حين يستيقظ، وينحني كل حين منصتًا إلى ما يغمغم به، ويعجب لِمَ هو يفتقد الراحة على هذا النحو في مكان بهذا الهدوء. غربت الشمس وحلَّ الليل وهو ما زال في سكينته مشغولًا بهذه الأفكار كما لو لم يكن في العالم ناسٌ غيرهم، وكما لو كانت سحابة الدخان الكئيبة المعلَّقة في جو المدينة الواسعة بعيدًا لا تخبئ رذيلةً ولا جريمةً، لا موت ولا حياة ولا سببًا للكدر. لا شيء إلَّا الهواء الصافي.

غير أن الساعة قد حانت الآن ليذهب وحده ليبحث عن الرجل الأعمى –وهي مهمة ملأته سرورًا– ويحضره إلى هذا المكان، حذرًا ألَّا يكون أحدهم يراقبه أو يتبعه في رحلة عودته. استمع إلى التوجيهات التي ينبغي له أن يراعيها، وأعادها على مسامع الأب وكررها، وبعد أن عاد مرتين أو ثلاثًا ليفاجئ أباه بضحكة مرحة، مضى أخيرًا لمهمته تاركًا (غرپ) الذي كان قد حمله بين ذراعيه من السجن في رعاية أبيه.

انطلق مسرعًا خفيفًا صوب المدينة وهو يشتاق إلى العودة إلى أبيه، لكنه لم يستطع الوصول إلى المدينة قبل أن تبدأ النيران وتثير غضب الليل بوهجها الكئيب. وحين دخل المدينة –وربما يكون الذهاب إلى هناك من دون رفاقه الذين اعتاد صحبتهم مؤخَّرًا، وفي مهمة تفتقر إلى العنف، قد

غيَّره، وربما ما غيَّره حقًّا هو تلك العزلة الجميلة التي أمضى فيها نهاره، أو الأفكار التي غزت كيانه- بدت له المدينة كما لو كان يسكنها طائفة من الشياطين. الهرب والمطاردة وهذا التحريق القاسي والتدمير وهذه الصيحات الفظيعة والجلبة التي تصمُّ الآذان، أهذه هي القضية النبيلة التي يتبنَّاها اللورد الطيب؟!

ورغم أنَّ المشهد المحيِّر كاد يذهله عن نفسه إلَّا أنه وجد منزل الأعمى، كان مغلقًا ليس فيه أحدٌ. انتظر وقتًا طويلًا ولم يأتِ أحدٌ. في النهاية انسحب، ولأنه كان يعرف الآن أنَّ العسكر يطلقون النار وأنَّ كثيرين قد قضوا نحبهم لا محالة، فقد مضى إلى هولبورن حيث سمع أنَّ الحشود العظيمة هناك، وفي نيَّته أن يحاول العثور على هيو ويقنعه بتجنُّب الخطر والعودة معه.

ولو كان قد ذهل وصدم قبل الآن فإنَّ رعبه قد تضاعف ألف مرة حين دخل هذه الدوَّامة من الأحداث، ولأنه لم يكن أحد الناشطين في هذا المشهد الرهيب فقد كان يعاينه في تمامه الآن. لكن هناك في المنتصف كان هيو على صهوة جواده ينادي الآخرين، عاليًا فوقهم جميعًا، وقريبًا من المنزل الذي كانوا يهاجمونه.

وحين شعر بأنَّ المناظر المحيطة به من كل جانب قد أغشته، ومعها الحرارة والجلبة والدَّوي، شقَّ طريقه في الزحام (حيث عرفه كثيرون وتراجعوا مفسحين له الطريق) وسرعان ما أصبح إلى جوار هيو الذي كان يهدِّد شخصًا ما في وحشية، لكنَّ بارنابي لم يستطع أن يفهم وسط هذا الاضطراب مَن ذلك الذي يهدِّده ولا ماذا كان يقول. وفي تلك اللحظة

شقَّت الجموع طريقها مقتحمةً المنزل، وسقط هيو من فوق حصانه على الأرض، وكان من المستحيل رؤية سبب سقوطه وسط هذا الحشد.

كان بارنابي إلى جواره حين نهض مترنِّحًا. كان جيدًا أن جعله يسمع صوته، وإلَّا لهوى هيو ببلطته المرفوعة على جمجمته فالقًا إيَّاها نصفين.

«بارنابي؟ أنت؟! يد من كانت تلك التي أسقطتني؟».

«ليست يدي».

صاح هيو وهو يترنَّح متراجعًا وينظر فيما حوله في هياج: «من؟ أنا أسألك يد من؟ ماذا تفعل؟ أين هو؟ أرني!».

قال بارنابي: «لقد أُصِبت» وكان مصابًا بالفعل في رأسه بقوة الضربة التي تلقَّاها وبفعل حوافر حصانه كذلك. ثمّ تابع بارنابي قائلًا: «تعال معي بعيدًا».

وأخذ لجام الحصان في يده وهو يتكلم، ثم أداره وسحب هيو عدة خطوات. أخرجهما ذلك من وسط الجموع التي كانت تتدفَّق من الشوارع إلى داخل أقبية الخمَّار.

قال هيو وهو يتوقَّف ويوقف بارنابي بذراعه القوية: «أين.. أين دنس؟ أين كان منذ الصباح؟ ماذا كان يعني حين تركني هكذا ونحن في السجن الليلة الماضية؟ أخبرني. أنت! هل تسمع ما أقول؟».

ثم ما لبث أن سقط على الأرض كحطبة وهو يتمنطق بسلاحه الخطير. وبعد دقيقة أخذ يزحف صوب تيارٍ من الكحول المشتعل يتدفَّق في القناة، رغم أنه كان قد سعر بالفعل لكثرة ما شرب وبفعل الجرح الذي في رأسه، وطفق يحسو منه كما لو كان جدول ماء.

سحبه بارنابي بعيدًا وأجبره على النهوض. ورغم أنه لم يكن يستطيع أن يقف على قدميه ولا أن يمشي، إلَّا أنه أخذ يترنَّح قاصدًا امتطاء حصانه وقفز معتليًا إيَّاه ومتعلِّقًا به. وبعد أن حاول بارنابي من دون جدوى أن يخلع عن الحيوان جلَّه الرنَّان قفز خلف هيو واختطف اللجام مستديرًا إلى (لذر لان)[1] الذي كان كان قريبًا منهما، وحفز الحصان المذعور إلى أن يهرول مبتعدًا.

نظر وراءه مرة قبل أن يترك الشارع فرأى منظرًا لا يسهل محوه من الذاكرة، ولو كانت ذاكرته هو، ما بقيت في عروقه حياة. أصبح منزل الخمَّار مع ستة منازل أخرى قريبة حريقًا هائلًا وهَّاجًا. لم يحاول أحد طيلة الليل أن يطفئ الحريق أو يوقف نموَّه، غير أنَّ فرقةً من العسكر كانت منشغلةً الآن في هدم بيتين خشبيَّين عتيقين كانا في كل لحظة مهدَّدين بالتقاط النار، وكان من الصعب ألَّا يمدَّا الحريق إلى مدى بعيد إذا ما لحقتهما النار بالفعل. كان انهيار الجدران المائلة وجذوع الخشب الثقيلة، وصياح الحشود وهتافها، وإطلاق النار من قبل كتائب أخرى بعيدة من العسكر، ونظرات وصراخ من كانت منازلهم معرَّضةً لخطر الحريق، وهرولة المذعورين هنا وهناك بأمتعتهم، وانعكاس ألسنة اللهب الحمراء القانية المتصاعدة على كلِّ ركنٍ من صفحة السماء كما لو كنَّا في يوم الدينونة والوجود يحترق عن آخره، والغبار والدخان واندفاع الشظايا المحترقة التي تشعل وتحرق كلَّ ما تسقط عليه، والبخار الساخن المؤذي الذي يلفح كلَّ شيء ويحجب النجوم والقمر بل السماء نفسها، كلُّ ذلك

(١) Leather Lane شارع في غرب حديقة (هاتن) في منطقة هولبورن بلندن.

كان يكوِّن فيما بينه خرابًا وكدرةً بالغين، كما لو كان وجه السماء نفسه قد محي، ولم يعد في مقدور الليل الساكن الهادئ ذي النور الخافت أن ينظر ثانيةً إلى الأرض.

غير أنَّ منظرًا أسوأ من هذا كان موجودًا، أسوأ بكثيرٍ من النار والدخان، وأسوأ حتى من هياج الغوغاء المجنون الذي لا سبيل إلى إخماده. كان الكحول المشتعل يتدفَّق من ميازيب الشارع وعبر كل شقٍّ أو شرخٍ في الحجارة، ولمَّا كانت الأيدي قد انهمكت في إقامة سدودٍ تحجزه فقد انصبَّ متدفِّقًا في الطريق وعلى الرصيف مكوِّنًا بركةً هائلةً كان الناس يسقطون فيها بأعدادٍ غفيرة. تكوَّمت الأجساد حول هذه البركة المخيفة، رجالًا ونساءهنَّ، آباء وأبناءهم، أمهات وبناتهنَّ، ونسوة وفي أحضانهنَّ أطفالهنَّ وعلى صدورهنَّ رضَّعهنَّ، وطفقوا يشربون إلى أن ماتوا. وبينما كان البعض ينحنون مقرِّبين شفاههم من حافة البركة فلا يرفعون رؤوسهم عنها أبدًا، كان آخرون يقفزون من جرعاتهم النارية ويرقصون في مزيجٍ من نشوة الظفر المجنون وسكرات الاختناق إلى أن يسقطوا غامسين جثثهم في الشراب الذي أودى بحياتهم. ولم يكن ذلك أسوأ أنواع الموت التي حدثت في تلك الليلة المميتة ولا أشدَّها صدمةً، فمن الأقبية المحترقة حيث كانوا يشربون من القبَّعات والدِّلاء والجرادل والأحواض والأحذية، سحب بعض الرجال إلى الخارج على قيد الحياة وإن كانوا مشتعلين من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وكان هؤلاء في ألمهم وعذابهم الذي لا قِبَل لمخلوقٍ به يتجهون إلى أيِّ شيء له هيئة الماء، فأخذوا يتدحرجون في هذه البحيرة الكريهة وهم يفحُّون فينثرون النيران السائلة إلى أعلى، فتلفُّ هذه النيران كلَّ ما يقابلها وتجري على الأسطح، لا تُبقي حيًّا ولا

تذر ميتًا. وفي هذه الليلة الأخيرة من أحداث الشغب الكبرى –فإنها كانت الأخيرة حقًّا– بات الضحايا التعساء لتلك الجعجعة التي لا معنى لها هم أنفسهم غبار ورماد الحرائق التي أشعلوها، وفُرِشت بهم طرق لندن العامة.

خرج بارنابي مهرولًا من المدينة التي انطوت على كلِّ هذا الرعب، وقد ارتسم في صفحة ذهنه بحبرٍ لا يُمحى كلَّ ما رآه في تلك اللمحة الأخيرة، خافضًا رأسه لئلَّا يرى حتى انعكاس وهج النيران على صفحة ما استقبله من منظرٍ هادئ، وما هي إلَّا مدة يسيرة وكان في طرق الريف الساكنة.

توقَّف على مبعدة نحو نصف ميل من الحظيرة التي كان أبوه يرقد فيها، وحاول بصعوبة إيقاظ هيو ليترجَّل عن ظهر الحصان، ثم أغرق جلال الحصان وسرجه في بركة ماءٍ راكدٍ، وأطلق الحصان. وبعد أن فرغ من ذلك أسند رفيقه بقدر ما استطاع وقاده ببطء إلى الأمام.

* * *

الفصل التاسع والستُّون

كان ذلك في هدأة الليل والظلام يلفُّ كلَّ شيء حين اقترب بارنابي ومعه رفيقه المتعثِّر من المكان الذي ترك فيه والده، لكنه رآه يتسلَّل بعيدًا في الظلام، متراجعًا بسرعة، غير قادرٍ على الثقة حتى بولده. وبعد أن أهاب به مرتين أو ثلاثًا من دون جدوى ألَّا شيء يخشاه، ترك هيو يتهاوى على الأرض ومضى في إثر أبيه ليعود به.

ظلَّ الرجل يبتعد إلى أن اقترب منه بارنابي تمامًا، فاستدار قائلًا بصوتٍ رهيبٍ وإن كان خفيضًا:

«دعني أذهب، لا تضع يدك عليَّ، لقد أخبرتها، وختماني معًا!».

نظر إليه بارنابي في صمتٍ.

«لقد رأيت أمَّك!».

صاح بارنابي في لهفة: «لا! لم أرها منذ وقتٍ طويلٍ، أطول مما أستطيع أن أحسب، أظنُّه عامًا كاملًا، أهي هنا؟».

نظر إليه أبوه بثباتٍ لحظاتٍ ثم قال وهو يقترب منه –فقد كانت رؤية وجهه وسماع كلماته كفيلين بإبعاد أي ريبة في صدقه: «أي رجل هذا؟».

«هيو، هيو، هيو فحسب. أنت تعرفه، إنه لن يؤذيك. لِمَ؟ أأنت خائفٌ من هيو؟! هاهاها! خائفٌ من العجوز الفظِّ الصاخب هيو؟!».

ردَّ في شراسة قطعت ضحك بارنابي: «أسألك أيُّ رجل هو؟».

تراجع بارنابي وأخذ ينظر إليه نظرةً ملؤها الدهشة المذعورة ثم قال:

«لِمَ؟ إنك صارمٌ جدًّا، تجعلني أخافك رغم أنك أبي، لماذا تتحدث إليَّ هكذا؟».

أجاب مزيحًا اليد التي وضعها ابنه على كمِّه في رغبة هيَّابة في أن يسترضيه: «أريد.. أريد إجابةً وأنت لا تعطيني إلَّا السخرية والأسئلة. مَن هذا الذي أحضرته معك إلى هذا المخبأ أيها الأحمق المسكين، وأين الأعمى؟».

«لا أدري أين هو! كان بيته مغلقًا بإحكامٍ، انتظرت ولم يأتِ أحدٌ، ليس ذلك خطئي. أمَّا هذا فهو هيو، هيو الشجاع، الذي اقتحم ذلك السجن القبيح وحرَّرنا، أها! أنت تحبه الآن، أليس كذلك؟ تحبه الآن!».

«لماذا ينام على الأرض؟».

«لقد سقط، كما أنه ثملٌ. الحقول والأشجار تدور وتدور وتدور معه، والأرض تميد تحت قدميه. أنت تعرفه؟ تذكره؟ انظر!».

كانا إذ ذاك قد عادا إلى حيث يرقد هيو، فانحنيا معًا لينظرا في وجهه. غمغم الأب:

«أذكر الرجل، لماذا أحضرته إلى هنا؟».

«لأنه كان سيُقتَل إن تركته هناك، كانوا يطلقون النار ويريقون الدماء. هل يغثيك منظر الدماء يا أبي؟ أرى ذلك في وجهك، مثلي تمامًا. إلام تنظر؟».

قال القاتل بصوتٍ خافتٍ وهو يجفل متراجعًا خطوةً أو اثنتين:

«لا شيء!» ثم طفق يحملق بفكٍّ متدلٍّ وعينين مفتوحتين على اتّساعهما إلى نقطة فوق رأس ابنه وكرَّر: «لا شيء!».

ظلَّ في الوضع نفسه وبالتعبير ذاته مرتسمًا على وجهه دقيقةً أو أكثر، ثم أخذ يقلِّب بصره فيما حوله في بطء كما لو كان قد فقد شيئًا، ثم عاد مرتجفًا إلى الحظيرة.

سأله بارنابي الذي كان يراقبه في تساؤل: «هل أدخله يا أبي؟».

لم يجب إلَّا بأنّة مكتومة ورقد على الأرض ملتحفًا بعباءته حول رأسه، وانكمش إلى أشد الأركان ظلمة. ولمَّا وجد بارنابي ألَّا شيء يمكن أن يوقظ هيو الآن أو ينبِّهه ولو لحظةً واحدةً، سحبه فوق العشب وأرقده فوق كومة صغيرة من فضلات التبن والقشِّ كانت هي فراشه الليلة الماضية، وذلك بعد أن أحضر بعض الماء من جدول جار في الجوار وغسل به جرحه ونظَّف وجهه ويديه. ثم ما لبث أن رقد هو نفسه بين الاثنين ليمضي الليلة، وسقط في نومٍ عميقٍ بينما ينظر إلى النجوم.

ولمَّا أيقظه مبكرًا في الصباح ضوء الشمس وتغريد الطيور وطنين الهوام تركهما نائمين في الكوخ وأخذ يتمشَّى في نسمات الصبح العليلة. لكنَّه شعر أنَّ كلَّ ما في النهار المتفتِّح من جمال طالما كان يتذوَّقه ويطرب له أيَّما طرب أصبح يقع موقعًا ثقيلًا من حواسِّه المنهكة التي أثقلتها وقهرتها المناظر الفظيعة التي أحاطت به في الليلة الماضية وما قبلها من ليالٍ. فكَّر في الصباحات الهانئة التي كان يتقافز فيها مع الكلاب في أرجاء الغابات والحقول، وأفعمت الذكرى عينيه بالدموع. لم يكن يعي أنه قد أخطأ أيَّ خطأ، فليساعده الرب، كما لم يستطع أن يدرك أي شيء جديد بخصوص

مزايا القضية التي انشغل بها، ولا الرجال الذين تبنَّوا تلك القضية، وإنما كان الآن بالأحرى ممتلئًا همومًا وأسفًا وذكريات كئيبةً وأمنيات –لا عهد له بها من قبل– أنَّ هذا الحدث أو غيره لم يحدثا في الواقع أبدًا، وأنَّ ما حلَّ بكثيرٍ من الناس من أحزانٍ ومعاناة قد تجنّب منذ البداية. والآن بدأ يفكر كم سيكونون سعداء –أبوه وأمه وهو وهيو– إن هاموا على وجوههم مبتعدين معًا، وعاشوا في مكانٍ منعزلٍ خلو من مثل تلك المتاعب، وأنه ربما كان الأعمى الذي كان يتكلم بحكمة بالغة عن الذهب وأخبره بالأسرار العظيمة التي يعرفها يستطيع أن يعلِّمهم كيف السبيل إلى حياة لا تقرصهم فيها الحاجة والعوز. وحين خطر له هذا الخاطر الأخير أحزنه كثيرًا أنه لم يره الليلة الماضية، وما زال يجترُّ هذا الحزن والأسف حين أتى والده ولمس كتفه.

صاح بارنابي منتبهًا من استغراقه في التفكير: «آه! أهو أنت وحدك؟».

«ومن يمكن أن يكون غيري؟».

أجابه: «كدت أظنُّه الأعمى، يجب أن أتحدث معه يا أبي».

«وأنا كذلك، فأنا لا أعرف إلى أين أهرب ولا ماذا أفعل إن لم أره، والبقاء هنا يعني الموت. يجب أن تذهب إليه ثانيةً وتحضره إلى هنا».

صاح بارنابي في سرورٍ: «يجب عليَّ؟ إنَّ هذا من الشجاعة يا أبي، هذا ما أود أن أفعله».

«لكن عليك أن تحضره هو وحده، لا أحد غيره. وحتى لو انتظرت لدى بابه يومًا بليلة فعليك ألَّا تعجل، ولا ترجع من دونه».

صاح في مرحٍ: «لا تخش ذلك. سيأتي، سيأتي».

قال أبوه ملتقطًا مزق الأشرطة والريش من قبعته: «هذِّب هذه الحلية الرخيصة، وارتدِ عباءتي فوق لباسك، انتبه لمسيرك وسيكونون مشغولين في الشوارع بما لا يسمح لهم بأن يلاحظوك. ليس عليك أن تحمل همَّ رحلة عودتك، فإنه سيدبِّر ذلك بأمان».

قال بارنابي: «بالتأكيد! بالتأكيد سيفعل! رجل حكيم يا أبي، يستطيع ان يعلِّمنا كيف نصبح أغنياء. أوه! إنني أعرفه، أعرفه!».

انتهى من لباسه سريعًا وتنكَّر كأفضل ما يستطيع، ثم انطلق في رحلته الثانية بقلبٍ أخفَّ، تاركًا هيو الذي لم يكن قد أفاق من غيبوبة الشراب ممدَّدًا على الأرض في الحظيرة، وأباه يخطو ذهابًا وجيئةً أمامها. تابعه القاتل ببصره والأفكار القلقة تملأ رأسه، وظلَّ يخطو هنا وهناك، تفزعه كلُّ نسمة تتنفَّس بين الأغصان وكلُّ ظلٍّ خفيفٍ يلقيه الغيم العابر على الأرض المفروشة بالأقحوان. كان متلهفًا على أن يعود بارنابي بأمان، لكن رغم أن حياته وأمانه كانا يعتمدان على هذه العودة فقد ارتاح حين ذهب الفتى. كانت كلُّ فكرة تتعلَّق ببارنابي باعتباره ابنه تغيب وتضيع تمامًا في خضم الأنانية الشديدة التي خلقها الحضور الثابت أمام عينيه لجرائمه الهائلة وتبعاتها الحالية والمستقبلة. وبعد، فقد كان وجود الابن عذابًا وملامةً، فقد كانت أخيلة رهيبة تتراءى لعينيه المهتاجتين من ليلته الآثمة، جعلت بارنابي بهيئته الغريبة وعقله الناقص يبدو له كما لو كان مخلوقًا قفز إلى الوجود من دم ضحيَّته. لم يكن يستطيع تحمُّل نظرته ولا صوته ولا لمسته، وبعد فقد كانت حاله اليائسة وأمله الوحيد في الفرار من المشنقة يجبرانه على أن يحتفظ ببارنابي إلى جواره وأن يعرف أنَّ وجوده لا ينفصل عن فرصته الوحيدة في الهرب.

طفق يخطو ذهابًا وجيئةً طيلة النهار، لا يرتاح إلا قليلًا، وهو يدير هذه الأشياء في ذهنه، وخلال ذلك ظلَّ هيو راقدًا فاقد الوعي في الحظيرة. وأخيرًا عاد بارنابي مع غروب الشمس يقود الأعمى ويتكلَّم معه بلهفة وهما قادمان صوب الحظيرة.

تقدَّم القاتل ليقابلهما، وبعد أن أمر ابنه بالمضيِّ للحديث مع هيو الذي كان في تلك اللحظات قد قام أخيرًا يترنَّح واقفًا، أخذ مكانه عند مرفق الأعمى، وتبع ابنه في بطءٍ صوب الحظيرة.

قال ستاگ: «لماذا أرسلته هو؟ ألا تعرف أنَّ هذه أفضل طريقة تفقده بها بعد أن وجدته لتوِّك؟».

ردَّ الآخر: «أكنتَ تريدني أن آتي بنفسي؟».

«هممم! ربما لا! لقد كنتُ أمام السجن الثلاثاء ليلًا، لكني لم أعثر عليك وسط الزحام. وخرجت الليلة الماضية كذلك، وقد كان هناك عملٌ طيبٌ في الليلة الماضية، عملٌ مرحٌ مربح!» قال ذلك وهو يرنُّ النقود في جيوبه.

«هل..».

«رأيت امرأتك الطيبة؟ أجل».

«هل تنوي أن تخبرني بالمزيد أم لا؟».

ردَّ الأعمى ضاحكًا: «سأخبرك بكلِّ شيء. سامحني، لكني أحب أن أراك نافد الصبر هكذا. ثَمَّ حماسٌ في حالتك هذه».

«هل قبلت أن تنطق بالكلمة التي ربما تنقذني؟».

ردَّ الأعمى بطريقة قاطعة وهو يدير إليه وجهه: «لا. لا. هكذا الأمر،

لقد ظلَّت على باب الموت مذ فقدت عزيزها، ظلَّت فاقدة الإحساس، ولا أدري ماذا. تبعتها إلى أن وصلت إلى المستشفى الذي ترقد فيه وزرتها في فراشها هناك بإذنك. لم يطل حديثنا، فقد كانت منهكةً، ولم أكن أنا مرتاحًا فقد كان هناك أناس قريبون من مرمى حديثنا. لكني قلت لها كلَّ ما اتفقتُ عليه معك. وأشرتُ لها إلى وضع الشاب بكلامٍ واضحٍ. حاولت أن تليني، لكنَّ ذلك كما أخبرتها لم يكن إلا إضاعة وقتٍ. بكت وطفقت تولول، لك أن تثق بذلك فكلُّ النساء يفعلنه. ثم فجأةً عاد إليها صوتها وحزمها وقالت إن السماء ستعينها وتعين ابنها البريء، وإنها ستشكونا إلى السماء، وهو ما أؤكِّد لك أنها قد فعلته ببلاغة! نصحتها بصفتي صديقًا ألَّا تعوِّل كثيرًا على أيِّ عون من جهة بعيدة كتلك، ونصحتها أن تفكر في ذلك، وأخبرتها بعنوان سكني، وقلت إني أعرف أنها سترسل إليَّ قبل ظهر الغد، وتركتها إمَّا مغشيًّا عليها وإمَّا تتظاهر بذلك».

ولمَّا ختم هذه الحكاية التي توقَّف خلالها عدة توقفات لينعم بكسر وأكل بعض النقل الذي كان يبدو أنه يملك منه ملء جيبه، أخرج قنِّينةً من جيبه وجرع منها جرعةً ثم قدَّمها إلى رفيقه. فلمَّا أحسَّ أنه دفعها بعيدًا قال:

«ألن تشرب؟ حسنًا، إذن فإنَّ السيد النبيل الذي يسكن معك سيفعل. هالّو يا وحش!».

قال الآخر دافعًا إياه: «سحقًا! ألن تخبرني ماذا أفعل؟».

«ماذا تفعل؟! لا شيء أسهل من ذلك. اهرب الليلة من هنا في خلال ساعتين مع السيد الشاب (وهو مستعدٌّ تمامًا للذهاب، فقد نصحته نصحًا طيبًا ونحن آتيان إلى هنا) وابتعد عن لندن بقدر ما تستطيع. وأعلمني

بمكانك، واترك الباقي لي. إنها لا بُدَّ أن تأتي، فهي لا تستطيع أن تقاوم طويلًا، وأمَّا بالنسبة إلى احتمال أن يقبض عليك ثانيةً خلال ذلك، فإنَّ من خرجوا من نيوغات ليسوا رجلًا واحدًا وإنما ثلاثمائة، فكر في ذلك لترتاح».

«علينا أن نعيش، فكيف نعيش؟».

كرَّر الأعمى: «كيف؟ بالأكل والشرب! ومن أين لك باللحم والشراب إن لم تدفع ثمنهما؟» ثم صاح وهو يضرب جيبه:

«المال! هل المال هو الكلمة التي تبحث عنها؟ ولم؟ لقد كانت الشوارع تموج بالمال. وحق الشيطان لم ينته الأمر بعد، فإننا في وقتٍ مبهجٍ، وقتٍ نادرٍ صاخبٍ مختلطٍ، وقت من ذهب! أين أنت؟ هالو!».

بهذا الكلام وبأسلوبٍ صاخبٍ ينطق بانغماسه التام في الفوضى العامة والتحرُّر من القيود تلمَّس طريقه إلى الحظيرة حيث كان هيو وبارنابي جالسين على الأرض، ثم صاح مادًّا يده بالقنينة إلى هيو:

«ارفعها! الخوابي تتدفَّق بالخمر والذهب. الجنيهات والنبيذ الحامي يتدفقان من المضخَّات نفسها. ارفعها، لا تبقِ شيئًا!».

ورغم أن هيو كان متعبًا متَّسخًا وقد طال شعره وتلوَّث بالدخان والغبار، والدم المتجلِّط في شعره، وقد ذهب صوته فلم يعد قادرًا على الكلام إلَّا همسًا، وجفَّ جلده من أثر الحمَّى، والرضوض والجروح والضربات تنتشر في جسده كلِّه، إلَّا أنه قد تناول القنينة ورفعها إلى فمه، وبينا هو يشرب إذا واجهة الحظيرة تظلم فجأةً ودنس يقف أمامهم.

قال الشانق بلهجة مسترضية حين توقَّف هيو عن الشرب ونظر إليه

نظرةً لا تسرُّ، مسحه بها من قمة رأسه إلى أخمص قدمه: «لم أقصد الإساءة، لم أقصد الإساءة، لم أقصد الإساءة يا أخي. بارنابي هنا هو الآخر؟ إيه! كيف أنت يا بارنابي؟ وسيدان آخران؟ خادمكم المتواضع يا سادتي. لم أقصد مقاطعتكم أنتم كذلك. إيه يا إخوتي؟».

ورغم أنه كان يتكلم بهذا الأسلوب الودِّي الواثق بدا أنه متردِّد جدًّا بشأن الدخول وظل خارج الحظيرة. كان يتزيَّا بأفضل ممَّا يفعل في العادة، فكان حقًّا يرتدي البذلة السوداء البالية نفسها، ولكن حول عنقه رباط عنقٍ أبيض مصفرٌّ ذو هيئة كريهة، وفي يديه قفَّازان جلديَّان عظيمان كالقفَّازات التي يرتديها البستاني وهو يقوم بعمله. أمَّا حذاؤه فكان مشحَّمًا حديثًا ومزيَّنًا بزوجين من المشابك الحديدية الصدئة، وجدَّد الخيط في موضعي ركبتيه، كما كان يرتدي دبابيس في مواضع الأزرار. وعلى الجملة فقد كانت له هيئة قريبة من هيئة حاجب المحكمة، أو وكيل المحضر، صحيح كانت هيئةً شاحبةً ولكنها كذلك هيئة رجلٍ يحاول الاحتفاظ بسمتٍ مهنيٍّ ويستغل وسائله الفقيرة أفضل استغلال.

قال مستر دنس وهو يخرج منديل جيب عفنًا يشبه حبل مشنقة متحلِّلًا ويمسح به جبهته في عصبية: «جلستكم هنا جدّ مريحة».

أجابه هيو عابسًا: «يبدو أنها ليست مريحةً بما يكفي لمنعك من العثور علينا».

قال دنس بابتسامة ودودٍ: «لماذا؟ سأخبرك بشيء يا أخي. إذا أردت ألَّا أعرف إلى أي اتجاه تنوي الركوب فعليك أن تلبس حصانك نوعًا آخر من الأجراس. آه! أنا أعرف صوت الأجراس التي كانت على حصانك ليلة

أمس وتابعتها بأذنيَّ في يسرٍ. هذه هي الحقيقة. حسنًا، لكن كيف حالك يا أخي؟».

إذ ذاك كان دنس قد اقترب وتجرَّأ على الجلوس إلى جوار هيو. أجابه هيو:

«كيف حالي؟ أين كنت البارحة؟ إلى أين ذهبت حين تركتني في السجن؟ لم تركتني؟ وماذا كنت تعني حين دارت عيناك في محجريهما وهززت قبضتك في وجهي؟ هاه؟».

قال دنس وهو يقبض بنعومة على يد هيو المرفوعة التي بدت مهددةً: «أنا أهزُّ قبضتي.. في وجهك أنت يا أخي؟».

«إذن فقد كانت عصاك، الأمر سيَّان».

«أحبَّك الربُّ يا أخي، لم أقصد شيئًا. أنت لا تفهمني ولا نصف فهمٍ حتى!» ثم أضاف بنبرة رجلٍ محزونٍ مجروحٍ: «ليس لي أن أعجب الآن، لكنَّك فكَّرت -لأنني أردت أن يبقى هؤلاء الرجال في السجن- أنني سأهجر رايتنا؟».

أخبره هيو مقسمًا أنه ظنَّ ذلك حقًّا، فقال مستر دنس بلهجة راثية:

«حسنًا! إن لم يكن ذلك كافيًا لأن يرتاب المرء في زملائه، فلا أدري ما يكفي لذلك! أهجر رايتنا؟ أنا؟ (ند دنس) بالاسم الذي عمَّدني به أبي؟! هل هذه بلطتك يا أخي؟».

قال هيو بالأسلوب العابس نفسه: «نعم، هي لي. لو كنتُ وقعت في طريقها مرة أو اثنتين ليلة أمس لكانت قد آذتك، ضعها أرضًا».

قال مستر دنس وهو ما زال ممسكًا بها يتحسَّس نصلها ببعض

الشرود: «كانت قد آذتني؟! كانت قد آذتني! وأنا الذي أبذل ما في وسعي طيلة الوقت على أفضل نحوٍ ممكن. يا له من عالم! ولن تعرض عليَّ أن آخذ رشفةً من هذه القنينة التي أمامك، أليس كذلك؟».

دفعها هيو إليه. وبينما يرفعها إلى شفتيه قفز بارنابي عاليًا وأشار إليهم أن يصمتوا ثم نظر إلى الخارج في لهفة. قال دنس وهو ينظر إلى هيو ويضع القنينة أرضًا وإن كان ما زال ممسكًا بالبلطة:

«ما الأمر يا بارنابي؟».

أجاب بارنابي في صوتٍ خافتٍ: «ششش! ما هذا الذي أراه يلمع خلف السياج؟».

صاح الشانق رافعًا صوته إلى أحدِّ طبقاته وممسكًا ببارنابي وهيو معًا: «ماذا؟ ليس العسكر بالتأكيد!».

في تلك اللحظة امتلأت الحظيرة بالرجال المسلَّحين، وما لبثت فرقة من الخيَّالة كانت تركض عبر الحقول أن اصطفَّت أمامها. قال دنس الذي ظلَّ الوحيد الذي لم يُمسّ بينهم حين ألقى المسلَّحون القبض على سجنائهم:

«هيَّا! إنهما الشابان أيها السادة اللذان يعيِّن الإعلان ثمنًا للدلالة عليهما، هذا الثالث مجرم هارب».

ثم أضاف بنبرة رصينة مخاطبًا هيو: «أنا آسف لذلك يا أخي، لكنَّك جلبت ذلك على نفسك. أنت اضطررتني إلى فعلها. تعرف أنك لم تحترم أصحَّ المبادئ الدستورية. أنت رحت وتعدَّيت على هيكل المجتمع نفسه. أقسم بروحي أنه كان يطيب لي أن أخرج شيئًا يسيرًا بسبيل الصدقة، ولا

أفعل ما فعلته. إذا ما شدَّدتم القبض عليهم أيها السادة فأظنني أستطيع أن أبذل جهدي لأوثقهم أفضل ممَّا تستطيعون».

غير أنَّ حدثًا جديدًا أجَّل هذه العملية لحظاتٍ قليلة. كان الأعمى ذو السمع الأكثر إرهافًا وحدَّةً من نظر معظم المبصرين قد انتبه قبل بارنابي لصوتٍ حفيفٍ وخشخشة في فروع الشجيرات، تخفَّى تحتهما العسكر في اقترابهم. فما كان منه إلَّا أن تراجع على الفور واختبأ في مكانٍ ما دقيقةً، وربما أخطأ في اضطرابه النقطة التي ظهر عندها من مخبئه، فرؤي في هذه اللحظة يركض في المرج المنبسط.

صاح ضابط على الفور أنه قد ساعد في نهب أحد المنازل ليلة أمس، فأهابوا به بصوتٍ عالٍ أن يستسلم. أسرع الركض، ولو تأخَّروا ثواني لكان قد تجاوز مرمى نيرانهم، لكنَّ الأمر قد صدر سريعًا فأطلقوا النار، تبع ذلك توقُّف حُبِست فيه الأنفاس وخيَّم صمتٌ تامٌّ تعلَّقت خلاله الأنظار جميعًا به. رؤي يجفل مع إطلاق النار كما لو كان الدوي قد ذعره. لكنَّه لم يتوقَّف ولم يبطئ خطاه أقلَّ إبطاء، وإنما ركض أربعين ياردةً أبعد، ثم ما لبث أن سقط من دون أن يدور أو يترنَّح ومن دون أن يبدو عليه أيُّ أثرٍ لفقدان الوعي ومن دون أن يرتجف منه طرفٌ!

هرع بعضهم إلى حيث سقط ومعهم الشانق. حدث كلُّ شيء بسرعة لدرجة أنَّ الدخان لم يكن قد تبعثر بعد وإنما تجعَّد في بعضه ببطء كسحابة صغيرة بدت كأنها روح الميت تتحرك بعيدًا في رصانة. كان على العشب نقاطٌ قليلة من الدم، وكان منها المزيد حين قلبوه، هذا كلُّ ما في الأمر.

قال الشانق وهو يجثو على ركبة واحدة جوار الجثة ويحملق بوجه

محزون إلى الضابط ومن معه: «انظروا هنا! انظروا هنا! لدينا هنا منظر جميل!».

ردَّ الضابط: «ابتعد، أيُّها الرقيب، انظر ما كان معه».

قلب الرجل جيوب الميت على العشب، وعدَّ بالإضافة إلى بعض النقود الأجنبية وخاتمين خمسةً وأربعين جنيهًا ذهبيًّا. حزمت هذه في منديل وحُمِلت بعيدًا، وظلَّت الجثَّة في مكانها مؤقَّتًا، لكن ترك ستة رجال مع الرقيب ليأخذوها إلى أقرب بيت شعبيٍّ.

قال الرقيب ضاربًا ظهر دنس ومشيرًا إلى الضابط الذي كان يمشي صوب الحظيرة: «الآن إذن، إن كنت ستمضي».

فما كان من مستر دنس إلَّا أن ردَّ: «لا تتحدَّث إليَّ!» ثم كرر ما قاله قبل، وبالتحديد: «لدينا هنا منظرٌ جميلٌ!».

قال الرقيب بلهجة باردة: «أظن أنه ليس منظرًا تهتمُّ لأمره كثيرًا».

قال مستر دنس وهو ينهض: «من، من يهتم له إن لم أهتمّ أنا؟».

قال الرقيب: «أوه! لم أكن أعرف أنَّك رقيق القلب هكذا، هذا كلُّ ما في الأمر!».

ردَّد دنس: «رقيق القلب! رقيق القلب؟! انظر إلى هذا الرجل. هل تسمِّي هذا دستوريًّا؟ ألا ترى جثَّته مخترقةً بالرصاص هكذا بدلًا من أن يعدم شنقًا كبريطانيٍّ؟ اللعنة عليَّ إن كنت أعرف إلى أي فريق أنحاز. إنكم لا تقلُّون سوءًا عن الآخرين. ماذا سيحلُّ بالبلاد إن كانت القوة العسكرية ستلغي المدنيين بهذه الطريقة؟ أين حقوق هذا المخلوق المسكين كمواطن، وهو لم يحظ بوجودي إلى جواره في لحظاته الأخيرة؟! لقد

كنت هنا، كنت طوع الأمر. كنت مستعدًّا. يا له من زمان يا أخي، يصيح فيه الأموات يجأرون بالشكوى منَّا بهذه الطريقة، ثم ننام في فرشنا مرتاحين بعد ذلك. ما أحسنه من زمن!».

لا يسعنا أن نجزم بما إذا كان شدُّ وثاق السجناء قد أشعره ببعض السلوى بعد ذلك، لكن غالبًا هذا ما حدث. وعلى كلٍّ فإنه إذ استدعي للقيام بهذه المهمة تسلَّى بها مؤقتًا عن تلك التأمُّلات المؤلمة، وراحت أفكاره تمرح في فضاء أسعد.

لم يحمل السجناء الثلاثة معًا في الوقت نفسه، وإنما على دفعتين، فذهب بارنابي وأبوه بطريقٍ، تحيطهما فرقة من المشاة، وذهب هيو بطريقٍ أخرى، موثقًا إلى ظهر حصان تحيط به حراسة مشددة من الفرسان.

لم تكن أمامهم فرصة ليتبادلوا أقلَّ قدرٍ من الحديث في الفترة القصيرة التي سبقت مغادرتهم الحظيرة، فقد عزلوا كلٌّ عن صاحبيه. لكنَّ هيو لاحظ أنَّ بارنابي كان يمشي برأسٍ مطأطأ بين حرسه، ومن دون أن يرفع عينيه حاول أن يلوِّح بيده المقيَّدة في أثناء خروجه. أما هيو نفسه فقد استجمع شجاعته حين أركب الحصان، واثقًا أن الحشود ستقتحم سجنه أينما كان وتطلق سراحه. لكنهم حين وصلوا إلى لندن، وبالتحديد إلى سوق (فليت) الذي كان إلى وقتٍ قريبٍ حصن المتظاهرين الحصين، حيث كانت عناصر الجيش تقتلع جذور آخر من بقي من الحشود، رأى أنَّ أمله قد ضاع، وشعر أنه ذاهب إلى حتفه.

الفصل السَّبعون

وبعد ان أنجز مستر دنس هذه المهمة دون أدنى قدرٍ من الشعور بالأذى أو الحرج الشخصي، وبعد أن اعتزل إلى سكينة الحياة الشخصية المحترمة، قرَّر أن يسلي نفسه بنصف ساعة أو ما إليه من صحبة الجنس اللطيف. وبهذا الهدف مسيطرًا على ذهنه لوى عنان خطاه إلى البيت الذي ما زالت (دلّي) والآنسة (هاردال) محتجزتين فيه، والذي نُقلت إليه الآنسة مـگز هي الأخرى بأمر مستر سايمن تاپرتت.

وما كان أشبه مستر دنس –وهو يسير في الشوارع وقفَّازاه الجلديان مشتبكان ببعضهما خلف ظهره والأفكار المبهجة والحسابات السارة مرتسمة في وجهه– بمزارعٍ مستغرق في التأمُّل بين غلاله، مستمتع بانتظار عطايا العناية الإلهيَّة الكريمة. وكان حيثما نظر رأى كومةً من الأطلال واعدةً بإعدامٍ ما، فكأنَّ المدينة بالكامل قد حرثت وبذر بذارها، وغذاها ألطف الأجواء، ولم يبق إلَّا الحصاد الوشيك الوفير.

وحيث كان قد حمل السلاح ولجأ إلى أعمال العنف، وهدفه الأساسي العظيم هو الحفاظ على منظومة (أولد بايلي) بكلِّ طهرها، والمشنقة بكلِّ نفعها الشريف وعظمتها الأخلاقية، فمن المبالغة أن نؤكِّد أن مستر دنس قد توقَّع بوضوحٍ أو تنبَّأ بهذه النتيجة السعيدة. والأوقع أنَّه قد نظر إلى ما حدث باعتباره واحدًا من تلك الأحكام الجميلة التي توقع في غموض

لمصلحة الأخيار وفائدتهم. وهكذا شعر بأنَّ الأحداث تشير إليه شخصيًّا، لا سيَّما في ينع الرؤوس الوفير هذا لأجل المشنقة، ولم يحدث من قبل أن اعتبر نفسه طفل القدر المدلَّل، كما لم يعشق القدر هذا العشق بهذا القدر من الثقة المطمئنَّة الفاضلة طيلة حياته.

أما بالنسبة إلى احتمال أن يؤسر بصفته هو نفسه أحد مثيري الشغب ثم يُعاقب مع البقية، فقد طرد هذا الاحتمال من أفكاره كوهمٍ تافهٍ، وحجَّته في ذلك أنَّ خطَّ السلوك الذي تبنَّاه في نيوغات، والخدمة التي أسداها في ذلك اليوم كفيلان بنقض أيِّ دليلٍ على كونه ينتمي إلى حشود المتمردين. وهكذا فإنَّ أيَّ اتهام يوجِّهه إليه أحدٌ من كانوا هم أنفسهم معرَّضين للخطر بكونه قد رافق المتمردين سيُعدُّ اتهامًا باطلًا من الأساس. ولو أزيح النقاب لسوء الحظ عن أي إساءة تصرُّف بسيطة من جانبه، فإنَّ ما في وظيفته من منفعة غير عادية حاليًّا، والحاجة الهائلة إلى استغلال مهام هذه الوظيفة لقمينان بأن يقنعا من بيدهم الأمر أن يتجاوزوا عمَّا بدر منه. وباختصارٍ فقد لعب بأوراقه طيلة الأحداث بكثيرٍ من الحذر، وبدَّل الجانب الذي ينحاز إليه في الوقت الحرج، وسلَّم إلى السلطات اثنين من الأسوأ سمعةً بين المتمردين، ومعهم مجرمٌ مميَّز فوق ذلك، وهو الآن مرتاحٌ تمامًا.

ولم يكن يقلقه إلَّا ظرفٌ واحدٌ -فثَمَّ استدراك على ما قلنا، وحتى مستر دنس لم يكن مكتمل السعادة- وهو الاحتجاز القسري لدلّي والآنسة هاردال في منزلٍ متاخمٍ لمنزله. كان هذا حجر عثرة، فإنهما إن عُثِر عليهما وحُرِّرتا تستطيعان بموجب الشهادة التي في مقدورهما أن تدليا بها أن تضعاه في موقفٍ بالغ الحرج والخطورة، كما كان من غير الوارد أن يطلق سراحهما بعد أن يجبرهما على أن تحلفا على السريَّة والكتمان. ولم

يكن إسراع الشانق للقائهما الآن حاثًّا الخطى بسببٍ من محبَّته المحضة للحديث مع الجنس اللطيف بقدر ما كان مردُّه غالبًا إلى ما يحيق به من خطر من قبلهما، فكان في ذهابه إليهما يلعن طبيعة هيو وتاپرتت العاطفية بحماسٍ كبيرٍ في كلِّ خطوة يخطوها.

وحين دلف إلى الغرفة البائسة التي كانتا محتجزتين فيها تراجعتا في صمتٍ إلى أبعد ركنٍ، غير أنَّ الآنسة مـگز التي كانت حسَّاسةً بالأخصِّ لكلِّ ما قد يمسُّ سمعتها سقطت على ركبتيها على الفور وطفقت تصرخ بصوتٍ جهيرٍ قائلةً:

«ماذا سيحدث لي؟ أين حبيبي (سمن)؟! ارحموا ضعف جنسي أيها السادة!» إلى غير ذلك من أمثلة العويل الكئيب التي أخذت تلقيها بكثيرٍ من اللياقة واللباقة!

همس دنس وهو يشير إليها بسبَّابته: «يا آنسة، يا آنسة، تعالي هنا، لن أؤذيك. تعالي يا حملي الصغير، هلَّا أتيت؟».

وبعد أن كانت مـگز قد توقَّفت عن الصراخ حين فتح فمه وأخذت تستمع إليه في انتباه، عادت تصرخ مجدّدًا فور أن سمعت هذا اللقب الحنون:

«أوه! أنا حمله الصغير! يقول إنني حمله الصغير! يا ألطاف الرب، لماذا لم أولد كبيرة دميمة؟! لماذا كُتِب عليَّ أن أكون أصغر إخوة ستة ماتوا جميعًا وثووا في قبورهم المباركة عدا أختًا واحدةً متزوجة تعيش في ساحة الأسد الذهبي، رقم سبعة وعشرين، الجرس الثاني على الـ...!».

قال دنس مشيرًا إلى مقعدٍ: «ألم أقل إنني لن أوذيك؟ ماذا بك يا آنسة؟ ما الأمر؟».

صرخت الآنسة مـگز مشبّكةً يديها في شرودٍ: «لا أعرف ما عسى يكون الأمر، أيّ شيء يمكن أن يكون!».

قال الشانق: «لكني أخبرك بأنه لا شيء. كفِّي أولًا عن هذه الجلبة وتعالي واجلسي هنا، هلَّا فعلت يا فرختي؟!».

كان يمكن للنبرة المسترضية التي قال بها هذه الكلمات الأخيرة أن تخفق فيما تهدف إليه، لولا أنه قرنها بهزِّ إبهامه في حدَّة من فوق إحدى كتفيها، وغمزات متنوعة، ودفعات للسانه في خده من الداخل، حتى فهمت الآنسة من هذه الإشارات أنه يودُّ أن يتحدث إليها على انفرادٍ بشأن الآنسة هاردال ودلّي. ولمَّا كان فضولها شديدًا وغيرتها أبعد ما تكون عن الخمول فقد نهضت واقتربت منه تدريجيًّا وهي ترتجف كثيرًا وتجفل إلى الخلف، وكلُّ خلجة بين العظام الصغيرة في رقبتها ترتعش.

قال الشانق: «اجلسي».

وليقرن الكلمة بالفعل دفعها بغتةً وعلى غير استعدادٍ منها إلى مقعدٍ، ثم قصد إلى أن يطمئنها بمزحة بريئة صغيرة من تلك التي تكيف لتسر الجنس اللطيف وتدهشه، فحوَّل سبَّابته اليمنى إلى مثقبٍ نموذجيٍّ أو مخرز، وتظاهر بأنه سيدفع بهذا المثقب في جنبها، فصرخت الآنسة مـگز ثانيةً وبدت كما لو كانت سيُغشى عليها.

همس دنس وهو يقرِّب مقعده من مقعدها: «عزيزتي، متى كان حبيبك الشاب هنا آخر مرة؟ هاه؟».

أجابت مـگز بنبرة ملؤها الكرب العظيم: «حبيبي الشاب يا سيدي الطيب؟!».

قال دنس: «آه، (سمن)».

صاحت مـگز في مرارة: «حبيبي حقًّا!» ونظرت إلى (دلّي) وهي تقولها، مواصلةً: «حبيبي يا سيدي الطيب!».

كان هذا بالضبط ما أراده مستر دنس وتوقَّعه.

قال وهو ينظر نظرةً حنونًا -إن لم نقل محبَّةً- إلى مـگز، حتى لقد شعرت أنها تجلس -كما حكت فيما بعد- على إبر ودبابيس من أحدِّ أنواع وايتّشابل وهي لا تدري أي نوايا تقترح مثل هذا التعبير على وجهه[1]:

«آه! هذا ما كنت أخشاه! لقد رأيت مثل ذلك في حياتي. إنه خطؤها، إنها كفيلة بإغرائه».

صاحت مـگز عاقدةً يديها وهي تنظر إلى أعلى بنوعٍ من التبلُّد الورع: «أنا لا أعرض نفسي مثلما تفعل، ولا يمكنني أن أكون جريئةً هكذا، ولا يمكنني أن أبدو كما لو كنت أقول لكلِّ الذكور «تعالوا قبِّلوني» وهنا انتابتها قشعريرة ثم أضافت برصانة:

---

(١) On pins & needles of the sharpest Whitechapel kind كان يمكنني ترجمتها إلى أي صيغة عربية توحي بالقلق «تجلس على أعصابها» أو «على نار» مثلًا، لكني آثرت الإبقاء على الصياغة الحرفية لاحتفاظها بتفصيلة إنـگليزية أصيلة، وقد عثرت على ذكرٍ لأدوات الخياطة الحادة المسماة وايتّشابل في كتاب عنوانه (دليل أشغال الإبرة The Handbook of Needlework) لمؤلّفة اسمها الآنسة لامبرت، مؤرَّخ صدوره بعام ١٨٤٢، حيث تقول في هامش بصفحة ٩١ ما مفاده إنَّ السمعة الطيبة التي طالما تمتَّعت بها إبر وايتّشابل تشير إلى المحل المحدد من لندن الذي بدأت فيه صناعة إبر الخياطة التي سمَّاها الإنـگليز أولًا (الإبر الإسـپانية) ثم أدخل صناعتها إلى لندن مستوطنٌ ألمانيّ يُدعى (إلياس كراوزه Elias Krause).

«فإنَّ مال الدنيا كلَّه لن يجعلني أصغِّر قدري هكذا، لا، حتى ولو كنت وينوس».

قال مستر دنس فيما بينه وبينها: «حسنًا، لكنك تعرفين أنك (ڤينوس) بالفعل[1]».

أجابت مـگز هازَّةً رأسها في إنكارٍ للذات بدا كأنه يقول ضمنًا إنها تستطيع أن تكون (ڤينوس) لو أرادت ولكنها ترجو أن تعرف أفضل من ذلك: «لا، أنا لست ڤينوس يا سيدي الطيب، لست ڤينوس، لا تتهمني بذلك».

إلى هذه اللحظة كانت تلتفت بين الفينة والفينة إلى حيث تراجعت دلّي والآنسة هاردال لتطلق صرخةً أو أنَّةً أو تضع يدها على قلبها وترتجف بعنفٍ، في حرصٍ على أن تحافظ على مظهرٍ خادعٍ لكليهما، حتى تفهما أنها تتحدث مع الزائر رغم اعتراضها وتحت الإجبار ومضحِّيةً بنفسها إلى أبعد الحدود، وكل ذلك لمصلحتهما. لكن عند هذه النقطة بدا مستر دنس كما لو كان يعني كلَّ حرف مما يقول، واختلجت قسماته اختلاجًا معبِّرًا إلى درجة استثنائية كما لو كان يطلب منها أن تقترب منه أكثر، حتى لقد تخلَّت عن كلِّ تلك الحيل الصغيرة وأعارته انتباهها كاملًا غير منقسم.

قال دنس في أذنها: «متى كان (سمن) هنا؟».

«لم يأتِ منذ صبح أمس، ولم يبقَ ساعتها إلَّا دقائق معدودة، ولم يأتِ طيلة اليوم أوَّل أمس».

---

(١) ألزم ديكنز شخصية الآنسة مـگز بعدة لوازم، منها إبدال صوت الـ(ف) واوًا في بعض أسماء الأعلام.

قال دنس وهو يومئ إلى دلّي بأقلِّ هزَّة ممكنة من رأسه: «تعرفين أنه طيلة الأحداث كان يريد أن يختطف تلك الفتاة، وأن يسلِّمك إلى شخصٍ آخر».

كانت الآنسة مـگز قد استغرقتها حالة رهيبة من الحزن حين سمعت الجزء الأول من الجملة، فلما سمعت الثاني استعادت نفسها قليلًا، وبدا من إيقافها المباغت لدموعها أنها توحي ضمنيًّا بأن هذا الترتيب ربما يناسبها، وأن السؤال ربما يظلُّ مفتوحًا.

واصل دنس الذي لاحظ ذلك: «لكن لسوء الحظِّ كان هناك شخصٌ آخر مغرم بها كذلك كما ترين، وحتى لو لم يكن كذلك، فإنَّ ذلك الآخر قد أُلقي القبض عليه بين المتمردين، وانتهى الأمر بالنسبة إليه».

ارتكست الآنسة مـگز إلى حالتها الأولى. قال دنس:

«والآن أريد أن أخلي هذا المنزل وأن أراك وقد حصلت على ما يجب لك. ماذا لو أخذتها أنا بعيدًا عن طريقك؟ هاه؟».

ردَّت الآنسة مـگز ووجهها يشرق مجدّدًا -وكانت تقطع ردَّها توقُّفات كثيرة بسبب شعورها الجارف- أنَّ آفة (سمن) كانت هي الإغراءات. وأنَّ ذلك لم يكن خطأه بل خطأها هي (تعني خطأ دلّي). وأنَّ الرجال لا يكشفون هذه الحيل الفظيعة كما تفعل النساء بسهولة، وهكذا يدخلون القفص ويقعون صيدًا سهلًا، كما حدث لـ(سمن). وأنها لا تحركها دوافع شخصية، ما أبعدها عن ذلك، بل بالعكس فنواياها طيبة إزاء جميع الأطراف. لكن إذا ما تعلَّق الأمر بـ(سمن) الذي تعرفه جيدًا، فإنه إذا ما اقترن بأي فتاة قليلة الحياء واسعة الحيلة -وهي لن تذكر أسماء فإنها لا

تميل إلى ذلك- فسيظل تعيسًا محرومًا من السعادة طيلة حياته، وهكذا تجد نفسها مدفوعة إلى منع حدوث ذلك. ثم أضافت أن هذه اعترافاتها بمحض إرادتها! لكن حيث إن هذه مشاعر خاصة وقد ينظر إليها باعتبارها انتقامًا، فقد توسَّلت إلى السيد أن يكفَّ عن هذا الحديث. وأيًّا كان ما يقوله فإنها لن تنصت إليه لأنها تتمنى أن تقوم بواجبها تجاه البشرية كلها، حتى من كانوا ألدَّ أعدائها.

بذلك سدَّت أذنيها وهزَّت رأسها يمنةً ويسرةً لتوحي إلى مستر دنس بأنه وإن ظلَّ يتكلم حتى لا يبقى فيه نفس فإنها لن تسمع. قال مستر دنس:

«انظري يا سكَّرتي، إن كنت توافقينني الرأي، وإذا ما احتفظت بهدوئك وتسلَّلتِ هاربةً في الوقت المناسب فإنني أستطيع أن أخلي المنزل غدًا وأنتهي من هذه المتاعب، لكن مهلًا، ماذا عن الأخرى؟».

سألته مـگز وأصابعها ما زالت في أذنيها ورأسها يهتزُّ في عنادٍ: «أي أخرى يا سيدي؟».

قال دنس مداعبًا ذقنه: «الأطول هناك» ثم أضاف هامسًا لنفسه شيئًا عن ضرورة ألَّا يتعدَّى مستر غاشفورد.

ردَّت الآنسة مـگز وهي ما زالت تامة الصمم أنَّ الآنسة هاردال إن عاقت طريقه بأي طريقة فله أن يطمئنَّ بالًا تمامًا من ناحيتها، إذ إنها قد فهمت مما دار بين هيو ومستر تاپرتت حين كان كلاهما هنا آخر مرة أنَّ ثالثًا غيرهما سينقلها وحدها غدًا ليلًا. فتح مستر دنس عينيه على اتساعهما حين سمع هذه المعلومة، ثم صفَّر وأخذ يفكر برهة، وأخيرًا ضرب رأسه مرة وأومأ كما لو كان لديه مفتاح سر هذا النقل الانفرادي، وهكذا صرف الأمر عن ذهنه. ثم أسرَّ بخطَّته فيما يخصُّ (دلّي) إلى الآنسة مـگز التي

استغرقت تمامًا في الصمم بمجرد أن بدأ يسرُّ بخطَّته، وظلَّت هكذا إلى النهاية.

كانت الخطة اللافتة كالتالي: أن يبدأ مستر دنس على الفور في البحث عن شاب جريء بين المتمردين -وقد قال إنه يفكر في واحدٍ بعينه- يخيفه بالتهديد ويقلقه بوقوع كثيرين من رفاقه ممن لم يكونوا أفضل ولا أسوأ منه في قبضة العسكر، فلا يجد الشاب محيصًا من أن يساعده في أي شيء يطلبه منه ليخرج من دائرة الخطر ومعه غنيمته، حتى ولو أثقلت رحلته رفيقة غير راغبة في رفقته، والحق أن كون هذه الرفيقة العصية فتاة جميلة سيمثِّل حضًّا وإغراءً إضافيين. فإذا ما وجد هذا الشخص فسيحضره إلى هنا الليلة القادمة بعد أن تنقل الفتاة الأطول بعيدًا وتنسحب الآنسة مـگز عامدةً، وحينذاك تكمَّم هذه الـ(دلّي) وتلبس عباءةً تخفيها ثم تُحمَل على أي وسيلة مواصلات متاحة إلى ضفة النّهر، حيث لا أكثر من الوسائل التي يمكن بها تهريبها بطريقة مريحة من دون إثارة أي أسئلة. أمَّا عن تكلفة هذا النقل، فسيقول بحسابٍ مبدئيٍّ إنَّ قدرين أو ثلاثة قدور فضيَّة من قدور الشاي أو القهوة ستغطِّي النفقة وتزيد، مع إضافة شيء آخر يشرب فيه، وليكن سكَّارة كعك أو حامل خبز محمَّص! ولمَّا كان مثيرو الشغب قد دفنوا أدواتٍ ثمينةً من الخزف في بقعٍ منعزلة كثيرة من لندن، وخاصة في ميدان سان چيمس على حدِّ علمه -وهو المكان الذي لا تطؤه الأقدام إن حلَّ الظلام إلَّا قليلًا رغم سهولة الوصول إليه، وفي منتصفه مكان يمكن منه التزوُّد بالماء في راحة- فإن الميزانية اللازمة لهذه المهمة غير بعيدة عن يده، ويمكنه

أن يصل إليها على الفور إذا ما دعت الحاجة. وبالنسبة إلى (دلّي) فإنه سيعتمد معها على ما تمليه عليه حكمته. سيكون مضطرًّا إلى ألَّا يفعل لها أيَّ شيء إلَّا أن يأخذها بعيدًا ويحتفظ بها بعيدًا، أمَّا ما عدا ذلك من الترتيبات والنوايا فهو متروك لحكمته وحده فيما بعد.

ولو لم تفقد الآنسة مـگز السمع هكذا لكان من المؤكد أن هروب فتاة شابة مع غريبٍ بليلٍ سيصدمها (فقد كانت مشاعرها الأخلاقية كما قلنا بالغة الحساسية!)، لكن بمجرد أن توقَّف مستر دنس عن الكلام ذكَّرته أنه لم يفعل إلَّا أن أهدر أنفاسه سدى. ثم مضت تقول –وما زالت أصابعها في أذنيها– ألَّا شيء يمكن أن ينقذ ابنة صانع الأقفال من السقوط التام إلَّا درس عمليٌّ قاسٍ، وأنها تشعر أن من واجبها الأخلاقي والتزامها المقدس تجاه تلك الأسرة أن تتمنى أن يهيِّئ أحدهم ذلك الدرس لإصلاحها. ثم قالت الآنسة مـگز بمنتهى العدل –باعتبار ذلك عاطفةً مجردةً خطرت لها في تلك اللحظة– إنها تكاد تقول إن صانع الأقفال وامرأته سيتهامسان وربما يشكوان إذا ما حدث وفقدا ابنتهما بالاختطاف القسري أو لسببٍ آخر، لكننا نادرًا ما نعرف ما الأفضل بالنسبة إلينا في هذه الدنيا، فهذه هي طبيعتنا الآثمة الناقصة، حتى إنَّ قليلين من يصلون إلى ذلك الفهم الواضح.

ولمَّا وصل حوارهما إلى هذه النهاية المرضية افترقا، حيث مضى دنس ليتابع تنفيذ خطَّته ويمشي مجددًا في مزرعته، ومضت الآنسة مـگز حين تركها وشأنها لتعيش انفجارًا من مشاعر القلق –أفهمت رفيقتيها أن

سببه بعض الأشياء الناعمة التي قالها ذلك الرجل في جرأة ووقاحة- حتى لقد ذاب من أجلها قلب (دلّي) الصغير. ولقد قالت وفعلت الكثير حقًّا لتطيِّب خاطر الآنسة مـگز ذات المشاعر المنتهَكَة، وكانت تبدو جميلةً جدًّا وهي تفعل ذلك، حتى إن الآنسة مـگز لو لم تكن قد نعمت بمتنفَّس كافٍ لحقدها الشديد في علمها بما يحاك لـ(دلّي) من أذىً لخمشت ملامح (دلّي) على الفور.

* * *

الفصل الحادي والسَّبعون

طيلة اليوم التالي ظلَّت إمّا هاردال ودلّي ومـگز محبوسات معًا فيما أصبح الآن سجنهنَّ لعدة أيام، من دون أن يرين أيَّ شخصٍ أو يسمعن أيَّ صوتٍ باستثناء الحوار المهموس بين حرَّاسهنَّ في غرفة خارجية. وقد بدا أنَّ عدد هؤلاء الحرَّاس قد ازداد مؤخرًا، ولم يعُد في مقدورهن أن يسمعن أصوات نساء كما استطعن تمييزها بوضوحٍ في البداية. كما أن جوًّا جديدًا من الإثارة كان يخيِّم على الحرَّاس، إذ كانوا كثيرًا ما يتسلَّلون خفيةً إلى الداخل وإلى الخارج، ولا يني الموجودون بالفعل يوجهون الأسئلة إلى من يصلون حديثًا. وقد كانوا في السابق بالغي الطِّيش في سلوكهم، فكانوا غالبًا صاخبين يتشاجرون فيما بينهم ويتقاتلون ويرقصون ويغنُّون. أمَّا الآن فكانوا في غاية الإذعان والصمت، يتحاورون همسًا، ولا يدخلون ولا يخرجون إلا تسلُّلًا وهم يسترقون الخطى ببطء، فما كان أشد اختلافهم الآن عمَّا كانت عليه حالهم في السابق من دقٍّ الأرض بأقدامهم في صخبٍ معلنين بذلك تحركاتهم لأسيراتهم المرتعدات كلَّما جاؤوا أو ذهبوا.

ولم يكن في مستطاع الأسيرات أن يحدِّدن ما إذا كان سبب هذا التغيُّر هو وجود شخصٍ ذي سلطة بين صفوفهم الآن، أو غير ذلك. كنَّ أحيانًا يعتقدن أنَّ السبب يعود جزئيًّا إلى وجود رجلٍ مريضٍ في الغرفة، فقد كان

ثَمَّ أقدامٍ تجرّ الخطى الليلة الماضية، كما لو كان أصحابها يحملون حملًا ثقيلًا إلى الداخل، وتلت ذلك جلبة من الأنين. غير أنَّهنَّ لم يكن لهنَّ سبيلٌ إلى التأكُّد من الحقيقة، فإنَّ أيَّ سؤالٍ أو رجاء من طرفهنَّ لم يكن يثير إلَّا عاصفةً من اللعنات أو ما هو أسوأ، فلم يكن أسعد لهنَّ من أن يتركن وشأنهنَّ، لا ينتهك خصوصيتهنَّ تهديدٌ ولا إعجاب، وما كان أغناهنَّ بالتالي عن أن يخاطرن بهذه الراحة بأيِّ تواصل إراديٍّ مع أولئك الذين يحتجزونهنَّ.

وكان واضحًا بما فيه الكفاية لكلٍّ من (إمّا) وبنت صانع الأقفال الصغيرة المسكينة نفسها أنَّ هذه الأخيرة (دلّي) كانت الهدف الأكثر جاذبية، وأنَّه بمجرد أن يحظى هيو ومستر تاپرتت بقدرٍ من الفراغ يسمح لهما بالإصغاء لصوت العاطفة الأرق، فإنهما سيتقاتلان لا محالة لأجلها، ولم يكن من العسير بحالٍ أن يرى المرء من منهما سيظفر بها في تلك الحالة. ومع انبعاث رعبِها القديم في تمامه من هذا الرجل، ذلك الذي وصل إلى درجة من الكراهية والاشمئزاز لا يمكن للغة أن تصفها، ومع ألف ذكرى قديمة وأسف وسببٍ للغمِّ والقلق والخوف تحيط بـ(دلّي ڤاردن) المسكينة من كلِّ جانبٍ، بدأت (دلّي) الحلوة اليانعة الكاعب تشعر بالارتباك وتذوي وتفتر كزهرة جميلة. هرب الدم من خدَّيها المتوردين وخانتها شجاعتها واستوطن اليأس قلبها النبيل. أخذت تقضي اليوم بتمامه بين ذراعي (إمّا هاردال)، وقد سقطت من وعيها نزواتها المثيرة، ونسيت انتصاراتها كلَّها وطيشها، وذهبت عنها أسباب غرورها الصغيرة الآسرة، فتارةً تنادي أباها العزيز العجوز الأشيب، وتارة أمها، وتهيب حينًا ببيتها القديم نفسه، وهكذا أخذت تذبل كطائرٍ مسكينٍ حبيس قفصه.

تلك القلوب الطَّربة، القلوب الطربة التي تطفو في مرح على جدول رقراق، والتي تومض وتتقافز في ضوء الشمس. إنها كالتفتُّح في الزهرة وتورُّد الخد في نسمة الصيف وكحياة الحشرة المجنَّحة، تلك الأشياء التي لا يتعدَّى وجودها يومًا واحدًا، ما أسرع ما تغرقين أيتها القلوب في الماء المضطرب!

كان قلب (دلّي) المسكينة -ذلك القلب الصغير الوادع الكسول الهوائي الأرعن المضطرب الخفَّاق الذي لا يثبت في مراعاة شيء سوى حُسن المنظر والابتسامات والضحك- كان ذلك القلب ينفطر.

هذا بينما عرفت (إمّا) الحزن سابقًا فكانت أقدر على الاحتمال. لم يكن لديها من السَّلوى كثير لتمنحه لرفيقتها، لكنها كانت تستطيع أن تهدِّئها وتراعيها، وهذا ما فعلته، وقد تعلَّقت (دلّي) بها كما يتعلَّق طفلٌ بمربِّيته. وفي محاولتها أن تبث في رفيقتها بعض الصمود زادت صمودها هي نفسها، ورغم طول الليالي وكآبة الأيام وقد ثقلت عليها وطأة الترقُّب والإنهاك، فضلًا عن أنَّه ربما كان لديها تصوّر أوضح لحالهم البائسة وأسوأ مخاطرها، رغم ذلك كلّه لم تشكُ بحرفٍ واحدٍ. وأمام الأوغاد الذين كانتا في قبضتهم كانت محتفظةً تمامًا برباطة جأشها، وكان يبدو عليها رغم الرعب المسيطر عليها أنها مقتنعة في قرارة نفسها بأنهم لا يجرؤون على أن يمسُّوا شعرةً منها، وأنه ليس بينهم من لا يهابها بدرجة ما، وكان أكثر من واحدٍ بينهم يعتقد أنَّها تحتفظ بسلاحٍ بين طيَّات فستانها وأنها على أهبة الاستعداد لاستخدامه.

هكذا كانت حالهما حين انضمَّت إليهما الآنسة مـگز التي أفهمتهما أنَّها هي الأخرى أسرت لجمالها، وأخذت تفصِّل لهما حكايات ما أظهرته من مقاومة (إذ منحتها فضيلتها قوة فوق العادة) حتى لقد شعرتا أنه من السعادة أن تكون إلى جانبهما هذه البطلة. ولم تكن هذه هي السلوى الوحيدة التي نعمتا بها أولًا من وجود مـگز وصحبتها، فإنَّ هذه الشابة قد أظهرت من التصميم وطول الصبر والتحمُّل الوادع لما تمر به من ابتلاءاتٍ، وتنفَّست في خطابها العفيف كلِّه من روح الثقة المقدسة والاعتقاد المخلص في أنَّ الخير قادمٌ لا محالة، ما بدا في عيني (إمَّا) نموذجًا مشرقًا عضَّد شعورها بشجاعتها، وهي لا ترتاب لحظةً في أنَّ (مـگز) صادقة في كلِّ ما نطقت به، وأنها مثلهما قد انتزعت من كلِّ ما تحبّه وأضناها الشكُّ والقلق. أمَّا بالنسبة إلى المسكينة (دلّي)، فقد أثارها في البداية أن رأت واحدةً من بيتها، لكن حين سمعت منها تحت أيِّ ظروفٍ غادرت البيت وفي يد من وقع أبوها، بكت بكاءً أمرّ ممَّا كان ورفضت كلَّ عزاءٍ من رفيقتيها.

وقد وجدت الآنسة مـگز بعض المشقَّة في لومِها على حالتها النفسيَّة تلك وفي التوسُّل إليها أن تحتذي مثالها هي التي تتلقَّى الآن -فيما تقول- جزاء ما شاركت به في صندوق النذور الذي يشبه منزل الطوب الأحمر وقد زاد عشرة أضعاف، ممثَّلًا في سلامها النفسيِّ وراحة ضميرها. وبينما تتحدَّث في موضوعاتٍ جادَّة اعتبرت الآنسة مـگز أنَّ من واجبها أن تحاول هداية الآنسة هاردال التي انخرطت في خطابٍ تعليميٍّ طويل بعض الشيء لتصلحها، وشبَّهت نفسها في ثنايا هذا الخطاب بمبشِّر مختارٍ وشبَّهت هذه الشابة بهمجيٍّ يعيش في الظلام ويأكل لحوم البشر! والحق أنها كانت تعود كلَّ حين إلى هذه الموضوعات وتهيب بها لتأخذ منها درسًا لـ(إمّا)،

وهي تفخر في الوقت ذاته وتبالغ في اللجاجة بكونها بعيدةً عن استحقاق أيِّ إكبارٍ وبكثرة ذنوبها، حتى لقد أصبحت في غضون وقتٍ قصيرٍ مصدر إزعاجٍ في هذه الغرفة الصغيرة أكثر مما هي سلوى لرفيقتيها، وجعلتهما أتعس مما كانتا كلما كان هذا ممكنًا!

والآن كان الليل قد حلَّ، وللمرة الأولى تركن في الظلام، إذ إنَّ سجَّانيهنَّ قد دأبوا في إحضار الطعام والشموع بانتظامٍ. كان كلُّ تغيُّر في حالهنَّ في مكانٍ كهذا يثير في نفوسهنَّ مخاوف جديدةً، وحين مرَّ الوقت بالساعات ولم ينشقّ ما هنَّ فيه من ظلامٍ لم تعد (إمّا) قادرةً على أن تكتم قلقها.

تسمَّعن في انتباه. كان اللغط المعتاد مسموعًا في الغرفة الخارجية، وبين الفينة والفينة كانت ثَمَّ أنَّة يبدو أنها تندُّ عن شخصٍ يعاني ألمًا عظيمًا يحاول كتمانه فلا يستطيع. وقد بدا أنَّ أولئك الرجال الآخرين في ظلامٍ، إذ لم يكن ثَمَّ ضوء يتسلَّل عبر شقوق الباب، ولم تكن ثَمَّ حركة تصدر منهم كما اعتادوا، وإنما كانوا بلا حراكٍ، ولا يقطع السكون إلا صوت طقطقة أحد الألواح.

في البداية كانت الآنسة مـگز تتعجَّب في نفسها كثيرًا مَن يكون هذا الشخص المريض، لكنَّها لمَّا وصلت مع إعادة التفكير في الأمر إلى نتيجة أنه جزءٌ من الخطة الموضوعة لهنَّ، وأنَّ في الأمر حيلةً سرعان ما ستُستَغل وتنجح نجاحًا باهرًا، أدلت برأي عساه يعزِّي الآنسة هاردال، مفاده أنَّ ما يسمعان لا بُدَّ أن يكون أنينَ بابويٍّ ضالٍّ جُرِح، وقد شجَّعها هذا الافتراض

السعيد على أن تقول بصوتٍ خافتٍ عدة مرات: «أليلويا»[1]!

قالت (إمّا) بشيء من الاستياء: «أمن الممكن أنك وقد رأيت هؤلاء الرجال يرتكبون من الانتهاكات ما أخبرتنا به ووقعت أنت نفسك في أيديهم مثلنا تطربين هكذا لما يُظهِرون من وحشية؟!».

ردَّت مـگز: «لا قيمة للاعتبارات الشخصية أمام قضية نبيلة. أليلويا أليلويا أليلويا، أولئك الرجال الصالحون!».

كان يبدو من حدة العناد والإصرار اللذين كرَّرت بهما الآنسة مـگز هذه الصيحة أنها كانت تنادي من بالخارج عبر فتحة الباب لكنَّها لم ترَ في الظلام.

سألتها (إمّا): «وإذا ما أتى الوقت -ويعلم الربُّ أنه قد يأتي في أي لحظة- الذي يقررون فيه تنفيذ الخطط التي أتوا بنا إلى هنا لأجلها -أيًّا كانت- فهل يمكنك آنذاك أن تظلِّي تشجِّعينهم وتقفين في صفِّهم؟».

ردَّت مـگز في حماسٍ زائدٍ: «أشكر حظي المبارك لأنَّه يمكنني ذلك، أليلويا أيُّها الرجال الصالحون».

وحتى (دلّي) الساهمة المحبطة أثارها هذا الحديث فأمرت مـگز بأن تمسك لسانها في التوِّ، فقالت مـگز وهي تضغط مقاطعها التي لا معنى لها في تأكيدٍ:

«أي شيء هذا الذي لاحظته يا آنسة ڤاردن؟».

كرَّرت (دلّي) طلبها، فصاحت مـگز في تهكُّمٍ مجنونٍ: «أوو! يا ويلي! أوو يا ويلي! بالطبع سأمسك لساني! بالطبع! إنني لستُ إلَّا أمةً كريهةً تكدُّ

---

(١) Ally Looyer طريقة نطق (هاللويا) التي أسندها ديكنز إلى الآنسة مـگز.

وتتعب وتعمل بلا انقطاعٍ ولا يكفُّ سادتها عن أن يستخرجوا عيوبًا فيما تفعله، ولا تفعل ما يرضي أبدًا، وليس لديها وقتٌ لتنظِّف نفسها، لست إلَّا قطعة خزفٍ، أليس كذلك يا آنسة؟ أوو نعم! وضعي حقيرٌ وقدراتي محدودة وواجبي أن أذلَّ نفسي أمام البنات المنحطَّات المتهتِّكات، بنات الأمهات المباركات، الحريَّات بأن يكنَّ في رفقة القديسين وإن كنَّ قد ولدن ليضطهدهنَّ أقاربهنَّ الأشرار، وأن أشعر بالضعة أمامهنَّ كما لو كنت من الكفار، أليس كذلك يا آنسة؟! أوه نعم! المهام الوحيدة التي تناسبني هي أن أساعد الوثنيَّات الشابات المغرورات على أن يدهنّ َويصفِّفن شعورهنَّ ويبيِّضن وجوههنَّ، ليظنَّ الشباب أنَّ كلَّ ذرَّة من جمالهنَّ طبيعية، لم ينقصن ولم يزدن خلقتهنَّ شيئًا ولم يضفن زيتًا ولم يصطنعن أي خدعة ولا شيء من غرور الدنيا! أليس كذلك يا آنسة؟ نعم بالتـأكيد، نعم!».

وبعد أن ألقت الآنسة مـگز هذه المقاطع المتهكِّمة بطلاقة مدهشة وحدَّة تصمُّ الآذان –لا سيَّما حين كانت تلقي بالأسئلة الساخرة– أنهت خطابها بأن انفجرت باكيةً بحكم العادة، لا لأنَّ البكاء مناسبٌ لمقتضى الحال هنا، إذ المفروض أنها كانت في موقف انتصارٍ! وأخذت تنادي اسم (سمن) بأسلوبٍ مشبوبٍ بالعاطفة.

ومن المستحيل أن نجزم هنا بما كان يطيب لإمّا هاردال ودلّي أن تفعلاه، ولا إلى كم كانت الآنسة مـگز ستظلّ تلوِّح بمشاعرها الحقيقية وما يعتمل في صدرها أمام حواسِّهما المندهشة بعد أن أفصحت عن هذه المشاعر، ولا من الضروري أن نحاول توقُّع مثل هذه الأمور، فإنَّ شيئًا مباغتًا قد حدث في هذه اللحظة واستحوذ على انتباههن بالكامل.

كان ذلك طرقًا عنيفًا على باب المنزل ثم انفتاحه على مصراعيه بغتةً، وتبع ذلك على الفور صوت شجارٍ في الغرفة الخارجية واشتباك أسلحة. صرخت إمّا ودلّي عاليًا مستغيثتين وقد تراقص الأمل في نجاتهما فجأةً أمام أعينهما، ولم تكن صرخات بلا مجيبٍ، فبعد فترة لم تطل هرع إلى داخل الغرفة التي كانتا محبوستين فيها رجلٌ يخترط سيفًا في يدٍ ويمسك شمعةً بالأخرى، وحين وجدتاه شخصًا غريبًا ألجم هذا ارتفاع معنويَّاتهما بعض الشيء، لكنَّهما استغاثتا به رغم ذلك وتوسَّلتا إليه بلغة تجيش بعواطفهما أن يعيدهما إلى أحبابهما.

ردَّ الرجل وهو يغلق الباب ويقف وظهره إليه: «وهل جئت إلى هنا لسببٍ غير ذلك؟ لِمَ إذن قطعت الطريق إلى هذا المكان عبر المصاعب والأخطار؟ ألسبب آخر غير إنقاذكما؟».

تعانقت الفتاتان بفرحة من المستحيل أن يجد المرء كلماتٍ تعبِّر عنها، وشكرتا السماء على هذه الإغاثة التي جاءت في وقتها تمامًا. خطا منقذهما إلى الأمام للحظة ليضع الشمعة على المنضدة ثم ما لبث أن عاد إلى وضعه الأول مستندًا إلى الباب وكشف رأسه ونظر إليهما مبتسمًا.

قالت (إمّا) وهي تستدير إليه في عجلة: «ألديكَ أخبارٌ عن عمِّي يا سيدي؟».

أضافت (دلّي): «وعن أبي وأمي؟».

ردَّ: «أجل، أخبار طيبة».

صاحتا معًا: «هل هم على قيد الحياة ولم يمسسهم سوء؟».

ردَّ: «نعم، ولم يمسسهم سوء».

«وقريبون من هنا؟».

أجاب بلطفٍ: «لم أقل إنهم قريبون من هنا، غير أنهم ليسوا على مبعدة كبيرة» ثم أضاف مخاطبًا (دلّي):

«أعزَّاؤك أيتها الحلوة على مبعدة ساعات قليلة من هنا، أرجو أن تكوني بينهم الليلة».

تلعثمت (إمّا) قائلة: «وعمِّي يا سيِّدي.».

«عمُّك يا عزيزتي الآنسة هاردال قد عبر البحر لحسن الحظِّ، وأقول لحسن الحظِّ لأنه قد نجح فيما أخفق فيه كثيرٌ من أهل طائفتنا، وهو الآن في أمانٍ خارج بريطانيا».

قالت (إمّا) في خفوتٍ: «أشكر الربَّ لذلك».

«حسنًا ما قلت، يجب أن تكوني شاكرةً بالفعل، فلديكِ سببٌ يدعو إلى الشكر أكبر مما تستطيعين أن تتخيَّلي، إذ إنَّك لم تري إلَّا ليلةً واحدةً من تلك الانتهاكات الوحشية».

قالت (إمّا): «هل يريدني أن أتبعه؟».

صاح الغريب في دهشة: «أتسألين إن كان يريد ذلك؟ إن كان يريد؟! لكنَّك حين تسألين هذا السؤال لا تعرفين خطورة البقاء في إنگلترا وصعوبة الهروب والثمن الذي سيدفعه المئات ليؤمِّنوا وسيلة هذا الهروب. سامحيني، لقد نسيت أنه ليس في مقدورك معرفة ذلك لكونك أسيرةً هنا».

قالت (إمّا) بعد صمتٍ برهة: «أكاد أفهم مما تشير إليه يا سيدي وتخشى أن تقوله لي صراحةً أنني لم أشهد إلَّا البداية وأقل القليل مما نحن معرَّضون له من عنفٍ، وأنَّ حدَّة هياجه لم تخفت بعد؟».

هزَّ كتفيه ورأسه ورفع يديه وعلى وجهه الابتسامة الناعمة نفسها التي لم تكن سارَّةً بحالٍ، ثم أطرق وظلَّ صامتًا.

قالت (إمّا): «تستطيع يا سيدي أن تتكلَّم في وضوحٍ وتخبرني بأسوأ ما في الأمر، فقد تجهَّزنا لذلك الأسوأ بعض الشيء».

لكن هنا تدخَّلت (دلّي) وتوسَّلت إليها ألَّا تستمع إلى الأسوأ بل إلى الأفضل، وتضرَّعت إلى الرجل أن يخبرهم بأفضل ما في الأمر، وأن يحتفظ ببقية أخباره إلى أن تصبحا في أمان بين أعزَّائهما، فقال الرجل ناظرًا إلى بنت صانع الأقفال نظرةً فيها شيء من الامتعاض:

«هذا يمكن إيجازه في ثلاث كلمات، لقد ثار الناس بأمر رجل ضدنا، والشوارع ملأى بالعسكر الذين يدعمونهم ويأتمرون بما يملونه عليهم، ليس لدينا ما نحتمي به إلا السماء، ولا أمان إلا في الهرب، وهو ملاذ بائس، فإننا مراقبون من كلِّ جهة ومحبوسون هنا بالقوة والخديعة معًا. آنسة هاردال، أنا لا أستطيع أن أحتمل -صدِّقيني لا أستطيع ذلك- أن أبدو إن تكلَّمتُ عن نفسي أو عمَّا فعلته أو عمَّا أنا مستعدٌّ لفعله كمن يفخر بما أدَّى من خدماتٍ أمامك. لكن لأنَّ لي معارف بروتستانتيين ذوي نفوذ، ولأنَّ ثروتي كلَّها مرتبطة بثرواتهم في التجارة والملاحة، فقد تسنَّى لي لحسن الحظِّ أن أنقذ عمَّك. ولديَّ الوسيلة لإنقاذك، وأنا هنا الآن إنفاذًا لوعدي المقدس الذي قطعته له على نفسي، ألَّا أتركك إلَّا وأنت في حضن عمِّك بأمانٍ. والحقّ أن خيانة أو توبة واحد من الرجال المحيطين بكما قد أدَّت إلى اكتشاف محبسكما، وإلى أنني كما ترين الآن قد شققت طريقي إلى هنا وسيفي في يدي».

قالت (إمّا) متلعثمةً: «هل معك علامة أو إشارة من عمي؟».

صاحت (دلّي) وهي تشير إليه في حماسٍ: «لا، ليس معه. الآن أنا واثقة مما أقول، لا تذهبي معه بحق كل شيء!».

ردَّ عابسًا في وجهها بغضبٍ: «اسكتي أيتها الحمقاء الجميلة، صمتًا! لا يا آنسة هاردال. ليس معي رسالة منه ولا علامة من أيِّ نوعٍ، فإنني حريصٌ على حياتي رغم تعاطفي معك ومن هم مثلك ممَّن دارت عليهم الدائرة وهم لم يجنوا شيئًا يستحقُّ ذلك. ولذا لا أحمل أيَّ مكتوبٍ من شأنه إن وجد معي أن يؤدي لا محالة إلى فقدي حياتي. ولم يخطر ببالي أبدًا أن أحضر أي علامة أخرى، ولم يدر بخلد مستر هاردال كذلك أن يحمِّلني علامةً، ربما لأنَّه قد خبر إخلاصي وأمانتي على نحو طيب، وشعر أنه يدين لي بحياته».

كان ثَمَّ لومٌ في هذه الكلمات، ما أحراه أن يجد صداه لدى إنسانة لها طبيعة (إمّا هاردال)، غير أنه لم يمس (دلّي) التي كانت ذات طبيعة مختلفة، فما زالت تناشد (إمّا) بكلِّ ما في جعبتها من كلام المودَّة والتعلُّق ألَّا تستسلم للخدعة.

قال زائرهما الذي كان في كلامه شيءٌ باردٌ لا مبالٍ يضايق السامع رغم أنه قد حاول أن يبدي أقصى اهتمامه:

«الوقت ضيِّقٌ والخطر يحيق بنا، فإن كنتُ قد عرَّضتُ نفسي له دون جدوى، فليكن. لكن إن كنتِ ترجين أن تلتقيا مجدّدًا، أنت وعمّك، فأنصفيني. إن قررت أن تبقي هنا –وهو ما أظنُّه– فتذكَّري يا آنسة هاردال أني قد تركتك محذِّرًا تحذيرًا جادًّا، وبرئت من كلِّ ما عساه يترتَّب على ذلك من نتائج تمسُّك».

صاحت (إمّا): «انتظر يا سيدي! لحظةً من فضلك»، ثم جذبت (دلّي) إليها: «ألا يمكن أن.. ألا يمكن أن نذهب معًا؟».

أجاب: «إن مهمة نقل أنثى واحدة عبر تلك المشاهد التي علينا أن نجتازها تكفي جدًّا، بغض النظر عن جذب أنظار أولئك الذين يزحمون الشوارع. لقد قلت إنها ستُنقل إلى أعزَّائها الليلة. فإن كنت تقبلين الخدمة التي أعرضها يا آنسة هاردال فستنقل على الفور نقلًا آمنًا ويتحقق ما وعدت به. هل تقررين البقاء؟ إن الناس من كل الطبقات والطوائف يهجرون المدينة التي خُرِّبت ونُهِبَت من أقصاها إلى أقصاها، دعيني أكون ذا نفعٍ في جزءٍ من الأمر، هل تبقين أم ترحلين؟».

قالت (إمّا) في عجلٍ: «(دلّي)، عزيزتي، إن هذا أملنا الأخير. إن افترقنا الآن فما ذاك إلَّا لنلتقي ثانيةً في سعادة وشرفٍ، سأفوِّض ثقتي إلى هذا السيد».

صاحت (دلّي) وهي تتعلَّق بها: «لا لا لا! أرجوك لا تفعلي!».

قالت (إمّا): «أما سمعت أنَّك الليلة، الليلة أي في غضون ساعات قليلة -فكري في ذلك!- ستكونين بين أولئك المحزونين إلى درجة الموت لافتقادك، الغارقين الآن في أعماق التعاسة لأجل خاطرك. صلِّي لأجلي يا فتاتي العزيزة كما سأصلِّي لأجلك، ولا تنسي أبدًا ما أمضيناه معًا من ساعاتٍ هادئة كثيرة. قولي «فليبارِكِ الربُّ»! قوليها ونحن نفترق!».

لكنَّ (دلّي) لم تستطع أن تقول شيئًا، لا، ولم تستطع أن تفعل شيئًا بعد أن قبَّلت (إمّا) خدَّيها مائة مرة، وذرفت دموعها عليهما، إلَّا أن تتعلَّق برقبتها وتنتحب وتحتضنها بقوة.

صاح الرجل وهو يرخي قبضتيها ويدفعها بعيدًا في غلظة وهو يجذب (إمّا هاردال) إلى الباب: «لم يعُد لدينا وقتٌ لذلك، والآن أسرعي بالخروج، أأنت مستعدة؟».

صاح صوتٌ جهيرٌ جعله يجفل: «إيه! مستعدة تمامًا، تراجعوا حرصًا على حياتكم!».

وفي لحظة كان مطروحًا أرضًا كثورٍ في المجزر، صرع كما لو كانت كتلة رخامٍ قد سقطت من السقف وسحقته، وما لبث النور البهيج والوجوه المشرقة أن دخلت واحدًا في إثر الآخر، وأوت (إمّا) إلى حضن عمِّها، وأوت (دلّي) بصرخة شقَّت الهواء إلى أذرع والديها.

كانت هناك من سقطت مغشيًّا عليها إذ ذاك، وما كان أكثر الضحك والبكاء والنحيب والابتسام، وما كان أكثر الأسئلة ولا إجابة، فالجميع يتكلَّم في الوقت نفسه، والجميع فرح فرحًا عارمًا. وأي تقبيل وتهنئة وعناق ومصافحة وسقوط في مظاهر السعادة هذه كلها مرة واثنتين وثلاثًا، هل من سبيل إلى التعبير عن ذلك بكلماتٍ؟!

أخيرًا وبعد وقتٍ طويلٍ ذهب صانع الأقفال وعانق بحرارة شخصين غريبين كانا يقفان على مبعدة تاركين الأهل فيما هم فيه من فرحة اللقاء، وإذ ذاك رأى الجميع من؟ أجل! إدوارد تشستر وچو ولت.

صاح صانع الأقفال: «انظروا هنا، انظروا هنا! أين كان يمكن أن يكون أيٌّ منَّا لولا هذان؟! أوه، مستر إدوارد، مستر إدوارد، أوه چو، چو، ما أطرب قلبي العجوز الليلة لصنيعكما، على ما أفعمتماه به من مشاعر!».

قال چو: «لقد كان مستر إدوارد هو من صرعه يا سيدي، كنت متلهِّفًا أن أفعلها لكني تركتها له. هيَّا أيُّها السيد الشجاع المخلص! استفق، فإنه لا ينبغي لك أن تطيل الرقاد هنا!».

وضع قدمه على صدر المنقذ المحتال في غياب ذراعٍ ثانية، ودحرجه دحرجةً خفيفةً وهو يتكلَّم، ربض (غاشفورد) -فإنَّ ذلك لم يكن أحدًا سواه- وإن كان الخبث باديًا في ملامحه ما زال، ورفع وجهه المتجهِّم كمن أذلَّه الإثم، وتوسَّل إليهم أن يحسنوا معاملته، ثم قال بصوتٍ مستسلمٍ:

«تحت يدي كلُّ أوراق سيدي اللورد يا مستر هاردال».

ظلّ مستر هاردال يوليه ظهره ولم يدر بصره إليه، فواصل غاشفورد: «وبينها مستنداتٌ مهمة جدًّا، وهناك كثير منها في أدراجٍ سرية، وموزَّع في أماكن متعددة، لا يعرف بها إلا سيدي اللورد وأنا. أستطيع أن أدلي ببعض المعلومات القيِّمة وأساعد أيّ تحقيق مساعدةً مهمة، وإن أسيئت معاملتي فسيكون عليك أن تفسِّر ذلك للسلطات».

صاح چو في احتقارٍ عميقٍ: «صه! انهض يا رجلٍ فإنهم ينتظرونك بالخارج، انهض، هل تسمعني؟».

نهض غاشفورد في بطء، وبعد أن التقط قبَّعته وقلَّب بصره في كلِّ مَن بالغرفة في غلٍّ مرتبكٍ وإن كان محاطًا بذلٍّ جديرٍ بالاحتقار، جرجر قدميه إلى الخارج. إذ ذاك قال چو الذي بدا كما لو كان المتحدث بلسان الجمع، فقد كان الباقون صامتين:

«والآن أيها السادة، ربما كان من الأفضل أن نسرع إلى حانة الأسد الأسود».

أومأ مستر هاردال علامة الموافقة، ثم جذب ذراع بنت أخيه في ذراعه وأخذ إحدى يديها بين يديه، خارجًا من الغرفة مباشرةً، وتبعه صانع الأقفال والسيدة حرمه، و(دلّي) التي لم يكن جسدها الضئيل ليكفي كلَّ ما أمطراها به من عناقٍ وأحضانٍ ولو تضاعف اثنتي عشرة مرة، وفي إثرهم جميعًا إدوارد تشستر وچو.

لكن ألم تنظر (دلّي) وراءها ولا مرة؟ ولا مرة؟! ألم تلح لمحة صغيرة خاطفة للهدب السوداء التي ترتاح على وجنتها المشربة بحمرة الخجل، وللعين البرَّاقة المطرقة التي تظلِّلها الهدب؟ ظنَّ چو أنه رأى تلك اللمحة، وما أبعد أن يكون قد أخطأ في ذلك، فالحقيقة أنَّ عين (دلّي) ليست كبقية الأعين.

كانت الغرفة الخارجية التي اضطرُّوا إلى المرور عبرها مكتظَّةً بالرجال، بينهم مستر دنس محتجزًا في الحفظ والصون، وهناك منذ أمس كان يرقد سايمن تاپرتت -الصبي النذل- مختبئًا خلف حاجزٍ خشبيٍّ ألقي أرضًا الآن، فإذا الحروق والرضوض في جسده، وجرح طلق ناري، وساقاه الكاملتان -فخر حياته ومجدها وسلوى وجوده- مهشَّمتان إلى كومة قبيحة لا ملامح لها. أما وقد خفتت دهشة الفتاتين مما كانتا تسمعان من أنين، فقد بقيت (دلّي) قريبةً من أبيها وارتجفت لمرأى (سايمن)، لكنَّ شيئًا من رضوض سايمن وحروقه وجرحه وعذابات أطرافه المهشَّمة لم يثر في صدره شعورًا بالألم والحسرة كما أثاره خروج (دلّي) ومعها چو باعتباره منقذها.

كان ثَمَّ عربة مستعدة لدى الباب، ووجدت (دلّي) نفسها داخلها

محوطةً بالأمان، بين أبويها، وأمامهم تجلس (إمّا هاردال) وعمُّها، حقيقةً لا خيالًا. لكن لا چو ولا إدوارد كانا في العربة، ولم يقولا شيئًا، لم يفعلا إلَّا أن انحنيا مرة وحافظا على مسافة تفصلهما عن الراكبين. يا للهفة القلوب! ما أطول الطريق إلى حانة الأسد الأسود!

* * *

الفصل الثاني والسبعون

كانت حانة الأسد الأسود على مبعدة كبيرة، وقد استغرق الوصول إليها وقتًا طويلًا لدرجة أن (دلّي) لم تستطع أن تجرد نفسها من الاعتقاد بأنها كانت تحلم حلمًا طويلًا استغرق الليل كله، رغم كل ما كان يحيط بها من أدلة قوية على أنَّ الأحداث الأخيرة كانت حقيقية تمامًا. ولم تكن واثقة تمامًا من أنَّها ترى وتسمع بحواسِّها، حتى عندما توقَّفت العربة في النهاية عند الأسد الأسود واقترب منهم مضيف تلك الحانة في دفقة من النور المبهج ليعينهم على الترجُّل ويرحِّب بهم في حماسٍ.

كما كان إدوارد تشستر وچو ولت واقفين هناك لدى باب العربة، واحدٌ منهما على كلِّ جانبٍ، فكان واضحًا أنهما تبعاهم في عربة أخرى، وقد كان في ذلك من الغرابة ما أغرى (دلّي) بأن تزداد ميلًا إلى فكرة أنَّها مستغرقة في النوم. لكن حين ظهر مستر (ولت) -العجوز چون نفسه- بثقل رأسه وعناده ولغده الذي تعجز أنشط مخيِّلة في أجرأ مغامراتها عن تصوُّر أبعاده الهائلة، حينذاك ردَّ إليها صوابها واعترفت لنفسها على رغمها أنها كانت مستيقظةً تمامًا.

و(چو) قد فقد ذراعًا، ذلك الرجل المتين البنيان الوسيم الشهم! حين نظرت إليه (دلّي) وفكرت فيما لا بُدَّ قد عاناه من ألمٍ وفي الأماكن القصيَّة التي طاف بها، وتساءلت عمّن كانت تمرِّضه، راجيةً أنها -أيًّا من كانت-

كانت شفوقًا طيبةً رحيمةً كما كانت ستكون هي نفسها لو مرَّضته، حينذاك اغرورقت عيناها البرَّاقتان بالدموع حتى لم يعُد في مقدورها أن تحبسها فبكت بكاءً مُرًّا أمامهم جميعًا.

قال أبوها في طيبة: «نحن جميعًا في أمان الآن يا (دلّي)، لن يفرِّقنا شيء ثانية، هوِّني عليك يا حبيبتي وابتهجي!».

ربما كانت امرأته قد فهمت ما يحزن ابنتها على نحوٍ أفضل، غير أنَّها لمَّا كانت الآن قد تغيَّرت تمامًا، فقد أجدت أحداث الشغب هذا النفع، فقد أمَّنت على كلام زوجها وواست ابنتها بكلامٍ مشابه.

قال مستر ولت الكبير وهو ينظر إلى من حوله: «ربما هي جائعة، هذا ما في الأمر، ثقوا بذلك، أنا نفسي جائع!».

ولمَّا كان الأسد الأسود -مثل چون العجوز- قد انتظر العشاء بعد ميعاده المعقول والمقبول بساعاتٍ طويلة، فقد أثنى على ما قاله چون كما لو كان اكتشافًا فلسفيًّا بالغ العمق نافذ البصيرة، ولمَّا أعدَّت المائدة تحلَّقوا حول العشاء على الفور.

لم يكن ما دار من حوارٍ يتسم بالحماس، كما لم تتَّسم شهيَّات بعضهم بالنشاط. لكنَّ العجوز چون عوَّض كلَّ نقص أظهره الآخرون في كلا الأمرين، وكان مميَّزًا للغاية بينهم في شهيَّتي الكلام والأكل.

ولم يكن سطوع نجم مستر ولت في أي حوارٍ حقيقي، فإنَّه لم يكن حوله أيٌّ من رفاقه القدامى ليشدُّوه ويشدّهم، كما كان متهيِّبًا أن يحاول الكلام مع چو، فقد كانت تعتمل في نفسه مخاوف غامضة أن الفتى مستعد إن شعر بأقل إهانة أو ارتاب في أن أحدًا يحاول مضايقته أن يسقط حانة

الأسد الأسود على الأرض ثم ينسحب على الفور إلى الصين أو أي إقليم قصيٍّ مجهول فيعيش فيه إلى النهاية أو على الأقل إلى أن يتخلَّص من ذراعه الوحيدة الباقية ورجليه وربما يضيف إلى ذلك عينًا أو ما إليها! وإنما بنوعٍ غريبٍ من التمثيل الصامت كان مستر ولت يملأ كلَّ فترة صمتٍ، وفي ذلك كان صاحب الحانة الذي اعتاده أعوامًا يعتبره متجاوزًا نفسه ومتفوقًا على كل توقعات أصدقائه المعجبين به.

ولم يكن الموضوع المهيمن على ذهن مستر ولت، والذي سبَّب هذا التمثيل الصامت، إلَّا التشوُّه الجسدي الذي لحق ابنه، والذي لم يكن بعد قادرًا على تصديقه تمامًا أو إدراكه. فبعيد لقائهما الأول رؤي هائمًا على وجهه في حيرة ما بعدها حيرة إلى أن دخل إلى المطبخ، وهناك أخذ يحدِّق إلى الموقد كما لو كان يبحث عن ناصحه المعتاد في كل ما يحزبه من أمور. لكن حيث كانت حانة الأسد الأسود تفتقر إلى وجود غلَّاية، وحيث هشَّم المتمردون غلَّايته هو فلم تعد صالحةً لتقديم خدماتها، فما لبث أن خرج من المطبخ هائمًا كما دخل، غارقًا في مستنقع الشك والارتباك، وما لبث أن اتخذ أغرب الوسائل ليحسم شكوكه وهو على تلك الحال، فطفق يتحسس كمَّ معطف ابنه كما لو كان يعتبر أنه من الممكن أن تكون الذراع هناك، وينظر إلى ذراعي نفسه وأذرع الآخرين كما لو كان يودُّ أن يستوثق من أنَّ ذراعين لا واحدةً يمثِّلان النصيب المعتاد للفرد من الأذرع، ويمكث بالساعة وحده مستغرقًا في التفكير كما لو كان يحاول أن يتذكر صورة چو في أيامه المبكرة عساه يذكر على وجه التحقيق إن كانت له في تلك الأيام ذراعٌ واحدة أم زوجان من الأذرع، وعلى هذا المنوال أخذ يشغل نفسه بتخميناتٍ كثيرة من هذا النوع.

ولمَّا وجد نفسه في هذا العشاء محاطًا بوجوه كان يعرفها جيدًا في الأيام الخوالي، فقد عاد إلى الموضوع نفسه بنشاطٍ استثنائي، وقد عزم فيما يبدو أن يفهمه الآن وإلا فلا. كان أحيانًا بعد قضمتين كبيرتين أو ثلاث يضع سكِّينه وشوكته جانبًا ويحدِّق إلى ابنه بكل ما أوتي من قوة، ولا سيَّما في جانبه المبتور، ثم يقلِّب بصره ببطء فيمن حول المائدة إلى أن تقابل عيناه عيني شخص آخر، فيهز رأسه في رصانة عظيمة ويربِّت كتفه ويغمز، أو بالأحرى يقبل على النوم بعين واحدة لدقيقة أو اثنتين –فقد كان الغمز عملية بطيئة جدًّا معه– ثمّ بهزَّة رأس رصينة أخرى يتناول سكِّينه وشوكته ثانيةً ويواصل الأكل. وأحيانًا كان يضع طعامه في فمه شارد اللب، ثم يحملق إلى ابنه في نوبة ذهول وكل قدراته مركّزة عليه وهو يقطِّع قطعة لحم بيدٍ واحدة، إلى أن ينتبه من شروده على أعراض غصَّة يشعر بها من البلع فيعود إلى الوعي. وفي أحيانٍ أخرى كان يلجأ إلى حيلٍ صغيرة كأن يسأله أن يناوله الملح أو الفلفل أو الخل أو الخردل أو أي شيء على جانبه المبتور ثم يراقبه وهو يناوله إيَّاه. وبقوة هذه التجارب استطاع أن يقنع نفسه ويرضيها أخيرًا، حتى إنه بعد صمتٍ أطول ممَّا التزمه إلى ذلك الحين وضع سكّينه وشوكته على جانبي طبقه وجرع جرعةً طويلةً من إبريقٍ بجانبه وعيناه ما زالتا مثبَّتتين على چو، ثم قال وهو يعيد ظهره إلى الخلف في مقعده ويأخذ نفسًا طويلًا ويقلِّب بصره في الغرفة:

«لقد نزعت!».

قال الأسد الأسود وهو يضرب المائدة بيده: «وحق چورچ لقد فهمها!».

قال مستر ولت بنظرة رجل يشعر أنه قد أطري وأنه يستحق الإطراء: «نعم سيدي، هذا هو الأمر، لقد نزعت!».

قال الأسد الأسود لــچو: «أخبره أين حدث ذلك».

«في الدفاع عن الساڤانَّا يا أبي».

كرَّر مستر ولت في خفوتٍ وهو يقلِّب بصره مجدّدًا فيمن حول المائدة: «في الدفاع عن السّلوانَّا!».

قال چو: «في أمريكا حيث تدور الحرب».

كرَّر مستر ولت: «في أمريكا حيث تدور الحرب. لقد نزعت في الدفاع عن السّلوانّا في أمريكا حيث تدور الحرب».

ثم ظلَّ يكرِّر هذه الكلمات لنفسه بنبرة خافتة (وقد أخبر بهذه المعلومات نفسها من قبل بنفس الصياغة خمسين مرة على الأقل) ونهض من أمام المائدة ثم مشى إلى چو وأخذ يتحسَّس كمَّه الفارغ من السِّوار إلى أعلى حيث بقية ذراعه، ثم هزَّ رأسه وأوقد غليونه من الموقد، ثم سحب نفسًا طويلًا منه ومشى إلى الباب، وحين وصل إليه استدار ومسح عينه اليسرى بظهر سبَّابته، وقال بصوتٍ متلعثمٍ:

«لقد انتزعت ذراع ابني .. في الدفاع عن .. السلوانّا .. في أمريكا .. حيث تدور الحرب».

وبهذه الكلمات انسحب من أمامهم ولم يعد ثانيةً تلك الليلة. والحق أنهم قد انسحبوا جميعًا واحدًا وراء الآخر بحججٍ مختلفة، عدا (دلّي) التي تُرِكت جالسةً وحدها. كان مريحًا جدًّا أن تبقى وحدها، فأخذت تبكي ملء قلبها، وبينا هي كذلك سمعت صوت چو آتيًا من نهاية الممرِّ، يقول لأحدهم «طابت ليلتك».

طابت ليلتك! إذن فقد كان ذاهبًا إلى مكانٍ آخر، وربما يكون بعيدًا. إلى أيِّ بيتٍ سيذهب وقد تأخر الوقت هكذا؟!

سمعته ماشيًا في الممرِّ وخارجًا من الباب، لكنَّ خطواته كانت متردِّدة. استدار، وتسارع نبض (دلّي)، ونظر هو إلى الداخل.

«طابت ليلتك!» لم يقل «يا (دلّي)، لكن كان مريحًا أنه لم يقل «يا آنسة ڤاردن».

قالت منتحبةً: «طابت ليلتك!».

قال بطيبة: «أنا آسف لأنك تثقلين قلبك كثيرًا بأمورٍ مضت لشأنها وانتهت، لا تفعلي؛ أنا لا أتحمَّل أن أراكِ هكذا. لا تفكري فيما كان، أنت الآن آمنة وسعيدة».

إذ ذاك أجهشت بالبكاء زيادة.

قال چو: «لا بُدَّ أنكِ قد عانيتِ كثيرًا خلال تلك الأيام القليلة، رغم ذلك لم تتغيَّري، إلَّا لو كان التغيُّر إلى الأفضل. يقولون إنك تغيَّرت لكني لا أرى ذلك. لقد.. لقد طالما كنت جميلةً جدًّا، لكنك الآن أجمل بكثيرٍ مما كنتِ دائمًا، أنت كذلك حقًّا. لا يمكن أن يكون ثمَّة ما يسوء في قولي ذلك، لأنك لا بُدَّ تعرفينه بالفعل. أنا واثق أنَّ ذلك قد قيل لك مرارًا وتكرارًا».

وكمبدأ عام، فقد كانت (دلّي) تعرف ذلك، لكنه كثيرًا ما (قيل) لها. غير أنَّ صانع العربات قد اتضح أنه حمار من نوعٍ خاصٍّ منذ عدة أعوام، وسواء كانت تخشى أن تكتشف اكتشافات مشابهةً في آخرين، أو أصبحت بقوة الاعتياد وطوله لا تبالي بتلك الإطراءات، فالمؤكد أنها رغم

كثرة بكائها كانت سعادتها الآن بأن يقال لها ذلك أشد مما كانت طيلة حياتها.

قالت بنت صانع الأقفال الصغيرة في نحيبٍ: «سأدعو أن يُبارك اسمك ما حييت. لن أسمع أحدًا ينطق به من دون أن أشعر أنَّ قلبي موشك أن ينفجر مما فيه، سأذكره في صلواتي، كلَّ ليلٍ وصباحٍ إلى أن أموت!».

قال چو بلهفة: «أحقًّا؟ أحقًّا ما تقولين؟ هذا يجعلني.. حسنًا، يسعدني ويجعلني فخورًا جدًّا أن أسمعك تقولين ذلك».

ظلَّت (دلّي) تنتحب، واضعةً منديلها على عينيها، وظلَّ چو واقفًا ينظر إليها.

قال چو: «صوتك يعيد إليَّ الأيام الخوالي طيبةً سارَّةً، حتى إنني في هذه اللحظة أشعر أن تلك الليلة –لا يمكن أن يكون في الكلام عن تلك الليلة الآن ما يسوء– قد عادت، وأنَّ شيئًا لم يحدث خلال ذلك. أشعر كما لو كنت لم أعانِ أي مشقَّة، وأنني لم أصرع المسكين (توم كب) إلَّا أمس، وأنني قد جئتُ لأراكِ ومتاعي على كتفي قبل أن ألوذ بالفرار. أتذكرين؟».

تذكر؟! لكنَّها لم تقل شيئًا، رفعت عينيها لحظةً، ولم تكن إلَّا لمحةً، لمحةً صغيرةً هيَّابةً يفعمها الدمع، غير أنَّها جعلت چو يصمت وقتًا طويلًا.

قال في ثباتٍ: «حسنًا، كان مكتوبًا أن يسير الأمر على نحو مختلف، وهكذا حدث. سافرت إلى الخارج، ومذ ذاك وأنا أقاتل طيلة الصيف، وأتجمَّد طيلة الشتاء. ولقد عدتُ فقيرًا كما ذهبت، معاقًا مدى حياتي فوق ذلك. لكني يا (دلّي) كنت أفضِّل أن أفقد تلك الذراع الأخرى، نعم، بل

كنت أفضِّل أن أفقد رأسي، على أن أعود فأجدك ميتة، أو أجدك على أي حالٍ غير تلك التي طالما تصوَّرتك فيها، والتي طالما تمنَّيتُ أن أجدك عليها. حمدًا للرب على كل شيء!».

أوه! الآن ما أعمق مشاعر الغنجة الصغيرة ذات الدلال التي كانت منذ خمسة أعوام! لقد وجدت قلبها أخيرًا. ولأنها لم تكن تعرف قدر قلبها إلى الآن فإنها لم تكن تعرف قدر قلبه، وما كان أغلاه الآن في عينيها!

قال چو بطريقته البسيطة: «لقد تمنَّيت فيما سبق أن أعود غنيًّا وأتزوَّجك، لكني كنت صبيًّا حينذاك، وقد تعلَّمتُ كثيرًا وأصبحتُ أفهم الأمور على نحو أفضل. أنا الآن جنديٌّ فقيرٌ معوَّق منهاة خدمته، وعليَّ أن أقنع بمجاهدة الحياة على قدر إمكانياتي. لا أستطيع حتى الآن أن أقول إنه يسعدني أن أراك متزوجةً يا (دلّي)، لكني سعيد -أجل، وسعيد لأن أفكِّر أنني أستطيع أن أقول ذلك- لأن أعرف أنك تثيرين الإعجاب وتغازلين وتستطيعين أن تنتقي من تشائين لحياة سعيدة. يواسيني أن أعرف أنك ستتحدثين إلى زوجك عني، وأتمنى أن يأتي الوقت الذي أستطيع فيه أن أحبه وأن أصافحه، وأن آتي لأراكِ بصفتي صديقًا مسكينًا كان يعرفك وأنت بنت صغيرة، فليبارككِّ الرب!».

ارتعشت يده، لكنه رغم كل شيء نزعها تاركًا (دلّي) وحدها.

* * *

الفصل الثالث والسبعون

بحلول مساء هذا الجمعة –فقد جاء عون چو وإدوارد في وقته وأُنقِذت (إمّا) و(دلّي) يوم الجمعة من أسبوع أحداث الشغب– كانت الاضطرابات قد أُخمِدت تمامًا، وعاد السلام والنظام ليسودا المدينة المروَّعة. صحيح أنه بعد ما حدث كان من المستحيل أن يقطع أيُّ إنسان بإجابة عن سؤالٍ إلى متى تستمر هذه الحال الأفضل، ولا أن يجزم بما إذا كانت انتهاكاتٌ جديدة تتجاوز حتى تلك التي شهدتها البلاد مؤخرًا ستنفجر بغتةً وتملأ شوارعها بالخراب وإراقة الدماء، ولذا ظلَّ الفارُّون من الأحداث الأخيرة على مبعدة، كما أنَّ عائلاتٍ كثيرةً لم تكن قد استطاعت سبيلًا إلى وسيلة آمنة للفرار قد استغلَّت حالة الهدوء وانسحبت إلى الريف. وكذا ظلَّت الحوانيت مغلقةً من تايبرن إلى وايتّشابل، ولم يكن ينجز من الأعمال في أماكن النشاط التجاري الكبرى إلَّا أقل القليل. لكن رغم ذلك كله ورغم نذر الشؤم الكئيبة التي تناقلتها تلك الفئة الكبيرة من المجتمع التي ترى بوضوحٍ فائقٍ ما يعتمل في أشدِّ الزوايا ظلمةً، فقد ظلَّت المدينة هادئةً تمامًا. كانت القوة العسكرية المنيعة التي توزَّعت على كل ركنٍ مهمٍّ ووقفت على كلِّ نقطة رئيسة هي الضابط الذي حكم تحرُّكات الأجزاء المبعثرة من حشود المشاغبين، وتواصل البحث عن محدثي الشغب بنشاطٍ لا يفتر، وإذا وجد بين هؤلاء من هو مستيئس وطائش لدرجة أن

يميل إلى المخاطرة بالتقدُّم ثانيةً بعد ما شاهده من مشاهد رهيبة، فقد كانت تلك التدابير الأمنية الصارمة تجعله يحجم، فلا يلبث أن ينكمش عائدًا إلى مخبئه وهو لا يشغله إلا أن يأمن على نفسه.

باختصارٍ كانت الحشود قد اندحرت تمامًا، مات منهم ما يربو على مائتين برصاص العسكر في الشوارع، ومائتان وخمسون كانوا يرقدون في المستشفيات بإصاباتٍ بالغة، ومات من هؤلاء سبعون أو ثمانون بعد فترة قصيرة. ومائة كانوا محبوسين بالفعل، يُضاف إليهم عددٌ جديدٌ في كلِّ ساعة، ولا يُعرف كم منهم قد هلكوا في الحرائق أو بصنائع أيديهم، لكنَّ المؤكد أنَّ أعدادًا غفيرةً قد وجدت لنفسها قبورًا رهيبةً في الرماد الساخن للحرائق التي أشعلوها، أو زحفت إلى الأقبية لتعبَّ الكحول خفيةً أو لتمرِّض جروحها، ثم لم ترَ نور الشمس بعد ذلك أبدًا. وقد أثبتت معاول العمَّال هذا الذي نقرِّره فبات لا يرقى إليه الشك حين اسودَّ جمر الحرائق وبرد بعد مضي أسابيع عدة.

دُمِّر اثنان وسبعون منزلًا خاصًّا وأربعة سجون منيعة في الأيام الأربعة الكبيرة من هذه الأحداث. وحسب تقدير من عانوا شيئًا من الخسائر فإنَّ إجمالي فقدان الأملاك قد وصل إلى مائة وخمسة وخمسين ألف جنيه، أمَّا أقل تقديرٍ للخسائر بحسب الأشخاص المحايدين أو الذين لا ينتظرون فائدةً من التقديرات فقد تجاوز مائةً وخمسةً وعشرين ألف جنيه. وسرعان ما قُدِّمت التعويضات عن هذه الخسائر الهائلة فيما بعد من الموازنة العامّة حسب ما أملته نتيجة اقتراع مجلس العموم، إذ جُمِع المبلغ في دوائر المدينة المختلفة، وفي المقاطعة وبلدية ساوثوارك، غير أنَّ كلًّا من لورد

مانسفيلد ولورد ساڤيلّ اللذين عانيا خسائر هائلة رفضا قبول أي جزءٍ من التعويضات.

ولمَّا انعقد مجلس العموم الثلاثاء وأبواب قاعاته مغلَّقة وعليها حراسة أصدر قرارًا يقضي بأنه بمجرد أن تخفت الفوضى سينظر المجلس في الالتماسات التي قدَّمها كثيرٌ من رعايا جلالة الملك من الـپروتستانت ويتدبَّر البتَّ فيها. وبينما كان هذا السؤال محلَّ جدال ومداولة في المجلس نهض مستر هربرت في استياء -وهو أحد الأعضاء الحاضرين آنذاك- وأهاب بالمجلس أن يلاحظ أنَّ لورد چورچ غوردن كان في تلك اللحظة جالسًا أسفل الرواق وفي قبَّعته الشارة الزرقاء رمز الثورة. إذ ذاك لم يقتصر الأمر على أن يضطره الجالسون قريبًا منه إلى خلع تلك الشارة، بل تعدَّى ذلك إلى أن عرض أن ينزل إلى الشارع ليهدِّئ الحشود بتأكيدٍ غير محدّدٍ تمامًا أنَّ المجلس مستعدٌّ لمنحهم «الإرضاء الذي يبحثون عنه»، ولم يمنعه من ذلك إلَّا أن تعاضدت قوة عدد من الأعضاء على الإمساك به في مقعده! وباختصارٍ فإن الفوضى والعنف اللذين كانت لهما الكلمة العليا خارج أبواب المجلس قد نفذا إلى داخل المجلس، وساد الرعب والقلق فيه كما سادا في كلِّ مكان، ونُسي في تلك اللحظات كلُّ ما يمتُّ إلى النظام بسبيلٍ.

علَّق مجلسا البرلمان يوم الخميس جلساتهما إلى الاثنين المقبل، معلنين أنه من المستحيل أن يواصلا مداولاتهما بالجدية والحرية الضروريَّتين والفرق المسلَّحة تحاصرهما. والآن بعد تفريق محدثي الشغب أخذ رعبٌ جديدٌ يحكم قبضته على المواطنين، فإنهم لمَّا وجدوا الطرق العامة وكلَّ الأماكن التي اعتادوا اللجوء إليها يملؤها عسكر

مخوَّلون الحقَّ في إطلاق النار واستخدام السيف متى تراءى لهم ذلك، بدؤوا يعيرون الشائعات الدائرة آذانًا صاغيةً -تلك الشائعات التي كانت تقول إنَّ القانون العسكري قد أعلن بدء تطبيقه- ويستمعون إلى تلك القصص الكئيبة عن سجناء شوهدوا مشنوقين على أعمدة الإنارة في تشيـپسايد وشارع فليت. ولما صدر تصريح يبدِّد هذه المخاوف حثيثًا ويصرِّح بأن كلَّ مثيري الشغب المحبوسين ستحاكمهم لجنة خاصة في وقتٍ محدَّدٍ تبعًا للقانون، بعث القلقَ من جديدٍ تهامسٌ بالخارج، مفاده أنَّ نقودًا فرنسيةً قد وجدت مع بعض المتمردين، وأن قوىً أجنبية تسعى إلى خراب إنگلترا وتدميرها هي التي أثارت الاضطرابات. وهذه الشائعة التي نفخ فيها توزيع منشورات مغفلة من اسم كاتبها، والتي إن كان لها أيُّ أساس من الصحة فربما يرجع إلى قليلٍ من العملات المعدنية غير الإنـگـليزيّة التي اغترفها المتمردون مع ما اغترفوا في جيوبهم من الأسلاب، ثم اكتشفت فيما بعد مع السجناء أو مع جثث الموتى، نقول هذه الشائعة قد أحدثت إثارةً عظيمةً، ولمَّا كانت عقول الناس في تلك الحالة الهائجة التي يصبحون معها على أتمِّ استعدادٍ لمحاولة الإمساك بكل ظلٍّ مزيَّف للقلق، فقد انتشرت الشائعة أيما انتشار بينهم.

غير أنه لمَّا ظلَّت الأمور هادئةً طيلة يوم الجمعة وليلته، ولمَّا لم يُكتشف شيء جديد، بدأ الناس يستعيدون الثقة، وعاد أشدُّهم قلقًا وكآبةً يتنفَّس من جديدٍ. وفي (ساوثوارك) لا أقل من ثلاثة آلاف من السكان شكَّلوا فيما بينهم حراسةً وطفقوا يمشِّطون الشوارع كلَّ ساعة. ولم ينكل المواطنون عن احتذاء هذا المثال الجيد، فإنه لمَّا كان من عادة المسالمين أن يكونوا أجرأ ما يكونون حين ينتهي الخطر، فقد كانوا في غاية الجبروت

والشجاعة، لا يتردَّدون عن مساءلة أضخم شخص يمرُّ من شوارعهم بمنتهى الحزم، ويفعلون ذلك بمزيد تسلُّط مع الأولاد السعاة والخادمات وصبية الحوانيت.

ولمَّا لفظ النهار أنفاسه الأخيرة وزحف الظلام على كلِّ ركنٍ وزاوية من المدينة كما لو كان يحشد سرًّا ويجمع قوة تمكِّنه من اقتحام الطرق المفتوحة، جلس بارنابي في زنزانته يتعجَّب من الصمت، ويتسمَّع من دون جدوى إلى ذلك الصخب الذي كان يُعلِن مقدم الليل في الأيام الأخيرة. وإلى جواره جلست امرأة كان يشعر في رفقتها بالسلام، ويده في يدها. كانت منهكةً متغيِّرة الملامح مثقلة القلب بالحزن والغم، لكنها لم تتغيَّر في عينيه هو.

قال بعد صمتٍ طويلٍ: «أمَّاه، إلى كم سأظل محبوسًا هنا؟ كم يومًا وكم ليلة؟».

«ليست أيامًا كثيرةً يا حبيبي، أرجو ألا تكون كثيرة».

«أنت ترجين! نعم، لكنَّ رجاءك لن يفلّ هذه الأغلال. أنا أرجو، لكنَّ الأغلال لا تعبأ بذلك. (غرب) يرجو كذلك، لكن من ذا يلتفت إليه؟».

زعق الغراب زعقةً قصيرةً رتيبةً كئيبة. كانت زعقته تقول «لا أحد» بكلِّ ما أوتيت زعقة من وضوحٍ.

قال بارنابي وهو يسوِّي بيده ريش الطائر المشعَّث: «من يلتفت إلى غرب إلا أنت وأنا؟ إنه لا يتكلم أبدًا في هذا المكان، لا ينبس بكلمة في السجن، وإنما يظل جالسًا محزونًا طيلة اليوم في ركنه المظلم، مغفيًا أحيانًا، وناظرًا أحيانًا إلى الضوء الذي يتسلَّل من خلال القضبان ويلمع في

عينه البراقة كما لو كانت شرارة من تلك الحرائق الكبيرة قد سقطت في الغرفة وما زالت تتلظَّى، لكن من ذا الذي يلتفت إلى غرب؟».

زعق الغراب ثانيةً: «لا أحد».

قال بارنابي وهو يسحب يده من الطائر ليضعها على ذراع أمِّه وهو ينظر في وجهها بلهفة: «وبالمناسبة، إذا قتلوني -فربما يفعلون، فقد سمعت أنهم سيقتلونني- فماذا سيكون مصير غرب حين أموت؟».

وربما كان صوت الكلمة أو تيار أفكار غرب هو ما اقترح عليه أن ينطق بعبارته القديمة «لا تستسلم للموت» لكنه توقَّف في منتصفها وسحب سدادةً كئيبة الصوت ثم خبا نشاطه إلى زعيقٍ خافتٍ كما لو كان يفتقر إلى الحماس اللازم لنطق أقصر عباراته.

قال بارنابي: «هل سيأخذون حياته كما سيأخذون حياتي؟ أتمنى أن يفعلوا. إذا استطعنا أنت وأنا وهو أن نموت معًا فلن يبقى أحدُنا ليأسف لموت الآخرين أو ليحزن عليهما. لكن فليفعلوا ما يحلو لهم، أنا لا أخشاهم يا أمي!».

قالت وعبراتها تخنقها: «لن يضرُّوك بشيء، لن يؤذوك أبدًا حين يعرفون كلَّ شيء، أنا واثقة بذلك!».

صاح بارنابي بسعادة غريبة مبعثها اقتناعه بأنها تخدع نفسها وإيمانه بحكمته: «أوه! لا ينبغي لك أن تكوني واثقةً تمامًا من ذلك! لقد وسموني منذ البداية. سمعتهم يقولون ذلك فيما بينهم الليلة الماضية حين أحضروني إلى هنا، وأنا أصدِّقهم. لا تبكي من أجلي. قالوا إنني كنت جريئًا، وأنا كذلك بالفعل، وهكذا سأكون. ربما تظنين أنني أبله، لكنني يمكنني أن

أموت كأي إنسانٍ آخر» ثم أضاف بسرعة: «إنني لم أرتكب شرًّا، أليس كذلك؟».

أجابت: «بلى، وتشهد السماء».

قال بارنابي: «ماذا إذن؟ فليفعلوا أسوأ ما لديهم. لقد قلت لي ذات مرة، أنت، حين سألتك عمَّا يعنيه الموت، إنه شيء لا ينبغي لنا أن نخافه إن لم نرتكب شرًّا. أها! لقد ظننتني نسيت ذلك يا أمي!».

أثقلت قلبها ضحكته المرحة وأسلوبه الهازل، جذبته إليها، ورجته أن يتكلَّم همسًا وأن يكون هادئًا جدًا لأنَّ الظلام قد بدأ يخيِّم ولم يبق أمامهما معًا كثير وقت وسيكون عليها بعد قليل أن تتركه الليلة.

قال بارنابي: «هل ستأتين غدًا؟».

نعم، وكلَّ يومٍ، ولن يفترقا ثانيةً أبدًا. ردَّ في حبور أن ذلك جيدٌ، وأنه ما تمنَّاه، وأنه ما كان واثقًا بأنها ستقوله له، ثم سألها أين كانت طيلة هذه الفترة، ولماذا لم تأتِ لتراه حين كان جنديًّا عظيمًا، وعرَّج على خططه المثيرة ليصبحا غنيَّين ويعيشا عيشةً مترفةً، ثم بتصوُّرٍ غامضٍ في ذهنه عن كونها حزينةً وأنه مسؤول عن حزنها حاول أن يواسيها ويعزِّيها، وتحدَّث عن حياتهما السابقة وما دأب فيه من المرح والحرية، ولم يكن ليدور بخلده أنَّ كلَّ كلمة يتفوَّه بها لا تزيدها إلَّا تعاسةً، وأنَّ دموعها ستنهمر أغزر حين تذكر سكينتهما التي كانت. وحين سمعا الرجل يقترب ليغلق الزنزانات لهذه الليلة قال بارنابي:

«أمَّاه، حين تحدثت إليك منذ قليلٍ عن أبي صحتِ فيَّ «ششش» وأدرت رأسك بعيدًا، لِمَ فعلتِ ذلك؟ أخبريني بالإجابة بكلمة، لقد ظننت

أنه ميتٌ، أنت لست آسفةً لكونه حيًّا وعاد إلينا، أين هو؟ هنا؟».

أجابت: «لا تسأل أيَّ إنسان عن مكانه ولا تتحدث عنه».

قال بارنابي: «ولم لا؟ ألأنَّه رجلٌ صارمٌ ويتكلم بغلظة؟ حسنًا! أنا لا أحبه، ولا أريد أن أكون معه وحدي، لكن لم لا أتحدث عنه؟».

«لأني آسفة أنه حيٌّ، وآسفة لأنه عاد، وآسفة لأنكما تقابلتما. ولأني يا بارنابي الحبيب قد قضيت حياتي أحاول أن أبعد كلًّا منكما عن الآخر».

«أب وابنه بعيد كلٌّ منهما عن الآخر؟ ولم؟!».

همست في أذنه: «لأنه.. لأنه أراق الدماء. لقد حان الوقت لتعرف ذلك. لقد أراق دم إنسان كان يحبه ويثق به ولم يسيء إليه أبدًا بالكلمة أو الفعل».

انكمش بارنابي في رعبٍ، ثم نظر لحظةً إلى وصمة رسغه، فأخفى رسغه بثيابه وهو يرتجف.

أضافت بسرعة والمفتاح يدور في القفل: «لكن رغم أننا نتجنَّبه، فهو أبوك يا أعز الناس، وأنا امرأته التعسة. إنهم يريدون إزهاق روحه، وسيفقد حياته، ولا يجب أن نكون نحن السبب في ذلك، لا، بل إذا استطعنا أن نجعله يتوب فسيكون علينا أن نحبه رغم ما كان. لا يبدونَّ عليك أنك تعرفه، إلا باعتباره رجلًا هرب معك من السجن، وإذا ما سألوك عنه فلا تجِب. أستودعك الله هذه الليلة يا ولدي العزيز! أستودعك الله!».

مضت خارجةً، وبعد ثوانٍ بات بارنابي وحده. ظلَّ واقفًا لا يبرح مكانه وقتًا طويلًا، مخفيًا وجهه بيديه، ثم ألقى بنفسه على سريره البائس ينتحب.

لكنَّ القمر أخذ يدرج صاعدًا إلى عرشه في أبَّهة مجده الوديع، وأطلَّت النجوم، وسطع وجه السماء برَّاقًا رحيمًا من الفرج الضيقة بين قضبان النافذة، كما يفعل من شقٍّ ضيق يحدثه عملٌ خيِّر واحد وسط حياة مفعمة بالآثام. رفع رأسه ونظر عاليًا إلى السماء الهادئة التي بدت تبتسم في حزن للأرض، كما لو كان الليل المستغرق في التفكير أكثر من النهار كان ينظر في حزن إلى ما يعانيه البشر وإلى شرورهم، وشعر بسلامها يتغلغل في أعماق قلبه. إنه –وهو الأبله المسكين المحبوس في زنزانة ضيقة– كان يشعر أنه قد ارتفع إلى الله وهو ينظر إلى الضوء الوديع كما ينبغي لأوفر إنسان في المدينة الواسعة حظًّا من الحرية والتميُّز، وفي صلاته التي يتذكَّر ألفاظها بالكاد وفي الجزء من الترنيمة الطفولية الذي أنشأ يتغنَّى به ويترنَّم إلى أن نام كان ثَمَّ روحٌ صادقة تتنفَّس، كأفضل ما تبشِّر به العظات البليغة، وكأجمل ما تردَّد أصداءه أقواس الكاتدرائيات العتيقة.

وبعد أن عبرت أمُّه أحد الأفنية في طريقها إلى الخارج بصرت بزوجها من خلال بابٍ ذي قضبان يفصل هذا الفناء عن غيره. كان يمشي في حركة دائرية ويداه معقودتان على صدره ورأسه مخفوض. سألت الرجل الذي كان يرافقها إلى الخارج إن كان بإمكانها أن تتحدث قليلًا مع ذلك السجين. نعم، لكن عليها أن تسرع، فهو بسبيله إلى إغلاق الزنزانات فترة الليل، وليس أمامه سوى دقيقة أو ما إليها. قال ذلك وفتح الباب سامحًا لها بالدخول.

صرَّ الباب صريرًا حادًّا حين دار على مفصَّلاته، لكنَّ السجين لم يسمع تلك الجلبة، وإنما ظلَّ يذرع الفناء الصغير بمشيته الدائرية من دون أن يرفع رأسه أو يغيِّر وضعه أقلَّ تغييرٍ. تحدَّثت إليه لكنَّ صوتها كان ضعيفًا فخانها

واحتبس. وبعد مدة وضعت نفسها في طريقه، وحين اقترب مدَّت يدها ولمسته. أجفل إلى الخلف وهو يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، لكنه لمَّا رأى من تلمسه سألها لِمَ جاءت إلى هنا، وقبل أن تستطيع الرد تكلَّم ثانيةً:

«هل سأعيش أم أموت؟ هل تقتلين أنت الأخرى أم ماذا؟».

أجابت: «ابني.. ابننا في هذا السجن».

صاح وهو يضرب الرصيف الحجري بقدمه في نفاد صبرٍ: «وما يعنيني من ذلك؟ أعرف. هو لا يستطيع أن يساعدني بأكثر مما أستطيع أن أساعده، إن كنتِ قد جئتِ لتكلِّميني عنه، فارحلي!».

وبينا يتكلَّم عاد إلى المشي مسرعًا حول الفناء كما كان، وحين وصل ثانيةً إلى حيث تقف توقَّف قائلًا:

«هل سأعيش أم أموت؟ ألا تتوبين؟».

أجابت: «أوه! ألا أتوب أنا؟! هل ستتوب أنت قبل أن يفوت الأوان؟ لا تعتقد أني سأملك إنقاذك إن تجرّأت».

أجاب ببذاءة وهو يحاول الفكاك منها ليكمل مشيه: «قولي إن شئت، قولي إن شئت».

ردَّت: «استمع إليَّ لحظة، لا أكثر من لحظة. إنني لم أنهض من فراش المرض إلَّا حديثًا، ولم أكن أرجو أن أنهض منه لأواصل الحياة أبدًا. في مثل تلك الأوقات يفكر أفضل من فينا في نواياهم الطيبة التي لم ينفِّذوا إلا نصفها، وفي الواجبات التي تركوها وراءهم عالقة. لو أنني منذ تلك الليلة المشؤومة نسيت ليلةً أن أصلِّي لأجلك حتى تتوب قبل الممات،

ولو أنني نسيت حتى في ذلك العهد البعيد أيَّ شيء يمكن أن يحضّك على التوبة بينما فزع الجريمة في طوره الأول، ولو أنني في لقائنا اللاحق استسلمت لما تملَّكني من رعبٍ ونسيت أن أجثو على ركبتيَّ وأتوسَّل جادة إليك باسم ذلك الذي أرسلته ليتلقَّى حسابه من السماء، أن تستعدَّ للقصاص الذي لا بُدَّ أن يحين، والذي هو بسبيله إليك الآن، فإنني أتوسَّل الآن أمامك في ذلَّة وفي ألم الضراعة الذي تراني فيه أن تدعني أكفِّر عمَّا سقط مني».

أجاب في غلظة: «ما معنى كلماتك المنغومة هذه؟ تكلّمي بطريقة أفهمها».

أجابته: «سأفعل. إنني أرجو ذلك، احتملني لحظةً أخرى. إنَّ يد الرب الذي لعن القتل تعاقبنا الآن عقابًا ثقيلًا، لا يمكنك أن ترتاب في هذا. ابننا، ولدنا البريء الذي وقع عليه غضب الرب من قبل ميلاده محبوسٌ في هذا المكان وحياته مهدَّدة بالخطر، لم يحضره إلى هنا إلا ذنبك، أجل، بذنبك وحده أتى إلى هنا، والرب يعرف ويشهد، فقد أضلَّ في ظلمة عقله، وليست هذه إلَّا النتيجة الرهيبة لجريمتك».

غمغم وهو يحاول أن يتملَّص منها ثانيةً: «إن كنت أتيت لتحمِّليني بالملامة كعادة النساء.».

«لم آتِ لذلك، لي هدفٌ آخر، ينبغي لك أن تسمعه، إن لم يكن الليلة فغدًا، فإن لم يكن غدًا ففي وقتٍ آخر. يجب أن تسمعه. زوجي، إنَّ الهرب مستحيلٌ ولا أمل فيه».

قال وهو يرفع يده المغلولة ويهزُّها: «جئتِ تخبرينني بذلك؟ أليس كذلك؟ أنتِ؟!».

قالت بجديَّة لا توصف: «أجل، لكن لم؟».

قال وهو يكزُّ أسنانه ويبتسم لها بوجه غاضبٍ: «لأكون مرتاحًا في هذا السجن، ليمرَّ الوقت بين ذلك والموت سعيدًا. لمصلحتي. نعم. لمصلحتي بالطبع».

ردَّت: «لا لأحمِّلك بالملامة، ولا لأزيدك عذابًا وتعاسةً، ولا لأوجِّه إليك كلمةً واحدةً قاسيةً، وإنما لأعيد إليك السلام والأمل. زوجي، زوجي العزيز، إنك إذا ما اعترفت بهذه الجريمة النكراء، وطلبت صفح السماء وعفو من أسأت إليهم على الأرض، وصرفت تلك الأفكار الباطلة المربكة التي لا يمكن لها أن تتحقَّق، واعتمدت على التوبة والصدق، فإني أعدك باسم الخالق العظيم الذي شوَّهت صورته الماثلة فيك أنه سيريحك ويواسيك»، ثم واصلت باكيةً مشبِّكةً يديها وناظرةً إلى أعلى:

«وبالنسبة إليَّ، فإني أقسم أمام الله –وهو يعرف ما بقلبي ومطَّلع عليه الآن– أني بدءًا من تلك الساعة سأحبُّك وأقدِّرك كما كنت أفعل قديمًا، وأرعاك ليل نهار في الفترة القصيرة المتبقية أمامنا، وأخفِّف عنك بأصدق ما يكنُّ قلبي من الحب والشعور بالواجب، وأدعو معك أن يوقف الرب ذلك الحكم المرعب، وأن ينجو ابننا ليبارك اسم الرب بطريقته المسكينة في النور والهواء الحر!».

تراجع وأخذ يحدِّق إليها وهي تقول هذا الكلام كما لو كان أسلوبها قد أرهبه لحظةً، فلم يعرف ما عساه أن يصنع، لكنَّ الغضب والخوف ما لبثا أن أحكما قبضتهما على كيانه مجدّدًا، فدفعها بعيدًا عنه صائحًا:

«اذهبي! اتركيني! إنك تدبِّرين لي، أليس كذلك؟! لقد دبَّرت الكلام معي ليعلموا أنني الرجل الذي يقولون إنه أنا، اللعنة عليك وعلى ابنك».

ردَّت معتصرةً يديها: «لقد أصابته اللعنة بالفعل».

«لتصبه بأثقل ممَّا فعلت، لتصب الجميع، أنا أكره كليكما. لقد حلَّ بي أسوأ ما هنالك. ولا يعزِّيني أبدًا إلا أن أعرف أنه قد حلَّ بكما، والآن اذهبي!».

وحتى الآن كانت بسبيلها إلى محاولة حضِّه على الطريق التي أغرته بها، لكنه هددها بأغلاله قائلًا:

«أقول اذهبي، أقولها لآخر مرة. إنني في قبضة المشنقة، وما هي إلا شبح أسود يمكنه أن يحضّني على ما هو أكثر مما فعلت. اذهبي، أنا ألعن الساعة التي ولدت فيها، والرجل الذي قتلته، والعالم أجمع!».

وفي نوبة حقدٍ ورعبٍ وخوفٍ من الموت تملَّص من حضورها وهرع إلى ظلمة زنزانته حيث ألقى بنفسه على أرضها الحجرية مصلصلًا بأغلاله، وأخذ يضرب الأرض بيديه المغلولتين. عاد الرجل ليغلق باب الزنزانة، وبعد أن فعل ذلك أخذها بعيدًا.

وفي تلك الليلة الدافئة المعتدلة من حزيران كان ثَمَّ وجوه سعيدة وقلوبٌ طربة مبثوثة في كلِّ ركن من المدينة، وعاد النوم الذي كانت الفظائع الأخيرة قد طردته ليحلَّ ضيفًا مبالغًا في الترحاب به. في تلك الليلة طفقت الأسر تمرح في منازلها، ويهنِّئ بعضها بعضًا على النجاة من الخطر المشترك، وتجرَّأ المنبوذون فعادوا إلى الشوارع، وأوى من نُهِبت أملاكهم إلى أماكن آمنة. حتى اللورد الحاكم العام الجبان الذي استدعي أمام المجلس الاستشاري تلك الليلة ليُساءل عن سلوكه في الأزمة عاد إلى مقرِّه راضيًا، مخبرًا أصدقاءه جميعًا بأنَّ الأمور قد سارت معه على ما

يرام، ولم يُعاقب إلا بتوبيخٍ، وأخذ يكرِّر على مسامعهم بكثيرٍ من الرضا دفاعه الخالد عن موقفه أمام المجلس «أنَّ جرأته كانت بالغةً حتى لقد ظنَّ الموت نصيبه في النهاية».

وفي تلك الليلة كذلك اقتُفي عددٌ أكبر من البقايا المبعثرة من الحشود إلى الأماكن التي يلجؤون إليها وقُبِض عليهم، كما وُجِد كثيرٌ من التعساء صرعى في المستشفيات وعميقًا بين الخرائب التي صنعوها بأيديهم وفي الخنادق والحقول، وهؤلاء كان يحسدهم رفاقهم الذين كانوا نشطين في الاضطرابات وانتهى الحال برؤوسهم المنكوبة متوسِّدةً الأرضيات الحجرية في السجون المؤقتة.

أمَّا في سجن البرج في إحدى غرفه الكئيبة حيث الجدران الحجرية السميكة تحجب عمَّن بداخلها طنين الحياة الدائرة في الخارج، وتصنع سكونًا تبدو السجلات التي تركها السجناء السابقون مع هؤلاء الشهود الصامتين كما لو كانت تعمِّقه وتزيده، في ذلك السجن كان يجلس الصانع التعيس لتلك المأساة، لورد چورچ غوردن، يؤنِّبه ضميره على كلِّ فعلٍ قام به كلُّ رجل بين الحشود القاسية، ويشعر الآن أن ذنبهم يقع على كاهله، وأنه هو من عرَّض حياتهم للخطر، وبين هذه التأمُّلات لا يجد سلوى في التعصُّب ولا في قضيته المتوهمة.

كان قد أُلقي القبض عليه تلك الليلة. قال للضباط الذين انتظروه بالخارج ومعهم إذن القبض عليه بتهمة الخيانة العظمى: «إن كنتم واثقين بأنني أنا الشخص الذي تريدونه، فإنني مستعدٌّ لمرافقتكم» وهو ما فعله من دون مقاومة.

سيق أولًا إلى المجلس الاستشاري، ومنه إلى الحرس الخيَّالة، ثم أُخِذ عبر جسر وستمنستر ثم جسر لندن (لتجنُّب الشوارع الرئيسة)، ثم انتهي به إلى سجن البرج تحت أشد حراسة دخلت من بوابات ذلك السجن رفقة سجينٍ واحدٍ.

ومن بين أربعين ألف رجل كان يعدُّهم رجاله لم يبقَ واحدٌ ليرافقه، الأصدقاء والأذناب والأتباع، لم يبق منهم أحدٌ. خانه صاحب سرِّه المتزلِّف، وبقي ذلك الذي استغل كثيرون ضعفه فشجَّعوه على خططه لخدمة أغراضهم، بقي وحيدًا بائسًا.

* * *

الفصل الرابع والسبعون

بعد أن قُبِض على مستر دنس في ساعة متأخرة من الليل نُقِل إلى قمرة متاخمة ليبيت الليلة فيها، على أن يوقَف أمام قاضٍ ليستجوبه في اليوم التالي الموافق السبت. ولمَّا كانت التهم الموجَّهة إليه عديدةً ثقيلةً، ولمَّا كانت شهادة غابرييل ڤاردن قد أثبتت بالأخصِّ أنه قد أظهر رغبةً خاصةً في إزهاق روحه، فقد أدرج على قائمة المحاكمة. وفوق ذلك فقد شرِّف بالتمييز باعتباره من رؤساء المتمردين، وتلقَّى من فم الحاكم تأكيدًا -أطراه كثيرًا- على كونه في وضعٍ مهدَّد بخطرٍ وشيكٍ، وعلى أنه يكون قد أحسن صنعًا إن أعدَّ نفسه للأسوأ.

وإنه لمن قبيل الادِّعاء لمستر دنس بأكثر مما تنطوي عليه نفسه من الفلسفة الرواقية أن نزعم أن هذه التشريفات لم تفزع تواضعه ولم تجعله يجفل أمامها، أو أنه كان مهيَّأً تمامًا لتلقِّي هذا الاستقبال المطري. والحق أن رواقية هذا السيد كانت من ذلك النوع الذي لا يتسم بالندرة، الذي يمكِّن الرجل من أن يحتمل بصمودٍ نموذجيٍّ ابتلاءات أصدقائه، لكنه يجعله -على سبيل إحداث التوازن- أنانيًّا إلى حدٍّ ما، وحسَّاسًا إذا ما تعلَّق الأمر بأي مصائب تحلُّ به هو نفسه. ولذا فلسنا نغمط هذا الموظف الكبير حقَّه حين نقول من دون مواربة أو تورية إنه كان في البداية قلقًا للغاية، وأنه

قد أبدى مشاعر الخوف أولًا، حتى أنجدته قواه العقلية وصوَّرت له وضعه بصورة أوفر حظًّا من الأمل.

وبقدر ما أعمل مستر دنس هذه القوى العقلية التي وهبها في تأمُّل أفضل ما أمامه من فرص للنجاة بقليلٍ من المتاعب الشخصية ارتفعت روحه المعنوية وازدادت ثقته. وحين تذكر التقدير العظيم الذي تحظى به وظيفته، والطلب الذي لا ينقطع لخدماته، وحين ذكَّر نفسه كيف أنَّ سجلَّ القوانين كان يعتبره نوعًا من الدواء الصالح للجميع، رجالًا ونساءً وأطفالًا من كل سن ومزاج إجراميٍّ، وإلى أي مدىً كانت كفاءته الوظيفية تعلي قدره في أعين التاج ومجلسي البرلمان ودار سكِّ النقود وبنك إنگلترا والقضاة، وحين تذكر أنه على تعاقب الوزارات وتغييراتها كان هو باقيًا في منصبه أثيرًا مدلَّلًا ودواءً صالحًا لكل شيء، وأن إنگلترا تقف فريدةً بارزةً بين شعوب العالم المتحضِّرة بفضله، حين استدعى إلى وعيه هذه الأشياء كلها واستغرق في التفكير فيها شعر أنه من المؤكد أن الامتنان الوطني منقذه لا محالة من تبعات أفعاله الأخيرة ومعيده بلا ريبٍ إلى مكانه المعتاد في النظام الاجتماعي السعيد.

بهذه الكِسَر، وربما لنا أن نقول، بهذه الأرغفة الكاملة من السلوى ليبتهج بها، أخذ مستر دنس مكانه بين الحرس الذين انتظروه ومضى إلى السجن بلا مبالاة رجولية. ولمَّا وصل إلى نيوغات حيث أُصلِح بعض الزنزانات الخربة على عجلٍ لتكون صالحةً لإيداع محدثي الشغب فيها، استقبله الحرَّاس بترحابٍ بصفته حالةً مثيرةً غير معتادة خفَّفت عنهم كثيرًا ملل القيام بواجباتهم الوظيفية. وبهذه الروح أوثق بحرصٍ بالغٍ ونُقِل إلى داخل السجن. وبينما يتبع ضابطًا تحت هذه الظروف الجديدة عابرًا بقايا الممرَّات التي كان يعرفها عن ظهر قلب، صاح:

«أخي، هل سأكون في رفقة أيّ إنسان؟».

جاءه الرد: «لو كنت قد تركت حوائط أكثر منتصبةً في أماكنها لسُجِنتَ اليوم بمفردك، لكن حيث إنَّ الأمر على ما تعرف، فليس لدينا مساحة، وستكون في رفقة».

ردَّ دنس: «حسنًا! لا أعترض على وجود رفقة يا أخي. بالعكس، أنا أحب الرفقة، لقد خُلِقتُ اجتماعيًّا».

قال الرجل: «يا له من شيء مثير للشفقة، أليس كذلك؟».

أجاب دنس: «لا، لست أعي أنه كذلك. لم يجب أن يثير الشفقة يا أخي؟».

قال الرجل بلا اهتمامٍ: «أوه! لا أعرف. لقد ظننت هذا ما قصدته. أن تكون اجتماعيًّا، ثم يحكم على زهرتك أن تقطف، تعرف .».

قاطعه الآخر بسرعة: «أقول عمَّ تتحدث؟ لا، من هذا الذي ستُقطَف زهرته؟».

قال الرجل: «أوه، لا أحد على وجه الخصوص، ظننت أنه ربما أنت».

مسح مستر دنس وجهه الذي أحسَّ أنه قد سخن فجأةً، ثم قال لناقله بصوتٍ مرتعشٍ إنه يحب تنكيته من قديم، وتبعه في صمتٍ إلى أن وقف عند أحد الأبواب. سأله في تفكُّه:

«سيكون هذا مقرِّي، أليس كذلك؟».

قال صديقه: «هذا هو الحانوت يا سيدي».

كان بسبيله إلى الدخول وإن لم يكن بأفضل لطفٍ ممكن، وإذا هو يتوقَّف بغتةً ويجفل إلى الخلف.

قال الشرطي: «هالو! إنك عصبيٌّ».

همس دنس في قلقٍ بالغٍ: «عصبي! حسنًا، ربما. أغلق الباب».

ردَّ الرجل: «سأفعل حين تكون بالداخل».

همس دنس: «لكني لا أستطيع أن أدخل إلى هنا، لا يمكن أن أُحبَس مع هذا الرجل، أتريدني أن أموت مخنوقًا يا أخي؟».

لم يبدُ على الشرطي أنه يكنُّ رغبةً بهذا الخصوص بأي طريقة كانت، فما كان منه إلا أن دفعه إلى الداخل قائلًا في إيجاز إنَّ لديه أوامر عليه أن يطيعها، ثم أدار المفتاح مغلقًا الباب وانسحب.

وقف دنس يرتجف وظهره إلى الباب، وأخذ يحدق إلى الرجل الذي كان الساكن الآخر الوحيد للزنزانة وهو يرفع ذراعه لا إراديًّا ليدافع عن نفسه. كان ذلك الآخر ممددًا على مقعد حجري، وقد توقف في تنفُّسه العميق كما لو كان موشكًا على الاستيقاظ، غير أنه تدحرج على أحد جانبيه تاركًا ذراعه تسقط إلى أسفل بثقلها، وتنهَّد تنهُّدًا طويلًا، ثم غمغم بشيء غير واضح وسقط في نومٍ عميقٍ مجدّدًا.

أما وقد أراح ذلك مستر دنس بعض الشيء، فقد رفع عينيه لحظةً عن الجسد النائم وقلَّب بصره في الزنزانة باحثًا عن موقع يضمن تفوُّقه أو سلاح يدافع به عن نفسه. لم يكن في الزنزانة شيء قابل للتحريك عدا منضدةً خرقاء لا يمكن إزاحتها دون جلبة ومقعدًا ثقيلًا. أخذ يسترق الخطى على أطراف أصابعه إلى قطعة الأثاث الأخيرة تلك ثم تراجع بها إلى أبعد ركن، وبعد أن خندق خلفها طفق يراقب العدو بأقصى ما لديه من يقظة وحذرٍ.

كان النائم (هيو)، وربما لم يكن من غير الطبيعي أن يشعر دنس بهذا القدر من التوتُّر المقلق، وأن يتمنى من كلِّ قلبه ألا يستيقظ هيو أبدًا. وبعد أن أتعبه الوقوف ربض في ركنه مستريحًا على الرصيف البارد، لكن رغم أن تنفُّس (هيو) كان ما زال يعلن أنه مستغرقٌ في النوم، لم يكن دنس ليأمن جانبه إن غاب عن عينه لحظة. كان بالغ الخوف منه ومن أي هجوم مفاجئ من جانبه لدرجة أنّه لم يكن ليقنع بأن يراه مغمض العينين عبر ظهر المقعد، فكان ينهض خفيةً بين الفينة والفينة ويتطلَّع إليه مادًّا رقبته ليستوثق من كونه ما زال نائمًا بعمقٍ، وأنه لن يأخذه على حين غرَّة منه.

ظلَّ نائمًا طويلًا بعمقٍ لدرجة أن دنس بدأ يفكر أنه ربما يظل نائمًا إلى أن يزورهما الحارس. وبينا هو يهنِّئ نفسه على هذه الشواهد المطمئنة ويبارك حظَّه بحرارة، إذا أمرٌ أو اثنان لا يسرَّان قد ظهرا، كحركة أخرى لذراع هيو، وتنهيدة أخرى وتطويحه رأسه في قلقٍ. ثم في اللحظة التي بدا فيها أن هيو سيسقط ثقيلًا على الأرض من سريره الضيق، فتح عينيه.

وبالصدفة كان وجهه يواجه زائره غير المتوقع. نظر إليه في فتور لمدة ثوانٍ من دون أدنى بادرة توحي بالدهشة أو بالتعرُّف عليه، ثم قفز بغتةً ناهضًا، ناطقًا اسمه في بذاءة.

صاح دنس وهو يراوغه من خلف المقعد: «لا تقترب يا أخي، لا تقترب! لا تؤذني، فأنا سجينٌ مثلك، لا أستطيع أن أحرك أطرافي بحرية، إنني رجلٌ عجوزٌ تمامًا، لا تؤذني!».

كان قد نطق الكلمات الأخيرة في نحيبٍ وبلهجة مثيرة للشفقة، لدرجة أن هيو الذي سحب المقعد بعيدًا وصوَّبه إليه قاصدًا أن يضربه به تمالك نفسه وأمره أن ينهض.

صاح دنس في حرصٍ على استرضائه بأي وسيلة يستطيعها: «سأنهض بالتأكيد يا أخي، أنا واثق أنني سأطيع أيَّ طلبٍ منك. هأنذا قد نهضت، ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك؟ ليس عليك إلَّا أن تسمِّي حاجتك وسأفعلها لك».

صاح هيو وهو يقبض عليه من ياقته بكلتا يديه ويهزُّه كما لو كان مصمِّمًا على أن يخنقه بهذه الطريقة: «ماذا تستطيع أن تفعل لأجلي؟! ماذا فعلت لي؟».

ردَّ الشانق: «الأفضل! أفضل ما يمكن أن يفعل!».

لم يحر هيو جوابًا وإنما ظلَّ يهزُّه بقبضته القوية إلى أن اصطكَّت أسنانه في رأسه ثم طرحه أرضًا وألقى بنفسه على المقعد ثانيةً ثم غمغم:

«لو لم يكن يشفي غليلي أن أراك هنا لحطَّمت رأسك».

مرَّ وقتٌ قبل أن يستعيد دنس أنفاسه ويستطيع أن يتكلم، لكنه بمجرد أن استطاع مواصلة محاولته الاسترضائية واصلها قائلًا في نحيبٍ:

«لقد فعلت أفضل ما كان في الإمكان يا أخي. وما أقوله حقٌّ. لقد كنتُ مدفوعًا إلى أن أشير إليك بحربة وعدد لا أعرفه من الطلقات على كل جانب. فإن لم تكن قد اعتقلت لكنت مضروبًا بالنار، ويا له من منظرٍ إن كان قد تحقَّق! شابٌّ جيد مثلك!».

سأله هيو وهو يرفع رأسه وعلى سيماه تعبيرٌ بالغ الشراسة حتى إنَّ الآخر لم يجرؤ على أن يحير جوابًا: «هل سيكون منظرًا أفضل الآن؟».

قال دنس في وداعة بعد برهة صمتٍ: «أفضل بقدرٍ ما. أولًا هناك الفرص التي يتيحها القانون، وهي فرصٌ قوية خمسمائة مرة! ربما نخرج من القضية سالمين. لقد حدثت من قبل أشياء كانت أضعف احتمالًا من ذلك. وحتى إن لم ننجُ وخانتنا الفرصة، فلن نعدم سوى مرة واحدة، وحين ينفَّذ ذلك على النحو الصحيح فسيكون مرتَّبًا جدًّا ومنفَّذًا بمهارة وآسرًا للغاية -إن لم تبد هذه كلمةً قويةً جدًّا- حتى إنك لن تكاد تصدِّق أنه يمكن أن ينفَّذ بهذا القدر من الكمال! أن يقتل المرء رفاقه من البشر بالبنادق؟ ما أسوأ ذلك! پاه!» وبدا أنه يتقزَّز من مجرد هذه الفكرة لدرجة أن بصق على رصيف الزنزانة.

وكان أنَّ حماسه لهذا الموضوع -وهو حماس كان يبدو شجاعةً لمن لا يعرف مساعيه وميوله- مع إخفائه الماكر لآماله التي يكنُّها في قرارة نفسه، وذكره نفسه كما لو كان في نفس الحال مع هيو، هدَّأت جميعًا من روع ذلك الهمجي أكثر مما كان يستطيع أبلغ حجاج أو أذلّ استسلام أن يفعلا. أراح ذراعيه على ركبتيه، ونظر من تحت شعره الأشعث إلى دنس وهو منحنٍ إلى الأمام، وعلى وجهه شبح ابتسامة.

قال الشانق بنبرة فيها المزيد من الثقة: «الحقيقة يا أخي أنك قد تورَّطت في رفقة سيِّئة. لقد اعتني بالرجل الذي كان معك أكثر مما اعتني بك، وكان هو من أردته. أما بالنسبة إليَّ، فماذا جنيت من ذلك؟ ها نحن معًا في المصيبة نفسها».

قال هيو مقطِّبًا جبينه: «انظر أيها الوغد، أنا لستُ ذلك الأحمق الذي تظنُّه، وأعرف أنك توقَّعت أن تنال شيئًا مما فعلت، وإلَّا لما فعلته. لكن ما حدث قد حدث، وأنت الآن هنا، وقريبًا سينتهي أمر كلٍّ منَّا، وأنا سواء

بالنسبة إليَّ الحياة والموت. لِمَ أكلِّف نفسي همَّ الانتقام منك؟ كلُّ ما يهمُّني أن آكل وأشرب وأنام ما بقيت هنا. ولو كان لي أن أنعم من ضوء الشمس بأكثر مما يعرف طريقه منه إلى هذا المكان اللعين لرقدت فيه طيلة النهار، ولما كلَّفت نفسي أن أجلس أو أقف ولا مرة. هذا كلُّ ما يهمُّني لأجل نفسي. لِمَ يجب أن أهتمَّ بك أنت؟».

وبعد أن أنهى هذا الخطاب بزمجرة كتثاؤب حيوان متوحِّش تمدَّد على الأريكة الحجرية ثانيةً وأغلق عينيه مجدّدًا. وبعد أن نظر دنس إليه لحظاتٍ في صمتٍ مستريحًا تمامًا لكونه قد وجده في هذه الحالة المزاجية، قرَّب المقعد من أريكته الغليظة وجلس قربه، آخذًا حذره من الاقتراب من مدى بطش ذراعه المفتولة، ثمَّ تجرَّأ قائلًا:

«حسنًا ما قلت يا أخي، ليس ثَمَّ أفضل مما قلت، سنأكل ونشرب من الأفضل، وننام ما استطعنا أن ننام، ونحاول أن نأخذ أفضل ما تناله أيدينا. المال يمكنه أن يشتري كلَّ شيء، دعنا ننفقه في مرح».

قال هيو وهو ينثني على نفسه في وضعٍ جديدٍ: «أجل. أين هو؟».

قال مستر دنس: «لقد أخذوا مني مالي في البيت، لكنَّ مالي حالة فريدة».

«أهو كذلك؟ لقد أخذوا مالي أنا الآخر».

قال دنس: «لم إذن؟ أنا أخبرك بالأمر يا أخي، عليك أن تبحث عن أصدقائك.».

صاح هيو منتبهًا وهو يستند إلى يديه: «أصدقائي؟ وأين أصدقائي؟».

قال دنس: «أقاربك إذن».

ضحك هيو ملوِّحًا بإحدى ذراعيه عاليًا: «هاهاها! إنه يحدِّثني أنا

عن أصدقاء. ويتكلَّم عن الأقارب مع رجلٍ ماتت أمُّه الميتة التي أصبحت تنتظره الآن، وتركته صبيًّا جائعًا من دون وجه يعرفه في العالم كلِّه! يتحدث معي أنا عن هذا!».

صاح الشانق الذي تغيَّرت ملامحه فجأةً: «أخي، أنت لا تقصد أن تقول ..».

قاطعه هيو: «أقصد ان أقول إنهم قد شنقوها في تايبرن. وما كان جيدًا بما يكفي لها هو جيد بما يكفي لي أنا الآخر. فليفعلوا مثل ذلك معي في أقرب وقت يرونه، فكلما كان ذلك أقرب كان أفضل، لا تقل لي شيئًا آخر. سأنام».

قال دنس وقد تغيَّر لونه: «لكني أريد ان أتحدث معك، أريد أن أسمع المزيد عمَّا قلته».

زمجر هيو رافعًا رأسه ليحدجه بنظرة عابسة: «إن كنت رجلًا عاقلًا فستمسك لسانك؛ أنا أقول لك سأنام».

ولمَّا تجرَّأ دنس على أن يتفوَّه بشيء آخر رغم هذا التحذير وجَّه الآخر المستيئس إليه ضربةً أودعها كلَّ ما أوتي من قوة، فلما أخطأه رقد ثانيةً، مغمغمًا بكثيرٍ من البذاءات واللعنات، وأدار وجهه ناحية الجدار. وبعد أن شدَّه مستر دنس من ثوبه مرتين أو ثلاثًا من دون جدوى –وقد كان من الجسارة بحيث أقدم على ذلك رغم الحالة المزاجية الخطيرة التي وجد فيها هيو– لم يكن أمامه –وهو الذي كان يتحرَّق إلى مواصلة هذا الحوار لأسباب تخصُّه– إلَّا أن يجلس متصبِّرًا، منتظرًا أن يسمح له هيو بالكلام عمَّا قريب.

الفصل الخامس والسبعون

مرَّ شهرٌ. نقف الآن في غرفة نوم سير چون تشستر. تبدو حديقة التّمپل من خلال النافذة نصف المفتوحة خضراء مبهجةً، والنهر الهادئ المزدان بقواربه وسفنه الذي ترصِّعه المجاديف الكثيرة برشاش اصطدامها به يتألَّق على البعد، والسماء زرقاء صافية، وهواء الصيف يتسلَّل إلى الداخل في وداعة مالئًا الغرفة بالعبق. حتى المدينة التي يملؤها الدخان تبدو مضيئة. الأسطح وقمم الأبراج التي اعتادت أن تبدو عابسةً سوداء تبتسم لونًا رماديًّا مبهجًا، ودوَّارات الريح العتيقة المذهَّبة والكرات والصلبان تلمع كأنها جديدة في شمس الصباح الوهَّاجة، وبينها جميعًا ترتفع كنيسة سان پول شاهقةً، تفتخر بقمَّتها العالية وقد اكتست صبغةً ذهبيةً صقيلة.

كان سير چون يفطر في سريره. على منضدة صغيرة قرب مرفقه وضع خبزه وشوكولاتته، والكتب والجرائد في مرمى يده على المفرش، وقد أخذ يأكل ويشرب ويقرأ الأخبار في رفاهية، متوقفًا كلَّ حين ليقلِّب بصره في غرفته المرتَّبة جيدًا وملؤه شعور بالرضا والسكينة، أو ليحدِّق إلى سماء الصيف بتكاسلٍ.

كان يبدو أنَّ أثر الصباح المبهج لم يفلت حتى مزاجه الهادئ، فكان أسلوبه مرحًا على غير العادة، وابتسامته أكثر سكينةً وقبولًا من المعتاد،

وصوته أصفى وأسعد. وضع الجريدة التي كان يقرأها جانبًا، وأسند ظهره إلى وسادته بهيئة شخص ترك نفسه لقطارٍ من الذكريات الساحرة، وبعد برهة طفق يناجي نفسه:

«وصديقي القنطور قد مضى في إثر أمِّه! لا يدهشني هذا. وكذا صديقه الغامض مستر دنس! ولا يدهشني هذا! ورسولي القديم مجنون (تشغول) الشاب البالغ اللَّين والظُّرف، ما أسعدني بكلِّ هذا! إنَّ هذا أفضل ما يمكن أن يحدث له».

وبعد أن خلَّص قلبه من هذه الملاحظات سقط ثانيةً في قطار تأمُّلاته المبتسم، قبل أن ينبِّه نفسه أخيرًا لينهي نصيبه من الشوكولاتة الذي كان يبرد مع الوقت، وليرنَّ الجرس طالبًا المزيد.

وما إن وصل الإمداد الجديد حتى تناول القدح من يد خادمه ثم صرفه قائلًا في دماثة آسرة: «إنني مدين لك بالشكر يا (پـيك)».

ثمّ أنشأ يقول متأمِّلًا وهو يعبث في كسلٍ بملعقة الشاي: «إنه لأمر لافت أن صديقي المجنون كان على وشك النجاة هاربًا يوم محاكمته، ولقد كانت ضربة حظٍّ طيبةً (أو كما يقول العالم: كان تدخُّلًا من العناية الإلهية) أنَّ أخا سيدي اللورد عمدة لندن كان في المحكمة مع غيره من قضاة البلد ممن عرف الفضول طريقه إلى رؤوسهم البليدة. فرغم أن أخا سيدي اللورد عمدة لندن كان مخطئًا تمامًا، وأثبت بما لا يدع مجالًا للشك صلته القريبة بذلك الشخص المسّلّي حين قرّر أنّ صديقي عاقل وأنه فيما يعلم كان يجول في البلاد رفقة والد متشرّد مجاهرًا بعواطف ثوريّة متمرّدة، فإنني لعظيم الامتنان له لإدلائه بهذه الشهادة. هذه المخلوقات غير العاقلة

تدلي بملاحظات محيّرة بالغة الشّذوذ، حتى إنه لينبغي أن يشنقوا حقًّا لأجل راحة المجتمع».

كان القضاء قد أمال الكفّة حقًّا ضد المسكين بارنابي وحسم الريبة التي كانت في صفِّه، ولم يكن يدور في خلد غرب أن سيكون عليه أن يجيب عن أسئلة كثيرة!

قال سير چون مسندًا رأسه إلى يده وهو يرتشف الشوكولاتة: «سيكونون فرقةً فريدة، فرقةً بالغة الغرابة! الشانق نفسه والقنطور والمجنون، سيكون القنطور مأدبةً رائعةً في قاعة الجرَّاحين، وسيفيد العلم أيَّما إفادة![1] أرجو أن يكونوا قد حرصوا على تبشيره بذلك! (پـيك)، أنا بالطبع لست بالبيت بالنسبة إلى أيِّ طارقٍ عدا الحلَّاق».

لم يأت تذكيره هذا لخادمه إلَّا كردِّ فعلٍ على طرقة على الباب الذي أسرع الرجل بفتحه، وبعد لغطٍ طويلٍ من الأسئلة والإجابات عاد الخادم، وبينما هو يغلق باب الغرفة خلفه سمع سعال رجلٍ في الممرِّ. قال سير چون رافعًا يده في استنكارٍ لإيصال الخادم أي رسالة شفهيَّة من الطارق:

(١) يشير سير چون هنا إلى قانون عمل به في بريطانيا منذ عام ١٧٥٢ حين صدر قانون القتل Murder Act وإلى عام ١٨٣٢ حين صدر قانون التشريح Anatomy Act. كان الأول يقضي بألّا يسمح أبدًا بدفن جثّة القاتل بعد تنفيذ حكم الإعدام فيه، وذلك زيادةً في رعب العقوبة وتنفيرًا من الإقدام على جريمة القتل، فكانت الجثّة إمّا تنذر للتشريح وإمّا تعلّق بالسلاسل. أمّا قانون التشريح الصادر في ١٨٣٢م فكان يصرّح للأطبّاء وأساتذة التشريح وطلبة الطّبّ بتشريح الأجساد التي تبرّع بها أصحابها قبل وفاتهم، وقد أصدر البرلمان هذا القانون كردّ فعل على النّفور العامّ من التجارة غير المشروعة في الجثث، لا سيَّما أنَّ أحكام الإعدام قلَّت كثيرًا مطلع القرن التاسع عشر في بريطانيا، وصاحب ذلك صعودٌ لافتٌ في العلوم الطبّيّة، ما جعل الطلب على الجثث يفوق العرض بكثيرٍ.

«والآن لا جدوى من ذلك يا (پـيك)، أنا لستُ بالبيت، لا يمكنني حتى سماعك. لقد قلت لك إنني لست بالبيت، وأنا كلمتي مقدسة، ألن تفعل أبدًا ما يطلب منك؟».

ولمَّا لم يكن في جعبة الرجل ما يدفع به عن نفسه هذا اللوم فقد كان بسبيله إلى التراجع، وإذا الزائر الذي تسبَّب في هذا اللوم يطرق باب الغرفة ببراجمه، وقد بدا أنَّ التأخُّر ربما يكون قد أنفد صبره، ونادى قائلًا إن لديه أمورًا عاجلةً لا بُدَّ أن يقابل لأجلها سير چون تشستر، وهي أمور لا تحتمل التأخير.

قال سير چون: «أدخله» ثم أضاف حين فتح الباب: «أيها الرفيق الطيب، كيف تقتحم بهذا الأسلوب البالغ الغرابة خصوصية أحد السادة؟ كيف تسنَّى لك أن تفتقر تمامًا إلى احترام النفس فوقفت هكذا متهمًا بسوء التربية اللافت؟».

ردَّ الشخص الذي خاطبه: «أؤكِّد لك يا سير چون أنَّ الأمر الذي جئتُ لأجله غير عاديٍّ، ولو كنت قد لجأت إلى أي أسلوبٍ غير عاديٍّ في الدخول إليك فأرجو أن تعذرني».

ردَّ سير چون الذي صفا وجهه حين رأى من يكون الزائر وعادت إليه ابتسامته الآسرة: «حسنًا! سنرى، سنرى» ثم أضاف بنبرته الأخَّاذة: «أنا واثق أننا التقينا من قبل، لكني حقًّا نسيت اسمك».

«اسمي غابرييل ڤاردن يا سيدي».

ردَّ سير چون ضاربًا جبهته بيده: «ڤاردن بالطبع، ڤاردن. يا ويلي! إنَّ قدرتي على التذكُّر تسوء جدًّا! ڤاردن بالطبع، مستر ڤاردن صانع الأقفال.

إنَّ لك زوجًا ساحرةً يا مستر ڤاردن، وابنةً بالغة الجمال، هل هما بخيرٍ؟».

شكره غابرييل وقال إنهما على ما يرام. قال سير چون:

«يسعدني سماع ذلك، أبلغهما تحياتي حين تعود إليهما، وأخبرهما بأني كنت أرجو أن أكون محظوظًا بتحيَّتهما بشخصي، تلك التحية التي أحمِّلك إيَّاها» ثم سأله في دماثة بعد برهة صمتٍ: «وماذا أستطيع أن أفعل لأجلك؟ لك أن تأمرني بأيّ شيء».

قال غابرييل وفي أسلوبه بعض الأنفة: «أشكرك يا سير چون، غير أني لم آت طالبًا أي خدمة منك رغم مجيئي في أمرٍ مهمٍّ» ثم أضاف وهو يلقي نظرةً ذات مغزىً على الرجل الذي ظلَّ واقفًا ينظر أمامه: «أمر خاص، عاجل للغاية».

ردَّ سير چون بلطفٍ: «لا يسعني أن أقول إنك مرحَّب بك أكثر لكونك مستغنيًا وليست لك حاجة تطلبها منّي، فقد كان يسعدني أن أسدي إليك أي خدمة، لكنَّك مرحَّبٌ بك تحت كلِّ الظروف. سأكون ممتنًّا يا (پـيك) إن ناولتني المزيد من شراب الشوكولاتة، ولا تنتظر».

انسحب الرجل تاركًا السيدين على انفراد. قال غابرييل:

«سير چون، إنني رجل حرفيٌّ، ولقد قضيت حياتي كلها رجلًا حرفيًّا، وإن لم أهيِّئك بما يكفي لما أريد أن أقوله، ونفذت مباشرةً إلى الموضوع صادمًا إياك صدمةً كان يمكن لرجلٍ من الوجهاء أن يجنِّبك إيَّاها أو يلطِّف أثرها كثيرًا على الأقل، فأرجو أن تسامحني لحسن نيَّتي. إنني أرجو أن أكون حريصًا ومتفهِّمًا، وإنني واثقٌ أنك ستعذر الفعل بحسن النيَّة ما دام صادرًا من شخصٍ صريحٍ مثلي».

ردَّ الآخر في رباطة جأش تامة إزاء هذه الديباجة: «مستر ڤاردن، أرجو أن تجلس. ألا ترغب في بعض الشوكولاتة؟ حسنًا! إنه ذوقٌ مكتسب بلا شكٍّ».

قال غابرييل الذي شكر دعوته إلى الجلوس بانحناءة وإن لم يجلس: «سير چون» ثم ما لبث أن خفض صوته واقترب من الفراش: «سير چون، لقد أتيت لتوِّي من نيوغات.».

صاح سير چون وهو يجلس في فراشه كمن لدغته أفعى: «يا ألطاف الرب! من نيوغات يا مستر ڤاردن؟! كيف تسنَّى لك أن تفتقر هكذا إلى الحكمة بحيث تأتي من نيوغات؟! نيوغات حيث حمَّى السجون ولابسو الأسمال والحفاة رجالًا ونساءً إلى غير ذلك من الفظائع؟! (پـيك)، إليَّ بالكافور، أسرع! يا للسماء ويا للأرض يا مستر ڤاردن! يا عزيزي الطيب، كيف أقدمت على المجيء من نيوغات؟».

لم يحر غابرييل جوابًا، وإنما ظلَّ ينظر في صمتٍ بينما يهرع (پـيك) -الذي كان قد دخل ومعه قدح الشوكولاتة الساخنة- إلى أحد الأدراج ثم يعود بزجاجة يرشُّ منها منامة سيِّده وملاءات الفراش ويرطِّب منها صانع الأقفال نفسه في وفرة، بل ويرسم دائرةً حوله بالرشِّ على البساط. وحين فرغ من ذلك انسحب ثانيةً، وإذ ذاك اتَّكأ سير چون في وضعٍ مريحٍ على وسادته وأدار وجهًا مبتسمًا ثانيةً إلى زائره.

«أنا واثقٌ أنك ستسامحني يا مستر ڤاردن، على قلقي للوهلة الأولى بشأن أمانك وأماني. أعترف بأني قد فزعت رغم ديباجتك الرقيقة. هل لي أن أسألك أن تسدي إليَّ خدمةً بألَّا تقترب أكثر من ذلك؟ أأتيت حقًّا من نيوغات؟».

أومأ صانع الأقفال بالإيجاب، فقال سير چون تشستر كأنه يسرُّ إليه بالأمر وهو يرتشف الشوكولاتة:

«حقًّا! والآن يا مستر ڤاردن، بغض النظر عن كل المبالغات والتنميق، كيف يبدو نيوغات على الحقيقة؟».

ردَّ صانع الأقفال: «مكان غريب يا سير چون، مكان حزين كئيب. مكان غريب يُسمَع فيه ويُرى كثيرٌ من الأشياء الغريبة. لكن قلَّة منها تفوق ما أتيت لإخبارك به غرابة. الأمر عاجل. أنا مرسل إلى هنا».

«ليس من.. لا لا.. ليس من السّجن؟».

«بلى يا سير چون. من السجن».

قال سير چون واضعًا قدحه جانبًا وهو يضحك: «ومن أرسلك يا صديقي الطيب الساذج ذا القلب المفتوح؟».

ردَّ صانع الأقفال: «رجل يُدعى دنس، كان الشانق أعوامًا طويلةً، وغدًا يصبح المشنوق».

كان سير چون قد توقَّع، بل كان متأكدًا تمامًا منذ البداية أنه سيقول إنَّ من أرسله هو (هيو)، وكان مهيَّئًا نفسه أن يواجهه عند هذه النقطة. لكنَّ هذه الإجابة أدهشته بدرجة ما، دهشةً لم يستطع أن يمنع وجهه من النطق بها رغم كل ما أوتي من قدرة على التحكُّم في ملامحه. غير أنه سرعان ما كتم دهشته وقال بالنبرة المستخفَّة ذاتها:

«وماذا يريد مني السيد؟ ربما تخونني ذاكرتي ثانيةً، لكني لا أذكر أني قد حظيت أبدًا بشرف مقابلته أو أني قد عددته واحدًا من أصدقائي الشخصيين، أؤكد لك ذلك يا مستر ڤاردن».

ردَّ صانع الأقفال في جدية: «سير چون، سأخبرك مستخدمًا عباراته التي نطق بها –ما وسعتني إلى ذلك سبيل– بما يريدك أن تعرفه، وما ينبغي لك أن تعرفه دون إضاعة ثانية».

تمكَّن سير چون في جلسته مغيِّرًا وضعيَّته إلى درجة أكثر إراحةً، ونظر إلى زائره وعلى وجهه تعبيرٌ يكاد يقول «يا له من رجل مسلٍّ، سأسمعه!».

قال غابرييل مشيرًا إلى الجريدة الموضوعة إلى جواره: «ربما تكون قد رأيت في الجرائد يا سيدي أني كنت شاهدًا ضد هذا الرجل في أثناء محاكمته منذ عدة أيام، وأنَّ بقائي على قيد الحياة وقدرتي على الإدلاء بما أعرف ليسا خطأه».

صاح سير چون: «ربما أكون قد رأيت؟! عزيزي مستر ڤاردن، إنك شخصية عامة تمامًا، وتحيا في أفكار الجميع عن استحقاق تامٍّ. لم يكن شيء ليفوق اهتمامي بقراءة شهادتك، إذ تذكَّرت أني قد حظيت بشرف معرفتك معرفةً عابرة. أرجو أن تكون صورتك ستنشر؟».

قال صانع الأقفال غير ملتفتٍ إلى هذه المجاملات: «صباح اليوم يا سيدي، مبكرًا صباح اليوم جاءتني رسالة من نيوغات بناءً على طلب ذلك الرجل، يرغب فيها أن أذهب إلى هناك لأقابله، لأنَّ لديه شيئًا مهمًّا يخبرني به. لا أظنني بحاجة إلى إخبارك بأنه ليس صديقًا لي، وأنني لم أره أبدًا من قبل إلى أن حاصر مثيرو الشغب منزلي».

روَّح سير چون على نفسه بالجريدة وهو يومئ علامة الإنصات. واصل غابرييل:

«غير أني عرفت مما تتناقله الألسن عمومًا أنَّ أمر إعدامه غدًا قد وصل

إلى السجن البارحة، فلم أرَ إلَّا الإذعان لطلبه لمَّا رأيته رجلًا بسبيله إلى الموت».

قال سير چون: «يا لك من مسيحي مخلص يا مستر ڤاردن، ولهذه الدماثة تزيد رغبتي في أن تريح نفسك بالجلوس».

واصل غابرييل وهو ينظر بثباتٍ إلى صاحب رتبة الفارس: «قال إنه قد أرسل إليَّ لأنه ليس لديه صديقٌ أو رفيق في العالم كلّه لكونه الشانق العام، ولأنه فكّر من الطريقة التي أدليت بها بشهادتي أنني رجل أمين وسأتصرَّف معه بصدقٍ. قال إنه لمَّا كان كلُّ من يعرفون مهنته ينفرون منه، حتى أولئك التعساء الباقون في أسفل سافلين، ولمَّا كان قد وجد حين انضمَّ إلى المتمردين أن الرجال الذين يعملون معه لا يرتابون في حقيقة مهنته –وهو ما أعتقد أنه صادق فيه، فقد كان أحد هؤلاء مسكينًا أحمق كان صبيًّا لي سابقًا– فقد أحجم عن الإفصاح عمَّا يدور بداخله لأيِّ إنسان، إلى أن قبض عليه وأودع السجن».

قال سير چون وهو يتثاءب تثاؤبًا خفيفًا لم ينقص شيئًا من دماثته البالغة: «سلوك حكيم من مستر دنس، لكنه لا يثير اهتمامي كثيرًا، باستثناء أسلوب حكيك الواضح المثير للإعجاب، وهو أسلوب بالغ الكمال».

واصل صانع الأقفال من دون خجلٍ ومن دون التفات إلى تلك المقاطعات: «حين.. حين أخذ إلى السجن، وجد أن زميله في الزنزانة شابٌّ اسمه هيو، من قادة المتمردين، كان قد سبق له أن خانه وسلَّمه إلى السلطات، وقد اكتشف من كلامٍ سقط من هذا المخلوق التعيس خلال الحوار الغاضب الذي دار بينهما حين التقيا أنَّ أمَّه قد ماتت الميتة نفسها

التي حُكِم على كليهما أن يموتاها. لم يبقَ من الوقت إلَّا أقل القليل يا سير چون».

وضع الفارس مروحته الورقية جانبًا وأعاد قدحه على المنضدة بجانبه، وباستثناء الابتسامة التي ظلَّت مرتسمةً على فمه فقد أخذ ينظر إلى صانع الأقفال بالثبات نفسه الذي كان الآخر ينظر به إليه.

«اليوم يكون قد مرَّ شهرٌ على دخولهما السجن. وحوار في ذيل حوار، واكتشف الشانق إثر ذلك من مقارنة الزمان والمكان والتواريخ أنه قد نفَّذ حكم الإعدام على تلك المرأة بنفسه. كانت الفاقة قد اضطرَّتها -كما تضطرُّ كثيرًا من الناس- إلى الاستسلام لإغراء جريمة سهلة هي تصريف نقود مزيَّفة، كانت شابّةً وجميلةً، وقد نظر إليها التجَّار الذين يستغلُّون الرجال والنساء والأطفال في هذه التجارة باعتبارها امرأةً مناسبةً تمامًا لعملهم، وبأنها ربما تستمر في تنفيذ ذلك العمل لفترة طويلة من دون أن تلحقها الشكوك. لكنهم كانوا مخطئين، فقد أُوقفت وهي تقوم بأولى محاولاتها الإجرامية، وماتت بسببها. كانت من أصلٍ غجريٍّ يا سير چون.».

وربما كان ذلك أثر غمامة عابرة حجبت الشمس وألقت بظلٍّ على وجهه، لكنَّ الواضح أنَّ الفارس قد امتقع لونه تمامًا، لكنه ظلَّ محدِّقًا إلى عيني صانع الأقفال كما كان.

كرَّر غابرييل: «كانت غجرية الأصل يا سير چون، وذات روح حرَّة عالية. تضافر ذلك مع جمالها وأسلوبها الأبيِّ على إثارة اهتمام بعض السادة الذين تحركهم الأعين السوداء بسهولة، وبُذِلت جهودٌ لإنقاذها.

وربما كان النجاح سيكتب لتلك الجهود لو أنَّها قد أعطت هؤلاء السادة أيَّ معلوماتٍ مفتاحية عن تاريخ حياتها. لكنها لم تفعل ذلك ولم يخطر ببالها أن تفعله. كان هناك مبرَّرٌ قويٌّ ليشتبه في أنها ربما تحاول الانتحار. عُيِّنت عليها حراسة لا تفارقها ليل نهار، ومنذ ذلك الوقت لم تنطق بحرفٍ ثانية».

مدَّ سير چون يده إلى قدحه، ولمَّا واصل صانع الأقفال كلامه أوقف اليد في منتصف الطريق:

«إلى أن لم يعُد أمامها إلا دقيقة تعيشها، هنالك قطعت صمتها وقالت بصوتٍ خفيضٍ ثابتٍ لم يسمعه أحدٌ إلا ذلك الشانق، فقد انسحب كلُّ من عداه من الأحياء وتركوها لمصيرها «لو كان بين يديَّ خنجرٌ وكنت أستطيع الوصول إليه لطعنته به إلى أن أرديه قتيلًا أمامي، ولو كان ذلك الآن!» سألها الرجل «مَن تعنين؟» فأجابته «أبو ابني».

سحب سير چون يده الممدودة، ولمَّا رأى أنَّ صانع الأقفال قد توقَّف أشار إليه بأريحية مهذبة ومن دون أن تبدو عليه أي عاطفة جديدة أن يواصل الحكي.

«كانت هذه أول كلمة تنطق بها على الإطلاق يُفهَم منها أنَّ لها قريبًا ما على ظهر البسيطة، سألها إن كان ولدها حيًّا، فقالت نعم. سألها أين هو وما اسمه وما إذا كانت ترجو أيَّ شيء بشأنه، فقالت إنها لا ترجو إلا شيئًا واحدًا، أن يعيش الولد ويكبر وهو لا يعرف شيئًا عن أبيه، حتى لا يتعلَّم أبدًا أن يكون وديعًا متسامحًا. وقد استودعت إله قبيلتهم أمنيَّتها، أن يأذن للأب وابنه بأن يلتقيا حين يصبح الولد رجلًا، وينتقم لها من خلال ابنها.

سألها أسئلةً أخرى لكنَّها لم تزِد حرفًا على ما قالته. ويقول دنس إنَّها ما إن فرغت من قول ما قالته له حتى وقفت رافعةً وجهها إلى السماء ولم تعاود النظر إليه ولا مرة».

أخذ سير چون قليلًا من السّعوط ونظر في استحسانٍ إلى لوحة صغيرة أنيقة على الحائط معنونة باسم (الطبيعة)، ثم رفع رأسه ثانيةً إلى وجه صانع الأقفال قائلًا بنبرة المحسن المتفضِّل:

«كنت تقول يا مستر ڤاردن.».

ردَّ صانع الأقفال الذي لم تكن حيلة أيًّا ما كانت لتحوِّله عن أسلوبه الجاد ونظرته الثابتة: «إنها لم تعاود النظر إليه ولا مرة يا سير چون، وهكذا ماتت ونسيها. لكن بعد مرور أعوامٍ حُكِم على رجلٍ بنفس الميتة، وكان غجريًّا هو الآخر، أسمر لوَّحته الشمس، يكاد يكون رجلًا متوحِّشًا، وبينما هو في السجن ينتظر تنفيذ الحكم – كان قد رأى الشانق مرات عديدةً أيام كان ينعم بحريته – صوّر له صورةً على عصاه على سبيل تحدي الموت، وإشهاد من يقومون على حراسته أنه لا يكاد يهتمُّ أو يفكر فيما ينتظره من عقابٍ. وفي تايبرن أعطى الشانق هذه العصا، وأخبره آنذاك أنَّ المرأة التي كنتُ أتكلَّم عنها قد هجرت ناسها لتلحق بسيدٍ مرفَّه، وأنَّه لمَّا هجرها ذلك السيد ونبذها أصدقاؤها القدامى حلفت فيما بينها وبين نفسها الأبيَّة أنها مهما اشتدَّت تعاستها لن تسأل إنسانًا حاجة. وأخبره بأنها قد وفت بكلمتها إلى النهاية، وأنَّها حين كانت تلقاه في الطريق –وهو الذي كان مغرمًا بها آنفًا على ما يبدو– كانت تنفلت منه بالحيلة، ولم يحدث أن رآها ثانيةً إلى أن شاء القدر أن يكون ضمن أحد الحشود التي يكثر احتشادها في تايبرن،

وكان معه بعض رفاقه الغلاظ، وحينذاك كاد يُجنُّ حين لم يرَ في المجرمة التي أعلن لها في الجموع اسمٌ مختلفٌ، والتي أتى ليشهد موتها، إلَّا المرأة نفسها. وبينما يقف في المكان نفسه الذي كانت تقف فيه أخبر الشانق بكلِّ ذلك، كما أخبره باسمها الحقيقي الذي لم يكن يعرفه إلا ناسها وذلك السيد الذي هجرتهم لأجله، وذلك الاسم لن يخبر به أحدًا إلَّاك يا سير چون».

صاح الفارس وقد تجمَّدت يده بينما يرفع القدح إلى شفتيه بيدٍ ثابتة تمامًا ويثني خنصره ليظهر الخاتم البرَّاق الذي يزيِّنه:

«لن يخبر به أحدًا إلَّاي! إلَّاي! عزيزي مستر ڤاردن، إنه لأمر غير معقول أن يختارني ليسرَّ إليَّ بهذا الأمر! خاصةً وأنت إلى جواره، وأنت جديرٌ بالثقة مؤتمنٌ على السر!».

ردَّ صانع الأقفال: «سير چون، سير چون، سيموت هؤلاء الرجال غدًا في الثانية عشرة. اسمع القليل الذي أنا مضطرٌّ إلى إضافته، ولا تأمل أن تخدعني، فرغم أنني رجلٌ بسيطٌ ذو منزلة متواضعة وأنت سيدٌ نبيلٌ ذو مكانة وتعليم فإنَّ الصدق يرفعني إلى منزلتك، وأنا أعرف جيدًا أنك تنتظر الكشف الذي أوشكت أن أختم حكايتي به، وأنّك تصدِّق أنّ ذلك التعيس هيو هو ابنك».

قال سير چون ممازحًا إيَّاه في مرحٍ: «لا تقل! لا تقل إنَّ السيد المتوحِّش الذي مات فجأةً هكذا قد أبعد في تصريحاته إلى هذا الحدّ؟!».

ردَّ صانع الأقفال: «لا، لم يفعل، فقد أخذت عليه عهدًا ما -لا يعرف كنهه إلا أولئك الناس، يحترمه أسوؤهم كما يحترمه أفضلهم- ألَّا يحدِّث

باسمك، غير أنَّ العصا التي حملت صورة دنس كان عليها نقشٌ مذهلٌ، إذ نقش الرجل عليها بعض الحروف، وحين سأله عنها الشانق طلب منه أن يتذكَّر جيدًا هذا المكان، خاصة إذا التقى بابنها فيما يستقبل من الحياة».

«أي مكان؟».

«تشستر».

أنهى الفارس قدح الشوكولاتة وعلى سيماه آي الاستمتاع البالغ، ومسح شفتيه في منديله بحرصٍ.

قال صانع الأقفال: «سير چون، هذا كلُّ ما قيل لي. لكن حيث إنَّ هذين الرجلين قد تُرِكا للموت، فقد تبادلا الحديث فيما بينهما عن قربٍ، اذهب إليهما واسمع ما يستطيعان إضافته. قابل ذلك الرجل دنس، واعرف منه ما لم يأتمنِّي عليه. ولو أنك أنت الذي بيده مفتاح الأسرار كلها تريد تأكيدًا –وهو ما لا تريده– فالسبيل إليه يسيرة».

قال سير چون تشستر وهو ينهض على مرفقه بعد أن هيَّأ الوسادة لاستقباله: «وإلام يؤدي بنا كلُّ ذلك يا عزيزي السَّمِح الغالي مستر ڤاردن، يا من لا أستطيع ان أغضب منه ولو أردت؟».

ردَّ صانع الأقفال: «إنني أعتبرك رجلًا يا سير چون، وأفترض أن يؤدي ذلك كلُّه إلى شيء من العاطفة الطبيعية تشعر به. أفترض أن يثير ذلك اهتمامك كلَّه وأن تبذل كلَّ ما لك من نفوذٍ وما تستطيعه من تأثيرٍ لمصلحة ابنك التعس والرجل الذي كشف لك عن وجوده. وأقل ما هنالك أني أفترض أن يؤدي ذلك إلى أن تذهب لرؤية ابنك وتنبِّهه إلى الشعور بالجرم الذي اقترفه والخطر المحدق به. هو الآن لا يشعر بشيء من ذلك. فكَّر

فيما لا بُدَّ أن كانت عليه حياته وقد سمعته يقول إنني لو أفلحت في إثارتك لفعل أيَّ شيء فإلى التعجيل بموته والتثبُّت من صمته ما استطعت إلى ذلك سبيلًا!».

قال سير چون بنبرة فيها شيء من التوبيخ: «وهل عشت حقًّا إلى سنِّك الحالية يا عزيزي مستر ڤاردن، وبقيت رغم ذلك ساذجًا سريع التصديق إلى هذه الدرجة التي تقبل معها على رجلٍ ذي حيثية ومكانة وفي جعبتك مثل هذه الشهادات من رجلين مستيئسين موشكين على الموت يحاولان التعلُّق ولو بقشَّة؟ أوه يا عزيزي! أوه، تبًّا تبًّا!».

أوشك صانع الأقفال أن يقاطعه لكنَّه أوقفه قائلًا: «في أي موضوعٍ آخر يا مستر ڤاردن سأكون مسرورًا وسعيدًا بأن أتحدث معك، لكنَّ شخصيتي تحتِّم عليَّ ألَّا أواصل الحديث في هذا الأمر لحظةً واحدةً بعد الآن».

ردَّ صانع الأقفال: «فكِّر في الأمر مليًّا يا سيدي بعد أن أمضي لشأني، أعطِ نفسك مهلةً للتفكير. فرغم أنَّك قد طردت ابنك الشرعي مستر إدوارد ثلاث مرات في أسابيع من أمام باب منزلك، فربما يتيسَّر لك الوقت لتصالحه، وربما يكون أمامك أعوامٌ لتفعل ذلك يا سير چون، أمَّا الثانية عشرة فهي على الأبواب، ولن تلبث أن تنفلت من بين أيدينا إلى الأبد».

ردَّ الفارس وهو يقبِّل يد نفسه الرقيقة لصانع الأقفال: «إنني أشكرك جزيل الشكر على نصيحتك الصادقة. وكل ما كنت أتمنَّاه يا ذا النفس الطيبة -رغم أنَّ سذاجتك آسرة تمامًا- أن يكون لك شيء من المعرفة بالدنيا. إنني لم آسف أبدًا لوصول حلَّاقي كما آسف في هذه اللحظات.

فليباركَّ الرب! طاب صباحك! أرجو ألَّا تنسى رسالتي إلى السيدتين يا مستر ڤاردن، أوصل مستر ڤاردن إلى الباب يا (پـيك)».

لم يقل غابرييل شيئًا وإنما حدج الفارس بنظرة أخيرة وتركه. ولمَّا غادر الغرفة تغيَّر وجه سير چون، وحلَّ تعبيرٌ قلقٌ منهك محلَّ الابتسامة على وجهه، كذلك التعبير الذي يبدو على ملامح ممثِّل أتعبه تمثيل دور صعب. نهض من فراشه متنهِّدًا في ثقلٍ والتحف بثوبه الصباحي قائلًا لنفسه:

«إذن فقد وفَّت بكلمتها وحافظت على وعيدها! لكم أتمنى لو لم أكن رأيتُ أبدًا وجهها الأسمر، فقد كان حريًّا بي أن أقرأ فيه هذه التبعات من البداية. لو كانت هذه الحكاية تستند إلى دليلٍ أقوى لأحدثت جلبةً في الخارج، لكنّها هكذا ولا شيء يربط حلقات سلسلتها المبعثرة لا تستعصي على أن أتجاهلها. يا له من أمرٍ جالب للغمِّ أن يكون المرء أبًا لمخلوقٍ فظٍّ كهذا! رغم ذلك فقد نصحته نصيحةً طيبة جدًّا. لقد أخبرته بأنَّه سيُشنق لا محالة. ولو كنت أعرف آنذاك بعلاقتي به لما كان في وسعي أن أفعل ما هو أفضل، وكثير جدًّا من الآباء لم يفعلوا أقلَّ من ذلك لأبنائهم الطبيعيين. يستطيع الحلَّاق أن يدخل يا (پـيك)!».

دخل الحلَّاق، ورأى في سير چون تشستر (الذي سرعان ما هدأ ضميره السريع التكيُّف حين ذكر السوابق العديدة التي تؤكِّد ملاحظته الأخيرة) السيد النبيل نفسه، الأنيق الآسر الذي لا سبيل إلى إرباكه، الشخص نفسه الذي رآه البارحة وأيامًا كثيرةً قبل البارحة.

الفصل السادس والسبعون

بعد أن خرج صانع الأقفال من غرف سير چون تشستر، أخذ يمشي ببطء ويتباطأ زيادةً تحت الشجر الذي يظلُّ الممشى، يكاد يأمل أن يُنادى ليعود. استدار إلى الخلف ثلاثًا، وكان يتسكَّع ما زال لدى ركن الممرِّ حين دقَّت الساعة الثانية عشرة.

كان صوت الساعة خطيرًا، ليس لإشارته إلى ما سيحدث في الغد فحسب، فقد كان يعرف أنَّ جرس جنازة القاتل يدقُّ في هذا الصوت. رآه يمرُّ في الشارع المزدحم بين صيحات الجموع، ولاحظ شفته المرتعشة وأطرافه المرتعدة ومسحة الرماد على وجهه وجبينه النَّدي وعينه الشاردة المرتبكة والخوف من الموت الذي ابتلع في داخله ما عداه من أفكارٍ وطفق ينهش قلبه وعقله بلا توقُّفٍ. لاحظ نظرته الشاردة التي تبحث عن أملٍ ولا تجد إلا القنوط حيثما استدارت. رأى المخلوق التعيس المفعم بالنَّدم المثير للشفقة راكبًا إلى المشنقة وإلى جواره كفنه. كان يعرف أنَّه قد ظلَّ رجلًا عنيدًا لا يلين إلى النهاية، وأنه بفعل رعب حالته الوحشي أصبح أقسى على امرأته وولده بدلًا من أن يلين لهما، وأنَّ آخر كلماتٍ نطقت بها شفتاه اللتان هرب منهما الدم كانت لعناتٍ صبَّها عليهما باعتبارهما عدوَّيه.

قرَّر مستر هاردال أن يكون هناك ويرى الحكم يُنفَّذ. لم يكن لشيء إلَّا شهادة حواسِّه أن يروي ذلك العطش الكئيب إلى الانتقام الذي ظلَّ يتكاثف حول روحه سنوات كثيرة. كان صانع الأقفال يعرف هذا، وحين توقَّف صوت الساعة عن الدقِّ هرع إلى لقائه، قائلًا لنفسه:

«ليس لديَّ ما أفعله زيادةً لهذين الرجلين. فلترحمهما السماء! وا أسفاه! أقول إنني ليس لديَّ ما أفعله لهما، لكن مَن إذن أستطيع أن أساعده؟ سيكون لماري ردج بيتٌ وصديقٌ مخلصٌ تجده حين تحتاج إليه، لكن بارنابي، بارنابي المسكين، بارنابي الذي يمدُّ يد العون طواعيةً، ماذا لديَّ لأقدِّمه له؟» ثم صاح صانع الأقفال الصادق وهو يتوقَّف ليمسح عينيه بيده:

«إنني مستعدٌّ لفقد الكثير من الرجال أصحاب العقول الكاملة – فليسامحني الرب– أكثر مما أنا مستعدٌّ لفقد بارنابي، لطالما كنَّا صديقين جيدين، لكنِّي لم أعرف أبدًا حتى هذه اللحظة كم أحب هذا الصبي».

لم يكن بالمدينة الكبيرة كثيرون فكَّروا في بارنابي في ذلك اليوم، إلَّا كما يفكرون في ممثِّلٍ سيؤدي دورًا في العرض المزمع أداؤه غدًا. لكن لو أنَّ سكان المدينة بأجمعهم كانوا يفكرون فيه ويتمنَّون أن تنقذ حياته، فلن يكون بينهم واحدٌ يفعل ذلك بحرارة أشد ولا بقلبٍ أنقى من صانع الأقفال الطيب.

كان مقرَّرًا لبارنابي أن يموت، ليس ثَمَّ أملٌ. وليس ثَمَّ شرٌّ يصاحب العرض المتكرر لهذه العقوبة الأخيرة المخوفة، عقوبة الموت، هو ما يقسِّي قلوب من ينفِّذون العقوبة ويجعلهم لا مبالين أو غير واعين بمسؤوليتهم الكبيرة، رغم أنهم ربما يكونون أشخاصًا بالغي اللطف في غير ذلك من

الأمور. لقد صدر الأمر بأنَّ بارنابي سيموت. كان مثل هذا الأمر يصدر كلَّ شهر لجرائم أخف. كان أمرًا من الشيوع بحيث إنَّ قلةً قليلةً كان يفزعها هذا الحكم الرهيب، أو تهتمُّ بمساءلة مدى صحته. هنالك أيضًا حين كان القانون ينتهك أيما انتهاك كان لا بُدَّ أن تستردَّ كرامته. وكان رمز هذه الكرامة المطبوع على كلِّ صفحة من كتاب القانون الجنائي هو المشنقة، فكان مقرَّرًا لبارنابي أن يموت.

حاولوا إنقاذه، حمل صانع الأقفال بيديه التماسات ومذكِّرات إلى رأس النبع، غير أنه لم يكن نبع رحمة، فكان مقرَّرًا لبارنابي أن يموت.

منذ البداية لم تتركه أمُّه إلَّا حين كان يحلُّ الظلام. وقد كان كعادته راضيًا ما دامت بجانبه. وفي هذا اليوم الأخير كانت روحه المعنوية مرتفعةً وكان ممتلئًا فخرًا أكثر من ذي قبل، وحين أسقطت الكتاب الذي كانت تقرأ له منه بصوتٍ عالٍ وألقت بنفسها على رقبته توقَّف في مهمَّته التي كان منشغلًا بها –حيث كان يحاول طي قطعة من القماش الجعد حول قبعته– وتساءل عن سرِّ كربها. نطق غرب بزعقة خافتة، بدا أنه يمتزج فيها التشجيع بالاحتجاج، لكن كان ينقصه الحماس لمواصلتها، فتردَّى بغتةً في هوَّة الصَّمت.

مع أولئك الواقفين على حافة الخليج العظيم الذي لا يستطيع أحد أن يرى ما وراءه، كان الزمن الموشك على أن يفقد نفسه في الأبدية الشاسعة يكرُّ كنهرٍ جبَّار يتمدَّد ويتسارع كلما اقترب من البحر. لم يكادا يجلسان مع انبلاج الصبح ويتحدثان كما لو كانا في حلم حتى حلَّ المساء. حانت ساعة الفراق الرهيبة التي كانت إلى أمس تبدو بعيدةً جدًّا.

مشيا معًا خارجين إلى الفناء متعلِّقين كلٌّ منهما بالآخر ولكن في

صمتٍ. كان بارنابي يعرف أن السجن مكانٌ كئيبٌ حزينٌ تعيسٌ، وكان متشوِّقًا إلى الغد، تشوُّقه إلى ممرٍّ من ذلك المكان إلى شيء بهيٍّ جميلٍ. كان لديه انطباعٌ غامضٌ كذلك أنه ينتظر منه أن يكون شجاعًا، وأنه رجلٌ ذو خطرٍ، وأنَّ ناس السجن يطيب لهم أن يجعلوه يبكي. وحين كان يفكر في هذا كان يطأ الأرض بخطوة أثبت، ويطلب منها أن تتشجَّع وتكفَّ عن البكاء وتشعر بمدى ثبات يده. «يقولون إنني أبله يا أمي، سيرون غدًا!».

كان دنس وهيو في الفناء. جاء هيو من زنزانته كما جاءا، وأخذ يتمطَّى كما لو كان قد قام لتوِّه من النوم. جلس دنس على أريكة في الركن، محتضنًا ركبتيه وذقنه، وطفق يهزُّ نفسه إلى الأمام والخلف كما لو كان في ألمٍ شديدٍ.

ظلَّت الأم وابنها على أحد جانبي الفناء، وهذان الرجلان على الجانب الآخر. أخذ هيو يخطو ذهابًا وجيئةً، ناظرًا بين الفينة والفينة نظرةً شرسةً إلى سماء الصيف البراقة، يتبعها بنظرة إلى ما حوله من جدران.

أخذ دنس يئنُّ في خفوتٍ مشبِّكًا يديه: «لا عفو، لا عفو! لا أحد يقترب منَّا. لم يبقَ أمامنا إلا الليل! أتعتقد أنهم سيعفون عني في الليل يا أخي؟ لقد رأيت حالات صدر فيها العفو في أثناء الليل من قبل. رأيت منها ما جاء متأخرًا في الخامسة والسادسة والسابعة صباحًا. ألا تظن أنه ما زالت هناك فرصة طيبة؟ قل إنك تظن ذلك، قل إنك تظن ذلك أيها الشاب».

قالها منتحبًا ذلك المخلوق التعس وهو يومئ إلى بارنابي في ضراعة مواصلًا: «وإلَّا فسأجنُّ!».

قال هيو: «أن تكون مجنونًا هنا أفضل من أن تكون عاقلًا. فلتكن مجنونًا!».

صاح ذلك الشيء التعس: «لكن أخبرني بما تعتقد، فليخبرني أحدكم بما يعتقده!» كان يبدو وضيعًا تعيسًا حقيرًا لدرجة أنَّ الشفقة نفسها لو تجسَّدت أمام ذلك الكائن الذي على صورة الآدميِّين لأشاحت عنه بوجهها.

واصل دنس نحيبه: «أما من فرصة أمامي؟ أما من فرصة جيدة أمامي؟ أليس محتملًا أن يكونوا يفعلون ذلك ليخيفوني؟».

ثم كاد يصرخ وهو يشبِّك يديه متابعًا: «ألا تعتقدون ذلك؟ أوه! ألن يريحني أحد؟!».

قال هيو وقد توقَّف في خطوه أمامه: «يجب أن تكون الأفضل لا الأسوأ. هاهاها! انظروا إلى الشانق حين ينقلب عليه سحره!».

صاح دنس وهو يتلوَّى: «أنت لا تعرف ما هذا، أنا أعرف، أن يأتي دوري لأشنق! أنا! أنا! أن يأتي دوري أنا!».

قال هيو وهو يلقي بشعره الملبَّد إلى الخلف ليرى زميله الجديد هذا على نحو أفضل: «ولم لا؟ كم مرّةً قبل أن أعرف مهنتك سمعتك تتحدَّث عن هذا الأمر كما لو كان مكافأة؟».

صرخ المخلوق التعيس: «أنا لا أناقض نفسي، ولو عدت الشانق من جديد لتكلَّمت كما كنت أتكلم. أمَّا آرائي القديمة في هذه الدقيقة فيتبنَّاها رجلٌ آخر. وهذا يجعل الأمر أسوأ. أحدهم متشوِّقٌ إلى شنقي. أنا أعرف من نفسي أنَّ أحدهم لا بُدَّ أن يكون كذلك!».

قال هيو مواصلًا المشي: «قريبًا ينال ما يشتاقه، فكّر في ذلك واهدأ».

ورغم أنَّ كلام وطريقة أحد هذين الرجلين كانا ينضحان بتجلُّدٍ مغرقٍ في اللا مبالاة، بينما يشهد الآخر في كل كلمة وفعل يصدران عنه بأقصى درجات الجبن الكريه حتى إنَّ الناظر إليه كان يشعر بالذلَّة لا محالة، رغم ذلك كان من العسير أن نجزم أيُّهما يصدم الناظر إليه وينفِّره أكثر من صاحبه. كانت طريقة هيو هي يأس متوحِّش عنيد موشك على الموت على الخازوق، أمَّا الشانق فقد وصل من الذلَّة إلى حالة لا تكاد تفضل حالة كلب مقيَّد العنق بالخطام. نعم، كما كان يعرف مستر دنس وكما كان في مقدوره أن يخبرهم، كانت هاتان الحالتان أكثر الحالات النفسية شيوعًا بين من يقفون موقفهم. كذلك كان النمو الصحي للبذرة التي بذرها القانون، حتى إنَّ هذا النوع من الحصاد كان يبحث عنه باعتباره هو الأمر الطبيعي.

غير أنهم كانوا متفقين جميعًا بوجه من الوجوه. حبل الأفكار الجوَّال الذي لا إمرة لأحدٍ عليه، ذلك الذي كان يقترح على أذهانهم تذكُّرًا فجائيًّا لأشياء موغلة في البعد نسوها منذ زمنٍ ولا علاقة لأحدها ببقيَّتها، وذلك التلهُّف الغامض الذي لا يهدأ إلى شيء غير محدَّد ولا شيء يطفؤه، وتسرُّب الدقائق في سرعة من بين أيديهم وهي تتجمَّع في ساعاتٍ كما لو كانت مسحورة، وسرعة حلول الليل الكئيب، وهيمنة ظلِّ الموت عليهم ليل نهار رغم كونه ظلًّا بالغ الخفوت لدرجة أنَّ أشياء في غاية التفاهة والهامشية كانت تظهر من عمق الظُّلمة وتفرض نفسها على أفقهم، واستحالة إجبار أذهانهم على استحضار التوبة والتهيُّؤ للعقوبة –حتى ولو كانوا يميلون إلى ذلك ملء وعيهم– أو حتى على التلبُّث عند أي نقطة في

وجود ذلك الخيال القبيح الذي سرعان ما يشرد بأذهانهم بعيدًا، كانت هذه الأمور مشتركةً بينهم جميعًا، ولم يكن ثَمَّ اختلافٌ بينهم فيها إلَّا من حيث مظاهرها الخارجية.

قالت لبارنابي حين دقَّت الساعة: «هات الكتاب الذي تركته بالداخل على فراشك، قبِّلني أوّلًا».

نظر في وجهها فرأى فيه أنَّ الوقت قد حان، وبعد عناقٍ طويلٍ انفلت من بين ذراعيها وهرع إلى إحضار الكتاب طالبًا منها ألَّا تتحرَّك إلى أن يعود. وسرعان ما عاد، إذ سمع صرخةً من ورائه، لكنَّها كانت قد اختفت.

ركض إلى بوَّابة الفناء ونظر من خلالها. كانوا يحملونها بعيدًا. كانت قد قالت إنَّ قلبها سينفطر، هكذا إذن أفضل.

قال له دنس وهو ينشج ماشيًا إليه ببطء بينما وقف بارنابي متسمِّرًا في مكانه محدِّقًا إلى الجدران الخالية: «ألا تعتقد.. ألا تعتقد أنه ما زالت هناك فرصة؟ إنها نهاية رهيبة، نهاية فظيعة لواحدٍ مثلي. ألا تعتقد أنه ما زالت ثَمَّ فرصة؟ لا أقصد بالنسبة إليك، بل بالنسبة إليَّ. لا تدعه يسمعنا (يعني هيو)، إنه يائس تمامًا».

قال الشرطي الذي كان يتجوَّل في الداخل والخارج ويداه في جيوبه وهو يتثاءب كما لو كان في آخر مرحلة من متابعة شيء مثير: «الآن إذن، حان الوقت لدخول زنزاناتكم يا أولاد».

صاح دنس: «ليس بعد، ليس بعد، أمامنا وقتٌ أكثر من ساعة».

ردَّ الرجل: «أقول إنَّ ساعتك الآن تؤخّر عمَّا كانت عليه في السابق. يومًا ما كانت تقدّم دائمًا، والآن لحقها الخطأ الآخر!».

صاح المخلوق التعس جاثيًا على ركبتيه: «صديقي، صديقي العزيز، لقد كنت دائمًا صديقًا عزيزًا، هناك خطأ ما. ربما وضعت رسالة ما في المكان الخطأ، أو أوقف رسول في طريق أداء رسالته. ربما سقط ميتًا. لقد رأيت مرة بنفسي رجلًا يسقط ميتًا في الشارع، وكان في جيبه أوراق. أرسِل لتستعلم عن الخبر. أرسل أحدهم لنستعلم عن الخبر. لن يشنقوني أبدًا، لا يمكنهم أبدًا» ثم صاح ناهضًا على قدميه بصرخة فظيعة: «نعم، سيشنقونني! سيشنقونني بخدعة ولن يُظهِروا العفو. إنها مؤامرة عليَّ، سأفقد حياتي!» وبعد أن صاح صيحةً أخرى سقط في نوبة على الأرض.

صاح هيو ثانيةً وهم يحملون دنس بعيدًا: «انظروا إلى الشانق حين يرتدُّ إليه سحره! هاهاها! تشجَّع أيُّها الجريء بارنابي، ماذا يهمُّنا؟ يدك! إنهم يحسنون صنعًا إذا يخرجوننا من الدنيا، فإننا إن نجحنا في الهرب ثانيةً لن نفلتهم بهذه السهولة، أليس كذلك؟ صافحني ثانيةً! الإنسان لا يموت إلّا مرة واحدة. إذا استيقظت في جوف الليل فتغنَّ بذلك في حبورٍ ثم عُد إلى النوم. هاهاها!».

نظر بارنابي ثانيةً من خلال القضبان إلى الفناء الخاوي ثم راقب هيو وهو يخطو إلى درجات السلَّم المؤدية إلى زنزانة نومه. سمعه يصيح ثم ينفجر مقهقهًا، ورآه يلوِّح بقبَّعته. ثم دار على عقبيه كالماشي في نومه، ومن دون أي شعورٍ بالخوف أو الحزن رقد على حشيَّته منتظرًا أن تدقَّ الساعة من جديدٍ.

* * *

الفصل السابع والسبعون

مرَّ الوقت. أخذت ضوضاء الشارع تخفت تدريجيًّا، إلى أن بات الصمت مخيِّمًا تمامًا، لا تقطعه إلا أجراس أبراج الكنيسة معلنةً تقدُّم خطى الرقيب العظيم الأشيب، تلك الخطى التي تصبح أكثر استراقًا وخفاءً حين تنام المدينة، الرقيب الذي لا ينام ولا يرتاح أبدًا. في فترة الظلام والراحة الوجيزة التي تستمتع بها المدن المحمومة يكتم كل صوت نشيط، ويبقى في الفرش من يستيقظون من أحلامهم ليتنصَّتوا، ويشتاقون إلى الفجر ويتمنَّون أن تمرَّ هدأة الليل.

كان العمَّال يتدفَّقون إلى الشارع خارج الجدار الأساسي للسجن في هذه الساعة الجادة، وكانوا يمشون في مجموعاتٍ من اثنين أو ثلاثة ليتقابلوا في المركز ثم يلقوا أدواتهم على الأرض ويتحدثوا همسًا. وسرعان ما يلحق بهم غيرهم خارجين من السجن نفسه، حاملين على أكتافهم ألواحًا وأعمدةً، ولمَّا أحضرت هذه المواد كلها تحرك الباقون وبدأ صوت المطارق الرتيب يتردد صداه ممزِّقًا السكون.

وهنا وهناك بين هذا الجمع من العمَّال كان يقف أحدهم بمصباحٍ أو مشعلٍ يتصاعد منه الدخان ليضيء لرفاقه في أثناء عملهم، وبمساعدة ضوء ذلك المشعل المتذبذب كان يمكن أن يرى بعضهم في غير وضوحٍ آخذين رصيف الطريق، بينما يمسك البعض الآخر أعمدةً كبيرةً منتصبةً

أو يثبّتونها في الحفر المعدَّة لاستقبالها. كان البعض يجرُّون ببطء عربةً فارغةً صوب الباقين، أحضروها تهدر من فناء السجن، بينما كان آخرون يقيمون حواجز منيعةً عبر الشارع. كان الجميع في شغلٍ، وأشباحهم الغسقية المتحركة هنا وهناك في هذه الساعة غير المعتادة نشيطةً صامتةً كانت قمينةً بأن تؤخذ باعتبارها مخلوقات ظلٍّ تشقى في منتصف الليل في عمل شبحيٍّ وهميٍّ، مصيره كمصيرهم إلى الزوال مع أول أضواء النهار، غير مخلِّف وراءه إلا ضباب الصباح وبخاره.

وبينما كان الظلام مخيّمًا ما زال، اجتمعت قلة من المتفرجين أتوا إلى هنا لهذا الغرض بوضوحٍ ونووا أن يبقوا، وحتى أولئك الذين كانوا مضطرين إلى عبور هذه البقعة في طريقهم إلى مكانٍ آخر كانوا يتباطؤون ويتباطؤون كما لو كانت جاذبية ذلك لا تقاوم. وفي أثناء ذلك كانت جلبة المناشير والمطارق جاريةً على قدمٍ وساقٍ، مختلطةً بقرقعة الألواح على الرصيف الحجري للطريق، وأحيانًا بأصوات العمَّال ينادي بعضهم بعضًا. ومتى سمعت صلصلة أجراس الكنيسة المجاورة –وقد كان ذلك يحدث كلَّ ربع ساعة– كان يتملَّكهم جميعًا إحساسٌ غريبٌ لحظيٌّ لا يُوصف وإن كان في غاية الوضوح.

تدريجيًّا ظهر في الشرق وهجٌ خافتٌ، وبدا الجو الذي كان دافئًا جدًّا طيلة الليل باردًا صردًا. ورغم أنَّ ضوء الصبح لم يكن قد انبلج بعد، فإن الظلمة انكمشت وشحبت النجوم. أما السجن الذي لم يكن يزيد على كتلة سوداء لا يكاد يبين لها شكلٌ أو حدودٌ فقد عادت إليه هيئته المعتادة، وبين الفينة والفينة كان ثَمَّ حارسٌ منفردٌ يرى على سطحه متوقِّفًا لينظر إلى الإعدادات الجارية في الشارع. أصبح هذا الرجل –لكونه جزءًا من السجن

ولعلمه أو لافتراض كونه يعلم بكلِّ ما يدور بالداخل- هدفًا لاهتمامٍ جمٍّ، وكان يبحث عنه بلهفة ويشار إليه برهبة كما لو كان روحًا.

أخذ الضوء الخافت يقوى تدريجيًّا، واتضحت في الصباح الرمادي الرتيب معالم المنازل بلافتاتها وما عليها من نقوش. طفقت العربات الثقيلة تزحف من فناء الخان المقابل للسجن، ومن فيها يتلصَّصون منها على الخارج، وبينما يبتعدون في بطء يلقون نظرات كثيرةً وراءهم على السجن. والآن كان أول أشعَّة الشمس ينفذ إلى الشارع، ولم يبق لعمل الليل الذي تلبَّس مائة شكلٍ في مراحله المختلفة وفي خيالات الناظرين إليه على كثرتهم - لم يبق له إلا أن يرتدي شكله الصحيح: منصَّةً ومشنقة.

وإذ بدأ دفء اليوم المبهج يلقي بنفسه على الجمع القليل من الناس، بدأ معه لغط الألسنة يسمع، وفتحت مصاريع النوافذ وأزيحت الستائر، ونهض على عجلة من فرشهم أولئك الذين كانوا ينامون في غرف ملاصقة للسجن حيث كانت تؤجَّر الأماكن التي يسهل منها رؤية الإعدام بأثمانٍ باهظة. انهمك الناس في بعض المنازل في نزع أطر النوافذ ليسمحوا للمزيد من المشاهدين بالوقوف ومتابعة الحدث، وفي منازل أخرى كان المشاهدون جالسين بالفعل، يزجُّون الوقت بورق اللعب أو الشراب أو تبادل النكات فيما بينهم. اشترى البعض مقاعد على أسطح المنازل وكانوا بالفعل يزحفون إلى أماكن وقوفهم المعيَّنة من نوافذ العليَّات وحواجز الشرفات. والبعض لم يكن قد انتهى بعد من المساومة على أماكن جيدة للمشاهدة، فكان يقف في تلك الأماكن في حالة من الحيرة محدِّقًا إلى الجموع التي تفتأُ تزداد ببطء وفي العمَّال وهم يرتاحون مستندين إلى منصَّة

الشَّنق في تكاسلٍ، متظاهرًا بالاستماع في لا مبالاة إلى ثناء المالك على ما يوفِّره منزله من مكانٍ فريدٍ للمشاهدة وزهادة الثمن الذي يطلبه.

كان صباحًا لم يسطع ألطف منه. من أسطح هذه البنايات وطوابقها العليا كانت تلوح أبراج كنائس المدينة وقبَّة كاتدرائيَّتها العظيمة عاليةً فيما وراء السجن نحو السماء الزرقاء، مرتديةً لون غيوم الصيف الخفيفة، ومظهرةً خلال الجو الرائق كل قطعة من زخرفتها وحلياتها الشبكية وكل كوة وخوخة. كان كلُّ شيء ينضح إشراقًا وغبطةً، عدا في الشارع بالأسفل، حيث كانت الأعين تنظر إلى أسفل كما لو كانت تنظر في خندق مظلم (فقد كان قابعًا في الظل ما زال)، وحيث كانت آلة الموت الرهيبة تقف وسط ذلك الفيض من الحياة والأمل وتجدد الوجود، كان يبدو كما لو كانت الشمس نفسها محجمةً عن النظر إليها.

غير أنها بكلِّ عبوسها وجهامتها في الظل كانت أفضل منها وهي تقف واضحةً في وهج الشمس الكامل ومجدها مع تقدُّم ساعات النهار، بطلائها الأسود متقرِّحًا وأناشيطها متدلِّيةً في الضوء كأكاليل كريهة. كانت أفضل في عزلة منتصف الليل وكآبته وحولها قلَّة من الأجسام مجتمعة حولها منها في نضارة الصبح ونشاطه حيث أصبحت مركز الجموع المتلهفة. كانت أفضل وهي ثاوية في الشارع كشبحٍ -بينما الرجال ما زالوا في فرشهم وهي تؤثِّر بالصدفة في أحلام المدينة- منها وهي تتحدَّى الأعين في وضح النهار وتلقي بوجودها الكريه على الحواس اليقظى.

دقَّت الساعة الخامسة، ثم السادسة والسابعة، والثامنة. كان ثَمَّ سيلٌ حيٌّ قد شرع يتدفق بطول الشارعين الرئيسين عند كلٍّ من طرفي التقاطع

صوب أسواق الربح والعمل. وأخذت العربات والمركبات والحافلات والشاحنات تختطُّ لنفسها طريقًا على أطراف الحشد وتقرقع إلى الأمام في الاتجاه نفسه. توقفت من بينها تلك التي كانت مواصلات عامةً آتيةً من مسافة قصيرة في الريف، ليشير السائق بسوطه إلى المشنقة، وإن لم يكن بحاجة إلى أن يكلِّف نفسه هذا الجهد، فقد كان المسافرون جميعًا يديرون رؤوسهم في هذا الاتجاه من دون عون منه، فما تلبث نوافذ الحافلات أن تكتظَّ بالأعين المحدِّقة. في بعض هذه العربات والمركبات كان يمكن رؤية النساء وهنَّ يختلسن النظر في خوفٍ إلى ذلك الشيء البشع نفسه، وحتى الأطفال الصغار كانوا يُرفَعون عاليًا فوق أرؤس الناس ليروا أي نوعٍ من اللعب كانت هذه المشنقة وليتعلَّموا كيف يُشنَق الناس.

كان مقرّرًا لاثنين من محدثي الشغب أن يموتا أمام السجن، وهما ممن تورَّطوا في الهجوم عليه، وبعدهما مباشرةً ثالث تقرَّر أن يموت في ميدان بلومزبري. في التاسعة دخلت فرقة عسكرية حصينة إلى الشارع، وما لبثت أن اصطفَّت مشكِّلةً ممرًّا ضيِّقًا إلى هولبورن التي كانت الشرطة تحرسها في لا مبالاة طيلة الليل. وأحضرت عربة أخرى عبر هذا الممرِّ (فقد استغلت العربة التي سبق ذكرها في بناء منصَّة الشَّنق)، ودفعت على عجلاتها إلى باب السجن. ولمَّا فرغ من هذه التجهيزات وقف الجنود مرتاحين، وطفق الضباط يتسكعون ذهابًا وجيئةً في الممر الذي صنعوه، أو يتجاذبون أطراف الحديث عند قدم المنصة، وأخذ الحشد الذي ما فتئ يتزايد في سرعة لعدة ساعات وما زال يستقبل في كل دقيقة إضافات جديدةً، أخذ ينتظر الثانية عشرة ظهرًا بنفاد صبرٍ كان يزداد مع كلِّ دقة من أجراس كنيسة الضريح المقدس.

إلى هذا الوقت كانوا في غاية الهدوء، صامتين نسبيًّا، إلَّا حين تصل جماعة جديدة إلى نافذة لم تكن مشغولةً، فتمثِّل شيئًا جديدًا لينظروا إليه ويتحدثوا عنه. لكن مع اقتراب الساعة بدأ طنين وهمهمة يتصاعدان، ولمَّا كانا يزدادان كلَّ لحظة فما لبثا أن تحوَّلا إلى زمجرة بدا أنها تملأ الهواء. لم يكن ممكنًا تمييز كلمات أو حتى أصوات في هذه الجلبة، كما لم يكثر بينهم أن يحدِّث واحدٌ رفاقه، رغم أن أولئك الذين كان لديهم خبرٌ أوثق بالموضوع كانوا ربما يخبرون جيرانهم بأن في مقدورهم أن يعرفوا الشانق حين يخرج بكونه الأقصر، وأن الآخر الذي سيُشنَق معه يُدعى هيو، وأنَّ من سيُشنَق في ميدان بلومزبري هو بارنابي ردج.

علت الهمهمة جدًّا مع اقتراب الوقت، حتى إن أولئك الذين كانوا في النوافذ لم يستطيعوا سماع ساعة الكنيسة وهي تدق رغم قربهم منها. والحق أنهم لم يكونوا بحاجة إلى سماعها، فقد كانوا يرونها في وجوه الناس. وبمجرد أن أعلنت الأجراس مضي ربع ساعة آخر، ظهرت حركة في الحشد كما لو كان شيء قد مرَّ فوقه، أو كما لو كان الضوء الساطع عليه قد تغيَّر. كانت حركةً تُقرَأ فيها الحقيقة كما تقرأ في مزولة صارخة مزيَّنة بيد عملاقٍ.

الثانية عشرة إلا الربع! أصبح اللغط الآن يصمُّ الآذان، ومع ذلك فقد بدا الجميع خرسًا. قلِّب بصرك حيث شئت من الحشد ولن ترى إلا أعينًا أجهدها التحديق وشفاهًا مطبقةً، وما أصعب أن يشير أدقُّ الناس ملاحظةً في مثل هذا الزحام إلى هذه الطريق أو تلك، أو أن يقول إنَّ رجلًا بعينه هناك قد صاح! إنه أمرٌ لا يقلُّ صعوبةً عن معرفة حركة الشفاه في قوقع بحري!

الثانية عشرة إلا الربع! وكثير من المشاهدين الذين تراجعوا عن النوافذ عادوا إليها بنشاطٍ متجدِّدٍ، كما لو كانت نوبة حراستهم قد بدأت لتوِّها. وأولئك الذين سقطوا نائمين أيقظوا أنفسهم، وحاول كلُّ شخص في الزحام محاولةً أخيرةً لتحسين موقعه، ما سبَّب ضغطًا على الحواجز المتينة التي جعلت الحشد ينثني ويلين كالأغصان. أما الشرطيون الذين كانوا متلاصقين إلى الآن فقد تفرَّقوا إلى مواقعهم المختلفة وأصدروا الأوامر. امتشقت السيوف وأخذت البنادق أماكنها على الأكتاف، وطفق الحديد البراق المتلوِّي في طريقه وسط الجموع يلمع ويتوهَّج في الشمس كنهرٍ. على هذه الطريق المضيئة جاء رجلان يهرعان يقودان حصانًا، وما لبثا أن ربطاه إلى العربة الواقفة لدى باب السجن. ثم حلَّ صمتٌ عميقٌ محلَّ الصخب الذي ظلَّ يزداد مدة طويلة إلى الآن، وتبع ذلك توقُّف كُتِمت فيه الأنفاس. كانت كل النوافذ تغصُّ الآن بالرؤوس، وأسطح المنازل مكتظَّة بالناس، فمنهم من يتعلَّقون بالمداخن أو ينظرون من فوق نهايات القمم المسنَّمة وهم يتشبَّثون بها، حيث يبدو أيُّ تخلخل مفاجئ لطوبة أو حجر كفيلًا بإلقائهم إلى الشارع. كان كل برج أو سقف أو فناء في كنيسة وكل طرقة في السجن وحتى المزاريب وأعمدة الإنارة، وباختصارٍ كانت كلُّ بوصة من فضاء تزخر بالبشر وتكتظُّ بهم.

ومع أول دقات الساعة الثانية عشرة بدأ جرس السجن يصلصل، ثم انفجرت الزمجرة العامة مجدّدًا وقد امتزجت الآن بصيحات «اخلعوا القبَّعات!» و«مساكين!»، وصرخة أو آهة صادرة من بعض النقاط في ذلك الزحام العظيم. كان مشهدًا رهيبًا أن يرى المرء –لو كان يملك امرؤ أن

يرى في هذه الإثارة المذهلة- عالم الأعين المتلهِّفة وقد أجهدها أصحابها في التركيز على منصة وعمود الشنق.

كان اللغط الأجوف مسموعًا بوضوحٍ داخل السجن كما هو خارجه. أُحضِر الثلاثة معًا إلى الفناء بينما يدوِّي ذلك اللغط في الهواء. كانوا يعرفون دلالته جيدًا. صاح هيو غير عابئ بالصوت:

«أتسمعان؟ إنهم ينتظروننا! لقد سمعتهم يتجمَّعون بينما أتمشَّى ليلًا، ثم استدرت إلى الجانب الآخر ونمت ثانية. سنرى كيف سيرحبون بالشانق الآن وقد انقلب سحره عليه! هاهاها!».

ولما جاء المطران في هذه اللحظة أنَّبه على مزاحه غير اللائق ونصحه بأن يغيِّر سلوكه.

قال هيو: «ولم يا سيدي؟ أهناك أفضل من أن أتعامل مع الأمر ببساطة؟ إنك أنت تتعامل معه ببساطة!» ثم صاح حين همَّ الآخر بالكلام: «أوه، لا تقل لي، فإنك رغم نظرتك الحزينة وهيئتك الصارمة لا تفكر في الأمر إلا قليلًا! يقولون إنك أفضل من يعدُّ سلاطة الكركند في لندن. هاها! أؤكِّد لك أني سمعت بذلك قبل الآن. هل هي جيدة؟ وهذا الصباح هل أعددتَ منها؟ كيف يبدو الإفطار؟ أرجو أن يكون هناك ما يكفي منه ويفيض لكلِّ هؤلاء الرفاق الجائعين الذين سيجلسون لتناوله حين ينتهي المشهد».

قال المطران هازًّا رأسه: «أخشى أنه لا سبيل إلى إصلاحك».

ردَّ هيو عابسا: «أصِبتَ، أنا كذلك، لا تكن منافقًا يا سيدي! إنك تتخذ هذا الأمر مضحكةً كلَّ شهر. دعني أنا الآخر أضحك. إن كنت تريد رجلًا مذعورًا فهناك من يناسب ما تبحث عنه. جرِّب يدك معه».

وأشار وهو يتكلَّم إلى دنس الذي كان يُهادى بين رجلين وهو يجرُّ ساقيه على الأرض، والذي كان يرتعد حتى لكأنَّ مفاصله وأطرافه جميعًا قد تملَّكتها التشنُّجات. ولمَّا صرف هيو وجهه عن هذا المشهد التعس نادى بارنابي الذي كان يقف منفردًا:

«كيف أنت يا بارنابي؟ لا تحزن يا فتى، اترك ذلك له».

صاح بارنابي وهو يخطو إليه بخفَّة: «بوركت، أنا لستُ خائفًا يا هيو. إنني في غاية السعادة. لو خيَّروني الآن لما رغبت في العيش. انظر إليَّ! هل أنا خائف من الموت؟ هل سيرونني أرتعد؟».

حدَّق هيو لحظةً إلى وجهه الذي كانت ترتسم عليه ابتسامة غريبة خارقة للمألوف، وفي عينه التي كانت تلمع في فرحٍ، وما لبث أن حشر نفسه بينه وبين المطران هامسًا في غلظة لذلك الأخير:

«لو كنت مكانك يا سيدي لما قلت له شيئًا. ربَّما يفسد شهيَّتك للإفطار رغم اعتيادك هذا».

كان بارنابي الوحيد من بين الثلاثة الذي اغتسل هذا الصباح وتزيَّن. أما الآخران فلم يفعلا ذلك مذ أعلن مصيرهما. كان ما زال يزيِّن قبَّعته بريش الطاووس المكسور، وقد وزّعَ أشرطة زينته كلها حول لباسه في حرصٍ. كانت عينه اللامعة وخطوته الواثقة وهيئته الأبيَّة الحازمة خليقةً كلها بأن تزين فعلًا بطوليًّا جليلًا أو تضحيةً إراديةً وُلِدت من رحم قضية نبيلة وحماسٍ خالصٍ، لا ذلك الموت الجدير بأحد المجرمين.

لكنَّ هذه الأشياء كلَّها زادت إثمه، لقد كانت جميعًا من قبيل التظاهر، كذا أعلنها القانون وكذا لا بُدَّ أن تكون! قبل أقل من ربع ساعة

صُدِم القسُّ الطيب أيَّما صدمة لمرأى وداع بارنابي لـ(غرپ). كيف يتسنَّى لواحدٍ في مثل وضعه أن يداعب طائرًا؟! كان الفناء مكتظًّا بالناس، بين موظفين مدنيين محتالين وشرطيِّي عدالة وجنود، والأغرب في مثل هذه الأمور: ضيوف دُعوا كما لو كان الحدث زفافًا. نظر هيو إلى ما حوله وأومأ برأسه في عبوسٍ لشخصٍ ذي سلطة كان قد أشار بيده في أيِّ اتجاه عليه أن يمضي، ثم خرج من بين رفيقيه يمشي مشية الأسد وهو يربت كتف بارنابي.

دخلوا غرفةً واسعةً قريبةً جدًّا من منصَّة الشنق، حتى لقد كانت أصوات من يقفون حولها مسموعةً بوضوحٍ، فكان بعضها يتوسَّل إلى الحرس أن يأخذوهم بعيدًا عن الجموع، ويصيح بعضها بمن وراءه أن يتراجع إلى الخلف لأنه يكاد يموت من الضغط أو يختنق لقلة الهواء.

وفي منتصف هذه الغرفة كان يقف حدَّادان بمطارقهما إلى جوار سندان. مشى إليهما هيو مباشرةً ووضع قدمه على السندان محدثًا صوتًا عاليًا كما لو كان سلاحٌ ثقيلٌ قد ضرب السندان. ثم وقف عاقدًا ذراعيه ليخلِّصوه من أغلاله وهو عابسٌ في وجوه من حوله بكبرياء بينما يتفحَّصه الحاضرون بنظراتهم بدقة متهامسين فيما بينهم.

استغرق الأمر وقتًا طويلًا لجرِّ دنس إلى الداخل، حتى إن هذا الطقس كان قد انتهى مع هيو وكاد ينتهي مع بارنابي قبل أن يظهر دنس. لكنه ما إن دخل المكان الذي كان يعرفه جيدًا، وأضحى بين وجوه يألفها تمامًا، حتى استعاد قوَّته ووعيه بما يكفي لأن يشبِّك يديه ويطلب طلبًا أخيرًا.

صاح المخلوق الكريه وهو يتذلَّل على ركبتيه ساجدًا في الحقيقة على

أرض الغرفة الحجرية: «أيها السادة، السادة الطيبون، حاكم السجن، حاكم السجن العزيز، القضاة الشرفاء، السادة الوجهاء، ارحموا رجلًا تعيسًا خدم جلالة الملك والقانون والپرلمان أعوامًا عديدةً، ولا.. لا تتركوني أموت لخطأ».

قال حاكم السجن: «دنس، إنك تعرف الإجراءات، وتعرف أنَّ الأمر بخصوصك قد صدر مع الآخرين، تعرف أنه ليس باستطاعتنا أن نفعل شيئًا حتى لو أردنا».

صاح التعس المرتعد وهو يقلِّب بصره فيمن حوله في اهتياجٍ باحثًا عن تعاطفهم: «كل ما أطلبه يا سيدي، كل ما أريده وأتسوَّله هو الوقت لأؤكِّد الأمر. لا الملك ولا الحكومة يمكن أن يكونا على علم بأنني هنا، وأنا واثق بذلك، فإنهما لو عرفا لما سمحا بالمجيء بي إلى هذا المجزر البشع. إنهم يعرفون اسمي لكنهم لا يعرفون أنه علمٌ على نفس الرجل. أوقفوا إعدامي، لأجل المرحمة أوقفوا إعدامي أيها السادة، إلى أن يمكن إخبارهم بأنني كنت الشانق هنا لمدة تقارب ثلاثين عامًا».

ثم أخذ يتوسَّل عاقدًا قبضتيه وهو يقلِّب بصره في الحضور مرة واثنتين وثلاثًا: «ألن يذهب أحدٌ لإخبارهم؟ ألن يذهب أحد الخيِّرين لإخبارهم؟».

قال سيدٌ كان يقف غير بعيدٍ بعد برهة صمتٍ: «مستر آكرمان، حيث إنَّ من الممكن أن يحدث ذلك في هذا التعس حالةً ذهنيةً أفضل، حتى في هذه الدقيقة الأخيرة، فدعني أؤكِّد له أنه كان معروفًا باعتباره الشانق حين تداول القضاء أمر الحكم عليه».

صاح المجرم وهو يجرُّ نفسه على ركبتيه صوب هذا المتحدِّث رافعًا إليه يديه المعقودتين: «لكنهم ربما يظنُّون بهذا الخصوص أن العقوبة ليست بالغةً، بينما هي أسوأ، أسوأ مائة مرة بالنسبة إليَّ منها بالنسبة إلى غيري. دعهم يعرفون ذلك يا سيدي، دعهم يعرفون ذلك. لقد جعلوها أسوأ بالنسبة إليَّ بإعطائي الكثير جدًّا لأفعله. أوقفوا إعدامي حتى يعلموا بذلك!».

أشار الحاكم بيده فاقترب الرجلان اللذان كانا يهاديانه بينهما، فما لبث أن صرخ صرخةً مدوية:

«انتظرا! انتظرا، لحظةً فقط، لحظةً واحدةً فقط! أعطوني فرصةً أخيرةً للعفو. واحد من ثلاثتنا يفترض أن يذهب إلى ميدان بلومزبري، فليكن أنا، ربما يأتي العفو خلال ذلك، من المؤكَّد أنه سيأتي. بحق الرب أرسلوني إلى ميدان بلومزبري، لا تشنقوني هنا، هذا قتل!».

أخذوه إلى السندان، لكن حتى هنا كان صوته مسموعًا فوق قرقعة مطارق الحدَّادين وتصايح الحشود الهائجة، إذ أخذ يصيح أنه يعرف عن نسب هيو وأنَّ أباه حيٌّ وأنه سيدٌ ذو نفوذٍ وحيثيَّة، وأنَّ بحوزته أسرارًا عائليةً، وأنه لن يستطيع أن يقول شيئًا إلا إن منحوه وقتًا، وإلا فسيموت وهذه الأسرار حبيسة عقله، وظلَّ مهتاجًا على هذا النحو إلى أن بحَّ صوته وسقط بين من يسندانه كومة ملابس.

في تلك اللحظة دقَّت الساعة أولى دقَّات الثانية عشرة، وأنشأ الجرس يصلصل. تحرك الشرطيون الحاضرون وعلى رأسهم المأموران صوب الباب، وحين صكَّت الأسماع آخر دقَّة كان كلُّ شيء جاهزًا، أخبروا هيو بذلك وسألوه إن كان لديه ما يقوله.

صاح: «ما أقوله؟! لا! أنا مستعدٌّ» ثم أضاف حين لمحتْ عينه بارنابي: «نعم، لديَّ كلمة أقولها كذلك، تعال هنا يا فتى».

في هذه اللحظة كان ثَمَّ شيء طيبٌ -بل وحنون- يصارع ليطفو على محيَّاه الشرس، بينما يشبِّك يده بيد رفيقه المسكين، ثمَّ صاح وهو ينظر فيما حوله بثباتٍ:

«سأقول ذلك: أن لو كانت لديَّ عشر حيوات لأفقدها، ولو كان فقد كلٍّ منها سيؤلمني كألم عشر من أصعب الميتات، لضحَّيتُ بها جميعًا - أجل- لفعلت ذلك وإن لم تصدقوني أيها السادة - لأنقذ حياة هذا الفتى»، ثم أضاف وهو يشبِّك يده بيد بارنابي ثانيةً: «هذا الفتى الذي سيفقد حياته بسببي».

قال الأبله بلطفٍ: «ليس بسببك، لا تقل ذلك، أنت غير ملومٍ؛ لقد كنتَ دائمًا طيبًا معي يا هيو، سنعرف الآن ما يجعل النجوم تضيء!».

قال هيو واضعًا يده على رأس بارنابي وهو يتكلم بصوتٍ خفيضٍ: «لقد أخذته منها في نوبة طيش، ولم يخطر ببالي آنذاك أي ضررٍ يمكن أن يترتَّب على ذلك، إنني أطلب العفو منها ومنه»، ثم أضاف في غلظة بنبرته الأولى: «انظروا هنا، أترون هذا الفتى؟».

غمغموا: «نعم» وبدا أنهم يتساءلون لِمَ يسألهم، فأكمل مشيرًا إلى المطران:

«إن هذا السيد هناك قد دأب في أن يحدِّثني في الأيام القليلة الماضية عن الإيمان وقوة الاعتقاد. ترون ما أنا: حيوان أكثر مني إنسانًا كما كان يقال لي دائمًا. لكني كان لديَّ من الإيمان ما يكفي أن أعتقد -وقد اعتقدت

بقوة لا تقل عن قوة اعتقاد أيٍّ منكم أيها السادة في أي شيء- أن حياة هذا الفتى ستُنقَذ، انظروا إلى ما هو عليه، انظروا إليه!».

تحرك بارنابي صوب الباب ووقف يشير إليه أن يتبعه. فصاح هيو رافعًا ذراعه اليمنى عاليًا وهو ينظر إلى أعلى كمتنبِّئ همجيٍّ امتلأ وفاضه وحيًا حين دنا أجله: «إن لم يكن هذا إيمانًا وقوة اعتقاد، فأين هما؟! ما يمكنه غير ذلك أن يعلِّمني -أنا الذي ولدت ورُبِّيت كما تعرفون- أن أرجو أي رحمة في هذا المكان القاسي الذي لا يلين؟! على هذه الخرائب البشرية أدعو بالويل والثبور وغضب الرب، أنا الذي لم أرفع هذه اليد للدعاء طيلة حياتي. وعلى هذه الشجرة السوداء التي أنا ثمرتها الناضجة أصبُّ لعنات كل ضحاياها، من كانوا ومن هم كائنون ومن سيكونون. وعلى رأس ذلك الرجل الذي يعترف بي في قرارة ضميره ابنًا له أترك أمنيَّتي ألَّا يموت ميتةً هادئةً على فراشه إثر مرضٍ، بل ميتةً عنيفةً كالتي أموتها الآن، فلا يجد من يثكله سوى ريح الليل، وأختم ذلك بقولي آمين، آمين!».

سقطت ذراعه إلى جانبه ثم استدار وتحرك ناحيتهم بخطوة ثابتة كما دأب أن يفعل.

قال حاكم السجن: «هل تريد أن تضيف شيئًا؟».

أشار هيو إلى بارنابي ألَّا يقترب منه -دون أن ينظر إلى الجهة التي كان يقف فيها- وأجاب: «لا أريد أن أضيف شيئًا».

«تحرك إلى الأمام».

قال هيو ناظرًا وراءه في عجلة: «إلَّا.. إلَّا لو كان بين الحضور من يستهويه أن يقتني كلبًا، وإلَّا لو كان ينوي أن يعامله معاملةً طيبة، هناك

واحدٌ ملكي في المنزل الذي جئت منه، وليس من السهل العثور على كلبٍ أفضل منه، سيتذمَّر في البداية، لكنه سرعان ما سيتجاوز ذلك»، ثم أضاف بنوعٍ من الضحك: «ربما تدهشون من أنني أفكر في كلبٍ في هذه اللحظات، لكن لو كان هناك إنسانٌ يستحقُّ مني نصف ذلك التفكير لفكّرت فيه!».

لم يفِه بشيء بعد ذلك وإنما تحرك إلى الأمام في مكانه بنوعٍ من اللا مبالاة، وإن كان يستمع في الوقت ذاته إلى الصلوات التي تُتلى للموتى بشيء بين الانتباه العابس والفضول المستثار. وفور أن عبر الباب أُخرِج رفيقه التعيس وشاهدت الجموع البقية. كان بارنابي سيعتلي الدرج في الوقت نفسه، وقد كان موشكًا بالفعل على أن يتقدَّم رفيقيه، لكنه مُنِع من ذلك لأنَّ الحكم كان مقرَّرًا أن يُنفَّذ فيه في مكانٍ آخر. وفي غضون دقائق قليلة ظهر المأموران ثانيةً وتكوَّن الموكب نفسه مجددًا ليمرَّ خلال غرفٍ عديدة وممراتٍ إلى بابٍ آخر، ذلك الذي كانت العربة تنتظر لديه. خفض رأسه ليتحاشى رؤية ما كان يعرف أنَّ عينيه ستريانه لا محالة إن لم يفعل، وأخذ مقعده في العربة في حزنٍ، وإن لم يخل من شيء من الكبرياء والسعادة الطفولية. وأخذ الشرطيون مقاعدهم على جوانب العربة وفي مقدمتها ومؤخرتها، ومضت عربتا المأمورين وقد أحاط بالجميع جمعٌ من الحرس، وتحرك الموكب ببطء إلى الأمام بين الحشود وتضاغطها ميمِّمين منزل لورد مانسفيلد الخرب.

كان منظرًا محزنًا، فالاستعراض كلُّه والقوة والبريق اجتمعت حول مخلوقٍ واحدٍ لا حول له ولا قوة، والأكثر إثارةً للحزن، أنه بينما هو ماضٍ في طريقه كانت أفكاره السريعة الهرب تجد تشجيعًا غريبًا في النوافذ

المكتظة بالناس وفي زحام الشوارع، وأنه حتى في هذه اللحظات كان يشعر بتأثير السماء البراقة، وينظر إلى أعلى مبتسمًا، إلى زرقتها العميقة التي لا قرار لها. غير أنَّ مثل هذه المشاهد قد تكرَّر كثيرًا منذ انتهت أحداث الشغب، فكان بعضها ذا طبيعة مؤثِّرة للغاية، ومنفِّرًا جدًّا كذلك، إذ إنَّ المقصود منها لم يكن أبدًا إثارة شفقة الناس على المدانين بقدر ما كان إيقاظ احترامهم للقانون، ذلك القانون الذي بدت ذراعه القوية في أكثر من حالة ممدودةً باطشةً في نذالة الآن وقد عاد الأمان وهدأ كلُّ شيء، بالقدر نفسه الذي كانت به مشلولةً في وضاعة في وقت الخطر.

في هذا الميدان نفسه –ميدان بلومزبري– شُنِق معاقان لا يزيد كلٌّ منهما على أن يكون صبيًّا، أحدهما بساقٍ خشبية والآخر كان يجرُّ أعضاءه المنثنية إلى الأمام مستعينًا بعكَّازٍ. وبينما كانت العربة موشكةً على أن تنزلق من تحتهما لوحظ أنهما يقفان مستدبرين المنزل الذي أعانا على تخريبه، وليتدارك هذا الخطأ أطالت السلطات أمد مأساتهما. وشُنِق صبيٌّ آخر في شارع (باو)، وغير هؤلاء من الصبية الصغار في أرجاء مختلفة من المدينة. كما شُنِقت أربع نساء تعيسات. وباختصارٍ، فقد كان أولئك الذي حوكموا كمحدثي شغب غالبًا هم الأضعف والأهون شأنًا والأتعس بين محدثي الشغب. وكان الأمر الأكثر سخريةً على الإطلاق من الصيحة الدينية المزيَّفة التي أدَّت إلى كل هذه التعاسة أنَّ بعض هؤلاء المدانين قد اعترفوا بكونهم من الكاثوليك، وتوسَّلوا أن يحضر موتهم كهنة طائفتهم!

وشُنِق شابٌّ في شارع (بشبسغات)، حيث انتظره أبوه العجوز الأشيب لدى المشنقة، وحين وصل قبَّل قدمه، ثم جلس على الأرض إلى أن أنزلوا الشاب بعد شنقه. كانوا سيعطون العجوز جثة ابنه، غير أنه

لفقره المدقع لم يكن لديه نعشٌ ولا كفنٌ ولا أيُّ شيء يحمله فيه، فسار في وداعة إلى جوار العربة التي أعادت الجثة إلى السجن، محاولًا في أثناء ذلك أن يلمس اليد التي فارقتها الحياة.

غير أنَّ الجموع قد نسيت هذه الأمور، وحتى إن كانت قد عاشت في ذاكرتها فإنها لم تبالِ بها إلَّا قليلًا، وبينما كان جمعٌ عظيمٌ يجاهد ويصارع ليقترب من المشنقة المنصوبة أمام نيوغات ليلقي نظرةً أخيرةً على المدانين هناك، مضى جمعٌ آخر في إثر المسكين المأسوف عليه بارنابي، ليزداد الحشد الهائل الذي ينتظره حيث سيُعدَم.

* * *

الفصل الثامن والسبعون

في هذا اليوم نفسه، ونحو الساعة نفسها، جلس مستر ولت الكبير يدخِّن غليونه في غرفة بخان (الأسد الأسود). ورغم أن الجو كان صيفيًّا قائظًا فقد جلس قرب المدفأة. كان في حالة من التأمُّل العميق لأفكاره، وقد كان من عادته في مثل هذه الأوقات أن يطهو نفسه على نار هادئة، وذلك انطلاقًا من تصوُّر لديه، مفاده أنَّ عملية الطهو هذه تساعد على انصهار أفكاره التي ما إن يبدأ في الجيشان بفعل الحرارة حتى تسيل منه بغزارة أحيانًا، على نحوٍ مدهشٍ حتى لنفسه!

كان أصدقاء مستر ولت ومعارفه قد واسوه آلاف المرات مؤكدين أنَّ بإمكانه أن يذهب إلى البلدية بخصوص الخسارة التي تكبَّدها إثر ما حلَّ بـ(مايبول) من أضرارٍ، لكن حيث تصادف أنَّ هذه العبارة لسوء الحظ تشبه التعبير الشائع «يذهب إلى الأبرشيّة» -التي تعني أنَّ شخصًا ما يعيش على إعانة من الأبرشية- فإنها لم تقترح على خيال مستر ولت مشهدًا مواسيًا بخلاف الفقر المدقع الممتد على نطاقٍ واسعٍ، والخراب على مدىً بعيدٍ. ولذا لم يتلقَّ أبدًا هذه المعلومة إلَّا بهزَّة رأسٍ آسفة أو نظرة كئيبة، كما لوحظ أنه يبدو أعمق حزنًا وكآبةً بعد زيارات المواساة مما يبدو طيلة ساعات اليوم الأربع والعشرين.

رغم ذلك فقد تصادف أن مستر ولت في جلوسه إلى المدفأة هذه المرة بالذات –ربما لكونه قد طُهي طهوًا تامًّا، وربما لأنه كان في حالة ذهنية ناصعة على غير المعتاد، وربما لأنه كان قد أطال تدبُّر الموضوع، وربما لكلِّ هذه الظروف المواتية مجتمعة– تصادف أنه قد أدرك بعيدًا جدًّا وعميقًا جدًّا في ثنايا ذهنه نوعًا من الإشارة الكامنة أو الاقتراح الخافت أنَّ اعتماداتٍ مالية ربما تصدر عن خزانة الدولة لإعادة مايبول إلى سابق مكانته العالية بين فنادق الأرض. وما لبث هذا البصيص الخافت أن انتشر في كيانه وأضاء وسطع برَّاقًا، حتى إنَّه أخيرًا كان يراه أمامه بوضوحٍ كنار المدفأة التي يجلس قربها. وإذ كان مقتنعًا تمامًا أنه أول من توصَّل إلى هذا الاكتشاف، وأنه قد ابتدأ واصطاد فكرةً جديدةً تمامًا لم تخطر من قبل ببال إنسانٍ حيٍّ أو ميت، ووقع عليها وأمسك بخناقها، فقد نحَّى غليونه جانبًا وفرك يديه وضحك بصوتٍ عالٍ.

صاح چو وقد دخل في هذه اللحظة: «أوه! أبي، روحك المعنوية عالية اليوم!».

قال مستر ولت وهو يضحك ثانيةً: «لا شيء محدّدًا يضحكني، لا شيء محدّدًا يا چوزيف. أخبرني بشيء عن السّلـوانّا!».

ولمَّا كان مستر ولت قد فضَّل هذا الطلب على الخوض في الحديث عن أفكاره فقد ضحك للمرة الثالثة، وبعد هذه البراهين غير المعتادة على الفكاهة وضع غليونه في فمه مجدّدًا.

سأل چو واضعًا يده على كتف والده وناظرًا إلى وجهه: «بماذا عليَّ أن

أخبرك يا أبي؟ أنني قد عدتُ أفقر من فأرٍ في كنيسة؟[1] أنت تعرف ذلك، أنني قد عدتُ مبتورًا معاقًا؟ تعرف ذلك».

غمغم مستر ولت وعيناه على النار: «لقد انتزعت في الدفاع عن السّلوانّا في أمريكا حيث تدور الحرب».

ردَّ چو باسمًا ومعتمدًا بمرفقه الباقي على ظهر مقعد أبيه: «بالضبط، إنه الموضوع نفسه الذي جئت لأحدِّثك بشأنه، إنَّ رجلًا بذراعٍ واحدة يا أبي ليس رجلًا ذا نفعٍ جمٍّ في عالم العمل».

كانت هذه واحدةً من المسائل الكبيرة التي لم يتدبَّرها مستر ولت أبدًا، ولا لحظةً، وكان يحتاج إلى وقتٍ لـ(يتعامل معها)، ولذا لم يحر جوابًا. قال چو:

«على أي حالٍ، فهو رجل ليست له رفاهية اختيار وسيلته لكسب العيش كما لغيره. ليس في مقدوره أن يقول «سأجرِّب يدي في هذا العمل» أو «لن أجرِّب يدي في ذلك»، وإنما عليه أن يفعل ما بوسعه أن يفعله ويمتنّ للّه أن لم يكن الأمر أسوأ مما هو عليه، ماذا قلت؟».

كان مستر ولت يكرِّر لنفسه بصوتٍ خافتٍ ونبرة متأمِّلة كلمات «الدفاع عن السّلوانّا»، غير أنه ارتبك لمَّا وجد غمغمته قد سمعت، فما لبث أن أجاب: «لا شيء».

«والآن انظر يا أبي، لقد جاء مستر إدوارد إلى إنگلترا من جزر الهند الغربية، حين افتقد كل أثر له –وقد هربت أنا في اليوم نفسه الذي اختفى

(١) Poorer than a church mouse أفقر من فأرٍ في كنيسة، مثلٌ يُضرَب للفقر الشديد، مردُّه إلى أنَّ الكنائس لا تخزِّن الطعام ولا تقدِّمه، ومن ثمَّ فإنّ فأرًا يعيش فيها هو من العوز بمكان.

هو فيه يا أبي- كان قد سافر في رحلة بحرية إلى إحدى تلك الجزر حيث استقرَّ أحد أصدقائه من أيام المدرسة، ولمَّا وجده لم يستنكف أن يعمل في أملاكه، وباختصارٍ فقد تحسَّنت أوضاعه ولقي نجاحًا، وقد جاء إلى هنا في عملٍ يخصُّه، ولن يلبث أن يعود من حيث أتى على جناح السرعة. وقد كانت عودتنا في الوقت نفسه تقريبًا ولقاؤنا خلال الاضطرابات الأخيرة نعمةً على كل الأصعدة، إذ إن ذلك لم يمكِّنَّا من إسداء خدمة إلى أصدقائنا القدامى فحسب، وإنما فتح لي طريقًا في الحياة أستطيع أن أخوضها من دون أن أكون عبئًا عليك. ولأكون واضحًا يا أبي، فإن بإمكانه أن يوظِّفني، وقد أقنعت نفسي أنني أستطيع أن أكون ذا نفعٍ حقيقيٍّ بالنسبة إليه، وسأذهب معه بذراعي الواحدة محاولًا استغلال الفرصة قدر استطاعتي».

كانت جزر الهند الغربية وكلُّ البلاد الأجنبية بالنسبة إلى عين خيال مستر ولت موطنًا لأممٍ متوحشة لا تني تدفن غلايين السلام ليل نهار وتبرق بالسيوف وتحفر نقوشًا غريبةً على أجسادها[1]. لذا، ما إن سمع هذا الإعلان حتى أعاد ظهره إلى الوراء في مقعده وأخذ غليونه من بين شفتيه وأخذ يحدِّق إلى ابنه بكثيرٍ من الرعب كما لو كان يراه مربوطًا إلى وتدٍ ويُعذَّب لتسلية جمهورٍ فرحٍ. ومن المستحيل أن نقول في أي صورة من صور التعبير كان يمكن لمشاعره أن تجد متنفَّسًا. ولا نجد ذلك ضروريًّا، فقبل أن يخطر بباله مقطعٌ واحدٌ جاءت (دلّي ڤاردن) تهرع إلى داخل

(١) غلايين السّلام Peace Pipes غليون تدخين احتفالي كانت شعوب أمريكا الأصلية تستخدمه في طقوسها المقدسة، تحديدًا لرفع الصلوات في الطقوس الدينية ولإبرام عقد صلح أو سلام أو معاهدة. أما الفؤوس المقصودة فهي فؤوس الهنود الحمر المعروفة بالتوماهوك Tomahawk وهي كلمة ذات تنويعاتٍ متعددة في لغات تلك الشعوب الأصلية، تعني جميعًا الفأس.

الغرفة باكيةً، وألقت بنفسها على صدر چو دون كلمة واحدة، محيطةً عنقه بذراعيها البيضاوين.

صاح (چو): «(دلّي).. (دلّي)!».

هتفت به بنت صانع الأقفال الصغيرة: «أجل، نادني هكذا، دائمًا نادني هكذا، لا تتحدَّث إليَّ أبدًا في برودٍ، ولا تبتعد عني، ولا توبِّخني ثانيةً على حماقاتٍ تُبتُ منها وندمتُ عليها من قديمٍ، وإلَّا فسأموت يا چو».

قال چو: «أنا أوبِّخك؟!».

«أجل، فإن كلَّ كلمة طيبة صادقة تفوَّهت بها نفذت إلى قلبي، فإنك أنت الذي تحمَّلت مني الكثير، أنت الذي تدين بمعاناتك وآلامك لنزواتي، ثم تعاملني بهذه الطيبة وهذا النُّبل يا چو..».

لم يستطع أن يقول شيئًا. ولا حرفًا. كان في ذراعه الوحيدة التي طوَّقت خصرها نوعٌ غريبٌ من البلاغة، أمَّا شفتاه فكانتا خرساوين. قال (دلّي) وهي تنتحب متعلِّقةً به وقد اقتربت منه أكثر:

«لو كنت قد ذكرتني بكلمة، ولو بكلمة واحدة قصيرة فقط، كم كنت لا أستحق ما عاملتني به من تسامحٍ، ولو كنت قد صخبت لحظةً واحدةً بانتصارك، ربما كنت أتحمَّل الأمر على نحو أفضل».

ردَّد چو: «انتصاري؟!» بابتسامة بدت تقول «يا لي من نموذجٍ لذلك الانتصار!».

صاحت ملء قلبها وروحها بصوتٍ صادقٍ: «أجل، انتصارك، فهو انتصار، أنا مسرورة بأن أعتقد أنه كذلك، وأعرف أنه كذلك، لن أكون أقلَّ ذلَّةً يا عزيزي، ولن أتحرَّر من ذكرى المرة الأخيرة التي تكلمنا فيها معًا في

هذا المكان، إن استطعت أن أستدعي الماضي وأجعل فراقنا لم يحدث إلَّا أمس».

هل بدا عاشق من قبل كما كان (چو) يبدو الآن؟!

واصلت (دلّي): «عزيزي چو، لقد كنتُ دائمًا أحبُّك، دائمًا كنتُ أحبك في قلبي، رغم أني كنت مغرورةً متقلِّبة الأهواء. تمنَّيتُ أن تعود في تلك الليلة، كنت واثقةً تمامًا أنك ستعود، صليت جاثيةً لأجل ذلك، وطيلة هذه السنوات الطويلة الطويلة لم أنسك أبدًا، ولم يتركني الأمل أبدًا في أن هذا الوقت السعيد سيأتي».

كانت بلاغة ذراع چو تفوق أكثر اللغات عاطفيةً، وكذا بلاغة شفتيه، لكنه رغم ذلك لم يقل شيئًا.

صاحت (دلّي) مرتجفةً من حرارة كلامها: «والآن أخيرًا، لو كنتَ مريضًا محطَّم الأطراف جميعًا، ولو كنتَ عليلًا ضعيفًا محزونًا، ولو أنك بدلًا مما أنت عليه كنت في عين كلِّ إنسان سواي حطام رجلٍ، لكنت امرأتك رغم ذلك يا حبيبي، فخورًا فرحةً بك أكثر مما لو كنت أفخم لورد في إنگلترا!».

صاح چو: «ماذا فعلتُ؟ ماذا فعلتُ لأستحقَّ هذه المكافأة؟».

قالت (دلّي) رافعةً وجهها الجميل إليه: «لقد علَّمتني أن أعرف نفسي، وأعرف قدرك، وأن أكون شيئًا أفضل ممَّا كنتُه، وأن أكون أكثر استحقاقًا لطبيعتك الصادقة الرجولية. وفيما يستقبل من أعوام يا عزيزي چو، ستجد أنّك قد فعلتَ ذلك حقًّا، فإنني سأكون -ليس الآن فحسب ونحن شابَّان مفعمان بالأمل، وإنما حين نكبر ونغدو عجوزين متعبين- سأكون زوجك

الصبور الوادعة التي لا تكلُّ. لن أعرف أبدًا أمنيَّةً ولن يهمني شيء وراء بيتنا وأنت، وسأسعى دائمًا إلى إرضائك بأفضل ما عندي من المودة وأخلص ما في قلبي من الحبِّ، سأفعل، حقًّا سأفعل».

لم يسع چو إلا أن يكرِّر بلاغته السابقة، غير أنها كانت موافقةً تمامًا لمقتضى الحال. قالت (دلّي):

«إنهم يعرفون بذلك عندنا في البيت، ولأجلك أنا مستعدَّة أن أتركهم هم أنفسهم، لكنهم يعرفون بذلك ومسرورون به، وفخورون بك مثلي، وممتنُّون لك كما أنا ممتنَّة. لن تأتي لتراني بصفتك صديقًا مسكينًا كان يعرفني حين كنت بنتًا صغيرةً، أليس كذلك يا عزيزي چو؟».

حسنًا، حسنًا! لا يهمُّ ما أجاب به چو، لكنه قال الكثير، كما قالت (دلّي) الكثير هي الأخرى، وقد أحاطها هو تمامًا بذراعه الواحدة، مع الأخذ في الاعتبار أنها كانت ذراعًا واحدةً، ولم تحاول (دلّي) مقاومته، ولو كان زوجان من الناس قد سعدا لحظات في هذا العالم –هذا العالم الذي ليس تعيسًا تمامًا رغم كل مساوئه– فلنا أن نقول ببعض التأكيد إنهما كانا كذلك.

أن نقول إنَّ مستر ولت الكبير خلال ذلك الحديث قد تملَّكته أعظم مشاعر الدهشة التي يمكن لطبيعتنا البشرية أن تكون عرضةً لها، وأن نقول إنَّ المفاجأة قد شلَّته تمامًا، وإنه قد شرد إلى أعلى قمم التعجُّب المحيِّر التي لا قِبَل لأحدٍ بها، وأشدّها إذهالًا، أن نقول ذلك كلَّه يعني أن نستر حالته الذهنية بأضعف العبارات وأكثرها شحوبًا. فلو كان طائر رخٍّ أو نسر أو عنقاء أو فيل طائر أو حصان بحر مجنَّح قد ظهر بغتةً ثم احتمله على

ظهره إلى قلب (السّلوانّا) لبدا له ذلك حدثًا يوميًّا مكرَّرًا إذا ما قورن بما كانت عيناه تشهدانه الآن. أن يكون جالسًا في هدوءٍ في الجوار، يسمع ويرى هذه الأشياء، وألَّا يلتفت إليه على الإطلاق، بل لا يلاحظ، بل يتجاهل، بينما ابنه وامرأة شابة يتبادلان الحديث بأكثر الأساليب عاطفية ويقبِّل أحدهما الآخر، ويتصرَّفان على راحتهما كما لو كانا في بيتهما، كان ذلك كلُّه موقفًا هائلًا لا يُفسَّر، وراء أقصى ما في وسعه أن يدركه، حتى لقد أنهكه العجب ولم يستطع أن يوقظ نفسه بأكثر مما يستطيع نائمٌ مسحورٌ في العام الأول من مدة نومه السحرية التي تصل إلى قرن كامل.

قال چو وهو يقدم إليه (دلّي): «أبي، أتعرف من هذه؟».

نظر مستر ولت إليها أولًا، ثم إلى ابنه، ثم إليها ثانية، ثم حاول محاولة غير موفَّقة أن يستخرج نفسًا من غليونه الذي كان قد انطفأ منذ وقتٍ طويلٍ، حثَّه چو على الكلام:

«قل أي كلمة يا أبي ولو كانت حتى «كيف حالك!»».

أجاب مستر ولت: «بالتأكيد يا چوزيف. أوه، حقًّا، ولم لا؟!».

قال چو: «بالتأكيد، لم لا؟».

ردَّ أبوه: «آه! لم لا؟» وبهذا الرد الذي نطقه بصوتٍ خفيضٍ كما لو كان يناقش نفسه في سؤالٍ خطيرٍ، استخدم خنصره الأيمن -لو جاز أن نطلق هذا الاسم على أيٍّ من أصابعه السمينة- ليضغط التبغ في غليونه، وما لبث أن صمت مجدّدًا.

وهكذا جلس نصف ساعة على الأقل، رغم أن (دلّي) عبَّرت له اثنتي عشرة مرة تقريبًا -بأقصى ما في جعبتها من أساليب التودُّد- عن رجائها

ألَّا يكون غاضبًا منها. هكذا ظلَّ جالسًا نصف ساعة بلا حراكٍ، وهو أشبه ما يكون بقنينة لعب خشبية! وفي نهاية هذه المدة، انفجر بغتةً ومن دون إنذارٍ -مقلقًا الشابين أيَّما إقلاق- في ضحكة جهورية قصيرة جدًّا مكرِّرًا:

«بالتأكيد يا چوزيف. أوه، نعم. ولم لا؟!».

ثم خرج يتمشَّى!

* * *

الفصل التاسع والسبعون

لم يمشِ چون العجوز قريبًا من ورشة (المفتاح الذهبي)، فبين المفتاح الذهبي و(الأسد الأسود) ثَمَّ متاهة من الشوارع كما يعرف كلُّ من له دراسة بالاتجاهات النسبية في كلركنول ووايتّشابل، ولم يُعرَف أبدًا عن چون ولعٌ بممارسة المشي. لكن (المفتاح الذهبي) في طريقنا رغم كونها بعيدةً عن طريقه، وعلى ذلك، فإلى (المفتاح الذهبي) سيذهب هذا الفصل.

كان محدثو الشغب قد نزعوا المفتاح الذهبي نفسه -ذلك الذي كان الشعار الجميل لحرفة صانع الأقفال- وداسوه بأقدامهم في غلظة. لكنه الآن كان مرفوعًا عاليًا من جديدٍ، يحفُّه مجد الطلاء الجديد، وكان يستعرض وجوده في شجاعة تفوق ما كان له قديمًا. والحق أنَّ واجهة المنزل بكاملها كانت أنيقةً مرتَّبةً مجددةً في كل شيء، حتى إنه لو كان قد بقي أيٌّ من المتمردين الذين تورَّطوا في الهجوم عليها فإنَّ رؤية المسكن العتيق الجميل المزدهر وقد أنعش على هذا النحو لا بُدَّ أن يكون وقعها عليهم مرًّا كالعلقم.

غير أنَّ مصاريع الورشة كانت مغلقةً، وستائر النوافذ في الأعلى كانت مسحوبةً لأسفل، وبدلًا من مظهر البيت المبهج المعتاد كان هناك مظهرٌ حزينٌ وجوٌّ ثاكل لم يفت الجيران أن يفهموه وهم الذين طالما رأوا

بارنابي المسكين يدخل ويخرج من هذا المنزل في الأيام الخوالي. كان الباب مواربًا، لكنَّ مطرقة صانع الأقفال لم تكن مسموعة. جلست القطُّ مكتئبةً على الكور الرمادي، وبدا كلُّ شيء مهجورًا مظلمًا صامتًا.

على عتبة هذا الباب تقابل مستر هاردال وإدوارد تشستر، أفسح الشاب الطريق ليتقدَّم الآخر، وما إن عبر كلاهما إلى الداخل في جوٍّ من الألفة بدا يشير إلى أنهما قد قرَّرا أن يتلبَّثا هنا، أو أنهما كانا معتادين أن يدخلا ويخرجا في غير حرجٍ، ما إن عبرا إلى الداخل حتى أغلقاه خلفهما.

وبعد أن دخلا القاعة الخلفية العتيقة وصعدا الدرج القصير المائل الشديد الانحدار المصمَّم بشكلٍ جذَّابٍ كما كان قديمًا، استدارا إلى غرفة الجلوس -تلك التي كانت فخر السيدة ڤاردن، ومسرح أعمال مـگز المنزلية سابقًا.

قال مستر هاردال: «أأحضر ڤاردن الأمّ إلى هنا البارحة كما أخبرني؟».

ردَّ إدوارد: «هي في الطابق العلوي الآن، في تلك الغرفة بالأعلى، يقولون إنَّ حزنها يفوق الوصف. ولا أجدني محتاجًا إلى أن أضيف - فإنك تعرف ذلك مسبقًا يا سيدي- أنَّ اهتمام وإنسانية وتعاطف هؤلاء الناس الطيبين لا حدود لها».

«أنا على ثقة بذلك، فلتكافئهم السماء عليه، وعلى أكثر منه! هل ڤاردن خارج البيت؟».

«لقد عاد مع رسولك الذي وصل في اللحظة نفسها تقريبًا التي عاد فيها إلى البيت. كان بالخارج طيلة الليل، لكنك تعرف ذلك بالطبع، أكان معك معظم ذلك الوقت؟».

«كان معي، من دونه كنت سأشعر بافتقاد يدي اليمنى. ذلك الرجل أسنُّ مني، غير أنَّ شيئًا لا يمكن أن يهزمه».

«صاحب أسعد قلب وأشجعه في العالم».

«له الحق في أن يكون كذلك، له الحق. لم يعِش على هذه الأرض مخلوقٌ أفضل منه، وهو يحصد ما سبق وبذره، لا شيء زيادة».

قال إدوارد بعد أن تردَّد برهةً: «ليس الناس كلُّهم من السعادة بحيث يحصدون ما سبق وبذروه».

ردَّ مستر هاردال: «أكثر مما تتخيل، نحن نلاحظ الحصاد أكثر مما نرى وقت البذار، وأنت تفعل مثل ذلك معي».

الحق أن وجهه الشاحب المنهك وهيئته الكئيبة قد أثَّرا أيَّما تأثير في تلك الملاحظة، حتى لقد وجد إدوارد نفسه لحظةً عاجزًا عن الرد.

قال مستر هاردال: «تبًّا تبًّا، لم تكن قراءة فكرة طبيعية كهذه عملًا بالغ الصعوبة، غير أنك مخطئ رغم ذلك. لقد أخذت نصيبي من الأحزان، وربما كان أكبر من أنصبة غيري، لكني لم أحتمله كما يجب. انكسرت حيث كان ينبغي لي أن أنحني، وعكفت على التأمُّل الكئيب حين كان الأجدى لروحي أن تختلط بخلق الله العظيم. إنَّ من يتعلَّمون الصمود هم أولئك الذين يدعون العالم كلَّه أخًا لهم، أمَّا أنا فقد استدبرت العالم، وها أنا أدفع الثمن».

كان يطيب لإدوارد أن يتدخَّل مقاطعًا، غير أن هاردال واصل الحديث من دون أن يعطيه فرصة:

«لم تعُد هناك فرصة لتفادي ذلك الآن، إنني أفكر أحيانًا أنني لو كان

ينبغي لي أن أعيش حياتي مرة أخرى لتداركت هذا الخطأ. وحين أبحث في نفسي أكتشف أنني كنت سأتداركه لا حبًّا فيما هو صحيح، وإنما لأجل نفسي. لكنني حتى حين أتخذ هذه القرارات الأفضل، تعاف نفسي تلقائيًّا فكرة معاناة ما عانيته مرة ثانية، وهنا أجد ذلك التأكيد الكريه أنني يجب أن أكون الشخص نفسه، رغم أنه بإمكاني أن ألغي الماضي وأبدأ من جديدٍ، معي خبرة الماضي لتهديني».

قال إدوارد: «لا، أظنك مبالغًا في تأكيد ذلك الأمر».

أجابه مستر هاردال: «أنت تعتقد ذلك، وأنا سعيدٌ باعتقادك هذا. أمَّا أنا فأعرف بنفسي، ولذا أجدني أسوأ ظنًّا بها. دعنا نترك هذا الموضوع إلى آخر ليس ببعيدٍ عنه تمامًا كما قد يبدو لأول وهلة. سيدي، أنت ما زلت تحب ابنة أخي، وهي ما زالت متعلِّقةً بك».

قال إدوارد: «لقد أكدت هي لي ذلك بفمها، وأنت تعرف –أنا واثق أنك تعرف– أنني لن أتخلَّى عن حبِّها مقابل أي عطيَّة قد تعطيني الحياة إياها».

قال مستر هاردال: «إنك صريحٌ شريفٌ نزيه. لقد دفعتني دفعًا إلى اعتقاد ذلك فيك حتى حين كانت نفسي مفعمةً بالحقد تجاهك، وأنا أصدِّقك، انتظر هنا إلى أن أعود».

وبينما يتكلم غادر الغرفة، لكنه سرعان ما عاد ومعه ابنة أخيه، ثم قال وهو ينقل بصره بينهما:

«في المرة الأولى والوحيدة التي وقف فيها ثلاثتنا معًا تحت سقف بيت أبيها، قلتُ لك أن تنتهي عمَّا تحاوله، وأمرتك ألَّا تعود أبدًا».

قال إدوارد: «ذلك هو الحدث الوحيد الذي نسيته مما يتعلَّق بحبِّنا من أحداثٍ».

قال مستر هاردال: «إنّ لك اسمًا كان لي مبررٌ عميقٌ لتذكُّره. حرَّكتني وحضَّتني على ما فعلت ذكريات إساءة شخصية وإهانة. لكن حتى في هذه اللحظة لا أستطيع أن أتهم نفسي بأنني وقتذاك أو في أيِّ وقتٍ قد عميت عن رغبتي العميقة في إسعادها السعادة الصادقة، أو بأنني قد تصرَّفت بأيِّ دافعٍ -رغم ما شاب تصرُّفي من خطأ- غير تلك الأمنيَّة الوحيدة الجادَّة المخلصة أن أكون لها الأب الذي فقدته بقدر ما تسمح طبيعتي الناقصة».

صاحت (إمّا): «عمي العزيز، إنني لم أعرف أبًا إلَّاك، لقد أحببت ذكرى آخرين، لكنِّي أحببتك أنت طيلة حياتي. لم يكن أب أبدًا أحنَّ على طفلته ممَّا كنت عليَّ، باستثناء ساعة واحدة قاسية، مذ وعيت على الدنيا».

أجابها: «إنك تتحدثين منحازةً إليَّ، ورغم ذلك فلا يسعني أن أرجو أن لو كنت أقلَّ انحيازًا، فإنَّ سماع هذه الكلمات يسعدني، وسيسعدني أن أتذكَّرها حين تتفرَّق بنا السُّبل، سعادةً لا يمكن لشيء أن يمنحني إيَّاها إلَّا كلماتك. اصبر عليَّ دقيقةً واحدةً يا إدوارد، فإننا -هي وأنا- قد ظللنا معًا أعوامًا طوالًا، ورغم أني أعتقد أني باستيداعها إيَّاك أختم على سعادة مستقبلها، فإنني أجد في ذلك مشقَّة».

احتضنها بقوة، وبعد صمت دقيقة واصل: «لقد أسأتُ إليكَ أيُّها السيد، وأطلب منك الصفح، لا بعباراتٍ مكرَّرة أو باستعراض الحزن وإنما بجدية وإخلاصٍ. وبنفس الروح أعترف لكليكما أنه قد مرَّ وقتٌ

تآمرت فيه على خيانتكما وتزييف الحقائق، وهو شيء وإن لم أكن قد فعلته بنفسي، فقد تورَّطتُ في السماح به لتفريقكما».

قال إدوارد: «إنك تحاكم نفسك بقسوة بالغة، دع ما فات يموت».

أجابه: «إنَّ ما فات يقوم من رقدته ليحاكمني حين أنظر ورائي، وليس ذلك للمرة الأولى الآن. لا يمكنني أن أفترق عنكما دون أن تسامحاني تمامًا، فإنني لم يبقَ لي الكثير لأشارك به في الحياة العملية، ولديَّ ما يكفيني من دواعي الندم التي لا محيص لي عن حملها معي إلى حياة العزلة، ولا أحتاج إلى المزيد منها».

قالت (إمّا): «كلانا يباركك، لا تخلط أبدًا أفكارك عني -أنا المدينة لكَ بالكثير من الحب والشعور بالواجب- بأيِّ شيء إلا المودة التي لا تموت والامتنان للماضي والأمنيات المشرقة للمستقبل».

ردَّ عمُّها بابتسامة كئيبة: «المستقبل كلمة مشرقة لك، وصورته يجب أن تكلَّل بالأماني العذاب. أمَّا بالنسبة إليَّ فهو أمرٌ مختلفٌ، غير أنه سيكون مستقبلًا مفعمًا بالسلام، وأرجو أن يكون خلوًا من الهم والألم. حين تتركان إنگلترا سأتركها أنا الآخر. هناك أديرة في الخارج، والآن وقد اطمأنَّت الحياة بأكبر هدفين في حياتي، فلا أعرف لي بيتًا أفضل من أحدها. ها أنتما تحزنان لما أقول، ناسيين أنَّ العمر يتقدَّم بي وأنَّ رحلة حياتي قد شارفت الانتهاء. حسنًا، سنتحدث عن ذلك لاحقًا، لا مرة ولا اثنتين، بل مرات عددًا، وستنصحينني نصحًا مبهجًا يا (إمّا)».

سألته بنت أخيه: «وستعمل بنصيحتي؟».

أجابها بقبلة: «سأستمع إليها، وعليك أن تثقي بأن سيكون لها اعتبارها

لديَّ. ماذا تبقَّى لأقوله؟ لقد قضيتما مؤخّرًا وقتًا طويلًا معًا، ومن الأفضل والأنسب ألَّا أدخل إلى الظروف التي سبَّبت انفصالكما في الماضي وبذرت بينكما بذور الريبة والشقاق».

غمغمت (إمّا): «أفضل، أفضل جدًّا».

قال مستر هاردال: «إنني أعترف بأنني قد كانت لي يدٌ في حوك تلك الظروف، رغم أنني فعلت ذلك مرغمًا. فليحرص كل إنسان على ألَّا يحيد ولو شعرةً عن صراط الشرف اللّاحب بتلك الحجَّة المقنعة قائلًا إنَّ حسن مقصده يبرِّر وسيلته. كل الغايات الطيبة يمكن الوصول إليها بوسائل طيبة، أمَّا تلك التي لا سبيل إليها بالطيب من الوسائل فما هي إلَّا غايات خبيثة، لنا أن نعتبرها كذلك فور أن تلوح لنا، فننبذها في التوِّ».

ثم نقل بصره منها إلى إدوارد وقال بنبرة ألطف:

«في الثروة والمال أنتما الآن متعادلان تقريبًا، لقد ظللت الوصيَّ الأمين عليها، وأرغب في أن أضيف -علامةً على حبّي لها- إلى ما تبقَّى من الأملاك الأكبر التي تركها لها أخي، مبلغًا ضئيلًا لا يكاد يستحقُّ الذكر، أجدني الآن في غير حاجة إليه. لقد سرَّني أنكما مسافران إلى الخارج، فليبقَ منزلنا البائس على ما صار إليه من أطلالٍ، وحين تعودان بعد أعوامٍ قليلة مزدهرة فستأمران ببيتٍ أفضل وأحسن حظًّا، أنفترق ونحن أصدقاء؟».

تناول إدوارد يده الممدودة وصافحها في حرارة، قال مستر هاردال وهو يفعل مثله:

«إنَّك لستَ بالبطيء الاستجابة ولا بالبارد في ردود فعلك، وحين أنظر إليك الآن وأعرفك أشعر أنه يطيب لي أن اختارك بعلًا لها. كان أبوها

ذا طبيعة كريمة، وكان سيسعد بك أيَّما سعادة، إنني أعطيك يدها باسمه وبمباركته. ولو كان مقدَّرًا لي أن أفارق العالم بينما أفعل ذلك، فإنني أفارقه وكلانا أرضى عن صاحبه وأسعد به ممَّا عشنا أيامًا طويلة».

طوَّقها بذراعيه، وكان موشكًا على مغادرة الغرفة لولا أوقفته في ممشاه إلى الباب جلبة عظيمة على مبعدة جعلتهم جميعًا يجفلون صامتين. كان ثَمَّ تصايحٌ جهيرٌ ممتزجٌ بهتافاتٍ صاخبة تشقُّ الهواء نفسه. أخذت الجلبة تقترب وتقترب كلَّ لحظة في سرعة بالغة، حتى لقد انفجرت إلى اشتباك أصوات يصمُّ الآذان لدى ركن الشارع بينما يتسمَّعون إليها.

قال مستر هاردال مسرعًا: «يجب أن يوقف هذا ويهدأ، كان ينبغي لنا أن نتوقَّع هذا ونحتاط له، سأخرج إليهم على الفور».

لكن قبل أن يصل إلى الباب وقبل أن يتمكَّن إدوارد من التقاط قبَّعته ليتبعه، أوقفهم في أماكنهم صراخٌ عالٍ آتٍ من الطابق العلوي، وما لبثت امرأة صانع الأقفال التي هرعت إلى داخل الغرفة راكضةً لتحتمي بذراعي مستر هاردال أن صاحت:

«إنها تعرف الأمر كله يا سيدي العزيز، تعرف الأمر كلّه! لقد أفضينا إليها بالأمر تدريجيًّا، وهي الآن مستعدة تمامًا!».

وبعد أن قالت ذلك وشكرت السماء بحرارة بالغة وحماسٍ عظيمٍ، سقطت السيدة الطيبة -كعادة ربَّات البيوت كلما اشتدَّت بهنَّ الإثارة- مغشيًّا عليها!

هرعوا إلى النافذة ورفعوا مصاريعها ونظروا إلى الشارع المزدحم. وبين الحشد الكثيف من الناس الذين لم يكن أحدهم ليسكن لحظةً كان

يمكن تمييز وجه صانع الأقفال المتورِّد وقوامه المتين وهو يضرب بيديه فيما حوله كما لو كان يصارع بحرًا متلاطم الأمواج. كان تارةً يدفع إلى الوراء عشرين ياردةً وتارةً إلى الأمام قريبًا من باب منزله، مرة إلى الوراء ثانية، ثم يلصق بالمنازل المقابلة لمنزله، أو بتلك المتاخمة له، وفي لحظة يحمل على صعود عدة سلالم ليحيِّيه خمسون رجلًا بأيدٍ ممدودة، بينما الجمع الصاخب بأكمله يمدُّ رقابه ويهتف بأقصى ما أوتي من قوَّة. ورغم أنَّ صانع الأقفال كان حقًّا وبلا مبالغة بسبيله إلى أن تمزِّقه الأيدي وسط ذلك الحماس العام، فإنه طفق يردِّد هتافاتهم رابط الجأش إلى أن بحَّ صوته كما بحَّت أصواتهم، وفي مزيد فرحة ومزاج طيب أخذ يلوِّح بقبَّعته إلى أن سطع ضوء الشمس عبر ثقب بين حافة القبعة وأعلاها.

لكنَّه خلال هذا الدفع من يدٍ إلى يدٍ والتحرك مدفوعًا ذهابًا وجيئةً والانجراف بأمواج الزحام هنا وهناك -وهي أشياء لم تؤثِّر في سلامه النفسي بأكثر مما لو كان محض قشَّة على سطح الماء، بل كان يبدو أفرح وأكثر إشراقًا مع كل مجاهدة من هذه- خلال ذلك كلِّه لم يفلت ولا مرة تلك الذراع التي كان يقبض عليها بقوة متأبِّطًا إياها. كان أحيانًا يستدير ليضرب ظهر صديقه مربتًا، أو ليغمغم في أذنه بكلمة تشجيع مخلصة، أو ليحيِّيه بابتسامة، لكنَّ همَّه الأعظم كان أن يحميه من تضاغط الجموع ويؤمِّن ممشاه إلى ورشة (المفتاح الذهبي). وفي استسلامه وخوفه وفزعه وشحوبه وتساؤله وتحديقه إلى الجموع كما لو كان قد قام لتوِّه من بين الموتى ويشعر بنفسه شبحًا بين الأحياء، في ذلك كلِّه كان بارنابي -لا نعني روح بارنابي، وإنما بارنابي بشحمه ولحمه ونبضه وأوتاره وأعصابه

وقلبه النابض وعاطفته الجامحة- متعلقًا بصديقه العجوز المتين، يتبعه إلى حيثما قاده.

وهكذا وصلا مع الوقت إلى الباب الذي كانت أيد مرحِّبة تمسك به مفتوحًا في استقبالهم. وبعد أن تسلَّلا إلى الداخل وأغلقا الباب في وجه الجموع بالقوة، وقف غابرييل بين مستر هاردال وإدوارد تشستر، بينا هرع بارنابي صاعدًا الدرج حتى جثا إلى جوار فراش أمه.

هتف صانع الأقفال بين لهاثه بمستر هاردال: «هكذا تكون النهاية المباركة لأفضل يوم عملٍ أنجزناه يا سيدي. يا للأوغاد! لقد احتاج الأمر إلى أن نصارع حقًّا لنبتعد عنهم. لقد فكرت حتى -مرة أو اثنتين- أنهم كثير جدًّا علينا لفرط طيبتهم!».

كانوا قد قاتلوا طيلة يوم أمس ليستنقذوا بارنابي من المصير الذي ينتظره. ولمَّا أخفقوا في محاولاتهم في أول جهة حاولوا مخاطبتها، جدَّدوا المحاولة في جهة أخرى. فلمَّا أخفقوا في الثانية بدؤوا من جديدٍ في منتصف الليل، فلم يقصروا مقصدهم على القاضي وهيئة المحلِّفين الذين حاكموه، وإنما قصدوا كذلك أصحاب النفوذ في البلاط، وإلى أمير (والز) الشاب، بل إنهم امتدُّوا بالتماساتهم إلى حجرة انتظار الملك نفسه. فلما نجحوا أخيرًا في إثارة الاهتمام بصالحه وإمالة النفوس إلى الاستجواب المحايد في قضيته، قابلوا الكاهن في فراشه متأخرًا جدًّا، في الثامنة صباح اليوم. وكانت نتيجة الاستجواب المدقق -ذلك الذي صنعوا فيه معروفًا آخر طيبًا إضافةً إلى جعله يحدث من الأساس، وهم الذين قد عرفوا الشاب المسكين منذ طفولته- أن صدر عفوٌ خالصٌ عن بارنابي

ردچ بين الحادية عشرة والثانية عشرة، وختم، وعهد به إلى جنديٍّ من الخيَّالة لينقله على الفور إلى مكان تنفيذ الإعدام. وقد وصل هذا المبعوث إلى البقعة المرادة في اللحظة التي ظهرت فيها العربة التي جاءت ببارنابي، ولمَّا أُعيد بارنابي إلى السجن مضى مستر هاردال بعد أن اطمأنَّ إلى أنَّ كلَّ شيء قد تمَّ بأمانٍ من ميدان بلومزبري إلى ورشة المفتاح الذهبي، تاركًا لغابرييل تلك المهمة المحبوبة: أن يأتي ببارنابي إلى البيت ظافرًا.

قال صانع الأقفال بعد أن صافح كلَّ رجلٍ في المنزل وعانق كلَّ امرأة خمسًا وأربعين مرة على الأقل: «لستُ في حاجة إلى أن أقول إنني لم أرد أن أجعل من الأمر موكبَ نصرٍ إلَّا فيما بيننا، لكنَّا ما إن خرجنا إلى الشارع حتى عُرِفنا وبدأ هذا الصخب»، ثم أضاف وهو يمسح وجهه القرمزي: «وإنني إذا ما خُيِّرت بين الأمرين -خاصة وقد خبرت كليهما- فإنني أفضِّل أن ينتزعني جمعٌ من الأعداء من بيتي على أن يرافقني إليه جمعٌ من الأصدقاء!».

غير أنه كان من الواضح جدًّا أنَّ ذلك لم يكن إلَّا كلامًا من وراء قلبه، وأنَّ الأمر بتمامه أسعده سعادةً بالغةً، إذ إنه لمَّا ظلَّ الناس يصخبون في الخارج ويهتفون كما لو كانت أصواتهم طازجةً ما زالت وصالحةً للهتاف لأسبوعين زيادةً، أرسل إلى الطابق العلوي مستدعيًا (غرپ) -الذي وصل إلى البيت على ظهر سيده، وعبَّر عن امتنانه لما أسدته الجموع من أفضال بسحب بعض الدم من كل أصبع كان يظهر في مرمى منقاره- وما لبث أن قدَّم نفسه في نافذة الطابق الأول والطائر على ذراعه، وطفق يلوِّح بقبَّعته مجددًا إلى أن صارت تتدلَّى من يده بمزقة يمسكها بين إبهامه وسبَّابته. ولمَّا تلقَّت الجموع هذا الظهور بالهتاف المناسب، واستعيد الصمت

بدرجة ما بعد ذلك، شكرهم على تعاطفهم، ثم سمح لنفسه بأن يخبرهم بأنَّ هناك شخصًا مريضًا بالمنزل، ومن ثمَّ فقد اقترح عليهم أن يهتفوا ثلاث هتافات بحياة الملك چورچ، وثلاثًا أخرى لإنگلترا العتيقة، ثمَّ أن يختموا هذا الطقس بثلاث هتافات ليست لشيء بعينه. وإذ وافقت الجموع، فقد استبدلت بالهتافات التي ليست لشيء بعينه هتافات باسم غابرييل ڤاردن، ثمَّ منحوه هتافًا زيادةً وتفرَّقوا في روحٍ معنوية عالية.

أي تهنئات تبادلها من كانوا في (المفتاح الذهبي) حين تركوا وحدهم، وأي فيضٍ من الفرح والسعادة تدفَّق بينهم، وإلى أيِّ مدىً كانت فرحة بارنابي فوق طاقة الكلمات، وكيف طفق يسعى بين الحضور في فرحٍ مجنونٍ إلى أن هدأ تمامًا ليتمدَّد على الأرض جوار أريكة أمِّه ويسقط في نومٍ عميقٍ، كل هذه أمورٌ لا حاجة إلى حكيها. ومن الجيد أن تصادف أنَّ هذه الأمور كانت من هذا النوع، فإنه لو لم يكن بدٌّ من حكايتها لكان ذلك من الصعوبة بمكانٍ.

وقبل أن نترك هذه الصورة المشرقة فربما يكون من الجيد أن نلقي نظرةً على أخرى مظلمة مختلفة تمامًا، لم تطَّلع عليها إلَّا قلة من الأعين في الليلة نفسها.

كان المشهد فناء كنيسة، والوقت منتصف الليل، والأشخاص إدوارد تشستر وقسًّا وحفَّار قبور وأربعةً يحملون نعشًا بسيطًا. وقفوا جميعًا حول قبرٍ حُفِر لتوِّه، وكان أحد حملة النعش يرفع عاليًا مصباحًا خافت الإضاءة كان مصدر الضوء الوحيد، وقد أخذ يرسل أشعَّته الواهنة إلى كتاب الصلوات. وضع الرجل المصباح لحظةً على النعش حين كان هو ورفاقه

بسبيلهم إلى إنزال النعش. لم يكن ثَمَّ نقشٌ على غطاء النعش.

أخذ التراب ينهال كئيبًا على المثوى الأخير لذلك الرجل المغفل من الاسم، وصوت انثياله يترك صدىً موحشًا حتى في آذان أولئك الذين اعتادوا هذا الصوت ممّن حملوا الجثمان إلى القبر. مُلِئ القبر إلى قمَّته ووطّئ بالأقدام ثمّ ترك الجميع هذه البقعة معًا.

سأل القسّ إدوارد: «ألم تره أبدًا على قيد الحياة؟».

«كثيرًا منذ أعوام، ولم أكن أعرف أنه أخي».

«ولم ترّه مذ ذاك؟».

«أبدًا، أمس رفض رفضًا باتًّا أن يراني، رغم أني طلبت أن يُلحّ عليه في ذلك مرارًا».

«ورفض رغم ذلك؟ يا لها من قسوة ومخالفة للطبيعة».

«أتعتقد ذلك؟».

«هل أفهم من ذلك أنك لا تعتقد ذلك؟».

«أصبت. إننا نسمع العالم يعجب كلّ يوم من الوحوش جاحدي الجميل. ألم يخطر ببالك أبدًا أنّ العالم يبحث عن وحوش المودّة كما لو كانوا أشياء حقيقيّةً مسلَّمًا بوجودها؟».

إلى هنا كانوا قد وصلوا إلى البوّابة، وبعد أن تمنى كلّ لرفاقه ليلةً طيّبةً، مضى كلّ إلى سبيله.

* * *

الفصل الثمانون

في تلك الظّهيرة بعد أن تخلّص غابرييل من إنهاكه بالنّوم وحلق ذقنه واغتسل وارتدى ملابسه وأنعش نفسه من قمّة رأسه حتى أخمص قدمه، وبعد أن تغدّى وسلّى نفسه بتدخين غليونه وجرع جرعةً زيادةً من (توبي) وأخذ قيلولته في مقعده الكبير المريح وتناقش في هدوء مع السيدة ڤاردن حول كلّ ما حدث ويحدث وكلّ ما هو موشك على الحدوث في محيط اهتمامهما المنزليّ، بعد ذلك كلّه جلس صانع الأقفال إلى منضدة الشّاي في القاعة الخلفيّة الصغيرة وهو أنعم رجل عجوز وأشدّه مرحًا وحماسًا وتورّدًا وأوفره حظًّا من الرضا، سواء في بريطانيا العظمى أو خارجها.

هكذا جلس وعينه البرّاقة مستقرّة على السيدة ڤاردن ووجهه المشرق مفعم بالسّرور وصديريّه الواسع يبتسم في كلّ انثناءة منه، ومزاجه الفرح مطلٌّ من أسفل المنضدة في استدارة ساقيه ذاتها، منظر كفيل بأن يقلب خلّ كراهية الإنسانيّة حليب طيبة صافيًا. هكذا جلس يراقب امرأته وهي تزيّن الغرفة بالزّهور على شرف (دلّي) وچوزيف ولت اللذين خرجا يمشيان وطفقت غلّاية الشاي تغنّي لهما في حبورٍ على الموقد عشرين دقيقةً كاملةً وتغرّد كما لم تغرّد غلّاية من قبل، واللذين لأجلهما خرج في أبَّهة مجده أفضل طقمٍ من الخزف الصّينيّ الحقيقيّ الذي لا شية فيه، محلّىً بعددٍ

من الصّينيّين ذوي الوجوه المدوّرة وهم يرفعون شمسيّاتهم العريضة، واللذين لفتح شهيّتهما كان لحم الخنزير الصافي الشفّاف التّارّ المزدان بأوراق الخسّ الخضراء الباردة والخيار الزّكيّ الرائحة موضوعًا على منضدة ظليلة مغطّاة بقماشٍ في بياض الثّلج، واللذين للذّتهما وضعت المربّيات والفاكهة المحفوظة والكعك المقرمش وغيره من المخبوزات جاهزةً جميعًا للأكل مع كعك هلالي جيّد الصّنع وخبز الكوخ وغيره من أنواع الخبز البنّيّ والأبيض في وفرة غنيّة، واللذين على شرف شبابهما أضحت السيدة ڤاردن نفسها شابّةً تمامًا، ووقفت هنالك في فستان بالأحمر والأبيض متّسقة القوام ناهدة الصّدر متورّدة الخدّين والشّفتين، لا يعيبها ظلع ولا عرج، ضاحكة الوجه والمزاج، تسرّ العين في كلّ شيء. جلس صانع الأقفال وسط هذه المتع كلّها كشمسٍ تشرق عليهم جميعًا، مركز النّظام ومصدر الضوء والحرارة والحياة والاستمتاع الصّريح في عالم البيت المشرق.

ومتى كانت (دلّي) في عمرها كلّه كما هي هذه الظّهيرة؟ أن يرى المرء كيف دخلت وذراعها في ذراع چو، وكيف حاولت ألّا تحمرَّ خجلًا أو تبدو مرتبكةً، وكيف تظاهرت بأنّها لا تهتمّ بأن تجلس إلى جواره على المنضدة، وكيف همست في أذن أبيها مداعبةً بألّا ينكّت، وكيف كانت خفقة صغيرة حارّة من السعادة تأتي وتذهب بلونها وتجعلها تقوم بكلّ شيء على النّحو الخاطئ، وإن كان آسرًا في خطئه حتى ليبدو أفضل من النّحو الصحيح! كان يطيب لصانع الأقفال أن يواصل النظر إلى هذه المشاهد أربعًا وعشرين ساعةً متّصلةً – كما أخبر بنفسه امرأته حين انسحبا إلى غرفتهما ليلًا – دون أن يريد لها أن تنتهي.

وكذلك الذّكريات التي كانوا يمرحون بتذكّرها في أثناء تناولهم ذلك الشاي الذي طال احتساؤهم إيّاه! ذلك السّرور الذي اكتسته ملامح صانع الأقفال وهو يسأل چو إن كان يذكر تلك الليلة العاصفة في مايپول التي سأل فيها عن (دلّي) أوّل مرّة، وذلك الضحك الذي ضحكوه جميعًا حين ذكروا تلك الليلة التي خرجت فيها إلى الحفل الرّاقص في التّختروان، والأسلوب القاسي الذي مازحوا به السيدة ڤاردن بخصوص وضعها تلك الزّهور خارج هذه النافذة نفسها، والصعوبة التي وجدتها السيدة ڤاردن أوّلًا في أن تنضمّ إلى ذلك الضحك الذي كانت هي موضوعه، ثمّ إدراكها الخارق للنّكتة حين تغلّبت على تلك الصعوبة، وبوح چو باليوم والساعة المحدّدين حين وعى بنفسه لأوّل مرّة غارقًا في حبّ (دلّي)، واعترافات (دلّي) الخجلة التي صدر نصفها عنها طواعيةً واستدرجت إلى الإدلاء بالنصف الآخر، بخصوص الوقت الذي أرّخت ابتداءً منه اكتشافها أنّها «لا تتضايق» من چو، وهنا كان كنزٌ من المرح ووقودٌ متجدّدٌ للحوار.

بعد ذلك كان هناك الكثير ليقال عن شكوك السيدة ڤاردن وقلقها الأموميّ وريبها الأريبة، واتّضح ألّا شيء كان يخفى على نفاذ بصيرة السيدة ڤاردن وحكمتها البالغة. كانت تعرف بالأمر منذ البداية. رأته من بوادره الأولى. وكانت دائمًا تتوقّعه. بل إنها كانت واعيةً به قبل أن يعيه طرفاه الرئيسان. وكانت تقول في نفسها (إذ كانت تذكر كلماتها بالضبط) «إنّ (ولت) الشّابّ يهتمّ بالتأكيد لأمر (دلّي)، وعليَّ أن أهتمَّ لأمره»، وعلى ذلك فقد اهتمَّت لأمره، ولاحظت كثيرًا من الأحداث العرضيّة – ذكرتها جميعًا بدقّة – التي كانت من الهامشيّة بحيث لا يسع إنسانًا غيرها أن يخرج

منها بشيء مفهوم حتى الآن، وبدا أنّها من البداية إلى النهاية قد تحلّت ببراعة لا متناهية وإدارة للأمور بالغة الحذق.

وبالطبع لم تنس تلك الليلة التي أراد چو أن يركب فيها إلى البيت إلى جوار الكرسيّ وأصرّت فيها السيدة ڤاردن على عودته، ولا تلك الليلة التي سقطت فيها (دلّي) مغشيًّا عليها حين ذُكِر اسمه أمامها، ولا تلك الأوقات الكثيرة التي كانت فيها السيدة ڤاردن المتيقّظة الحصيفة أبدًا تجد فيها (دلّي) ساهمةً في غرفتها. وباختصارٍ، لم ينُسَ شيء، وكان كلّ شيء يؤدّي بهم بطريقة ما أو بأخرى إلى استنتاج أنّ تلك هي أسعد ساعة عاشوها جميعًا، وبناءً على ذلك، أنّ كلّ ما حدث قد حدث على أفضل نحو ممكن، وليس في الإمكان أبدع ممّا كان.

وبينا هم غارقون في وهج هذا الحديث أفزعتهم طرقة على الباب المؤدّي من الشارع إلى الورشة، ذلك الباب الذي حرصوا على إغلاقه طيلة اليوم حتى ينعم البيت بالهدوء. وأصرّ چو بدافع الواجب ألّا يفتح أحدٌ الباب إلّاه، وعلى ذلك ترك الغرفة لهذا الغرض.

ومن المؤكّد أنّ ذلك كان سيبدو غريبًا جدًّا لو كان چو قد نسي الطريق إلى هذا الباب، وحتى لو كان قد نسي، فإنّ الباب كان من الضخامة وكان مواجهًا له تمامًا بحيث لا سبيل أمامه إلى أن يخطئه. غير أنّ (دلّي) – ربّما لأنّها قد كانت في تلك الحالة الخفّاقة التي ذكرناها آنفًا، وربّما لأنّها اعتقدت أنه لن يستطيع أن يفتح الباب بذراعه الواحدة، إذ لا يمكن أن يكون عندها مبررٌ آخر– هرعت خلفه، وتوقّفا طويلًا في الممرّ –لا ريب بسبب توسُّلات چو إليها ألا تعرِّض نفسها لتيَّارات هواء تموز التي لا بُدَّ

أنّها ستقتحم البيت بمجرّد أن يفتح هذا الباب- حتى لقد تكرّرت الطرقات بأسلوبٍ أكثر إفزاعًا من ذي قبل.

صاح صانع الأقفال: «هل سيفتح أحدٌ هذا الباب أم أنَّ عليَّ أن آتي؟».

على ذلك عادت (دلّي) إلى القاعة راكضةً محمرّة الوجه مشرقة الغمَّازتين، وفتح چو الباب بجلبة قوية ومظاهر أخرى للعجلة العنيفة. ابتدره صانع الأقفال حين عاود الظّهور:

«حسنًا، ما الأمر؟ إيه يا چو؟ ممّ تضحك؟».

«لا شيء يا سيّدي. إنه آتٍ إلى هنا».

«من ذلك الآتي إلى هنا؟ ماذا سيأتي إلى هنا؟!».

ولمّا كانت السيدة ڤاردن في حيرة لا تقلّ عن حيرة زوجها فإنها لم تزد على أن هزَّت رأسها لتجيب نظرته المتسائلة، وهكذا أدار صانع الأقفال عجلات كرسيّه ليظفر بنظرة أفضل إلى باب الغرفة، وأخذ يحدِّق إليه بعينين مفتوحتين على اتّساعهما، وفي وجهه المرح يرتسم تعبيرٌ يمتزج فيه الفضول بالعجب.

وبدلًا من أن يظهر على الفور شخصٌ أو عدّة أشخاص، سمعت جمهرة من الأصوات اللافتة، في الورشة أوّلًا، وبعد ذلك في الممرّ الصغير المظلم بين الورشة والقاعة كما لو كان ثمّ خزانة صعبة المراس أو قطعة أثاث ثقيلة يحاول إدخالها قدرٌ من الجهد البشريّ غير كافٍ لإنجاز هذه المهمّة. وأخيرًا بعد شيء كثير من المجاهدة والنّقل وتلطيخ الحائط على الجانبين، فُتِح الباب عنوةً كما لو كان كبش أقرن قد فتحه، وما لبث صانع الأقفال أن ضرب فخذه وهو ينظر في ثباتٍ إلى ما ظهر خلف الباب، ورفع

حاجبيه، وفتح فمه صائحًا بصوتٍ جهير معبِّر عن أقصى درجات الارتياع: «اللعنة إن لم تكن هذه مـگز وقد عادت!».

وما إن سمعت الفتاة الشابّة التي سمّاها هذه الكلمات حتى تركت صبيًّا صغيرًا وصندوقًا بالغ الضخامة كانا يرافقانها، واندفعت إلى داخل الغرفة بسرعة سقطت لها قلنسوتها من فوق رأسها، وشبَّكت يديها اللتين كانت تمسك بهما زوجين من النعال الخشبية ورفعت عينيها إلى السقف في ولاءٍ وذرفت طوفانًا من الدموع.

صاح صانع الأقفال وهو ينظر إليها في إحباطٍ بالغٍ: «القصة القديمة! لقد وُلِدَت لتعكِّر الصفو، هذه الشابّة! لا سبيل إلى منع ذلك!».

صاحت مـگز: «هو يا سيّدي، هو يا سيّدتي! أفي مقدوري أن أكتم مشاعري في هذه اللحظات التي التمَّ فيها الشّمل ثانية؟ هو يا سيّد (واردن)، ها هي البركة بين الأقارب هنا! هنا العفو عن الإساءات وهنا المودّة!».

أخذ صانع الأقفال ينقل بصره بين امرأته و(دلّي)، ومن (دلّي) إلى چو، ومنه إلى مـگز، وحاجباه ما زالا مرفوعين وفمه ما زال مفتوحًا. وحين عادت عيناه إلى مـگز استقرّتا عليها في دهشة.

صاحت مـگز بفرحة هستيرية: «أن يفكر المرء أن مستر چو والآنسة (دلّي) العزيزة قد اجتمع شملهما حقًّا بعد كل ما قيل وفعل مما يناقض ذلك! أن أراهما جالسين معه ومعها، مبهجين أليفين وادعين في كلّ شيء، وأنا لا أدري شيئًا عن ذلك، غير موجودة لأعدّ العدّة لتناولهما الشاي. هو! ما أقسى ذلك، لكن ما أجمل ما يوقظه فيَّ من مشاعر!».

وهنا أخذت الآنسة مـگز تقرقع بنعليها الخشبيّين كما لو كانا زوجين

من الصّنوج، إمَّا عرضًا لكونها أرادت أن تشبِّك يديها، وإمَّا في غمرة فرحتها الورعة، ثمّ واصلت بألطف نبرة قائلةً:

«وهل ظنَّت سيّدتي –هو، يا إلهي! هل ظنَّت أن خادمتها مـگز التي دعمتها في أزماتٍ كثيرة وفهمت طبيعتها في الوقت الذي مضى فيه من ينوون الخير ولكن يتصرفون بخشونة يجرحون مشاعرها جروحًا غائرةً، هل ظنّت أنَّ خادمتها مـگز ستتركها أبدًا؟ هل ظنّت أنّ مـگز –رغم كونها لا تزيد على أن تكون خادمةً تعرف أنّ الخدمة ليست ميراثًا يرفع صاحبه– ستنسى أنها كانت دائمًا الأداة المتواضعة التي كانت تهدّئ الأمور بينهما كلّما توتّرت علاقتهما وكانت دائمًا تحدِّث سيّدها عن وداعة وسماح ميول سيّدتها؟ هل ظنّت أنَّ مـگز لا تشعر بأيّ رباط؟! هل ظنّت أنَّ أجرتها كانت هدفها الوحيد؟».

لم تحر السيدة ڤاردن جوابًا عن أيّ من هذه الاستجوابات التي كان كلّ منها يلقى بقدرٍ من استدرار العطف يفوق سابقه، لكنّ مـگز التي لم يخجلها هذا الصّمت من جانب سيّدتها استدارت إلى الصّبيّ الحاضر معها –وهو أكبر أبناء أختها المتزوّجة– المولود في ساحة الأسد الذهبيّ، رقم سبعة وعشرين، والذي ربّي في ظلّ الجرس الثاني جهة اليمين، وهي تبالغ في استخدام منديل جيبها، وخاطبته طالبةً منه أن يعزِّي أبويه عن فقدها هي –خالته– فور عودته إلى بيته، بأن يلقي عليهما تقريرًا أمينًا عن تركه إيّاها في حضن الأسرة التي تستأثر بنصيب الأسد من عواطفها الحارّة كما يعرفان جيّدًا، وأن يذكِّرهما بأنَّه لا شيء أقلّ من شعورها الملحّ بالواجب وتعلّقها المخلص بسيّدها وسيّدتها القديمين، وكذا بالآنسة (دلّي) ومستر چو الشّابّ، لا شيء أقلّ من ذلك كان يمكن أن يدفعها إلى الاعتذار عن

قبول دعوتهما الملحّة التي وجّهاها إليها -تعني أبويه- كما يمكنه أن يشهد على ذلك - أن تعيش معهما ويتكفّلا بها من دون أن تتكلّف هي أيّ مقابل إلى الأبد، وأخيرًا أن يساعدها في حمل خزانتها إلى الطابق العلويّ، ثمّ يمضي من فوره إلى بيته حاملًا مباركتها إيّاه وتوصيتها المشدّدة على أن يمزج بصلواته دعوةً مفادها أن يكون صانع أقفال حين يكبر، أو أن يكون مستر چو، وأن يضمّ أقاربه وأصدقاؤه من تكونان مثل السيدة ڤاردن والآنسة (دلّي).

وبعد أن بلغت الآنسة مـگز بهذه الموعظة منتهاها -هذه الموعظة التي لم يحرها السيّد الصّغير الذي وُجِّهت إليه إلّا أقلّ اهتمام، إن كان للأمانة قد اهتمّ من الأساس، إذ كان مستغرقًا فيما يبدو بكلّ ملكاته في تأمُّل الحلويات- أعلنت للجمع ألّا حاجة بهم إلى الارتباك، فهي لن تلبث أن تعود مسرعةً، وتهيّأت بمعونة ابن أختها لحمل خزانة ملابسها لتصعد بها الدّرج.

قال صانع الأقفال لامرأته: «عزيزتي، هل تريدين ذلك؟».

أجابته: «أنا أريده؟! إنني دهشة، ومتعجِّبة من وقاحتها، دعها تترك المنزل الآن».

وما إن سمعت مـگز ذلك حتى تركت طرف الصندوق الذي كان ناحيتها يسقط أرضًا بثقله، وأخذت تنهنه بصوتٍ جهيرٍ عاقدةً ذراعيها وساحبةً ركني فمها إلى أسفل، وطفقت تصيح بوتيرة متصاعدة ثلاث مرّات واضحة:

«هو! يا ألطاف الرّبّ!».

قال صانع الأقفال: «ها قد سمعت ما قالته سيّدتك يا حبيبتي، أظنّ أنّه من الأفضل أن تذهبي. مهلًا، خذي هذا معك لأجل خاطر سابق خدمتك».

قبضت الآنسة مـگز على الورقة الماليّة التي أخرجها من محفظته ومدَّ يده إليها بها، وأودعتها كيسًا جلديًّا صغيرًا أحمر، ثمّ وضعت الكيس في جيبها وهي تكشف في أثناء ذلك عن جزءٍ معتبرٍ من ملابسها الداخليّة مصنوع من نسيجٍ ناعمٍ، وعن شطر من جوربها القطنيّ الأسود أكبر ممّا ينكشف عادةً لأعين الناس، ثمّ طفقت تردّد ناظرةً إلى السيدة ڤاردن وهي تطوّح رأسها:

«هو! يا ألطاف الرّبّ!».

قال صانع الأقفال: «أظنّك قلت ذلك مرّةً بالفعل يا عزيزتي!».

صاحت مـگز في عجرفة: «لقد تغيّر الزمن. أليس كذلك يا سيّدتي؟ تستطيعين الاستغناء عنّي الآن، أليس كذلك؟ تستطيعين أن تضبطيهم من دون حاجة إليَّ؟ لست بحاجة إلى أيّ شخص لتوبّخيه أو لتلقي باللوم عليه، أليس كذلك يا سيّدتي؟ يسعدني أن أجدك قد أصبحت مستقلّةً هكذا. وأنا متاكّدة أنني أتمنَّى لك السعادة!».

قالت ذلك وانحنت محيّيةً، ثمّ مضت تقول محتفظةً برأسها منتصبًا وأذنها ناحية السيدة ڤاردن وعينها على بقيّة الجمع بينما تشير إليهم في ملاحظاتها:

«أنا متأكّدة أنه يسعدني تمامًا أن أجد هذا الاستقلال، شاعرة بالأسف رغم ذلك يا سيدتي في الوقت ذاته أنّك قد أجبرت على التسليم والخضوع حين كنت تفتقرين إلى القدرة على أن تعيني نفسك، هيهيهي! لا بُدَّ أنّ ما

أنت فيه يغيظك للغاية، خاصّةً إذا أخذنا بعين الاعتبار حقيقة أنّك كنت تتحدّثين دائمًا عن مستر چو بطريقة سلبيّة، فأن يصبح في النهاية زوج ابنتك، وإنّي لأعجب من قدرة الآنسة (دلّي) على احتماله هي الأخرى بعد أن أمضت أعوامًا طويلةً في علاقة مذبذبة مع صانع عرباتٍ. لكنّي سمعت من يقول إنَّ صانع العربات قد أعاد التفكير في الأمر، هيهيهي! وإنه قد أخبر صديقًا شابًّا له بأنه كان يتمنى لو كان يفهم الأمور على نحو أفضل من البداية فلا ينزلق إلى ذلك، رغم أنّها هي وأسرتها بالكامل كانوا حريصين أيّما حرص على اجتذابه لإتمام علاقتهما!».

هنالك توقّفت منتظرةً ردًّا، فلمّا لم تتلقّ أيًّا مضت تواصل:

«لقد سمعت يا سيّدتي أنّ أدواء بعض السيّدات ما هي إلا تظاهر، وأنّ بإمكانهنّ أن يسقطن مغشيًّا عليهنَّ كالحجارة تمامًا متى خطر لهنَّ أن يفعلن ذلك. بالطبع لم أرَ أبدًا مثل هذه الحالات بعيني رأسي، أوه، لا! هيهيهي! ولا سيّدي هو الآخر! أوه لا! هيهيهي! وقد سمعت الجيران يقولون إنّ شخصًا يعرفونه كان مخلوقًا مسكينًا جيّدَ الطّبع ضيّق الأفق، خرج ذات يومٍ يبحث عن امرأة يتّخذها زوجًا، فلقي واحدةً متوحشة. بالطبع لم أرَ ذلك الشخص بشحمه ولحمه حسب علمي، ولا أنت كذلك يا سيدتي. أوه لا! أتساءل من عساه يكون، ألا تتساءلين أنت الأخرى يا سيّدتي؟ لا شكّ أنّك تتساءلين يا سيّدتي. أوه نعم! هيهيهي!».

توقّفت مـگز منتظرةً ردًّا مرّةً أخرى، فلمّا لم تتلقَّ أيًّا كان الحقد والغلّ يقهرانها تمامًا، حتى لقد بدت موشكةً على الانفجار، ثمّ صاحت بضحكة فاترة:

«يسرّني أنّ الآنسة دلّي تستطيع أن تضحك. أحبّ أن أرى الناس يضحكون. وكذا أنت يا سيدتي، أليس كذلك؟ لقد طالما كان يسرّك أن تري الناس في مزاج طيّب، أليس كذلك يا سيدتي؟ وطالما كنت تبذلين قصاراك لتسعديهم، أليس كذلك يا سيدتي؟ رغم أنه ليس هناك الكثير ليضحك منه الآن، أليس كذلك يا سيدتي؟ إنه ليس قنصًا ثمينًا بعد أن ظللتِ ترقبين لها زوجًا في انتباه بالغٍ مذ كانت بعد طفلةً صغيرةً وبعد أن تكلّفت مبلغًا باهظًا في اللّباس والزّينة أن تحظى بجنديّ فقيرٍ عاديّ بذراعٍ واحدة، أليس كذلك يا سيدتي؟ هيهي! لن أتزوّج أبدًا رجلًا بذراعٍ واحدة على أي حالٍ. كنت سأختار ذراعين! لو كنتُ مكانها لاخترتُ ذراعين ولو مكان اليدين كان هناك خطّافان كجامع القمامة عندنا!».

وكانت الآنسة مـگز على وشك أن تضيف، بل لقد بدأت تضيف إلى ما قالته بالفعل أنّنا لو أخذناهم على إطلاقهم فإنّ جامعي القمامة أزواجٌ أكثر مناسبةً من الجنود، ومع ذلك فإنّ الناس حين يفوتهم قطار الاختيار فعليهم آنئذ أن يأخذوا أفضل المتاح ويفكّروا لأنفسهم على نحوٍ جيّدٍ كذلك. لكن لمَّا كان غيظها وكدرها من النوع الذي يطفح مرارةً في داخل صاحبه ولا يجد راحةً في الكلام، ويثيره إلى مستوى الجنون ألّا يجد ما يناقضه أو يعبأ بمناقضته، فإنّها لم تستطع أن تواصل، وانفجرت في عاصفة من البكاء والنّحيب.

ولمّا وصلت إلى هذه الدرجة المتطرّفة وقعت على ابن أختها التعس بكلّ ما أوتيت من جهدٍ، فنتفت من شعر رأسه ملء قبضتها وهي تسأل إلى كم ينبغي لها أن تظلّ واقفةً هنا ليُساء إليها، وما إذا كان ينوي أن يعينها على حمل خزانتها إلى الخارج ثانيةً أو لا ينوي، وإن كان يسرُّه أن يسمع الإساءة

إلى عائلته، إلى غير ذلك من الأسئلة المشابهة، حتى إنَّ الصبي الصغير الذي كان يدفعه تدريجيًّا إلى التمرّد طيلة هذه المدّة مرأى المخبوزات التي لا سبيل إليها، شعر بالخزي والاستفزاز فما كان منه إلّا أن خرج مستاءً تاركًا خالته والصندوق ليتبعاه على رسلهما. وبطريقة أو بأخرى، بقوة الدفع والجذب وصلوا إلى الشارع أخيرًا حيث جلست الآنسة مـگز على ممتلكاتها لترتاح وتنعي حظَّها وقد احمرَّت لفرط ما بذلت من جهدٍ حتى وصلت إلى هناك ولكثرة نحيبها وبكائها، إلى أن تمكَّنت من الإيقاع بشابٍّ آخر ليعينها على بلوغ بيتها.

غمغم صانع الأقفال وهو يتبع امرأته إلى النافذة ويمسح دموعها في مزاجٍ رائقٍ: «إنه شيءٌ مثيرٌ للضحك يا مارثا، لا للاغتمام، ماذا يهمّ؟ لقد رأيت غلطتك من قبل. هيَّا! هاتي (توبي) ثانيةً يا عزيزتي، ولتغنّ لنا (دلّي) أغنيةً، ولن تزيدنا هذه المقاطعة إلّا مرحًا!».

* * *

الفصل الحادي والثمانون

مرَّ شهرٌ آخر، وأوشك آب أن ينتهي حين كان مستر هاردال واقفًا وحده في مكتب عربات البريد في (برستل). ورغم أنه لم يمضِ على حواره مع إدوارد تشستر وابنة أخيه في منزل صانع الأقفال إلا أسابيع قليلة، وخلالها لم يغير شيئًا في طريقة لباسه المعتادة، فإنّ مظهره كان قد تغيَّر كثيرًا. كان يبدو أسنَّ بكثيرٍ وقد أضناه الهمّ، فإنّ البلبلة والقلق ينثران التّجاعيد والشعر الأبيض بيدٍ لا ترحم، غير أنّ آثارًا أعمق تأتي في أثر الاجتثاث الصّامت للعادات القديمة وتمزّق الصّلات العزيزة المألوفة. ربّما لا تجرح المودّة بنفس السّهولة التي تجرح بها العواطف، لكنّ جروح الأولى أعمق وأدوم. كان قد أصبح الآن رجلًا وحيدًا موحش القلب منفرده.

ولم يكن قضاؤه أعوامًا كثيرةً في انسحاب وعزلة سببًا في شعوره بالوحدة على أيّ نحو. فلم تمثِّل تلك الأعوام إعدادًا له أفضل مما لو كان قد قضاها في بهجة اجتماعية، بل ربما زادت حدة شعوره بتلك الوحدة الجديدة. كان معتمدًا تمامًا على رفقتها ومحبّتها، حتى لقد أصبحت جزءًا لا يتجزّأ من وجوده ذاته، فكان بينهما الكثير من الهموم والأفكار المشتركة التي لا يشاركهما فيها مخلوقٌ آخر، بحيث إنَّ فقدها كان يعني له أن يبدأ الحياة من جديدٍ، وأنّه مطالب باستدعاء أمل الشباب ومرونته وسط شكوك وريب الشيخوخة وطاقتها الواهنة.

وكان الجهد الذي بذله في فراقها وهو لا يبدو عليه إلا الأمل والبهجة –ولم يكونا قد افترقا إلا البارحة– قد أكأبه زيادة. وبهذه المشاعر تعتمل في صدره قرَّر أن يزور لندن للمرّة الأخيرة ويلقي نظرة وداعٍ على جدران بيتهم القديم قبل أن يوليها ظهره إلى الأبد.

في تلك الأيّام كانت الرّحلة جدّ مختلفة عمَّا يجدها عليه الجيل الحالي، لكنها انتهت كما تنتهي أطول رحلة، وها هو واقف ثانيةً في شوارع العاصمة. رقد في الخان الذي توقفت فيه العربة، وقرّر قبل أن يأوي إلى فراشه ألا يعلن عن مقدمه لأيّ إنسان، وألّا يقضي في لندن إلّا ليلةً أخرى، ثمّ ليجنِّبَنَّ نفسه ألم الفراق، حتى مع صانع الأقفال المخلص.

ويلوح أن مثل هذه الحالات الذهنية التي كان فريسةً لها حين رقد ليستريح تساعد على نمو الخيالات المهوّشة والرّؤى المرتبكة. كان يعرف ذلك، حتى خلال الرّعب الذي قام به فزعًا من نومته الأولى وفتح النافذة ليتخلَّص منه بوجود أشياء وراء الغرفة تصادف أنّها لم تشهد معه حلمه. لكنَّ ذلك لم يكن فزعًا ليليًّا جديدًا، وإنما كان موجودًا داخله من قبل بأشكالٍ مختلفة، فكان ينتابه في الأيّام الخوالي ويعاود زيارة وسادته كلّ حين. ولو كان ذلك مجرّد شيء قبيح أو شبح طفوليّ ينتاب منامه، فربّما كانت عودته في هيئته القديمة توقظ شعورًا لحظيًّا بالخوف لا يلبث أن يتبخّر حتى خلال فعل الاستيقاظ. لكن هذا الاضطراب استمر حوله ولم يكن يذعن لأيّ محاولة لإذهابه. وحين أغمض عينيه ثانيةً شعر به يحوم قربه، وإذ غرق ببطء في النّوم كان يعي أنّ ذلك الشيء يستجمع قوّته وقصده ويرتدي تدريجيًّا شكله الحديث، وحين قفز فزعًا من فراشه تبخّر

ذلك الخيال نفسه من مخِّه الساخن، وتركه مفعمًا برهبة لا يجدي نفعًا معها المنطق وأفكار اليقظة.

سطعت الشمس قبل أن يستطيع التخلُّص من ذلك الخوف. نهض من فراشه متأخّرًا، وإن كان غير متجدّد النشاط، وظلّ حبيس الجدران طيلة ذلك النّهار. راود خياله أن يزور البقعة العتيقة زيارته الأخيرة مساءً، إذ إنّه كان قد دأب أن يمشي هناك في ذلك الوقت، وكان يرغب في أن يرى تلك البقعة على الهيئة التي كانت مألوفةً له أكثر من سواها. وعلى ذلك غادر الخان في ساعة تسمح له بوقتٍ كافٍ ليصل إلى هناك قبل الغروب بقليل، واستدار إلى الشارع الهادر بالحركة.

وقبل أن يبتعد شاقًّا طريقه خلال الزّحام الصاخب مستغرقًا في التفكير شعر بيدٍ على كتفه، فلمّا استدار تعرّف في صاحبها على أحد ندل الخان يرجو معذرته وينبّهه لأنّه قد ترك سيفه وراءه.

سأله مادًّا إليه يده وإن لم يكن قد تناول منه السيف بعد، بل ظلّ ينظر إليه بأسلوبٍ مضطربٍ مرتبكٍ: «لِمَ أحضرته إليّ؟».

أعرب الرجل عن أسفه لأنّه قد ضايقه، وأوشك أن يحمل السيف عائدًا به من حيث أتى. قال السيّد إنه ذاهب مسافةً ما إلى الرّيف، وإنه ربّما لن يعود إلا متأخّرًا. لم تكن الطّرق في غاية الأمان بالنسبة إلى المسافرين وحدهم بعد حلول الظلام، ومنذ أحداث الشغب دأب السادة أن يأخذوا حذرهم أكثر من ذي قبل، وباتوا لا يأمنون على أنفسهم غير مسلّحين في الأماكن المهجورة. ثمّ أضاف النادل:

«ظننّاك غريبًا يا سيّدي، وأنّك ربّما تصوَّرت طرقنا أفضل ممّا هي عليه في الحقيقة، لكن ربّما أنت تعرفها جيّدًا وتحمل معك أسلحةً ناريّة.».

أخذ السيف مغمدًا إيّاه في جرابه وشكر الرّجل ثمّ واصل المشي. وقد طالما ذكر الناس أنه قد فعل ذلك بأسلوب غاية في الغرابة، وبيدٍ مرتعشة، حتى لقد وقف الرّسول ينظر في أثر شبحه المبتعد، متردّدًا في أنّه ربّما ينبغي له أن يتبعه ويراقبه. كما أخذ الناس يّذكرون طويلًا أنّهم قد سمعوه يذرع غرفته في هدأة الليل، وأنّ خدّام الخان كانوا يذكرون فيما بينهم صباحًا كيف كان يبدو محمومًا شاحبًا، وأنّ ذلك الرجل حين عاد إلى الخان أخبر خادمًا زميلًا له بأنّ ما لاحظه في هذا الحوار القصير كان يجثم ثقيلًا على ذهنه، وأنه يخشى أن يكون هذا السيّد ينوي أن يدمّر نفسه ولن يعود حيًّا أبدًا.

وفي نصف وعي بأنّ أسلوبه قد أثار انتباه الرجل – إذ تذكّر التعبير المرتسم على وجهه حين افترقا– حثَّ مستر هاردال الخطى، ولمّا وصل إلى محطّة لعربات الأجرة قاول سائق أفضل عربة على أن يوصله بعيدًا في طريقه إلى النّقطة التي يقطع فيها ممرّ المشاة الحقول، ثمّ ينتظر عودته في حانة على مرمى حجر من ذلك المكان. وحين وصل إلى هناك ترجّل وتابع طريقه ماشيًا.

مرَّ قريبًا من مابيول حتى لقد رأى دخانه يتصاعد من بين الأشجار، بينما يطير بينه وبين السماء الصافية في حبور سرب حمام –وهو من أقدم سكّان الفندق دون شكّ– ليأوي إلى أوكاره. قال وهو ينظر ناحيته: «سيشرق هذا المنزل العتيق الآن. وسيظلّ سقفه المكسوّ باللّبلاب حياةً مرحةً إلى جوار المدفأة. إنّها لسلوى أن يعرف المرء ألّا شيء سيضارّ في الجوار. وسيسرّني أن أحتفظ في ذهني بصورة للحياة والبهجة ألجأ إليها!».

واصل مشيه، ولوى عنان خطاه قاصدًا منزل (وارن). كانت أمسيةً رائقةً هادئةً ساكنةً لا يكاد يتخلّلها نفس واحد للرّيح يحرّك ورق الشجر، أو أيّ صوت يكسر سكون الوقت عدا أجراس الغنم النّؤومة وهي تصلصل على البعد وخوار البقر بعيدًا على فترات ونباح كلاب القرية. كانت السماء مضيئةً بهالة الغروب الخافتة، وسكينة عميقة تسود على الأرض وفي الهواء. في تلك الساعة وصل إلى المنزل المهجور الذي ظلّ بيته زمانًا طويلًا، وطفق ينظر إلى جدرانه المسودّة للمرّة الأخيرة.

إنّ رماد أكثر النّيران عاديّةً وشيوعًا لهو شيء كئيب، إذ إنّ فيه صورة الموت والخراب. إنّ فيه صورة شيء كان ساطعًا وحال إلى ترابٍ كئيبٍ باردٍ موحشٍ تجبرنا طبيعتنا على التعاطف معه. فما بالنا بالحزن الساكن في جمر البيت وقد انطفأ وتحوّل إلى حطام؟ إنه سقوط ذلك المذبح العظيم الذي يؤدّي فيه أسوأنا شعائر عبادة القلب أحيانًا، والذي يقدّم فيه أفضلنا من التضحيات ويأتي من فعال البطولة التي سجّلها الحبر ما يخجل أكثر معابد الزمن القديم شموخًا بكلّ ما تفخر به من سجلّات المفاخر!

أيقظ نفسه من تأمّلاته الطويلة وأخذ يمشي حول المنزل ببطء. كان الظّلام قد خيّم الآن. كان قد شارف الانتهاء من الدوران حول محيط المبنى، وإذا صيحة تعجُّب نصف مكتومة تصدر منه، وإذا هو يجفل ويقف ساكنًا. كان يقف أمامه الرّجل الذي لا يكاد يطيق حضوره من بين البشر أجمعين في أيّ مكان ولا سيَّما هذا المكان بالأخصّ. كان واقفًا على أرض منزله متّكئًا في وضعيّة مريحة معتمدًا بظهره على شجرة وهو يتأمّل أطلال المنزل بتعبير مفعم بالسّرور، وقد كان سرورًا واضحًا لدرجة أن تغلّب على جموده المعتاد وتحكّمه في ملامحه وأعرب عن نفسه حرًّا

تمامًا من كلّ قيدٍ أو تحفّظ. كان جذلان الآن كما خرج منتصرًا جذلان في كلّ سوء حظّ وإحباط مرّ بمستر هاردال في حياته.

ورغم أنّ دمه غلى لمرأى هذا الرجل، وثار سخطه في صدره لدرجة أن كان في مقدوره أن يرديه قتيلًا، فقد ألجم نفسه بقوّة مكّنته من أن يمرّ به دون كلمة أو نظرة. أجل، وكان يمكن أن يواصل طريقه ولا يستدير، رغم أنّ مقاومة الشيطان الذي أخذ يصبّ إغراءاته الحارّة في مخّه كانت تتطلّب جهدًا لا قِبَل لبشرٍ به، لولا أنّ ذلك الرجل نفسه طلب منه أن يتوقّف، مصطنعًا نبرة تعاطف في صوته كادت تدفع بهاردال إلى الجنون، وفي لحظة انقلب ضبط النفس لوعةً وحسرةً شديدتين. فلمّا استدار إليه هرب منه كلّ تدبّر وتأمّل ورحمة وتسامح، بل كلّ شيء من شأنه أن يعين إنسانًا مستفزًّا على أن يلجم غضبه وانفعاله. رغم ذلك لم يزد على أن قال ببطء وهدوء تامّ، هدوء أعمق من أيّ مرّة تحدّث فيها إليه من قبل:

«لم ناديتني؟».

قال سير چون تشستر برباطة جأشه المعهودة: «لأقول يا لها من صدفة غريبة، أن نلتقي هنا!».

«إنها حقًّا صدفة غريبة».

قال وهو يشير إلى المنزل المخلّع ويرفع عدسته إلى عينه: «غريبة؟! إنها أكثر شيء لافت وفريد في الدّنيا. إنني لا أركب أبدًا في المساء. لم أفعل ذلك لأعوام. خطر لي الأمر دون مبرّر واضح منتصف ليلة أمس. يا لهذا من منظر لافت!».

«إنك تثني على صنع يديك في تحرّر كامل».

ترك سير چون عدسته تسقط وأمال وجهه إليه مصطنعًا نبرة التساؤل المتأدّب إلى أبعد حدّ، ثمّ هزّ رأسه هزًّا خفيفًا كما لو كان يقول لنفسه: «أخشى أن يكون هذا الحيوان في طريقه إلى الجنون!».

كرّر مستر هاردال: «أقول إنك تمدح صنع يديك في تحرّر كامل».

ردّد سير چون وهو ينظر فيما حوله مبتسمًا: «صنع يديّ؟ أنا؟! أستميحك العذر، حقًّا أستميحك العذر.».

قال مستر هاردال: «لم؟ ها أنت ترى هذه الجدران. وترى هذه القمم المتداعية. وترى كلّ جانب ثارت فيه النيران والدّخان. ترى الدمار المفرط الذي حلّ بهذا المكان. ألا ترى ذلك كلّه؟».

ردّ الفارس ملجمًا نفاد صبره بيده في لطفٍ: «صديقي الطيّب. بالطبع أراه. أرى كلّ ما تتحدّث عنه حين تتنحّى جانبًا ولا تقف بيني وبين المنظر. أنا شديد الأسف لأجلك. أعتقد أنني لو لم أكن قد حظيت بلقائك هنا لكتبت إليك لأخبرك بذلك. لكنّك لا تتحمَّل الأمر بالصبر الذي توقَّعت أن تتجمَّل به. سامحني. لا، لا تتحلّى بالصّبر حقًّا».

أخرج صندوق سعوطه، وطفق يكلّمه بنبرة استعلائيّة لرجل يرى لنفسه الحقّ في أن يقرأ درسًا في الأخلاق لآخر انطلاقًا من انتمائه لطبيعة أسمى، فقال:

«فإنّك فيلسوف كما تعرف. واحد من تلك المدرسة الصارمة الصّلبة التي تسمو على مظاهر الضعف الإنسانيّ بعامّة. أنت أبعد ما يمكن عن نقائص النّوع البشريّ. تتأمّلها من علوّ وتندّد بها في مرارة مؤثّرة. لقد سمعتك».

قال مستر هاردال: «وستسمعني ثانية».

ردّ الآخر: «أشكرك. هلّا مشينا بينما نتكلّم؟ إنّ الضّباب يسقط ثقيلًا. حسنًا. كما تحبّ. لكن يحزنني أن أقول لك إنني ليس في مقدوري أن أعطيك إلّا لحظات قليلةً جدًّا».

قال مستر هاردال: «كان يسعدني لو لم تكن قد أعطيتني ولا لحظةً واحدة. كان يطيب لي أكثر لو كنت الآن في الجنّة (لو كان لنا أن نتصوّر كذبةً شنيعةً كهذه) بدلًا من أن تكون هنا الليلة».

ردّ الآخر: «لا. حقيقةً أنت تظلم نفسك. إنّك رفيقٌ فظٌّ لكنّي لم أكن لأذهب بعيدًا هكذا لأتجنّبك».

قال مستر هاردال: «استمع إليّ. استمع إليّ».

سأله سير چون: «بينما تندّد؟!».

«بينما أحدّثك عن مخازيك. لقد أغريت شخصًا مناسبًا بأن ينجز لك عملك وأثرته إلى ذلك، لكنّه شخص من طبعه الخيانة، بل إنها لمن جوهر وجوده، وهو شخص لم يكن مخلصًا لك رغم ما يجب أن يكون بين كليكما من تعاطف، كما لم يخلص لغيرك. أنت وضعت غاشفورد على طريق إنجاز هذا العمل الماثل أمامنا الآن بالتلميحات والنظرات والكلمات الخادعة التي إن تعد كما قيلت يتبيَّن خواؤها. وبتلك التلميحات والنظرات والكلمات الخادعة نفسها التي إن تعد يتبيّن خواؤها همزته ليشفي غليله القاتل منّي -وقد فزت بكراهيته وأشكر السماء على ذلك- باختطاف ابنة أخي وتلويث سمعتها».

ثمّ صاح مشيرًا بغتةً إلى وجهه وهو يتراجع: «أنت فعلت ذلك، أرى في نظراتك إنكارًا، والإنكار كذب!».

كانت يده على مقبض سيفه، لكنّ الفارس ردّ عليه ببروده السابق نفسه وبابتسامة مزدرية: «ستلاحظ يا سيّدي إن كنت تستطيع التمييز بما يكفي أنّني لم أتجشّم مشقّة إنكار أيّ شيء. إنّ فراستك ترقى بالكاد إلى قراءة الوجوه، وهي ليست فظّةً ككلامك، ولم تكن أبدًا كذلك فيما أذكر، وإلّا ففي وجه واحد أستطيع أن أسمّيه لك كان الأحرى بك أن ترى اللا مبالاة –إن لم نقل الاشمئزاز– أسرع ممّا فعلت. إنني أتحدّث عن عهد سحيق، لكنّك تفهمني».

«ألبسه ما تشاء من أقنعة، لكنّك تعني الإنكار. الإنكار التّامّ أو المحتاط، الصريح أو المتروك للتخمين، ليس إلا كذبة. أنت تقول إنك لا تنكر، إذن فأنت تعترف؟».

ردّ سير چون سامحًا لتيّار كلامه بأن يتدفّق في نعومة كما لو لم تكن كلمة مقاطعة قد اعترضت مجراه: «أنت نفسك أعلنت على الملأ عن شخصيّة السيّد الذي نتحدّث عنه (وأعتقد أنّ ذلك كان في قاعة وستمنستر) بعبارات تكفيني مؤونة الإشارة إليه مجدّدًا. ربّما كنت مبرّرًا فيما فعلت وربّما لا، لا أستطيع أن أجزم. فإذا افترضنا أنّ ذلك السيّد كان كما وصفته، وأنّه قد صرّح لك أو لغيرك بأيّ عبارة تصادف أن خطرت بباله ليؤمّن بها نفسه أو لأجل المال أو ليتسلّى أو لأيّ اعتبار آخر، فإنّني ليس لديّ ما أقوله عنه إلّا أنّ موقفه الشائن للغاية يبدو لي موقفًا يشاركه فيه من استخدموه لأغراضهم. إنّك أنت نفسك شخص صريح جدًّا، وأنا واثق أنك ستعذرني لسماحي لنفسي بهذه الحرّيّة في الكلام».

صاح مستر هاردال: «انتبه لما أقول ثانيةً يا سير چون، مرّةً واحدة. إنك تحاول أن تقول لي في كلّ نظرة وكلمة وإيماءة إنّ ذلك لم يكن عملك. وأنا أقول لك إنه عملك، وإنّك قد عبثت بالرّجل الذي أتحدّث عنه وبابنك التّعس (فليسامحه الرّبّ!) ليفعلا هذا الفعل. أنت تتحدّث عن الموقف الشائن والشخصيّة. وقد أخبرتني ذات مرّة أنك قد اشتريت غياب الأبله المسكين وأمّه، بينما ما حدث هو أنك ذهبت لتغريهما ثمّ وجدتهما قد هربا، كما شككت ساعتها ثمّ تثبّتّ فيما بعد. وإليك أنت انتهى تتبّعي لتعريض الناس بي أنني وحدي المستفيد من موت أخي، إلى كلّ ذلك الهجوم الخبيث والافتراء المتخافت به ممّا تبع ذلك التعريض. وفي كلّ فعل في حياتي –منذ ذلك الأمل الأوّل الذي حوّلته إلى حزن ويأس– كنت تقف كالمصير المعادي بيني وبين كلّ سلامٍ. وفي كلّ شيء كنت دائمًا الوغد البارد الدّم الأجوف المزيّف النّذل نفسه. وللمرّة الثانية والأخيرة ألقي بهذه التّهم في وجهك، وأركلك بعيدًا عنّي كما أفعل بكلبٍ عقوق!».

وما إن فرغ من قوله حتى رفع ذراعه وضربه في صدره حتى ترنّح. وفي اللحظة التي أفاق فيها سير چون من هول المفاجأة استلّ سيفه مطوّحًا بغمده وقبّعته، ثمّ انقضّ على غريمه محاولًا طعنه في قلبه باستماتة، ولولا توقّي الآخر الطعنة بسرعة لأردته قتيلًا على العشب. وخلال توجيهه تلك الضربة كان سيل غضب غريمه قد توقّف، فطفق هاردال يتوقّى ضرباته السريعة دون أن يحاول ردّها، وأهاب به وفي وجهه رعب مجنون أن يتراجع، صائحًا:

«ليس الليلة! ليس الليلة! بحقّ الرّبّ ليس الليلة!».

فلمّا رأى سير چون أنّه قد خفض سلاحه وأنه لا يردّ الطّعنات خفض سلاحه هو الآخر. صاح غريمه:

«ليس الليلة. خذ حذرك في الوقت المناسب!».

قال سير چون في عمد تامّ رغم أنه الآن قد أسقط قناعه وأفصح وجهه عن كراهيته: «لقد أخبرتني -ولا بُدَّ أنّ ذلك كان وحيًا صادقًا- أنّ هذه هي المرّة الأخيرة. ثق أنّها كذلك! هل ظننت أنّ لقاءنا الأخير قد نسي؟ هل ظننت أنّ كلّ كلمة ونظرة صدرت منك لم تفسّر ولم تذكر جيّدًا؟ هل تظنّني قد انتظرت وقتك أو أنك انتظرت وقتي؟ أيّ رجل ذاك الذي دخل معي في اتّفاق -بكلّ تغنّيه الذي يغثي النّفس عن الشرف والصّدق- لنمنع زواجًا تظاهر بأنّه لا يحبّذه، وبعد أن أنجزت الجزء الخاصّ بي روحًا ونصًّا تراجع عن إنجاز جزئه، وسمح للزواج بأن يتمّ حين أتى الدور عليه ليتحرّك، ليتخلّص من عبء ملّه وتعب منه، وليلقي على اسم عائلته بريقًا كاذبًا؟».

صاح مستر هاردال: «لقد تصرّفت بشرف وحسن نيّة. وهكذا أفعل الآن. لا تجبرني على أن أجدّد هذه المبارزة الليلة!».

قال سير چون مبتسمًا: «أظنّك قلت «ابني التعس»؟ ذلك المسكين الأحمق! ضحيّة خدعة محتال أبله كهذا! الذي استدرجه إلى الزواج عمّ كهذا وابنة أخ كتلك، إنه يستحقّ شفقتك. غير أنه لم يعد ابني. مرحبًا بحصولك على الجائزة التي صنعتها يداك يا سيّدي».

صاح غريمه وهو يدقّ الأرض بقدمه في هياج: «مرّةً أخرى، رغم أنّك تبعدني عن ملاكي الطّيّب، أتوسّل إليك ألّا تقترب من مرمى ضربات

سيفي الليلة. أوه! لم كنت هنا من الأساس؟ لم تقابلنا؟! كان الغد كفيلًا بأن يبعد كلًّا منَّا عن صاحبه إلى الأبد!».

ردّ سير چون دون أيّة عاطفة: «ما دام الأمر كذلك، فمن حسن الحظّ أن تقابلنا الليلة. هاردال، لقد طالما احتقرتك كما تعرف، لكنّي كنت أعترف لك بنوع من الشجاعة البهيميّة. ولشرف حكمي الذي ظننته حكمًا صائبًا أشعر بالأسف لأن أجدك جبانًا».

لم يتفوّه بعد ذلك بكلمة على أيّ من الجانبين. تبارزا رغم أنّ الوقت كان قد دخل في الغسق، وانقضّ كلاهما على صاحبه في شراسة. كانا متكافئين تمامًا، وكان كلٌّ منهما ماهرًا للغاية في التعامل مع سيفه. وبعد ثوانٍ قليلة حمي الوطيس وأحدث كلّ منهما بصاحبه جروحًا طفيفةً عديدة. وفور أن تلقّى مستر هاردال إحدى هذه الإصابات في ذراعه طعن غريمه طعنةً أحدّ بينما يشعر بالدّم الساخن يتفجّر من جرحه، فغمس سيفه إلى مقبضه في جسده.

التقت أعينهما، وظلّا هكذا وهو يخرج السيف. أحاط الرّجل المحتضر بذراعه لكنّه نفر منه في وهن وسقط على العشب، ثمّ أنهض نفسه على يديه وحدّق إلى هاردال لحظةً، وفي عينيه احتقار وكراهية، لكن بدا أنّه قد تذكّر حتى في هذه اللحظة أنّ هذا التعبير قمين بأن يشوّه ملامحه بعد الموت، فحاول أن يبتسم، وأخذ يحرّك يده اليمنى في وهن كما لو كان يحاول إخفاء كتّانه الملطّخ بالدّم في صدريّته، ثمّ سقط إلى الوراء صريعًا كما لو كان شبح الليلة الماضية.

الفصل الأخير

لن يكتمل هذا التأريخ القصير إلّا بإلقاء نظرة وداع على ممثّليه الذين لم يتركوا مسرح أحداثه إلى النهاية.

لاذ مستر هاردال بالفرار تلك الليلة. قبل أن تبدأ الملاحقة، بل قبل أن يقتفى أثر سير چون أو يفتقد، كان هاردال قد غادر المملكة. اتّجه مباشرةً إلى منشأة دينيّة مشهورة في أوربّا كلّها بصرامة وقسوة نظامها، وبالتّوبة العنيفة التي كانت تقتضيها من أولئك الذين يلوذون بها ملجأً من العالم، وهناك أخذ عليه العهد الذي حبسه مذ ذاك عن العالم وعن النّوع البشريّ، وبعد عدّة أعوام مفعمة بالنّدم دفن في أديرتها الكئيبة.

مرَّ يومان قبل أن يُعثَر على جثمان سير چون. وفور أن عُرِف وحُمِل إلى بيته هرب خادمه المخلص السائر على مبدأ سيّده بكلّ ما استطاع أن يضع يده عليه من مال ومنقولات، وبدأ حياةً جديدةً بصفته سيّدًا كاملًا. وفي هذه الحياة نجح نجاحًا عظيمًا، وأوشك أن ينتهي زوجًا لوريثة ثروة ضخمة لولا حدث مشؤوم أوقف رحلة نجاحه وأدّى إلى موته مبكّرًا، إذ

وقع فريسةً لعدوى كانت قد انتشرت آنذاك وسمّيت في فظاظة «حمّى السّجن»[1].

أمّا لورد چورچ غوردن الذي ظلّ رهين محبسه في سجن البرج إلى يوم الاثنين الخامس من شباط في العام التالي فقد حوكم محاكمةً صارمةً في ذلك اليوم في وستمنستر بتهمة الخيانة العظمى. لكنّ الفحص المتأنّي برّأ ساحته من هذه التّهمة استنادًا إلى انعدام الأدلّة على كونه قد جمّع الجموع لأيّ قصد خائن أو غير قانونيّ. رغم ذلك كان هناك كثيرٌ من الناس لم تعلّمهم أحداث الشغب أيّ درس في الاعتدال ولم تزجرهم، حتى إنّ اكتتابًا عامًّا بدأ ينفّذ في أسكتلندا لتحمّل نفقات الدّفاع عنه.

وقد ظلّ سبعة أعوام بعد ذلك بتوسّط أصدقائه هادئًا نسبيًّا، عدا أنّه كان بين الفينة والفينة ينتهز الفرصة ليستعرض حماسه للإيمان الـپروتستانتيّ بطريقة مبالغ فيها كانت تسرُّ أعداء ذلك الإيمان، بالإضافة إلى أنَّ كبير أساقفة كانتربري قد حرمه كنسيًّا على نحو رسميّ لرفضه الظّهور بصفته شاهدًا في المحكمة الكنسيّة حين ذكر لهذا الغرض. وفي عام ١٧٨٨ أثاره جنونٌ جديدٌ لكتابة ونشر بيان مسيء يتناول فيه شخصيّة ملكة فرنسا بعبارات عنيفة جدًّا. ولمّا كان قد اتّهم بالتشهير وثبتت عليه التّهمة بعد عدّة تظاهرات غريبة في المحكمة هرب إلى هولندا بدلًا من أن يظهر ليتلقّى

(١) Jail Fever من الأسماء الشائعة لمرض التيفوس الوبائيّ Epidemic Typhus كما سمّي كذلك حمّى المعسكر وحمّى الحرب، أسماء تقترح الزّحام الشديد وقلّة النظافة وتدنّي مستوى المعيشة، وتسبّبه بكتيريا تدعى ركتسيا پروازكياي Ricketsia prowazekii وتنقله حشرة القمّل من شخصٍ مصابٍ إلى شخصٍ آخر.

الحكم، ومن هناك أرسل إلى وطنه ثانيةً على جناح السّرعة، إذ كان أعيان أمستردام لا يستريحون لرفقته. وإذ وصل إلى هاروتش في تمّوز، ومنها إلى برمنجهام، فقد أعلن رسميًّا في برمنجهام اعتناقه اليهوديّة ثمّ ظهر هناك بصفته يهوديًّا إلى أن قبض عليه وأعيد إلى لندن ليتلقّى الحكم الذي كان قد هرب منه. وعلى هذا الحكم ألقي في كانون الأوّل في نيوغات ليظلّ هناك خمس سنوات وعشرة أشهر، كما طلب منه إضافةً إلى ذلك أن يدفع غرامةً كبيرةً وأن يقدّم ضمانات ثقيلةً على التزامه مستقبلًا بالسّلوك الصّالح.

وبعد أن قدّم التماسًا منتصف صيف العام التالي إلى الجمعيّة الوطنيّة الفرنسية ليستدرّ شفقتها، ورفض الوزير الإنكليزيّ التصديق عليه، وطّن نفسه على أن يخوض مدّة عقوبته كاملةً، فترك لحيته تنمو إلى أن بلغت خاصرته تقريبًا وأخذ يكيّف هيئته على مقتضيات طقوس ديانته الجديدة، ثمّ قرّر العكوف على دراسة التاريخ، وأحيانًا على فنّ الرّسم الذي كان قد أظهر فيه بعض المهارة أيّام شبابه. واصل حياته في مرح تامٍّ واطمئنان وقد هجره أصدقاؤه القدامى وعومل في كلّ شيء باعتباره أسوأ مجرم في السّجن، إلى أن مات في زنزانته في مطلع تشرين الثاني عام ١٧٩٣ عن ثلاثة وأربعين عامًا فقط.

والحقّ أنّ كثيرين قد لمعوا وتركوا شهرةً برّاقةً ممّن لا يتعاطفون إلّا قليلًا مع المكروبين والمحتاجين، وممّن قد وهبوا قدرات أقلّ وقلوبًا أقسى. كان للورد غوردن نادبوه، فقد رثاه السّجناء وافتقدوه، فقد كان عظيم الإحسان رغم ضيق ذات يده نسبيًّا، وكان ينظر بعين الاعتبار إلى ضروريّاتهم جميعًا على قدم المساواة وهو يوزّع صدقاته بينهم، ولم يكن يفرّق بينهم على أساس الطائفة أو العقيدة. وبين عقلاء الناس في كلّ درب

من دروب الدّنيا من يمكنهم أن يفيدوا شيئًا، حتى من هذا اللورد المسكين المجنون الذي قضى في نيوغات.

إلى النهاية ظلّ (چون غروبي) المخلص الذي لا يعرف المداراة يخدمه، فكان إلى جواره قبل أن تمرّ عليه أربع وعشرون ساعةً في سجن البرج، ولم يتركه أبدًا إلى أن مات. وكان له خادمٌ آخر ثابت، متجسّد في فتاة يهوديّة حسناء تعلّقت به تعلّقًا نصفه دينيّ نصفه عاطفيّ، غير أنّه يبدو أنّ شخصيّتها الفاضلة النزيهة كانت أعلى من أن يطالها نقد ألذع الألسنة نقدًا.

أمّا غاشفورد فقد تخلّى عنه بالطّبع. عاش وقتًا على المتاجرة بأسرار سيّده، فلمّا كسدت هذه التّجارة حين نفد ما تحت يده حصل على وظيفة بين صفوف الجواسيس والمتنصّتين الشريفة التي تستخدمها الحكومة. وبصفته واحدًا من هؤلاء التوابع التعساء كان يقدّم جهوده أحيانًا خارج البلاد وأحيانًا داخلها، وتحمّل طويلًا مظاهر بؤس هذه الوظيفة. ومنذ عشرة أعوام أو اثني عشر عامًا لا أكثر، عُثِر عليه ميتًا في فراشه في خان مجهول في البلدة، عجوزًا ضئيلًا شاحبًا مريضًا فقيرًا فقرًا مدقعًا، لا أحد يعرفه حيث مات. كان قد تناول سمًّا. لم يكن ثمّ مفتاح يقود إلى اسمه، لكن اكتشف من بعض الإدخالات التي قيّدها في مفكّرة كان يحملها معه أنّه كان صاحب سرّ لورد چورچ غوردن زمن أحداث الشغب الشهيرة.

وبعد عودة السلام والنظام بعدّة أشهر، وحتى بعد أن هجرت المدينة الكلام عن حقيقة أنّ كلّ ضابط جيش احتفظت به سلطات المدينة في الأحياء المحرّرة أثناء القلاقل الأخيرة كان يتكلّف في طعامه وسكناه أربعة

جنيهات وأربعة بنسات في اليوم، وكلّ جنديّ جنيهين وبنسين ونصفًا، بعد أن نسي الناس هذا الموضوع الجذّاب بعدّة أشهر، وبعد أن كان أعضاء جماعة الكلاب الثيران المتّحدين بين مقتول ومسجون ومنفيّ، أطلق سراح مستر سايمن تاپرتت على ساقين خشبيّتين دون محاكمة بعد أن نقل من المستشفى إلى السّجن ومنه إلى مكان محاكمته. وإذ أصبح محرومًا من ساقيه اللطيفتين، وأنزل من علياء مكانته السامية إلى ظرفٍ بالغ التعاسة عميق البؤس قرّر أن يلجأ إلى سيّده القديم ويتوسّل نجدته. وبفضل نصيحة صانع الأقفال وعونه استقرَّ في عملٍ كماسح أحذية، وافتتح حانوتًا في ممرّ مقوّس قرب دار الخيّالة. ولمّا كان هذا حيًّا مركزيًّا، فسرعان ما نمت صلاته بأصحاب النّفوذ، وفي أيّام الاستقبال في رأس السّنة كان يُعرَف عنه أنّ كثرةً من الضّبّاط قيد الاستيداع –قد يصلون إلى عشرين– ينتظرون دورهم ليمسحوا أحذيتهم عنده. قد ازدهرت تجارته حقًّا لدرجة أنّه بمضيّ الوقت أصبح عنده صبيّان، فضلًا عن زواجه بأرملة جامع خرق وعظام بارز من (ملبانك). عاش في سعادة منزليّة عظيمة مع هذه السيّدة التي ساعدته في العمل، لا يغيّرها إلا تلك العواصف الصغيرة التي تنقّي جوّ الحياة الزواجيّة وتجعل أفقها مشرقًا. وفي بعض هبّات الطقس السيئ هذه كان مستر تاپرتت في حرصه على تأكيد سلطته المطلقة ينسى نفسه لدرجة أن يقوِّم امرأته بفرشاة أو حذاء أو نعل، بينما كانت هي في الحالات القصوى تنتقم لنفسها بنزع ساقيه الخشبيّتين، تاركةً إيّاه عرضةً لسخرية أولاد الشوارع الذين يفرحون بالأذى. تاپرتت

فيما يتعلّق بالآنسة مـگز التي أحبطت خططها جميعًا، الزواجيّة منها وغير الزواجيّة، ورُمي بها إلى عالم جاحد لا يستحقّها، فقد أصبحت

حادّةً جدًّا ولاذعةً، وأصبحت في آخر المطاف فظّةً للغاية، لا تني تقرص وتضرب صبية ساحة الأسد الذهبيّ وتشدّ شعورهم وأنوفهم، حتى لقد اتّفق الجميع على طردها من هذا المأوى، ورغبت أن تبارك بقعةً أخرى من الأرض بوجودها. وقد تصادف في تلك اللحظة أنّ قضاة محكمة الصّلح في (مدلسكس) أعلنوا في لافتات عامّة عن احتياجهم إلى حارسة لسجن البلديّة، وعيّنوا ميعادًا باليوم والساعة لاختبار المتقدّمات. ولمَّا حضرت الآنسة مـگز في الوقت المحدّد اختيرت على الفور من بين مائة وأربع وعشرين امرأةً تنافسن على هذه الوظيفة، ورقّيت إليها في التوِّ، لتظلّ فيها إلى وفاتها بعد ذلك بثلاثين عامًا، عزباء طيلة هذه المدّة. وقد لوحظ على هذه السيّدة أنّها بينما تبدو جامدةً عابسةً في وجوه بنات جنسها جميعًا، فإنّ عبوسها كان يتضاعف في وجه كلّ من تمتُّ بصلة إلى درجة من درجات الجمال، كما كان يساق دائمًا دليلًا على فضيلتها الحصينة وعفّتها القاسية أنّها لم تكن ترحم من كانت هذه حالها إن كان بها ضعف، فكانت لا تفوّت مناسبةً -ولو صغرت- إلّا وتصبّ عليهنّ جام غضبها، وربّما دون مناسبة. وبين الابتكارات المفيدة التي كانت تمارسها على هذه الفئة من المسجونات -وأورثتها من أتين في إثرها- فنّ وخز أسفل الظّهر قرب العمود الفقريّ أو وكزه بأسنان مفتاح، وخزةً بالغة الخبث. وكذا اخترعت طريقةً للوطء دون قصد (مرتديةً قبقابها) على من يتصادف أنَّ لهنَّ أقدامًا صغيرةً، وكان ذلك هو الآخر ابتكارًا لم تسبق إليه ولم يعرف من قبلها.

ولك أن تثق يا عزيزي القارئ أنّه لم يمرّ طويل وقت قبل أن يتمّ زواج چو ولت ودلّي ڤاردن، وبوديعة محترمة في المصرف -إذ كان في مقدور صانع الأقفال أن يزوّد ابنته بصداقٍ طيّبٍ- أعادا افتتاح مايپول. ولك أن تثق

كذلك أنه لم يمرّ وقتٌ طويلٌ قبل أن يكون في المستطاع رؤية صبيّ صغير متورّد الوجه يتهادى في ممرّات مايپول، ويمرح على البساط الأخضر أمام باب الفندق. كما لم تنقضِ أعوامٌ كثيرة قبل أن تكون هناك صبيّة صغيرة متورّدة الوجه، وصبيّ ثان متورّد الوجه، وفرقة كاملة من البنات والأبناء، حتى إنّك متى ذهبت إلى تشغول فسترى بالتأكيد إمّا في شوارع القرية وإمّا على البساط الأخضر أو في المزرعة -فقد أصبح مايپول الآن مزرعةً، لا حانةً فقط- أعدادًا من صغار چو وصغيرات (دلّي) تفوق الحصر، يمرحون هنا وهناك. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ قبل أن تظهر هذه التغيُّرات جميعًا، لكنّ وقتًا طويلًا جدًّا قد مضى قبل أن يبدو چو أو (دلّي) أو صانع الأقفال أو امرأته أكبر ممّا كانوا بخمسة أعوام، فإنّ البهجة والرّضا يجمّلان أصحابهما أيّما تجميل، ويحفظان الشّباب كذلك، فثق بما نقول هنا.

كما مضى وقتٌ طويلٌ قبل أن يكون هناك فندقٌ ريفيٌّ مثل مايپول في طول إنگلترا وعرضها، والحقّ أنّه سؤال عظيم، ما إذا كان هناك فندق يضارعه حقًّا قد قام في البلاد إلى هذه الساعة أو سيقوم. وقد مضى وقت طويل أيضًا -فإنّ (أبدًا) لهي يوم طويل كما يقول المثل- قبل أن ينسوا أن يهتمّوا اهتمامًا خاصًّا بالجنود الجرحى في مايپول، أو قبل أن يتجاهل چو تقديم العون لإنعاشهم لأجل خاطر حملته القديمة، أو قبل أن يتخلّى الرّقيب عن عادة أن يزور الفندق بين الفينة والفينة، أو قبل أن يتعبوا أو يتعب كلّ منهم رفاقه بالحديث في تلك المناسبات عن المعارك والحصارات والمناخ القاسي والخدمة الشاقّة وألف شيء آخر ينتمي إلى حياة الجنديّة. أمّا بالنسبة إلى صندوق السّعوط الفضّيّ العظيم الذي أرسله الملك بيده

إلى چو بسبب أفعاله خلال أحداث الشّغب، فإنّ ضيفًا من ضيوف مايپول لم يفته أن يضع إبهامه وسبّابته في ذلك الصندوق لأخذ مقدار كبير من السّعوط، وإن لم يكن قد استعط أبدًا من قبل، فيعطس حتى يتشنّج من شدّة العطس! وأمّا بالنسبة إلى الخمّار القرمزيّ الوجه فأين ذلك الرّجل الذي عاش في ذلك العهد ولم يره أبدًا في مايپول وهو يبدو مرتاحًا تمامًا في غرفة الجلوس كما لو كان في بيته؟ وأمّا بالنسبة إلى ما كان يحتفل به –سواء في مايپول أو ورشة المفتاح الذهبيّ– من أعياد وتعميدات ومرح في رأس السّنة وأعياد ميلاد وأيام زفاف إلى غير ذلك من الأيام السعيدة، فإن لم تكن معروفةً تمامًا، فما المعروف إذن؟!

بالنسبة إلى مستر ولت الكبير، فإنّه لمّا كان قد امتلكته بطريقة غير عاديّة فكرة أنّ چو يرغب في الزواج، وأنّه من الجيّد بالنسبة إليه بصفته أباه أن يتقاعد ويمكّن له من أن يعيش في رغدٍ، فقد أخذ مسكنه في كوخ صغير في تشغول حيث أوسعوا له ركن المدفأة وكبّروه، وعلّقوا له الغلّاية وغرزوا في البستان الصغير خارج الباب الأماميّ إضافةً إلى ذلك ناغطًا مزيّفًا ليشعر بأنه على راحته وفي بيته كالأيام الخوالي. وإلى مسكنه الجديد هذا كان (توم كبّ) و(فل پاركس) و(سولومون دايزي) يذهبون بانتظامٍ كلّ ليلة، وفي ركن الموقد كان أربعتهم يشربون ويدخّنون ويثرثرون وينعسون كما دأبوا أن يفعلوا من قديم. ولمّا اكتشف بالصّدفة بعد وقتٍ قصيرٍ أنّ مستر ولت كان يبدو أنّه ما زال يعتبر نفسه صاحب خان، زوّده چو بلوح كان العجوز يسجّل عليه بانتظام حسابات كبيرةً للّحم والشّراب والتّبغ. وكان هذا الشغف يزداد به كلّما كبرت سنّه، وأصبحت متعته أن يسجّل بالطبشور

أمام اسم كلّ من رفاقه مبلغًا هائلًا من المستحيل تسديده، وكانت فرحته الخفيّة بهذه السّجلّات من العظم بحيث كان يرى دائمًا يمضي إلى ما وراء الباب ليطّلع على هذه المبالغ، ثمّ يعود وقد امتلأ غبطة.

لم يتجاوز أبدًا فجاءة اقتحام المتمرّدين فندقه، وظلّ في الحالة العقليّة نفسها إلى آخر لحظة من لحظات حياته. وكان مرأى أوّل أحفاده لأوّل مرّة أشبه ما يكون بتعجيل بنهايته، فقد بدا أنّ ذلك المشهد قد أقنعه تمامًا بأنّ معجزةً مقلقةً قد حدثت لـ(چو). غير أنّه لمَّا كان قد فصده جرّاح ماهر على وجه السّرعة، فقد استعاد روحه، ورغم اتّفاق الأطبّاء جميعًا على أنّ أعراض السّكتة قد هاجمته بعد ذلك بستّة أشهر بحيث قد أصبح موشكًا على الموت، وساءهم ألّا يموت، فقد ظلّ حيًّا لما يقرب من سبعة أعوام زيادةً، ربّما بسبب البطء الداخل في تركيبته، إلى أن وُجِد في فراشه ذات صباحٍ غير قادرٍ على الكلام. ظلّ يرقد في هذه الحالة خلوًا من كلّ علامة على المعاناة أسبوعًا كاملًا، وإذا هو يعود إلى الوعي بغتةً حين سمع الممرّضة تهمس في أذن ابنه إنّه ذاهب الآن، إذ ذاك قال مستر ولت وهو يستدير في تلك اللحظة:

«إنني ذاهب يا چوزيف.. إلى السّلوانّا».

وأسلم الرّوح من فوره.

ترك وراءه مبلغًا كبيرًا من المال، أكبر حتّى ممّا كان يفترض أن يملك، رغم أنّ الجيران -في متابعتهم تلك العادة الإنسانيّة في حساب الثّروة التي لا بُدَّ أنّ غيرهم قد ادّخروها- كانوا قد قدّروا أملاكه بأرقام تقريبيّة عالية. ورث چو كلّ شيء، حتى أصبح رجلًا له حيثيّته في تلك الأنحاء، مكتفيًا ذاتيًّا تمامًا.

مرَّ بعض الوقت قبل أن يتجاوز بارنابي الصّدمة التي تعرّض لها، وقبل أن يستعيد صحّته ومرحه. غير أنّه كان يتعافى تدريجيًّا، ورغم أنّه لم يستطع أبدًا أن يفصل إدانته وهربه عن فكرة الكابوس المرعب، فقد أصبح فيما عدا ذلك أكثر تعقّلًا. ومنذ وقت تعافيه أصبح يتمتّع بذاكرة أقوى وإرادة أصلب، لكنّ سحابة مظلمةً لفَّت كلّ ما فات من وجوده ولم تنقشع أبدًا.

ولم يكن ذلك ليجعله أقلّ سعادةً، فإنّ حبّه للحرّيّة واهتمامه بكلّ ما يمشي أو ينمو أو يدين بوجوده إلى العناصر الأساسيّة ظلَّا لا يتغيّران. عاش مع أمّه في مزرعة مايپول، يرعى الدّواجن والماشية ويعمل في بستان يخصّه ويقدّم يد العون في كلّ مكان. كان معروفًا لكلّ طائر وحيوان حول المكان، وكان يسمّي كلًّا منها باسم. فمن ذا رأى مزارعًا أخفَّ قلبًا من بارنابي أو مخلوقًا يحبّه الصّغار والكبار أكثر منه أو روحًا أسعد وأفرح من روحه؟ ورغم أنه كان حرًّا في أن يجول حيثما شاء، فإنّه لم يتركها أبدًا، وإنما كان دائمًا سكنها وسلواها.

وإنه لمن اللافت أنه رغم خفوت وعيه بالماضي فقد بحث عن كلب (هيو) وكفله ورعاه. ولافت كذلك ألَّا شيء كان يمكن أن يغريه بالذّهاب إلى لندن. ولمَّا كان قد انقضى على أحداث الشغب أعوام عدّة، وعاد إدوارد وامرأته إلى إنگلترا بأسرة تكاد تضارع أسرة (دلّي) عددًا، وظهروا ذات يوم في رواق مايپول، تعرّف عليهم في التّوِّ، وطفق يبكي ويتقافز فرحًا. لكن لم يكن من الممكن إقناعه بأن يطأ الشارع، لا لزيارتهم، ولا لأيّ سببٍ آخر مهما كان واعدًا مملوءًا بالمرح. ولم يتغلّب أبدًا على هذا النّفور، ولم ينظر إلى المدينة ثانيةً أبدًا.

وسرعان ما استعاد (غرب) هيئته، فعاد مصقولًا أنيقًا كما كان دائمًا. لكنّه قد أصبح عميق الصّمت. ومن غير المؤكّد ما إذا كان قد نسي فنّ الحديث المهذّب في نيوغات، أو قطع على نفسه عهدًا في ذلك الزمن المفعم بالاضطرابات أن يقلع عن استعراض مؤهّلاته فترةً، لكنّ المؤكّد أنه لعامٍ كاملٍ لم يكن يصدر صوتًا إلا الزّعقة الرّصينة المحتشمة. فلمّا انقضت تلك المدّة، حدث ذات صباح برّاق مشمس أن سُمِع يخاطب الخيل في الحظيرة في موضوع البرّاد الذي ذُكِر كثيرًا في هذه الصفحات، وقبل أن يستطيع الشاهد الذي سمعه أن يجري إلى المنزل بالخبر ويضيف إليه بكلّ تأكيد صارم أنّه قد سمعه يضحك، تقدّم الطائر نفسه بخطىً آسرة حتى باب الحانة، وهنالك صاح: «أنا عفريت، أنا عفريت، أنا عفريت!» ببهجة ما بعدها بهجة.

ومنذ ذلك الوقت -رغم أنّه قد افترض أنَّه تأثَّر كثيرًا لموت مستر ولت الكبير- وهو يتدرَّب بانتظامٍ ويحسِّن نطقه للّسان العامّيّ، وحيث إنه لم يكن يزيد على غراب طفلٍ حين أصبح بارنابي رجلًا أشيب، فمن المحتمل أنه قد استمرَّ يتكلَّم إلى وقتنا هذا.

* * *